هداية البيان في تفسير القرآن

الجزء الأول

راشد عبد الله الفرحان



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية





هداية البيان في تفسير القرآن

الجزء الأول

تأليف : راشد عبدالله الفرحان



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

1430 من ميلاد الرسول ﷺ

2000 إفرنجي

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله وهديه عرف الناس طريق الحياة، ولا يسعني وأنا أكتب مقدمة الطبعة الثانية (لهداية البيان في تفسير القرآن) إلا أن أشكر كلية الدعوة الإسلامية على تفضلها بطبع الكتاب ونشره، حيث لاقى قبولاً واستحساناً لدى المطلعين عليه، وعم نفعه وفائدته كثيراً من الناس، وذلك بفضل مؤازرة ودعم الدكتور محمد أحمد الشريف، الأمين العام لجمعية الدعوة الإسلامية، وتشجيع الدكتور السائح علي حسين، الأستاذ بكلية الدعوة ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾.

ونظراً لنفاذ نسخ الطبعة الأولى، وتزايد الطلب على الكتاب، قامت الكلية بإعادة الطبع للمرة الثانية، فجزاهم الله خير الجزاء ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

ولا بد لي أن أنوه بالخير والمودة لإخوتي الذين زاملوني في درس التفسير الأسبوعي هم أساتذة، وأطباء، ومهندسون، واقتصاديون، وغيرهم من الشباب المؤمن لأكثر من خمسة عشر سنة بالكويت، منذ أن بدأت التفكير بتأليف الكتاب قبل الطبع وبعد، ولا زالت حلقتهم القرآنية الروحية مستمرة، بحمد الله وعنايته، ولقد كان هذا التفسير ثمرة من ثمار تلك الدروس، التي تطرح فيها الأسئلة، والمناقشات والمداخلات.

ولا شيء لدي ما أضيفه إلى هذه الطبعة، غير أني وجدت كتاب الله بحراً لا ساحل له، يتجدد مع الزمان والمكان، كلما نظرت فيه وجدت نفسك كأنك تقرأه لأول مرة، وكلما يكتشف العلم شيئاً جديداً، في الكون والحياة والإنسان، تجد القرآن قد سبق وأشار إليه ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وكون الإسلام دين الجميع، والقرآن أنزل للعالمين، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، أرسل للناس كافة، يتمثل في المئات من الآيات القرآنية الكونية، التي لم تخاطب العرب وحدهم، وإنما تخاطب أولى العقول والأبصار، أجل لقد فهمها وحفظها الملايين من غير اللسان العربي، فأمنوا بها، بل إنَّ حفظة القرآن من غير العرب، أكثرهم من غير العرب، ولا تعجب إذا قلت لك، إنَّ العلماء الذين اعتنوا بالقرآن، تفسيره وعلومه، أكثرهم من غير العرب، أليس في ذلك معجزة، والمعجزات التي وردت في القرآن كثيرة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ نعم إنه الحق، إنه الحق سبحانه، لقد وردت في القرآن الكريم العديد من القواعد والكليات العامة، التي تنظم حياة البشر، وكأنها شرعت لهذا العصر، وخاطبت أهل هذا الزمان، ولا غرابة في ذلك، فهذا كلام رب العالمين، العالم بأحوالهم، ماضيهم ومستقبلهم، ما فات وما هو آت، يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، في كل زمان ومكان، بعقله وأحاسيسه بسمعه وبصره، بآياته المتلوة، وآياته المرسومة، في الآفاق وفي أنفسهم.

وإنما نزل القرآن بلغة العرب خاصة، ليكونوا شهداء على الناس، بتبليغ الدعوة، ويكون الرسول عليهم شهيداً، فحمل العرب ثقيل، وتكليفهم به كبير، نسأل الله أن نكون من الشاهدين، ولكتاب الله حافظين، إنه سميع مجيب.

راشد عبد الله الفرحان

الكويت فاكس: ٢٥١٠١٧٥ ـ ٠٠٩٦٥

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه.

وبعد:

فإننا رأينا لدى مطالعتنا لكتب التفسير أن الحاجة ماسة لتفسير وسط ما بين المطولات والمختصرات، مما يحتاجه العالم، ولا يستغني عنه القارىء المتعلم، فاستعنا بالله تعالى بعمل هذا التفسير الذي نرى القيام به فرضاً واجباً لأمرين، أولهما: لتجدد الواقع في المجتمعات وثبوت آيات القرآن، الذي لا تنتهي فوائده، ولا تنقضي عجائبه، لم يؤثر فيه تغير المكان ولا مرور الزمان، بل زاد إيمان المؤمنين به على إيمان، فكلما نظرت فيه وجدت نفسك كأنك تقرؤه لأول مرة، وثانيهما: أن تعلم القرآن وتعليمه للناس واجب على كل مسلم ومسلمة، بل إن الإسلام نهى عن كتمان العلم عن الناس وذمّ المتقاعسين والمتخلفين عن حمل الدعوة للناس، ويكفي فضل تعلم القرآن وتعليمه قول النبي ﷺ «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1]، وفيما يلي نوضح الطريقة والمنهج الذي سرنا عليه في التفسير.

جعلنا تفسير كل آية بعدها، مع إعادة ذكر كل نص يحتاجه الشرح ليجمع القارىء بين القراءة والتفسير، ووضعنا أرقاماً متسلسلة لتفسير كل آية ليكون التفسير مسايراً لآي القرآن، كل ذلك مع المحافظة على ربط المعنى بين الآيات والسور، ووصل بعضها ببعض وذلك حرصاً على وحدة النظم، ووحدة الموضوع.

وضعنا عناوين لكل موضوع جديد ليعين القارىء في مطالعة الفهرس.

أخذت اللغة العربية جل الاهتمام، حيث اخترنا من الآراء ما يناسب سياق الآيات ويبرز المعنى بسهولة، دون أن نخرج عن آراء علماء اللغة العربية أمثال ابن قتيبة والراغب والزجاج وابن الأنباري والفراء وغيرهم، وقد أوضحنا ما في الكلمة والجملة والآية، من بيان وبلاغة، وفصاحة وإعجاز امتاز القرآن بها، كما ذكرنا ما تحتاجه الكلمة من إعراب نحوي، دون الالتفات لغرض الإعراب أو ما يورده بعض النحاة من الادعاء بزيادة بعض الحروف، ونبهنا على ذلك في مواضعه.

القراءات:

لقد كان للّهجات العربية عامل مهم في الإسلام، حيث نزل القرآن بلسانها، ويسمى كل منها حرفاً، فاعتنينا بإبراز القراءات وذكر صاحب كل قراءة، والتعريف به في هوامش التفسير، واعتمدنا من القراء، العشرة، لكون قراءتهم داخلة في الأحرف السبعة، ونود أن ننبه بأنه لا تعارض بين الحديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» وبين قراءة القراء العشرة، فقراءتهم صحيحة، وهي مشمولة بالحديث.

(١) رواه البخاري.

التفسير العلمي والكوني:

حاولنا بالقدر المستطاع وضع التفسير العلمي والكوني في مكانه المناسب بما تدل عليه الآيات، مع المحافظة على المعنى اللغوي، وهذا يدل بوضوح بما يشاهده الإنسان، وما توصل إليه العلم الحديث، من تجارب بأن القرآن الذي نزل قبل خمسة عشر قرناً من الزمان هو كتاب الله، وكلامه الذي لا يتبدل ولا يتغير، نقله الرسول من عند الله بكل أمانة وصدق.

أسباب النزول:

نذكر أسباب النزول كلما كان ذلك ضرورياً لتوضيح المعنى، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لأن القرآن جاء لكافة الناس في مختلف زمانهم وتعدد أمكنتهم، واعتمدنا ما صح عن رسول الله ﷺ، وضربنا صفحاً عن كثير مما قيل عن أسباب النزول لضعف الرواية.

الأعلام والأماكن:

أشرنا إلى أسماء الأعلام والأماكن التي يرد ذكرها مع التعريف بها.

القواعد والأصول:

لا يستغني التفسير عن القواعد الأصولية لاستخراج الفروع، واستنباط الأحكام، كما لا يستغني كذلك عن القواعد النحوية واللغوية لمعرفة الاشتقاق ومخارج الألفاظ، وكل ذلك له علم مستقل باللغة العربية.

الأحكام الفقهية:

إن آيات الأحكام في القرآن كثيرة جداً، لذلك حرصنا على إبرازها وتوضيحها حسبما تدل عليه الآيات مستعينين بما صح عن رسول الله ﷺ، وقد ضربنا صفحاً عن التنصيص على المذاهب، والآراء المتعصبة التي لا طائل من ذكرها سوى تشتيت الأفكار وتباعد المسلمين في الدين، وذلك أننا بصدد تفسير كتاب الله الذي يدعو الناس للوحدة وينهى عن الفرقة.

التفسير والتأويل:

التفسير إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام الجلاء، والتأويل: نقل الكلام عن وضعه فيما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ، فهو مأخوذ من قولك آل الشيء إلى كذا، أي صار إليه، وجمهور المفسرين على أنهما بمعنى واحد، وهذا ما انتهجوه في كتبهم، والغالب على عملهم، وهذا ما انتهجناه في شرح المعنى الإجمالي، إذ لا يتضح معنى كثير من الكلمات القرآنية، والآيات أحياناً إلا من مجمل الموضوع، وربط الآيات بعضها ببعض، ورد بعضها على بعض، وتفسير الآيات بالآيات، القرآن بالقرآن، واستعنا بالله لاستجلاء معاني العقائد، وفهم مقاصدها، والمراد منها، كما حاولنا جهدنا تفسير مشكل كثير من الآيات التي التبس معناها وفهمها على كثير من المفسرين، من ما قيل أنها متعارضة مع آيات أخرى وحرصنا على الجمع بين الآيات، دون أن يكون فيها أية إشكالات في فهم معناها، أو يسيء إلى أية شخصية طاهرة ذكرها القرآن، مما لا يتفق وروح القرآن وقواعد الشريعة وتنزيه الأنبياء.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم نزل على العرب، وبلغتهم، فهمه النبي ﷺ وفهمه صحابته من بعده وآمنوا به، ومن بعدهم التابعون، ولم تبق آية إلا وفهم معناها، وإنما الناس درجات، والعلم يتفاوت بين العلماء ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾[1]، ولا يكون الإيمان إلا بعد الفهم، ولقد استبعدنا ما سطرته بعض كتب التفسير من الآراء الشاذة الغريبة عن الشريعة، والأحاديث المنكرة، والضعيفة، كما أغفلنا ذكر الأخبار الإسرائيلية، التي أغنانا الله عنها بما هو أصح منها وأنفع، وأوضح وأبلغ، وغالب ذلك مما لا يتعلق به كبير فائدة.

المراجع:

اعتمدنا في التفسير على كثير من مختلف كتب التفسير وعلوم القرآن والقراءات والحديث واللغة، والعلوم والطب والتاريخ وغيرها، كما استطلعنا آراء بعض أصحاب الاختصاص للاستفادة من خبرتهم، شاكرين فضلهم، مقدرين عونهم، وفي النهاية لا يسعنا إلا شكر أصحاب المراجع التي أخذنا منها واعتمدنا عليها واستفدنا منها، جزى الله مؤلفيها خير الجزاء، بما قدموا من علم وما بذلوا من جهد، ولا شك أن السابق له فضل على اللاحق.

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وينفع به المسلمين إنه جواد كريم.

راشد عبد الله أحمد الفرحان
الكويت ٢٠ ذي الحجة ١٤١٠ هـ
١٩٩٠/٧/١٢

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

سورة الفاتحة

سميت الفاتحة لافتتاح القرآن بها، وتسمى أم الكتاب لأنها أمَّت القرآن بالتقدم لسوره، ولاشتمالها على معان عامة لأصول الدين التي جاء القرآن بتفاصيلها، وبيان مجملها، من التوحيد، والعبادات، والأحكام والأخلاق والمواعظ والأخبار والقصص الحق، وتسمى السبع المثاني، لأنها سبع آيات تثنى في الصلاة أي تعاد وهي مكية ولا صلاة لمن لا يقرأ بفاتحة الكتاب.

الاستعـاذة

أعـوذ بالله مـن الشيطـان الرجيـم

ومعنى الاستعاذة: الاستجارة أي: أستجير بالله دون غيره، والعوذ: هو الالتجاء. (الشيطان) في اللغة هو كل متمرد من الجن والإنس والدواب، ولاستعاذة طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييب له، لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو، قال الله عز وجل ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾، وكان رسول الله ﷺ إذا قام بالليل فاستفتح صلاته وكبّر قال «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك» ثم يقول «لا إله إلاّ الله (ثلاثاً)» ثم يقول «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»(١).

١ ـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

ابتدأ الله كلامه في المصحف بالبسملة ليرشدنا إلى أن نبدأ أعمالنا وكل أمورنا بها متبركين مستعينين باسمه الكريم، وكأن الإنسان يقول أعمل عملي هذا متبرئاً من أن يكون باسمي، بل هو باسمه تعالى، لأنني أستمد القوة والعناية منه تعالى، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله، ومعنى البسملة في الفاتحة أن جميع ما يقرر في القرآن من الأحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه، وليس لأحد غير الله فيه شيء.

ومعنى البسملة الذي كان يفهمه النبي ﷺ من روح الوحي، اقرأ يا محمد هذه السورة باسم الله الرحمن الرحيم على عباده، أي اقرأها على أنها منه تعالى لا منك، وعلى هذا كان متعلق البسملة أنني أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي، وعلى أنها منه لا مني، فإنما أنا مبلغ عنه عز وجل ﴿وأمرت أن أكون أول المسلمين وأن أتلو القرآن﴾(٢).

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والإمام أحمد بن حنبل.
(٢) سورة النمل، الآية: ٩١.

٢ ـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

الثناء بالجميل والشكر لله، سيد المخلوقات من عالم الإنس من بني آدم في الأرض، وهو محسوس وعالم الجن، وعالم الملائكة، وغيرهما من العوالم الأخرى التي تعيش في غير عالمنا مما يعقل ومما لا يعقل، وهي غير محسوسة لنا في الوقت الحاضر، ولكنا نؤمن بوجودها كما أخبر الله ورسوله، قال سبحانه في سورة الصف: ﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾[1]، وقال في سورة الإسراء: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾[2].

٣ ـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق وعمّت البشر، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والرحيم خاص للمؤمنين قال تعالى: ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾[3]، والرحمن لا يطلق إلاّ لله.

٤ ـ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

قرأ عاصم والكسائي من القراء السبعة وخلف[4] ويعقوب الحضرمي من العشرة (مالك) بألف، وقرأ الباقون (ملك) بغير ألف وكل ملك مالك، والله سبحانه هو الملك وهو المالك، وإنما خصّ يوم الدين لأنه ينفرد يومئذ بالحكم في خلقه، والدين هنا معناه الجزاء والحساب.

٥ ـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

أي نخصك وحدك بالعبادة، ومعناها هنا الطاعة والدعاء، والتوحيد لله وحده، ولا نستعين إلا بالمنهج الذي رسمته لنا وبينته، فالنصف الأول من السورة أحضر في قلب القارىء الصفات المميزة للربوبية، فلما تمثلت في ذهنه تلك العظمة صارت كأنها مشاهدة أمامه، فالتفت عن الغيبة إلى الخطاب وكأنه يشاهده ويراه، وفي الحديث (أعبد الله كأنك تراه) ولن يكون ذلك إلاّ باستحضار صفاته العالية في قلبه، وإلى هنا وصل القارىء إلى آخر درجات التقرب، وهو الخضوع والتذلل كما في قوله تعالى ﴿واسجد واقترب﴾ فلم يبق بعدها إلاّ السؤال والطلب من المتقرب إليه فقال ﴿وإياك نستعين﴾ في أمورنا الدنيوية والأخروية، كالصحة والغنى والمال والولد، ونستعين بالوسائل التي هديتنا إليها، ومنها الصبر والصلاة، وموالاة من والاك، ومعاداة من عاداك، وتقديم العبادة في الآية على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده، ولأنها وسيلة الإجابة، وتقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة وذلك من توحيد الله والإخلاص له، وفي ذلك إشارة

---

(١) الآية: ١.
(٢) الآية: ٤٤.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.
(٤) هو خلف بن هشام البغدادي، ويكنّى: أبا محمد، هو من أحد القرّاء العشرة، وتوفّي ببغداد وهو مختف من الجهمية، (١٥٠ هـ ـ ٢٢٩ هـ).

إلى الحظ من الشّرك والإلحاد وعبادة غير الله، أو الاستعانة بغير الله سيد المخلوقات، ملك كل شيء، الذي بيده الجزاء والحساب يوم الدين.

٦ ـ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى في الآيات السابقة، ناسب أن يعقب المؤمن القارىء لهذه السورة بالسؤال المطلوب، وهو الهداية إلى الصراط المستقيم التي هي أمنية كل عاقل مدرك لحقيقة هذه الحياة وما فيها فيستعين بالله طالباً منه الهداية والعناية والإعانة فيقول، ألهمنا وثبتنا وأرشدنا ووفقنا وعرفنا الطريق المعتدل، طريق الهدى طريق الإسلام المؤدي للنجاة المستقيم الواضح، الذي لا اعوجاج فيه، والمستقيم من الطرق أقربها للوصول، والخط المستقيم في الرياضيات هو أقرب مسافة بين نقطتين والهداية ها هنا معناها الإرشاد والتوفيق لبلوغ القصد.

القـــراءة

الصراط: قرأ يعقوب عن طريق رويس بالسين (سراط) وقرأ الباقون بالصاد، وقرأ حمزة: بإشمام الصاد صوت الزاي.

٧ ـ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

وإذا كان الطريق المستقيم هو الأمثل وهو الموصل للنجاة، فهو الطريق الذي اتبعه الذين أنعم الله عليهم ونادوا به من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ممن أنعم الله عليهم بالهداية، وجاء ذكرهم في سورة النساء[١] ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾.

القـــراءة

قرأ حمزة وسهل ويعقوب: «عليهُم» بضم الهاء، وقرأ الباقون: بالسكون.

﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾

المغضوب عليهم هم كفار اليهود، جاء ذكر المغضوب عليهم بالوصف في القرآن الكريم قال الله تعالى في سورة البقرة[٢] ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ وقال في سورة الأعراف[٣]: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين﴾ وقد غضب عليهم نبيهم موسى عليه السلام قال الله

(١) الآية: ٦٩.
(٢) الآية: ٦١.
(٣) الآية: ١٥٣.

تعالى[١]: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ ويدخل في نطاق الآية كل من يتصف بصفاتهم وينضوي تحت لوائهم، وكل من يعاونهم ويواليهم.

﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

الضالون هم كفار النصارى ومن اتصف بصفاتهم، وسار على نهجهم، والضلال هو الحيرة والعدول عن الحق حيث نهاهم الله عن اتباع من كان قبلهم من المضلين، ممن اتبعوا أهواءهم فى الدين قبل الإسلام، وقالوا في الغلو بعيسى ما قالوا من الباطل، إذ جعلوه إلهاً، وأنه ثالث ثلاثة، وأنه ابن الله، فذكرهم بذلك بقوله تعالى في سورة المائدة[٢]: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل﴾.

(آميـن)

ومعناها استجب دعاءنا، وليست من القرآن.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٤.
(٢) الآية: ٧٧.



سميت سورة البقرة لورود ذكر اسم البقرة فيها، والتسمية توقيفية من الرسول ﷺ.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

١ ـ ﴿الٓمٓ﴾.

آية مكونة من بعض حروف المعجم، تشير إلى أن القرآن من تلك الحروف التي أقسم الله بها بأن هذا الكتاب الذي لا شك فيه هو من عند الله، والحروف التي أقسم الله بها في القرآن كثيرة.

ولوجود هذه الحروف في فواتح بعض سور القرآن، والتي يجب أن تقرأ مقطعة محدودة، فيه دلالة على تنبيه السامع إلى شيء يعقبها يجب أن يتهيأ له، وهذا ما فهمه الصحابة من وجود الحروف المقطعة في أوائل السور ولم يخوضوا فيها، بل ولم يصعب عليهم فهمها.

٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الريب هو الشك، والمعنى: أن هذا القرآن الذي بين أيديكم لا شكّ في أنه من عند الله قرآناً عربياً غير ذي عوج، نزل بلغة العرب ومن كلماتهم التي تتألف من حروفهم، والتعبير بذلك وهي للبعيد عن القريب الذي بين أيدينا، دلالة على الاهتمام به والتعظيم، وأن فيه هداية وإرشاداً لمن استرشد به، وهذه الهداية بمعنى البيان والدلالة، وهي هداية خاصة بالمكلفين.

القـــراءة

﴿لا ريب﴾ قرأ خلف والعجلي عن حمزة[1]، بالمد وقرأ الباقون بغير المد،

﴿فيه﴾ قرأ ابن كثير (فيهي) و(عليهي) بإشباع الهاء يصلها بياء، وقرأ الباقون (فيه وعليه).

﴿فيه هدى﴾ قرأ أبو عمرو (فيهْ هدى) و(قيلْ لهم) بالإدغام، وقرأ الباقون بالإظهار.

صفة المؤمنين المتقين

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

الإيمان بالغيب: هو الاعتقاد بموجودات وراء الحس، والذين يؤمنون به يصدقون بما غاب عن الناس من

(١) هو حمزة بن حبيب الزيات الكوفي، ويكنّى: أبا عمارة، وهو من أحد القراء السبعة، (٨٠ ـ ١٥٦هـ).

المسائل الاعتقادية، والغيب نسبي من إنسان لإنسان، حتى يتناهى إلى الأنبياء والمرسلين إلى أن يصل إلى الله وحده، وهو الغيب المطلق، الذي يختص الله به وحده، ولا يجوز لأحد أن يدعيه، إلا من ارتضى الله من رسله المقربين عن طريق الوحي، والغيب النسبي قد يعلمه بعض الناس ويغيب عن بعضهم بحكم بعد المسافة أو الزمن أو غيره.

إقامة الصلاة: أداؤها بأركانها وشروطها، من أقام العود إقامة، إذا أزال عوجه.

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ والانفاق عام في الآية يشمل المفروض كالزكاة والنذور، وغير المفروض كالصدقة في سبيل الله فهي من الآيات العامة ومثلها في القرآن كثير، أما آية التوبة بقوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾(١) فهي خاصة في تحديد مصارف الزكاة المفروضة وكل من الآيتين لهما معنى آخر، فلا تعارض بينهما.

القــــراءة

﴿يؤمنون﴾ قرأ نافع برواية ورش عنه، وأبو عمرو (يومنون) بغير همزة، وكذلك ياكلون ويومرون في كل القرآن.

٤ - ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

أي يصدقون بما جئت به من الله أي بالقرآن إيمانا تفصيليا بكل ما أنزل بالدليل الحسي ﴿وما أنزل من قبلك﴾ من التوراة والإنجيل والزبور، وغيرها مما أنزل على الأنبياء والمرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم، ويكفي فيه الإيمان الإجمالي، وهو التصديق بأن الله أنزل كتباً على الأنبياء والرسل قبل النبي محمد ﷺ لإرشاد قومهم، ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ بالنشأة الآخرة هم يعلمون علماً قطعياً، أي لا يشكون، والإيقان التحقق للشيء، وهو العلم وزوال الشك.

القــــراءة

﴿بما أنزل إليك﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، لا يمدون حرفاً لحرف، وهو أن تكون المدة من كلمة والهمزة من أخرى، وقرأ ابن عامر والكسائي مداً وسطاً، ومد حمزة وعاصم وعلي (٢) وخلف وابن ذكوان (٣) مداً مفرطاً.

بشرى المؤمنين المتقين

٥ - ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

من الذين ينتفعون بالقرآن وهدايته، بأنهم الذين يؤمنون بالأمور الغيبية متى قام الدليل القطعي على ثبوتها،

(١) الآية: (٦٠).
(٢) هو علي بن حمزة المعروف بالكسائي ستأتي ترجمته.
(٣) هو أبو عمرو عبد الله بن أحمد الفهري الدمشقي (١٧٣ - ٢٤٢هـ)، الإمام الأستاذ المشهور الراوي الثقة، شيخ الإقراء بالشام وإمام جامع دمشق.

ولا يقفون عند الماديات والمحسوسات، فكان من صفاتهم إقامة الصلاة على الوجه الصحيح فرضها ونفلها، إذ هي مظهر الطاعة، والعبادة، والإنفاق في سبيل الله ودفع الزكاة وإعطاء الصدقات سواء كان واجباً أو نفلاً، فمن كان موصوفاً بما ذكر، وقد حصل له اليقين التام بالحياة الدنيا والآخرة، وآمن بالقرآن وبالكتب المنزلة، لا غرابة أن يصفهم الله بالفوز ويعدّهم في عداد المفلحين الفائزين، من الفلاح وهو الظفر بإدراك البغية: وهذه الهداية بمعنى البيان والدلالة، وهي هداية خاصة بالمكلفين.

كشف لحال الكفار

٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

ذكر الكفار في مقابلة المؤمنين، فقد ذكر المؤمنون وجزاءهم، فجاء بذكر الكافرين ها هنا وجزائهم بعدهم، والمعنى: إن الذين جحدوا رسالتك يا محمد وأصرّوا على ذلك بإنكار ما جئت به من الآيات مع وضوح الحق لهم وانقطاع الشبهة واستيقانهم أنك صادق، ولعلم الله سبحانه ذلك منهم، فلا تطمع في إيمانهم، والإنذار هنا إعلام مع التخويف وهذا بيان اتصاف الكفار بالإصرار على الكفر والضلال بحيث لا يجدي فيهم الإنذار لأنهم إنما يتبعون أهواءهم.

القـــراءة

﴿ءأنذرتهم﴾ قرأ نافع وأبو عمرو (آنذرتهم) (آنت) يهمزان ثم يمدان بعد الهمز، وقرأ ابن كثير (أنذرتهم) بهمزة واحدة غير مطولة، وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة[1] (أأنذرتهم) (أأنت) بهمزتين.

٧ ـ ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

إذا تناهى الإنسان في اعتقاد باطل وارتكاب محظور، ولا يكون منه التفات إلى الحق، فإن ذلك يورث القلوب استحسان المعاصي، فلا يدخلها خير، والمراد أغلقت قلوبهم فلا يدخلها إيمان ولا نصح وكأنما يختم عليها، والختم في الآية هنا مثلٌ لمن تمكن الكفر من قلوبهم حتى فقدوا الدواعي والأسباب التي تدعوهم إلى النظر والفكر في أدلة الإيمان.

﴿وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ غشاوة: غطاء، والمقصود التعامي عن النظر إلى آيات الله فلا يبصرون الحق، والمعنى: أن الذين كفروا بالله عناداً وجهاراً بتكذيب القرآن، يستوي عندهم الإنذار وعدمه، حيث لا ينتفعون به، فلا تتأثر قلوبهم، فقلوبهم مغلقة لا يصل إليها النور الإلهي، وأسماعهم لا يعرفها صوت الحق، وأبصارهم لا تراه، لأن عليها حجاباً كثيفاً هو حجاب التعامي عن آيات الله أولئك لهم عذاب من نوع خاص، موصوف بأنه عظيم.

---

(١) المراد بأهل الكوفة عاصم والكسائي وحمزة.

قال ابن جرير الطبري «إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها فلا يكون إليها مسلك ولا للكفر منها مخلص».

أقول: وذلك راجع لسبب اختيارهم الشّر على الخير، ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾(١) ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾(٢).

كشف حال المنافقين

٨ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ في وصف المنافقين، بعد وصف المؤمنين والمشركين وفي تكرير الباء إيذان بأنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين.

٩ ـ ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

يظن المنافقون بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، أنهم يخدعون الله ورسوله والمؤمنين، ليدفعوا عن أنفسهم القتل والأسر والجزية، ويفوزوا بسهم من الغنائم، وليعلموا أسرار المؤمنين ثم يفشوها لأعدائهم نكاية بهم، وهم في الحقيقة والواقع واهمون، فإنهم إنما يخدعون أنفسهم بغير علم، إذ وبال خداعهم الذي هو إرادة المكروه بالغير من حيث لا يعلم، راجع اليهم، فيفتضحون في الدنيا بإطلاع الله نبيه على ما أبطنوه، ويعاقبون في الآخرة وهم لا يعلمون أن خداعهم ومكرهم عائد على أنفسهم.

القــــراءة

﴿يخدعون﴾: قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو (وما يخادعون) بألف، وأهل الشام(٣) والكوفة بغير ألف.

١٠ ـ ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾.

المرض الذي في قلوبهم: الفساد الذي في عقائدهم إما شكاً ونفاقاً، أو تكذيباً وسمي مرضاً لكونه مانعاً من إدراك الفضائل، كالمرض المانع للبدن من التصرف الكامل، أو لكونه مانعاً من تحصيل السعادة الأخروية، وهو ميل النفس به إلى الاعتقادات الفاسدة، ميل المريض إلى الأشياء المضرة، ولعِلْم الله سبحانه السابق المسجل في اللوح المحفوظ أن هؤلاء لن يرجعوا عن غيهم وفسادهم ونفاقهم وكفرهم، زادهم مرضاً على مرضهم، عقوبة لهم ليزدادوا إثماً ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة بسبب اختيارهم الشر على الخير والكفر على الإيمان.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٨.
(٣) المراد بأهل الشام ابن عامر.

القـــراءة

﴿فزادهم الله﴾: قرأ حمزة بالإمالة (فزادهم الله) وكذلك جاء وشاء وخاب وحاق وخاف وطاب وضاق وزاغ، ﴿يكذبون﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتخفيف، وقرأ نافع والباقون بالتشديد (يكذّبون).

١١ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾.

الفساد: خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة، وضده الصلاح، وفساد المنافقين الذي نهوا عنه هو الصد عن سبيل الله والأمر بالمنكر، وموالاة الكفرة، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، وقولهم إنما نحن مصلحون كذب ونفاق وكلام ظاهر خلاف ما يبطنون.

القـــراءة

﴿وإذا قيل لهم﴾ قرأ الكسائي: بالإشمام، وكذلك يفعل في (غيض الماء) و(سيء) و(حيل) و(جي).

١٢ ـ ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿ألا﴾: للتنبيه، لما نهاهم الله عن الفساد وجعلوا صفة الصلاح مختصة بهم خالصة لهم، فرد الله عليهم ذلك أبلغ رد، وردهم إلى صفة الفساد التي هم متصفون بها في الحقيقة (ولكن لا يشعرن) أي لا يدرون أنهم هم أهل الفساد حقيقة لمعاداتهم الحق وأهله، وصدِّهم عن سبيل الله.

١٣ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

السفهاء هم الجهال، وكان المنافقون يصفون أصحاب النبي ﷺ بذلك، فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاءً واستخفافاً، فتسببوا بذلك إلى تسجيل السفه عليهم، بل وحصر السفاهة وسخافة العقول فيهم، والواقع أن المنافقين في كل زمان ومكان هم الخطر والسهم الذي يصوب نحو وطنهم ودينهم.

١٤ ـ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾.

إذا رجع المنافقون إلى رؤسائهم وانفردوا معهم وهم قادتهم من الإنس الذين يدبرون لهم أمورهم ويزينون لهم الكفر، المشابهين للشياطين في تصرفهم وتمردهم وعتوهم، يقال خلا به، وإليه ومعه، ﴿قالوا إنا معكم﴾ أي ثابتون على الكفر ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ بالمسلمين في تلك الموافقة الظاهرية، ولم تكن بواطننا موافقة لهم ولا مائلة إليهم.

١٥ ـ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

الاستهزاء والسخرية من اليهود بهذا المعنى، ومن الله بمعنى أنه لا يعبأ بهم يحقرهم تحقيراً ويجازيهم وبالاً

ونكالاً وسمي ذلك استهزاء مشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[١] ﴿ويمدهم في طغيانهم﴾ لعلمه السابق بعدم توبتهم ورجوعهم وأنه لا ينفع معهم الوعظ والإرشاد فكان ذلك عقوبة لهم فجعلهم ﴿يعمهون﴾ أي يترددون تحيرا، والعمه في الرأي خاصة، وهو التحيّر والتردد لا يدري صاحبه أين يتوجّه.

١٦ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾.

أولئك أي الموصوفون بالصفات السابقة من قوله ﴿ومن الناس﴾ ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي استبدلوا واختاروا الضلالة أي الشر على الخير، وأصل الضلالة الحيرة والجور عن القصد وفقد الاهتداء وبالرغم من أن الله سبحانه خلق الضلالة وخلق الهدى، ووضعه أمامهم ويسره لعقولهم، وقد كان في وسعهم اختيار الهدى والإيمان فعدلوا عنه إلى الضلالة، فكأنهم بذلك دفعوا الهدى ثمناً للضلالة وليس معناه أنهم كانوا مهتدين ثم ضلوا ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ يوم القيامة بل خسروا بهذا العمل، حيث رجح ميزان سيئاتهم على حسناتهم ﴿وما كانوا مهتدين﴾.

١٧ ـ ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴾.

ولما جاء بحقيقة صفة المنافقين عقّبها بضرب المثل تتميماً للبيان فقال:

﴿مثلهم﴾: أي المنافقين الذين تتكلم عنهم الآيات السابقة، في نفاقهم الذي تناهى في الظهور والمراد حالهم التي أصبحت كمثل الذي أوقد ناراً أو سراجاً في ظلمة ليلة باردة ﴿فلما أضاءت ما حوله﴾ وأبصر وتدفأ وأَمِنَ ممن يخافه ﴿ذهب الله بنورهم﴾ فجأة انطفأ سراجهم وخمدت نارهم والمراد انكشفوا بما نزل على النبي ﷺ من الآيات التي أخبرت بنفاقهم وكذبهم، وذهاب خداعهم وضلالهم ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ أي يتخبطون ولا يدرون ما يصلحون به فضيحتهم.

١٨ ـ ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾.

﴿صم﴾، جمع أصم، والأصم: هو الذي لا يسمع خلقة، حُرم من نعمة السمع، والبكم جمع أبكم: وهو الأخرس الذي لا يتكلم، والبكم نوعان، بكم القلب، وبكم اللسان، كما أن النطق نطقان، نطق القلب ونطق اللسان، وأشدهما بكم القلب، والعمي جمع أعمى والعمى نوعان أيضاً عمى العين وعمى البصيرة أي القلب، وعماه وصممه أشد من عمى العين وصمم الأذن، فوصفهم الله سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق ولا تنطق به ألسنتهم، والعلم يدخل إلى الإنسان من ثلاثة أبواب من سمعه وبصره وقلبه، وقد سدّت هذه الأبواب الثلاثة، فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم، ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[٢] وقال

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٤.

الله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾[1] وقد جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾[2]، وهؤلاء الكفار والمنافقون الذين يتكلم عنهم القرآن ليسوا صماً وبكماً وعمياً حقيقة، ولكنهم جعلوا من أنفسهم الأصل كالأصماء فلا يسمعون ما يقال لهم من الحق سماع قبول، وخرس عن الخير فلا يقولونه، وعمي عن طريق الهدى فلا يرونه ﴿فهم لا يرجعون﴾ عن الضلالة باختيارهم وكسبهم لها وكفرهم وعصيانهم وعنادهم الذي أرداهم فعاقبهم الله بجنس ذنوبهم.

١٩ ـ ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي وضل هؤلاء كمثل الذي استوقد ناراً أو كمثل أصحاب المطر، ويطلق على الأمطار الكثيرة صيوب، والصيب المطر الذي ينزل من السحاب وتنكير صيب للدلالة على أنّه نوع من المطر شديد هائل كما نكّرت النار في التمثيل الأول.

القــــراءة

﴿في آذانهم﴾: قرأ أبو عمرو بـ(في آذانهم) بالإمالة، وكذلك بالكافرين.

﴿فيه ظلمات﴾ جمع ظلمة، وهي ظلمة الليل، وظلمة السحب.

﴿ورعد وبرق﴾ الرعد صوت احتكاك السحاب، والبرق نور خاطف ينشأ من شرارة كهربائية يحدثها الاحتكاك.

﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾ والصواعق، جمع صاعقة، وهي الرعد الشديد، وقيل أنها أثر من آثار الكهرباء في الجو ينشأ من احتراق بعض الأجسام، وكل ذلك بقدرة الله وإرادته.

كان سائلاً ثم سأل فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فأجيب بقوله:

٢٠ ـ ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ يأخذها بسرعة لقربه منهم ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ أي مشوا في ضوئه ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ وقفوا ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي الظاهرة، كما ذهب بالباطنة ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾.

والمعنى: في هذه الآيات من قوله تعالى ﴿ومن الناس﴾ ـ إلى قوله تعالى ـ ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ بدأ الله سبحانه بذكر صفات المنافقين بأنهم قوم أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر، ولم يلبثوا أن أظهر الله الحق، وبدا الصبح فأضحوا من الوعيد خائفين، وصاروا متخبطين في ظلمة النفاق، فحالهم تشبه حال جماعة أوقدوا ناراً

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٢) الآية: ٢٦.

لينتفعوا بها زمناً، أطفأها الله وذهب بنورهم وتركهم في ظلمة الليل، وظلمة السحب المتراكمة، وظلمة إطفاء النار، وهي شديدة بعد النور، وفيها رعد قاصف وبرق خاطف وكان يصاحب ذلك صواعق تصم الآذان، حتى أنهم كانوا يجعلون أنامل أصابعهم في آذانهم خوفاً من الموت.

إثبات الألوهية والرد على المشركين

لما ذكر الله المؤمنين وعرف الكفار والمنافقين، بذكر صفاتهم أقبل عليهم بالخطاب فقال:

٢١ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾.

﴿يا أيها الناس﴾ الخطاب لأهل مكة أي الكفار من أهل مكة، والمراد الكفار جميعاً في كل زمان ومكان، ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ هذه دعوة لتوحيد الله وإفراده بالعبادة ﴿والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ أي الذي خلقكم وخلق الذين من قبلكم فهو خالق الجميع الأولين والآخرين، ولعلكم بعبادتكم له وإخلاصكم تتقون عقابه، ومعنى لعل للترجي، ولكنّها هنا للتحقيق.

٢٢ - ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿الذي جعل لكم الأرض فراشا﴾ والمراد هنا من الفراش أي مهّدها للإقامة عليها ﴿والسماء بناء﴾ بنى سقفها بإحكام ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ المطر ﴿فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ النّد هو النظير والمساوي، والمعنى لا تتخذوا نظراء لله في العبادة ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه الخالق وأنتم لا تخلقون، ولا يكون إلٰهاً إلا من يخلق، جاء في كتاب الإعجاز العلمي للقرآن: أن موضع الإعجاز في هذه الآية قوله تعالى ﴿والسماء بناء﴾ فقد أثبت العلم بما لا يقبل الشك أن السماء في معناها الواقعي والطبيعي، هي كل ما يحيط بالأرض، وكأنها بحر من الهواء حول الكرة الأرضية، ثم إنه بعد هذا الغلاف الجوي يوجد فراغ كوني تسبح فيه ملايين الأجرام السماوية في أعماقه السحيقة، وهي تتجاذب فيما بينها وتتحرك في تماسك واتزان في طبقة بعد طبقة، وكأنها البناء المحكم، أو كأنها السقف المبني فوق الأرض، فتبارك الله أحسن الخالقين.

القــــراءة

أدغم جماعة من القراء قوله ﴿جعل لكم﴾ فقالوا ﴿جعلكم﴾ والباقون يظهرون.

إعجاز القرآن

٢٣ - ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿وإن كنتم في ريب﴾ أي في شك ﴿مما نزّلنا على عبدنا﴾ من الآيات القرآنية التي فيها جواب لكل ما سألتم عنه، ثم تحدّاهم الله أن يأتوا بمثل ما كان القرآن يأتيهم به من الإجابة والأخبار وكشف ما في النفوس فقال: ﴿فأتوا

بسورة من مثله﴾ أي المنزل. السورة مأخوذة من سور البناء، سميت بها آية أو آيات من القرآن للدلالة على الدرجة الرفيعة التي يرتقع القارىء منها إلى درجة أخرى أرفع إلى أن يستكمل القرآن، ﴿ومن﴾ للبيان، ﴿وادعوا شهداءكم﴾ وهم من يحضر معكم من رؤسائكم أو من آلهتكم التي تعبدونها ممن يشهد لكم يوم القيامة ﴿من دون الله إن كنتم صادقين﴾ في أن ما قاله محمد من عند نفسه، فافعلوا ذلك، ولما عجزوا عن ذلك، قال تعالى:

٢٤ ـ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿فإن لم تفعلوا﴾ ما ذكر لعجزكم ولعلم الله المسبق قال لهم ﴿ولن تفعلوا﴾ ذلك أبداً لإظهار إعجازه وأنه ليس من كلام البشر ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾ أي اتقوا النار بالإيمان بالله، وإلاّ فإن النار وقودها الكفار والحجارة التي أصنامهم منها، ﴿أعدت﴾ هيئت ﴿للكافرين﴾.

المؤمنون وجزاؤهم

لما ذكر دلائل التوحيد وذكر عقاب الكافرين، شفع ذلك بذكر ثواب المؤمنين جرياً على سننه المعهودة فقال:

٢٥ ـ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي أخبر الذين صدقوا بالله أن الله وعدهم بحدائق ذات أشجار، ومساكن تجري الأنهار من تحت أشجارها ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً﴾ أي كلما أطعموا من تلك الجنّات ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي هذا الذي وعدنا ربنا في الدنيا جزاء الإيمان والعمل الصالح فهو كقوله تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّء من الجنة حيث نشاء﴾[1].

﴿وأتوا به متشابهاً﴾ أي أتوا بما ذكر من الرزق والكلام على الثمرة، خياراً لا رذل فيها، ووجه الشبه الحيرة في الاختيار، والمتشابه: يشبه بعضه بعضاً في المظهر والمنظر مع الاختلاف في المخبر، قد يكون في الطعم أو الرائحة أو غير ذلك، إذ أن التشابه يكون سبب الاشتباه.

ومن ذلك قول الله تعالى على لسان بني إسرائيل ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ لاتحاده في أمور جامعة كثيرة مما هو خواص البقر، واختلافه في أمور أخرى خفيت علينا فلذلك طلبوا البيان وقال في سورة الأنعام: ﴿والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾[2]. ومنه قوله تعالى في أول سورة آل عمران ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾ أي واضحات لا تحتاج إلى تفصيل وبيان ﴿وأخر متشابهات﴾ أي تحتاج إلى شرح

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٢) الآية: ١٤١.

وتفصيل حتى تنجلي معانيها بسبب الاشتباه الذي فيها، والحيرة في التأويل.

﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ من الحور، مطهرة من كل قذر ﴿وهم فيها خالدون﴾ أبداً إلا ما شاء الله.
والمعنى:

لما أثبت الوحدانية لله ونفى الشركاء بالدليل الحسي، ثنى في هذه الآيات بإثبات أن القرآن معجز وأنّه من عند الله، وفي ذلك إثبات رسالة محمد ﷺ، ولقد كان نهج القرآن أنه إذا تعرّض للكلام على من كفر وعصى، أردف بالكلام على من آمن واتقى ليظهر الفرق جلياً فيكون ذلك أدعى للامتثال، فبيّن سبحانه أنّه وعد المؤمنين الذين صدقوا الله بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار وأنهم سوف يجدون ما وعدهم ربهم حقاً فيقولون هذا الذي رزقنا من قبل، وجيء به إليهم متشابهاً خياراً لا رذل فيه، وفي ذلك جواب لظن ربما يطرأ لهم بأن ثمرة الجنة كتلك التي ألفوها وأطعموها في الدنيا فبين الله لهم أن هذا الرزق وإن كان مما يتحد مظهراً ومنظراً إلّا أنه يختلف في أمور أخرى.

الأمثال في القرآن وموقف الناس منها

مما بيّن كون القرآن معجزاً أورد شبهة أوردها الكفار قدحاً في ذلك وأجاب عنها فقال:

٢٦ - ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾ الاستحياء في اللغة معناه: تغير وانكسار من خوف ما يعاب عليه، والله سبحانه منزه عن ذلك، وأما البعوضة فهي مفرد البعوض وهو الحشرات المعروفة، فما فوقها أي في الصغر والقلة، والمراد هنا أنه سبحانه لا يترك ضرب المثل، ولا يترك بيانه، لما فيه من الموعظة والحكم ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحق من ربهم﴾ أي أن ضرب الأمثال ومنها هذا المثل حق من الله للفائدة والعبرة، وكما يقال بالمثال يتضح الحال، ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ يعنون ضرب الأمثال بمثل البعوضة، وسبب نزول هذه الآية وما بعدها، أنه لما نزل قوله تعالى في سورة الحج: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾(١) وقوله تعالى في سورة العنكبوت: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾(٢) قالت اليهود وما هذا من الأمثال؟ فنزلت الآيات ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بعوضة﴾ والبعوضة أقل من الذبابة والعنكبوت.

---

(١) الآية: ٧٣.
(٢) الآية: ٤١.

الهـدى والضـلال

﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين﴾ أي أن الله سبحانه بما بيّنه للناس في كتبه وعلى لسان رسله وبما يشاهدونه من آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وبما ضربه من الأمثال وساق من المواعظ والحكم والعبر في قصص الماضين، وترك للناس الاختيار بعقولهم فقد هدى كثيراً وأضلّ كثيراً، وما أضلّ الله بذلك إلا العاصين المعاندين حيث أسماهم الفاسقين وهذه الهداية تسمى هداية البيان ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها﴾(١) وما أضل الله العاصين إلاّ لفسقهم، وما هدى المؤمنين إلا بإيمانهم، وأصل الفسق في كلام العرب: الخروج عن الشيء، والمنافق فاسق، لخروجه عن طاعة ربه.

ثم وصف الله الفاسقين المذكورين في الآية فقال:

٢٧ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ هؤلاء هم أهل الكتاب، عهد الله إليهم في الكتب السماوية، الإيمان بمحمد ﷺ، وأكّد ذلك عليهم، وهؤلاء هم الذين عناهم الله في الآية السابقة وسمّاهم الفاسقين، قاطعي الميثاق، ومن شأنهم ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الإيمان بالنبي، وصلة الرحم وغير ذلك وكانوا كذلك ﴿ويفسدون في الأرض﴾ بالمعاصي وتعويق الدعوة الإسلامية ﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات السابقة ﴿هم الخاسرون﴾ حيث مصيرهم إلى النار.

ثم عاد الله تعالى إلى الاحتجاج على الكفار في إنكارهم البعث وجحودهم لرسله وكتبه بما أنعم به عليهم فقال:

٢٨ ـ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

الاستفهام للتعجب من كفرهم مع قيام البرهان، ويأتي كذلك للتوبيخ على ذلك، ﴿وكنتم أمواتا﴾ أي نطفاً في أصلاب آبائكم، يقال للأرض قبل أن تزرع موات ﴿فأحياكم﴾ أي أنبتكم في الأرحام، وجعلكم من الأحياء في الدنيا بنفخ الروح فيكم، ﴿ثم يميتكم﴾ عند انتهاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ بالبعث من القبور يوم القيامة ﴿ثم إليه ترجعون﴾ تردون بعد البعث إليه فيجازيكم بأعمالكم.

ثم قال دليلاً على البعث لمّا أنكروه:

٢٩ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٨.

خلق الله سبحانه للبشر ما في الأرض وما عليها، كبيرها وصغيرها، خلق ما عليها من بحار وأنهار وأشجار، ونبات وتربة وهواء، وفضاء وأرزاق وحيوان ودواب وحشرات، حتى ولو كان ذلك بعوضة فما فوقها، وفي ذلك رد على الكفّار المستهزئين بأمثال الله، ولو أن أحدهم أصيب بمرض من ميكروب صغير لا يرى بالعين، وقد يكون أقلّ من البعوضة، لتوجّه إلى الله يلتمس منه ويطلب لنفسه الشفاء، وخلق ما في داخلها من معادن ومياه، ومعنى كلمة ﴿لكم﴾ أي لتستفيدوا منها، ولتؤمنوا وتعتبروا، ثم توجهت إرادته إلى خلق السماء فأحكم صنعها وأبدع تكوينها فقال:

السمـاوات السبـع

﴿ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات﴾

من المعلوم أن الأرض والسماوات كانتا في الأصل شيئاً واحداً ملتصقتين أي كتلة واحدة من الدخان وهو الغاز، ثم انفصلت الأرض وهو بدء خلقها حيث خلق الله الأرض أولاً، ثم خلق الجبال والأقوات، ثم استوى إلى السماء أي عمد إليها وقصدها وأرادها، وكانت كما بينا دخاناً فقضاهن سبع سماوات وسوّاهن سبع سماوات، ومعنى كلمة استوى هنا غير معنى استوى على العرش، لأن العرش مجهول، أما السماوات فهي محسوسة لنا بعلوها وأجسامها وكل ما علانا فهو سماء داخل في قوله تعالى: ﴿سبع سماوات﴾ ومنها السماء الدنيا التي نحسها ونراها بأبصارنـا، وقد بيّن سبحانه بأنّ السماء تنشق وتنفطر، وأن لها أبواباً تفتح، وأن العذاب قد نزل في الأقوام السابقة من السماء، وأن الملائكة أنزلوا كتب الله من السماء، وأن فيها بروجاً، أي نجوماً جعل الله بعضها رجوماً للشياطين، والإنسان لا يمكن أن يدرك السماوات العلا، ولكنه قد يدرك بعض الكواكب السيارة في السماء الدنيا، فالخروج من السماء الدنيا إلى غيرها ممنوع حتى على مردة الجنّ والشياطين. إلا بسلطان كما قال عز وجل في سورة الرحمٰن: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ وفسّر العلماء السلطان بالعلم هنا. فإذا تقدمت العلوم الكونية فلا مانع من ذلك. من كان يظن أن الإنسان يصل إلى القمر؟.

خلافة الإنسان في الأرض

اتصال هذه الآية بما قبلها من باب ذكر النعم في سلك ما تقدمه من النعم من خلق السماوات والأرض المذكورة فقال:

٣٠ - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

بدأ الكلام في الآية ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ يدل على أن هذا القول قبل أن يخلق آدم، فالله سبحانه قد سبق علمه وكتابته في اللوح المحفوظ لما سيكون عليه بنو آدم بعد أن يخلقوا وماذا سيكون من آدم وإبليس وذريته

حيث قالت الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ أي أن الله أعلمهم بما سيجري من بني آدم من الخير والشر وسفك الدماء مع تقديس الملائكة لله عزَّ وجلَّ، والملائكة هم خلق الله دأبهم الطاعة، لا يأكلون ولا يشربون يسبحون لله ويحمدونه ولهم وظائف مخصوصة، ومنهم من ينزل إلى الأرض ويخاطب الرسل، ويتشكل بأجسام إنسانية، والإيمان بوجودهم واجب، ودليله سمعي من القرآن، عند سماعهم قول الله لهم بادروا إلى الإجابة بما يفهمون بفهمهم المحدود بقولهم ذلك، وكلمة ﴿خليفة﴾ الآية قد يفهم منها أنه كان في الأرض خلق قبل آدم كانت لهم مثل تلك الصفات التي ذكرتها الملائكة، أو في أرض أخرى غير أرضنا، وأن آدم وذريته سوف يخلفونهم بمثل ما كانوا عليه من الطباع كارتكاب المعاصي وسفك الدماء، ومن المعلوم أن إبليس والجن خلقوا قبل آدم وذريته، وقول الله عز وجل عن إبليس لما عصى الله ولم يسجد لآدم ﴿وكان من الكافرين﴾ يدل على أن هناك آخرين قبل آدم انضم إبليس إليهم بكفره.

﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أي أن علم الله أوسع منهم فهو يعلم ما كان وما سيكون، يعلم من المصلحة في الاستخلاف، وأن ذرية آدم فيهم المصلح، وفيهم المفسد، فأثبت لذاته العلم بحكمته هذه الخلافة، ثم أظهر لهم أن الإنسان يكون خليفة بالعلم الذي يمتاز به، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

القـــراءة

﴿إني أعلم﴾ قرأ نافع[1] وابن كثير[2] وأبو عمرو[3]: «إنِّيَ أعلم» بفتح الياء في كل القرآن.

٣١ ـ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿وعلَّم آدم الأسماء﴾ أي أودع في نفسه وألهمه علماً ومعرفة لجميع المسميات واللغات مما خلق من الملائكة والأجناس والدواب، أو أسماء ذريته وأنبيائه، وكل ما يعرفه الإنسان اليوم من الأسماء، مما تحصل عليه بفطرته وكونه من بني آدم يجمعها قوله تعالى ﴿كلها﴾ ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ أي أطلعهم على تلك الأسماء بالطريقة التي تليق بحالهم ﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ أي أخبروني إذا كنتم محقين ﴿إن كنتم صادقين﴾ معتقدين بصواب قولكم. واستغرابكم ودهشتكم لاستخلافي في الأرض..

٣٢ ـ ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿قالوا سبحانك﴾ تنزيهاً لك وتعظيماً من الاعتراض على حكمك ﴿لا علم لنا إلا ما علَّمتنا﴾ وهو علم محدود لا يتناول جميع الأسماء ولا يحيط بكل المسميات ﴿إنك أنت العليم﴾ بخلقك ﴿الحكيم﴾ في صنعك.

---

(١) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، ويكنّى: أبا رويم الليثي بالولاء (٧٠ ـ ١٦٩هـ)، وهو من أحد القراء السبعة.

(٢) هو عبد الله بن كثير المكي، أبو معبد العطار الداري الفارسي الأصل، إمام أهل مكة في القراءة (٤٥ ـ ١٢٠هـ)، وهو من أحد القراء السبعة.

(٣) هو ذوبان بن العلاء، أبو عمرو التميمي المازني البصري (٦٨ ـ ١٥٤هـ)، وهو من أحد القراء السبعة.

٣٣ - ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي قال الله لآدم آمراً له أن يخبر الملائكة بأبسط شيء من المسميات، وأقربه إليهم وهو أسماؤهم وهي من جملة المسميات التي رزقه الله تعلمها ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض﴾ أي ألم يكن لديكم علم سابق بأن الله يعلم ما لا تعلمون ما كان وما سيكون، ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئاً سدى، ولا يجعل الخليفة في الأرض عبثاً ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أي الذي يظهر أثره في نفوسكم ﴿وما كنتم تكتمون﴾ أي تسرون في قولكم.

تكريـم آدم

لما خصص الله آدم بالخلافة وعلّمه من العلوم ما أظهر بذلك مزيته على الملائكة اقتضت حكمته البالغة أن جعلهم يسجدون له.

٣٤ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ بعد أن عرّف الله الملائكة بمكانة آدم ووجه جعْله خليفة في الأرض، أمرهم بتكريمه بالسجود له، وهو سجود لا نعرف صفته، وقطعاً ليس سجود عبادة، ومنه سجود يعقوب وأولاده ليوسف عليهما السلام، وأما سجود العقلاء فهو لله تعبداً، وسجود المخلوقات الأخرى فهو لمقتضى إرادته فيها ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾(١) قال تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ كان من الجن وكان وجوده بين الملائكة وهو استثناء منقطع أي من غير الجنس، أبى السجود والانقياد ﴿واستكبر﴾ على آدم وقال ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ ﴿وكان من الكافرين﴾ في علم الله وهذا دليل على أن هناك كفاراً قبل آدم انضم إبليس بكفره إليهم فكان منهم.

وكان هذا من إبليس قبل أن يوسوس لآدم وحواء ويغريهما بالأكل من الشجرة.

جنـة آدم

٣٥ - ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿اسكن﴾ أمر من السكن بمعنى: اتخاذ المسكن، و﴿أنت﴾ توكيد للضمير المستكن في اسكن،

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦.

﴿وزوجك﴾ حواء، وأهل الحجاز يقولون لامرأة الرجل زوج، ويجمعونها على أزواج، والمقصود هنا امرأته حواء ﴿الجنة﴾ هل هي جنة خاصة خلقها الله سبحانه لآدم امتحاناً له، أم أنها جنة الخلد والجزاء في الآخرة التي وُعِدَ بها المتقون يوم القيامة، أجمع معظم المفسرين المعاصرين على أنها جنة خاصة في الأرض كما اختار ذلك العلامة المفسر الشيخ محمد متولي الشعراوي، وقال الإمام ابن القيم الجوزية: (فالجواب أن يقال هذا فيه قولان للناس، ونحن نذكر القولين، واحتجاج الفريقين، ونبين ثبوت الوجوه التي ذكرناها وأمثالها على كلا القولين، من غير انتصار لنصرة أحد القولين، وإبطال الآخر).

وبعد أن ذكر أكثر من عشرين صفحة في كتابه دار مفتاح السعادة قال[1]:

هذه معاقد حجج الطائفتين مجتازة ببابك، وإليك تساق ـ إلى أن قال ـ فقد ذكرنا في هذه المسألة من النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعلّه لا يوجد في شيء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره إلا من كان من الفضلاء المنصفين.

﴿وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾ أي أكلاً وافراً لا حجر فيه من مطاعمها، والرغد: الهنيء الذي لا عناء فيه ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ وهي شجرة لم يبين الله تعالى نوعها، إلا أن تعبير الشيطان عن الشجرة بالخلد فيه إغواء وتضليل حيث نهى الله عن قربها، ظاهر هذا النهي التحريم، والمنهي عنه الأكلَ والنهي عن قربانها مبالغة، ولهذا جعل جلّ شأنه العصيان المرتب على الأكل مرتباً عليه، والنهي عن قرب الشيء أبلغ من النهي عنه، كما في قوله تعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾[2] فهو يقضي البعد عن موارد الشبهات التي تغري وتفضي إليها وربما ورعاً واحتياطاً، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ، ولم يكتف بالقول ظالمين بل قال ﴿من الظالمين﴾ وفيه بلاغة كافية دلالة على أن هناك من سبق آدم وحواء بالمعصية واستحق لقب الظالم لنفسه لأنه لفظ يدل على الجمع.

٣٦ ـ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي حملهما على الزلة بسببها، فأوقعهما في المخالفة، والزلة، السقوط، والضمير في عنها يعود على الشجرة وذلك بأن قال لهما، هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى، وقاسمهما أي حلف لهما أنه لهما من الناصحين، ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي من النعيم والراحة أو مما كانا فيه من الستر وهتك عوراتهما بهذه النصيحة الخبيثة، بالأكل من هذه الشجرة هذه النصيحة التي لا خير فيها لبني آدم ولا يمكن أن يقصد بأن يكون في جنة الجزاء شجرة مثلها على ما وصفت به، ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ الهبوط هو الخروج من مكان إلى مكان، قال الله تعالى: ﴿اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾[3] ويحتمل النزول من علو كهبوط

(١) ص ٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.

الطائرة أو الهبوط من تل أو جبل أو مكان مرتفع إلى منخفض، وهذا ما ينطبق على آدم وحواء وإبليس حيث طلب الله منهم أن ينزلوا من المكانة التي هم فيها إلى مرتبة تليق بهم وبعداوتهم، وهو خطاب لآدم وذريته وإبليس وذريته، وهذا دليل أن إبليس دخل جنة آدم ووسوس له فيها وعصى آدم ربه فيها أما العداوة فهي بين آدم وحواء وذريتهما من جهة، وإبليس وذريته من جهة أخرى ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ حياة تحيونها إلى مدة من الزمن.

القــــراءة

﴿فأزلّهما﴾: قرأ حمزة بالألف (فأزالهما) أي نحاهما، ليقابل الثبات بالسكن بالزوال.

٣٧ - ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ ألهمه إياها وهي الاستغفار من الذنب ففعل ﴿فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾.

٣٨ - ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ أي اخرجوا من تلك الجنة والمكانة وكرر للتوكيد ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ في الدنيا والآخرة.

٣٩ - ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

بنوا إسرائيل والمطلوب منهم

لما أقام دلائل التوحيد والنبوة والمعاد وذكر الإنعامات العامة للبشر ومن جملتها خلق آدم، أردفها بذكر الإنعامات على أسلاف اليهود.

٤٠ - ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾.

﴿يا بني إسرائيل﴾ ذرية النبي يعقوب وإسرائيل لقبه ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ بالصحة والمال والولد وعلى آبائكم السابقين حيث نجّاهم الله من فرعون وملئه ﴿وأوفوا بعهدي﴾ الذي عهدته إليكم من الإيمان بمحمد كما هو مكتوب عندكم في التوراة والإنجيل من الصفات والعلامات ﴿أوف بعهدكم﴾ أدخلكم الجنة ﴿وإياي فارهبون﴾ أي خافون.

٤١ - ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا

وَإِيَّىَ فَاتَّقُونِ ﴾.

﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ من القرآن ﴿مصدقاً لما معكم﴾ من التوراة والإنجيل بموافقته لهما في التوحيد والأصول العامة للدين، ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ من أهل الكتاب المطلعين على علامات النبي محمد ﷺ فلزم أن تكونوا أول مؤمن به فلا تكذبوه فتكونوا أول من يكفر به، والكفر به تكذيب لما في التوراة والإنجيل، ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّاي فاتقون﴾، البيع والشراء قد يطلق كل منهما مكان الآخر والمعنى: لا تبيعوا آياتي بثمن بخس دراهم معدودة بأن تستبدلوها بغرض يسير من أغراض الدنيا وتكتموها ولا تخافوا أحداً سوى الله جلّ وعلا.

٤٢ ـ ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي لا تخلطوا الحق الذي أنزل عليكم بالباطل الذي تفترونه ﴿وتكتموا الحق﴾ وهو بعث محمد ﷺ، ووصفه لديكم ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه الحق ومكتوب في التوراة وأنتم تعلمونه.

٤٣ ـ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾.

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ أي اعبدوا الله واتصفوا بصفات المؤمنين مثل أصحاب النبي محمد ﷺ، والتعبير بالركوع فيه معنى الصلاة مع المسلمين، لأن غيرهم لا يركع في صلاته.

علماء اليهود وأحوالهم

٤٤ ـ ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ بالإيمان بمحمد ﴿وتنسون أنفسكم﴾ وكان الرجل من اليهود يقول لقرابته من المسلمين في السر أثبت على ما أنت عليه فإنه حق والهمزة في ﴿أتأمرون﴾ استفهام توبيخي، والبر المراد منه هنا الطاعة والتوسع في الخير ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ التوراة فيها الوعيد على مخالفة القول للعمل ﴿أفلا تعقلون﴾ سوء فعلكم وتفكرون بعقولكم فتعملوا بها لا بعواطفكم فتخالفوا علمكم النافع والناتج عن استعمال عقولكم.

٤٥ ـ ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾.

﴿واستعينوا بالصبر﴾ الحبس للنفس على ما تكره وربما كان الصبر هنا الصوم ﴿والصلاة﴾ ووجه الاستعانة بالصلاة أنه يتلى فيها ما يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا ﴿وإنها﴾ أي الصلاة ﴿لكبيرة﴾ أي ثقيلة ﴿إلا على الخاشعين﴾ الذين خضعت نفوسهم لعظمة الله، والخشوع هو الخضوع والتذلل.

٤٦ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾.

﴿الذين يظنون﴾ أي يعتقدون، الظن هنا بمعنى اليقين، ﴿أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ فيجازيهم على حسن أعمالهم وتقيدهم وتمسكهم بتعاليم القرآن.

بيان نعم الله جل وعلا على اليهود

٤٧ - ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ قال ابن عباس[١] رضي الله عنهما، أراد به عالمي أهل وقتهم والموجودين في زمانهم، فلا يتناول اللفظ من مضى ولا من سيوجد بعدهم، لأن الأمة الإسلامية أفضل الأمم ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[٢]، وقيل: المراد تفضيلهم في أشياء مخصوصة وهي إنزال المن والسلوى وما أرسل الله فيهم من الرسل وما أنزل عليهم من الكتب وما إلى ذلك، فتفضيل الله إيّاهم في أشياء مخصوصة، لا يعني أن يكونوا أفضل الناس على الإطلاق، يؤيد هذا الرأي الأخير الآيات التالية التي تتحدث عن نعم الله العشر عليهم.

٤٨ - ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾.

﴿واتقوا﴾ أي احذروا واخشوا ﴿يوماً لا تجزى﴾ أي لا تقضي فيه، ﴿نفس عن نفس شيئاً﴾ ولا تنوب نفس عن نفس، ولا تدفع عنها مكروهاً وقيل: لا يؤدي أحد عن أحد حقاً وجب لله عليه أو لغيره، ونكّر النفس ليبين أن كل نفس هذا حكمها، وهذا مثل قوله تعالى في سورة لقمان[٣]: ﴿واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة، ولكنه بين في مواضع أخر أنَّ الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السماوات والأرض، أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمٰن ورضي له قولاً﴾[٤] ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي فدية وإنما سمي الفداء عدلاً، لأنه يعادل المفدي ويماثله ومعناه لا يؤخذ من أحد فداء يكفّر به عن ذنوبه، ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ليس لهم ناصر ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم، وكانت اليهود تزعم أن آباءهم من الأنبياء تشفع لهم من عذاب الله، فأيأسهم الله بهذه الآية من ذلك وأبطل زعمهم.

القـــراءة

قرأ ابن كثير من أهل مكة والبصرة[٥]، لا تقبل، بالتاء والباقون بالياء.

٤٩ - ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾.

(١) انظر ترجمته في أسد الغابة ج ٣ ص ١٩٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٣) الآية: ٣٣.
(٤) سورة طه، الآية: ١٠٩.
(٥) كلمة أهل البصرة تعني أبا عمرو.

﴿وإذ نجّيناكم﴾ أي اذكروا إذ نجى الله آباءكم فاعتبروا أيها الموجودون في زمن نبينا، ﴿من آل فرعون﴾ أي من قوم فرعون وأهل دينه، وفرعون لقب لكل ملك حكم مصر في ذلك العهد إذا كان من الأسر الفرعونية، وفرعون الذي ولد موسى في زمنه، وربيَّ في بيته، وكان يسومهم سوء العذاب، هو رعمسيس الثاني، من الأسرة التاسعة عشرة، أما فرعون الذي أغرق فهو ابنه منفتاح، على ما نقله صاحب قصص الأنبياء[1]، ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يكلفونكم ويلزمونكم سوء العذاب، أشده وأفظعه، من السوم، وهو مطلق الذهاب، ﴿يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ أي يقتلون أبناءكم ويستبقون نساءكم للخدمة والإذلال، ﴿وفي ذلكم﴾ أي وفي سومكم العذاب وذبح الأبناء ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾ أي اختبار وامتحان عظيم من ربكم، والبلاء يستخدم للمحن المقتضية للشكر، ولذا قيل: في نجاة آبائكم من فرعون وقومه نعمة عظيمة من الله عليكم.

٥٠ ـ ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ الفرق: الفصل والتمييز، يقال فرقت بين الشيئين فرقاً، فصلت بينهما، ومنه الفرقان، وقوله تعالى[2]: ﴿وقرآناً فرقناه﴾ فصّلناه وميّزناه بالبيان، أي فصلنا لأجلكم البحر بعضه عن بعض، والباء بمنزلة لام التعليل، وهذا الفرق إحدى معجزات موسى عليه السلام[3] ﴿فأنجيناكم﴾ أي من الغرق والبحر ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ لم يذكر غرق فرعون لأنّه قد ذكره في مواضع أخر كقوله: ﴿فأغرقناه ومن معه﴾[4] فاختصر لدلالة الكلام عليه، ولأن الغرض مبني على إهلاك فرعون وقومه، ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي وأنتم تنظرون انطباق البحر عليهم.

والمعنى: أن بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر مروا بالبحر الأحمر قرب السويس في اتجاه جبل الطور بسيناء حيث الجانب الأيمن. وعند وصولهم ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق بأمر الله اثني عشر طريقاً بعدد أسباطهم، ولما تبعهم فرعون ماشياً مع جنوده، انطبق عليهم البحر فغرقوا.

٥١ ـ ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

﴿وإذ واعدنا موسى﴾ اذكروا ذلك الوقت الذي واعدنا فيه موسى أن نؤتيه الألواح فيها التوراة والبيان والشفاء ﴿أربعين ليلة﴾ أي عند انقضاء أربعين ليلة، وهذه الأربعون ليلة هي التي ذكرها الله في سورة الأعراف فقال[5]: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾ ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ وقصة العجل مؤداها أن موسى استخلف أخاه هارون في قومه، وذهب لميعاد الله ومناجاته بطلب التوراة، وكان بنو إسرائيل قد جلبوا معهم ذهباً من مصر عبارة عن حلي ومصاغ كانوا استعاروها أو غنموها من آل فرعون، فقال لهم هارون إن الغنيمة لا تحل لكم فاتركوه حتى يحكم فيه موسى بعد رجوعه، فطلب منهم رجل يقال له السامري إلقاء تلك الحلي وذلك الذهب

(١) قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٣) قصص الأنبياء.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٠٣.
(٥) الآية: ١٤٢.

في النار التي أعدّها فصاغ منه عجلاً صنماً، له صوت يشبه صوت البقر بسبب ما أحكم فيه من الصنعة، بدخول الهواء إلى جوفه وخروجه من فمه، فقال لهم هذا إلٰهكم وإله موسى قد جاء، وأخطأ موسى الطريق، فعبدوه ورقصوا حوله، وكانوا ظالمين لأنفسهم بهذا العمل.

القــــراءة

قرأ أبو عمرو: (وإذ وعدنا موسى) بغير ألف وقرأ الباقون (وإذ واعدنا) بالألف.

٥٢ ـ ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد استغفار البعض ونزول العذاب بالبعض الآخر ممن أجرموا.

٥٣ ـ ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

﴿وإذ آتينا موسى الكتاب﴾ التوراة ﴿والفرقان﴾ الآيات المنزلة والآيات الكونية التي أدّت إلى النصر الذي فرق فيه بسببها بين الحق والباطل، وسمّي القرآن فرقاناً لأنه كذلك آية من آيات الله ﴿لعلكم تهتدون﴾ به من الضلال.

٥٤ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ واذكروا وقت قول موسى لقومه الذين عبدوا العجل في مدة صومه وغيابه عنهم وهي أربعون يوماً ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم﴾ أي أضررتم بأنفسكم ووضعتم العبادة في غير موضعها ﴿باتخاذكم العجل﴾ معبودا ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ أي ارجعوا إلى خالقكم ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي فليقتل البريء منكم المذنب المجرم، وذكر ابن جريج[1] أن السبب في أمرهم بقتل أنفسهم بأن الله تعالى علم أن أناساً منهم ممن لم يعبد العجل لم ينكروا عليهم ذلك مخافة القتل مع علمهم بأن العجل باطل، فلذلك ابتلاهم الله بقتل بعضهم بعضاً، وإنما امتحنهم الله تعالى بهذه المحنة العظيمة لكفرهم بعد الدلالات والآيات العظام، ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾ إشارة إلى التوبة مع القتل لأنفسهم على ما أمرهم الله به ﴿فتاب عليكم﴾ ها هنا إضمار تقديره ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم ﴿إنّه هو التوّاب﴾ أي قابل التوبة عن عباده مرة بعد مرة ﴿الرحيم﴾ يرحمكم إذا تبتم ويدخلكم الجنة.

القــــراءة

﴿بارئكم﴾ قرأ أبو عمرو بجزم الهمزة (بارئكم) مهموزة غير مثقلة.

---

(١) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

٥٥ ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ عياناً، قال ذلك بعض منهم فعاقبهم الله ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ أي نار من السماء، وانشقت الأرض وابتلعت بعضهم بالرجفة ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي والبعض الآخر ينظر ذلك العذاب بأعينهم والقصة مفصلة في سورة الأعراف.

تتمة النعم العشر على بني إسرائيل

٥٦ ـ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿ثم بعثناكم﴾ أحييناكم ﴿من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ لما ذهب السبعون مع موسى نحو جبل الطور للاستغفار وإبداء التوبة والاعتذار عن عبدة العجل قالوا لموسى أرنا الله جهرة، فأخذتهم الرجفة ثم صعقوا وماتوا، فدعا الله موسى فأحياهم.

٥٧ ـ ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أي جعلنا لكم الغمام ظلة وسترة تقيكم حر الشمس في التيه بسيناء، والغمام جمع واحدته غمامة، كسحابة، وأصل الغم ستر الشيء، وسمي السحاب غماماً لستره ضوء الشمس، ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ المن حلوى تؤكل باللحم، والسلوى طير السماني يجدونه بكثرة في الصباح، ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا﴾ أي أنهم لم يضروا الله شيئاً بمعصيتهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بما فعلوا من المخالفة والادخار الذي نهوا عنه.

٥٨ ـ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم﴾ أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية ها هنا بيت المقدس، ويؤيده قوله في موضع آخر ﴿ادخلوا الأرض المقدسة﴾ ﴿حيث شئتم﴾ أي أين شئتم، ﴿رغدا﴾ أي كثيراً واسعاً بلا عناء، ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾ أي خضعاً متواضعين خاشعين، شأن التائب من ذنوبه ﴿وقولوا حطة﴾ أي شأنك يا ربنا حطة، أي أن تحط عنا ذنوبنا وتغفرها، والحطة كجلسة، اسم للهيئة، من الحط بمعنى الوضع والإنزال، وأصله إنزال الشيء من علو يقال: استحطه وزره، سأله أن يحطه عنه وينزله، أمروا أن يقولوا قولاً دالاً على التوبة وإظهار الندم، ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ أي نصفح ونعف عن ذنوبكم، ﴿وسنزيد المحسنين﴾ أي وسنزيدهم على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً كقوله تعالى(١): ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾.

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٠.

القـــــراءة

قرأ أبو جعفر[١] ونافع، ﴿يغفر﴾ بالياء مضمومة وفتح الفاء، وقرأ ابن عامر بتاء مضمومة مع فتح الفاء، والباقون نغفر لكم بالنون، وهو الاختيار.

٥٩ - ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فغير الذين عصوا والذين فعلوا ما لا يليق بهم أن يفعلوه وغير ما أمروا به فقالوا: حنطة بدلاً من حطة، ودخلوا يزحفون على أستاههم، ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً﴾ أي عذاباً من السماء، الرجز: بكسر الراء، العذاب في لغة أهل الحجاز، وهو غير الرجس لأن الرجس النتن أو المرض بسبب الفسق والمعصية وعدم اتباع الأوامر[٢] ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بكونهم فاسقين، والفسق هنا بمعنى ارتكاب الذنوب.

٦٠ - ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ أي طلب السقيا واستنصر بالله، وذلك لما عطشوا، بعد خروجهم من مصر في صحراء سيناء ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ وهو حجر معين لموسى عليه السلام بدليل ﴿أل﴾ العهدية ﴿فانفجرت﴾ وفي الأعراف ﴿انبجست﴾ أي انشقت وسالت من الحجر ﴿اثنتا عشرة عينا﴾ بعدد الأسباط وهذه العيون تعرف الآن بعيون موسى ﴿قد علم كل أناس﴾ أي جماعة أو قبيلة تتبع كل سبط منهم ﴿مشربهم﴾ عينهم وهو موضوع شربهم فلا يحصل التشاحن بينهم ﴿كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ العثو أشد الفساد.

نعم الله العشر على بني إسرائيل

١ - أنجاهم الله من بطش فرعون وقومه ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب﴾.

٢ - أزاح الله عنهم ماء البحر ليمشوا على اليابسة ويعبروا ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾.

٣ - فجّر الله لهم اثنتي عشرة عيناً للشرب ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾.

(١) هو يزيد بن القعقاع، أبو جعفر المخزومي المدني القارىء (١٣٠هـ) وهو من أحد القراء العشرة.
(٢) مجمع البيان ج ١ ص ٢٦٥.

٤ ـ يسّر لهم الطعام من غير كدّ ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾.

٥ ـ ظلّلهم بالغمام من حر الشمس ﴿وظلّلنا عليكم الغمام﴾.

٦ ـ أحيا المختارين منهم السبعين بعد أن أماتهم بالصاعقة ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون﴾.

٧ ـ عفا الله عنهم بعد أن قبل توبتهم لما قتل منهم عدد كبير بعد عبادة العجل ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلّكم تشكرون﴾.

٨ ـ جعل منهم أنبياء كثيرين.

٩ ـ جعل منهم ملوكاً مثل طالوت وداود وسليمان.

١٠ ـ نصرهم الله في معارك كثيرة ضد عدوهم، بسبب تقوية عزيمتهم بالتابوت (الصندوق) الذي به سكينة وبقية مما ترك آل هارون.

بعض قبائح اليهود وما لحقهم

٦١ ـ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾.

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ كان المن يؤكل بالسلوى فلذلك كانا كأنهما طعام واحد ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا﴾ شيئاً ﴿مما تنبت الأرض﴾ من للبيان ﴿من بقلها﴾ العشب مما يأكله الناس والبهائم ﴿وقثّائها﴾ الخيار، ﴿وفومها﴾ حنطتها ﴿وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى﴾ أردئ وأخسّ ﴿بالذي هو خير﴾ أشرف والهمزة للاستفهام والإنكار ﴿اهبطوا مصرا﴾ انزلوا المدن وهي الأمصار واحدها مصر ﴿فإن لكم﴾ فيها ﴿ما سألتم﴾ طلبتم من النبات والخضروات يقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل في كتاب (الإسلام والطب الحديث) (إن اللحوم والأسماك والألبان الخ . . . أفضل في التغذية من البقول والقمح والذرة وليست الأفضلية في مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم في كل نوع لأن هذا يجب ألا يكون سبباً مهماً للأفضلية، فمثلاً المواد الزلالية في اللحوم من ١٥ ـ ٢٠ في المائة وفي اللبن ٤٪ وليس هذا معنى الأفضلية، ولكن الأفضلية هي في نوع المواد الزلالية لا في كميتها، وأن كل جرام من المواد الزلالية في اللحوم أفضل من جرام من المواد الزلالية في القمح والذرة الخ . . وقد اهتدت أخيراً لجنة الأبحاث في إنجلترا إلى أنّ قيمة المواد الزلالية تختلف في نوعها وفي المقدار منها الذي يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق ثم قال: إن هذه النتيجة التي لخّصها القرآن الشريف لم

تظهر حقيقة ثابتة طبياً إلا منذ سنوات قليلة وكانت النظرية السائدة قبل ذلك أن الأطعمة وقيمتها بالنسبة للمواد الزلالية هي مسألة كمية لا مسألة نوع).

﴿وضربت عليهم الذلة﴾ الخوف الدائم وهي صفات الذليل ﴿والمسكنة﴾ فقر النفس وإن كانوا أغنياء ﴿وباؤوا﴾ رجعوا إشارة إلى الغضب ﴿بغضب من الله ذلك﴾ أي الذلة والمسكنة ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ ظلماً ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ يتجاوزون الحد في المعاصي، وكرر للتأكيد كما جاء في أول سورة في المصحف وهي الفاتحة بقوله ﴿المغضوب عليهم﴾ نسبة إلى اليهود وإلى النصارى ﴿الضالين﴾.

القـــراءة

قرأ نافع ﴿النبيين﴾ بالهمزة والباقون بغير همزة.

قانون الإسلام العام

لما ذكر وعيد أهل الكتاب ومن يقف آثارهم قرن به ما يتضمّن الوعد جرياً على سننه سبحانه من ذكر الترغيب والترهيب فقال:

٦٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين﴾ اختلف في هؤلاء المؤمنين من هم؟ فقال قوم هم الذين آمنوا بعيسى ثم لم يتهودوا ولم يتنصروا ولم يصبأوا، وانتظروا خروج محمد ﷺ قيل: هم طلاب الدين، وقيل هم مؤمنو الأمم الماضية، وقيل هم المؤمنون من هذه الأمة، ﴿والذين هادوا﴾ أي صاروا يهودا، يقال: هادوا وتهودوا، أي دخلوا في اليهودية، وسموا يهودا نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب، بقلب الذال دالاً في التعريب، أو لما تابوا من عبادة العجل، من هاد يهود هودا، بمعنى تاب، ومنه ﴿إنا هدنا إليك﴾[1] أي تبنا، والنصارى جمع نصران كقولهم سكران وسكارى، وهو الممتلىء نصراً، واختلفوا في اشتقاق هذا الاسم فقال ابن عباس: هو من ناصرة قرية كان يسكنها عيسى عليه السلام[2]، فنسبوا إليها، وقيل سموا بذلك لقوله: ﴿من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾[3] والصابئون جمع صابىء هو كل من خرج من دينه ودخل في دين آخر ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي من آمن من اليهود والنصارى والصابئين بتوحيد الله وصفاته وعدله، وبيوم القيامة والبعث والنشور والجنة والنار، ﴿وعمل صالحاً﴾ أي عمل ما أمره الله به من الطاعات ولم يذكر ترك المعاصي لأن تركها من الأعمال

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٢) وهي مدينة الناصرة في شمال فلسطين الآن.
(٣) سورة الصف، الآية: ١٤.

الصالحة ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ فجزاؤهم وثوابهم معد لهم عند الله تعالى، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا خوف عليهم فيما قدموا ولا هم يحزنون على ما خلفوا.

القـــراءة

قرأ نافع بترك الهمزة من الصابئين في كل القرآن والباقون يهمزون.

من جنايات اليهود

٦٣ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ عهدكم الغليظ بالعمل بكتاب الله والإيمان بالأنبياء والرسل ولا يزال هذا الميثاق في الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، والنبي محمد ﷺ، لم يطلع على كتبهم وإنما يخبره الله بالوحي عما في هذا الميثاق، وكانت رسلهم تذكرهم بهذا الميثاق جيلاً بعد جيل ورسولاً بعد رسول، ولكنّهم دائماً كانوا ينقضون عهدهم وميثاقهم فيقتلون الأنبياء ويحرفون الكلم ويكتمون ما أنزل الله عليهم، وما أخذ عليهم فيه من بيان نبوة محمد ﷺ، ولذلك عاقبهم الله في فعلهم: وسيأتي تفسير ذلك في سورة النساء والمائدة والأحزاب: ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ رفع الجبل عليهم، وإنما رفع عليهم لإبائهم العمل بما في التوراة ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي بالجد والاجتهاد والصدق ﴿واذكروا ما فيه﴾ ادرسوا ما فيه واتعظوا به ﴿لعلكم تتقون﴾ العقوبة.

٦٤ ـ ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾.

﴿ثم توليتم﴾ أي ثم نبذتم العهد الذي أخذناه عليكم، ﴿من بعد ذلك﴾ أي بعد إعطائكم المواثيق، ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ الخاسر: هو الذي ذهب رأس ماله، ورأس مال الإنسان نفسه وما سواها.

مسخهـــم

٦٥ ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾.

﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ أي وقد عرفتم الذين تجاوزوا الحد بصيد الحيتان في السبت وقد نهوا عنه، وأمروا بتعظيم السبت والتجرد للعبادة فيه، قال تعالى[1]: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

يفسقون﴾ والاعتداء، مجاوزة الحد، وقد مضى تحقيقه في الآية: ٦١ ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أي فقلنا لهم كونوا قردة مبعدين عن رحمة الله، والجمهور على أنهم مسخوا حقيقة فكانوا وهلكوا[١].

٦٦ - ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿فجعلناها﴾ أي تلك العقوبة ﴿نكالا﴾ عبرة مانعة من ارتكاب مثل ما عملوا ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ من الأمم التي في زمانها أو بعدها ﴿وموعظة للمتقين﴾ عام في كل متق إلى يوم القيامة.

قصة ذبح البقرة

٦٧ - ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ وقد قتل لهم قتيل لا يدرى قاتله لإنكار القاتل وكتمه الأمر حتى كادت تشتعل الفتنة بينهم، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبينه لهم فدعاه فقال لهم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا﴾ إذ تجيبنا بمثل ذلك ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ المستهزئين لأن الهازىء جاهل ملاعب، فتبيّن لهم أن الأمر من عند الله.

٦٨ - ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ والتبيين التعريف وأصله من البين وهو الفراق ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر﴾ والفارض: الكبيرة المسنة يقال: فرضت البقرة تفرض فروضاً إذا أسنت، وقيل: إن الفارض هي التي ولدت بطوناً كثيرة فيتسع لذلك جوفها، لأن معنى الفارض في اللغة الواسع الضخم، والبكر الصغيرة التي لم تحمل، ﴿عوان بين ذلك﴾ والعوان: دون المسنّة وفوق الصغيرة، ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ أي اذبحوا ما أمرتم بذبحه.

٦٩ - ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾، قال إنّه ﴿يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ فاقع لونها: شديدة الصفرة، صفة مبالغة في اللون الأصفر ﴿تسر الناظرين﴾ أي تعجب الناظرين وتفرحهم بحسنها، لقد شدّد القوم

---

(١) راجع تفسير مشكل القرآن للمؤلف ستجد كلاماً مفصلاً يشفي غليلك.

فشدّد الله عليهم قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾[١].

٧٠ ـ ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي من العوامل أو من السوائم، ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي اشتبه علينا صفة البقرة التي أمرنا الله بذبحها ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ بعد البحث عنها.

٧١ ـ ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض﴾ لا ذلول: يقال للدابة التي قد ذللها الركوب والعمل، ذلول، والإثارة: إظهار الشيء بالكشف، أي أنها غير عاملة في الحراثة للزراعة تجر المحراث، ﴿ولا تسقي الحرث﴾ أي لا تستخدم لسقي الأرض المحروثة ﴿مسلمة﴾ مبرأة من العيوب، مفعلة من السلامة ﴿لا شية فيها﴾ الشية: اللون في الشيء يخالف عامة لونه، والوشي خلط اللون باللون، ولا شية فيها أي لا واضح فيها يخالف لون جلدها، ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ البيان التام، فطلبوها فوجدوها فاشتروها ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ لغلاء ثمنها، كان ذلك التردد والسؤال، أو خوف الفضيحة بكشف القاتل.

٧٢ ـ ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

﴿وإذ قتلتم نفساً فادارءتم فيها﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم إليهم، وأصل الدرء الدفع ومنه قوله[٢]: ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ هنا تقديم وتأخير مثل قوله[٣] ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً﴾ تقديره أنزل على عبده الكتاب قيماً ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾ ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي مظهر ما كنتم تسرون من القتل، وقيل معناه أنه مخرج من غامض أخباركم ومطلع من معايبكم ومعايب أسلافكم على ما تكتمونه أنتم وهو خطاب لليهود في زمن النبي ﷺ.

٧٣ ـ ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ أي قلنا لهم اضربوا القتيل ببعض البقرة، فضرب بجزء منها، فقام حيًا.

وقال: قتلني فلان، ثم عاد ميتاً، ﴿كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته﴾ وهو خطاب عام لقوم موسى ومن بعدهم، وآياته عجائب أمره ودلائل قدرته، ﴿لعلكم تعقلون﴾ تتدبرون فتعلمون أن القادر على إحياء نفس واحدة، قادر على إحياء نفوس كثيرة غيرها.

---

(١) الآية: ١٠١.

(٢) سورة النور، الآية: ٨.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١.

قسوة قلوب اليهود الموروثة

٧٤ ـ ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ أي من بعد رؤية الآيات غلظت قلوبكم ويبست، وقسوة القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه، وتلك الآيات المشار إليها هي ما مر من إحياء القتيل، ورفع الجبل وانحباس الماء والظلة ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ منها ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾

والمعنى: أن هذه الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق اللطيف، فيشقها وينفذ منها بقلة أو بكثرة فيحيي الأرض، وينفع النبات والحيوان، وأما هذه القلوب فلم تعد تتأثر بالحكم والنذر ولا بالعظات والعبر وإن منها لما ينحط من أعلى الجبل، بسبب أثر من آثار القهر الإلٰهي كالبراكين والصواعق والأمطار التي تهبط بها الصخور وتندك الجبال، فهي حوادث في الكون تفزع بها نفوس المؤمنين ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وإنما يؤخركم ليوم معلوم.

القــــراءة

﴿فهي كالحجارة﴾ قرأ قالون[1] عن نافع: فَهْيَ كالحجارة بسكون الهاء في كل القرآن ومثله وَهْوَ الحق.

استبعاد إيمان اليهود في زمن الرسول ﷺ

لما ذكر سبحانه قبائح أسلاف اليهود وسُوء معاملتهم مع نبيهم، أردفها قبائح أخلافهم المعاصرين لرسول الله ﷺ فقال:

٧٥ ـ ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه﴾ الخطاب للمؤمنين والنبي محمد ﷺ لأنهم كانوا يشاركونه الألم من إيذائهم، والطمع في هدايتهم، وقد كان بعض المؤمنين يحاول الانبساط معهم في المعاشرة إلى حد الإفضاء بالشؤون الدينية، واتخاذ بعضهم بطانة وكان يعقب ذلك من الضرر الشيء الكثير، حتى نهاهم الله تعالى عن ذلك، والسبب في ذلك كله من أحبارهم وعلمائهم ورؤسائهم في

(١) هو عيسى بن مينا، أبو موسى الزرقي مولى بني زهرة (١٢٠ ـ ٢٢٠هـ)، يقال إنّه ربيب نافع، وقد اختص به كثيراً وهو الذي لقّبه قالون (بمعنى جيد في الرومية) لجودة قراءته.

الذين الذين عناهم الله بقوله: فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه أي يغيّرونه من بعد ما عقلوه، سمعوه وفهموه ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم مفترون كاذبون والهمزة في ﴿أفتطمعون﴾ للإنكار أي لا تطمعوا فلهم سوابق بالكفر، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم.

من إعجاز القرآن الكريم كشف المنافقين

٧٦ ـ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾، فيخبر الله نبيه والمؤمنين عن أحوال المنافقين بأنهم يقولون ذلك نفاقاً للمؤمنين ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ إي إذا انفردوا مع قومهم صار بعضهم يلوم بعضاً لإخبارهم المؤمنين بأن النبي محمداً ﷺ هو المبشر به في التوراة عندهم، وبما فتح الله عليكم أي عرفكم به في التوراة من نعمة محمد ﷺ ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ وكان المسلم يلقى أخاه اليهودي من الرضاعة أو حليفه، أو قريبه، فيسأله أتجدون محمداً في كتابكم؟ فيقولون نعم، إنه الحق فسمع رؤساؤهم فقالوا لليهود في السر، أتحدثون أصحاب محمد بما فتح الله عليكم أي بما بين لكم في التوراة من أمر محمد ليخاصموكم به عند ربكم باعترافكم أنّه نبي ﴿أفلا تعقلون﴾ أن هذا حجة عليكم.

وهذا من الكشف الذي كان يتحدى به الرسول الكفار، الدال على رسالته، وإنه لإعجاز للقرآن ما بعده إعجاز.

٧٧ ـ ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون﴾ من كفرهم وتكذيبهم محمداً إذا خلا بعضهم إلى بعض ﴿وما يعلنون﴾ من قولهم آمنا إذا لقوا أصحاب محمد ليرضوهم بذلك والاستفهام للتقرير.

٧٨ ـ ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾.

﴿ومنهم أميون﴾ أي أهل الكتاب، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، لأنّه على ما ولدته أمه ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ أي لا يدرون ما في التوراة إلا أكاذيب تلقوها من رؤسائهم وسادتهم فأطاعوهم ﴿وإن هم إلّا يظنون﴾ ليسوا على يقين بل كانوا تابعين في اعتقادهم وعلمهم للكذب الذي يملى عليهم وفي كل ما يحفظونه دون فهم معناه.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: إنما يحسن تفسير هذه الآيات من كان على علم بتاريخ اليهود في ذلك العصر، هو نسخة حال لبعض الشعوب الموجودين الآن. . . كانوا أكثر الناس مراءً وجدالاً في الحق، وإن كان بيناً باهراً، وأشد الناس كذباً وغروراً وأكلاً لأموال الناس بالباطل كالربا والفواحش وغشاً وتدليساً، وتلبيساً، وكانوا مع ذلك يعتقدون أنهم شعب الله الخاص وأفضل الناس، كما يعتقد أشباههم في هذا الزمان. فهذه الأماني التي

صدتهم عن قبول الإسلام، ثم قال: ويكون المعنى: أنهم إنما يعلمون من الكتاب أنه مجموعة أماني يمنون بها أنفسهم، فهم لا يأخذون منه إلا ما هو لهم ويمدّهم في غرورهم، وأما ما ينبههم على سيئات أعمالهم فكأنه غير معروف لهم من الكتاب[١].

كذب أحبار اليهود وافتراؤهم على الله

٧٩ ـ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾ أي هلاك عظيم لأولئك العلماء الذي يكتبون الكتاب بأيديهم ويودعون فيه آراءهم ويعلمونه للناس ليتعبّدوا به قائلين إنه من عند الله ﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾ وكل ما يباع به الحق فهو قليل، لأن الحق أثمن الأشياء وأغلاها، ولذلك كرر الوعيد على الفعل فقال ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾.

٨٠ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً﴾ أي عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا تلك الأيام التي زعمتم سبعة وأربعين وغيرها حسب زعمكم ﴿فلن يخلف الله وعده أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾.

الخلود في النار

٨١ ـ ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿بلى﴾ بمنزلة نعم، إلا أن بلى جواب النفي، ونعم: جواب الإيجاب، والآية مبطلة لدعواهم ورداً لقولهم لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة ﴿من كسب سيئة﴾ السيئة هنا على إطلاقها، ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي حاصرته، وأخذت بجوانب إحساسه ووجدانه، كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجاً منها، أسير الشهوات وسجين الموبقات، وإنما تكون الإحاطة بالاسترسال في الذنوب سيئة بعد سيئة ثم التمادي والإصرار، فلا يستطيع الخلاص من هذه الإحاطة التي تمكّنت منه ـ فكأن خطيئته الأولى كبرت وصارت خطايا كثيرة، قد استولت عليه وأحدقت به من كل جانب، وبعض الناس ونعوذ بالله تصل به الخطيئة إلى الكفر والشرك، كل ذلك بسبب كسبه وما جناه على نفسه

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٦٣٠.

قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ قال النبي ﷺ «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه أي وتتوالى عليه فيصبح أسود مربداً فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في القرآن» وتلا الآية كلا بل ران على قلوبهم الخ. لمثل هذا كان السلف يقولون: المعاصي بريد الكفر، ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

هذا ما جعل بعض المفسرين يقولون إن معنى ﴿سيئة﴾ الشرك، نقول لو كان ذلك كافياً لما كان لقوله بعد ذلك ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ معنى، فإن الشرك أكبر السيئات وأعظمها، وكذلك يرد عليه، قول الله تعالى في بعض المعاصي في سورة النساء: ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها﴾[1] وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾[2].

كما أشكل ذلك على المعتزلة فقالوا بخلود مرتكب الكبيرة في النار لهذه الآيات، أقول: والخلود في النار معناه طول المكث إلى ما شاء الله، تقول أخلد فلان إلى الراحة، فهو خلود نسبي، فمن الناس من يخلد فيها حتى تنقضي عقوبته، ومنهم من يمكث فيها إلى أن يحفه الله برحمته وهكذا، وكل ذلك راجع لإرادة الله ومشيئته، قال تعالى في سورة هود: ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ ﴿خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلّا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد﴾[3].

القــــراءة

﴿خطيئته﴾: قرأ نافع بالألف (وأحاطت به خطيئاته) وقرأ الباقون على الإفراد.

الإيمان والعمل الصالح

ثم ذكر في مقابلة أهل النار أضدادهم أهل الجنة على سنته في كتابه فقال:

٨٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

أي أولئك دون غيرهم أصحابها الحقيقيون بها بحسب وعد الله تعالى وفضله، وفيه دليل على أن الوعد على الإيمان الصحيح وما يلازم من العمل الصالح هو دخول الجنة والخلود فيها من الله تعالى. إلّا من آمن فمات ولم يتسع له الوقت للعمل فهو من أهل الجنة بمقتضى إيمانه الصحيح.

بعض ما أخذ على بني إسرائيل في الميثاق

٨٣ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ

(١) سورة النساء، الآية: ١٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.
(٣) سورة هود، الآيات: ١٠٦ ـ ١٠٧.

﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ في التوراة ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ بيان له أي الميثاق، وهذا النهي مستلزم للأمر بعبادته تعالى ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ الإحسان نهاية البر، فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية ﴿وذي القربى﴾ أي يصلون أرحامهم وبه تتوثق الروابط الطبيعية بين الأقربين، ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال ﴿واليتامى والمساكين﴾ واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير، وقدم الوصية به على الوصية بالمسكين، والمساكين اسم مأخوذ من السكون، وهو الفقر، والمسكين من يعجز عن كسب ما يكفيه في يومه ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وذلك إثر بيان ما به إصلاح البيوت وإعانة الأقربين وصلة الأرحام واليتامى والمساكين، ذكر بيان حقوق سائر الأمة وهي النصيحة لهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس معناه التلطف بالقول والمجاملة في الخطاب، ولا شك أن في القيام بهذه الفرائض إصلاح الأمة كلها، وكل ذلك داخل في الميثاق الذي جاء القرآن مهيمناً ومصدقاً له.

صلاة اليهود وزكاتهم

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ لهم صلاة الصباح وصلاة العصر وصلاة المساء في الأيام العادية، وفي المناسبات تقام صلاة صباحية إضافية تعرف بصلاة (مضاف)، وتقام في يوم عيد الغفران صلاة ختامية إضافية تسمى (تيلاح) وصلاة تقام نصف الليل من (١٧ تموز إلى ٩ آب) عبري، وعند وقوع حاجة أو مصيبة أو نكبة عمومية يعلن الحاخامون عن إقامة صلاة عند حائط المبكى.

وأما الزكاة فقد كان بعض أحبارهم يزعم أنها تلك المحرقات والقرابين المفروضة لتكفير الخطايا، وقيل لهم زكاة تؤدى لآل هارون وهو إلى الآن في الأوابين، ومنها مال للمساكين، ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض، ومنها سبت الأرض، وهو تركها في كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع، وكل ما يخرج منها في تلك السنة فهو صدقة. ﴿ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق أن توليتم عن العمل به وأنتم في حالة الإعراض عنه وعدم الاكتراث له و﴿ثم﴾ تفيد أن التولي لم يكن عقب أخذ الميثاق مباشرة، وقد كان سبب ذلك التولي مع الإعراض أن الله أمرهم أن لا يأخذوا الدين إلاّ من كتابه، فاتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله ﴿إلا قليلاً منكم﴾ هذا استثناء لبعض من كانوا في زمن سيدنا موسى عليه السلام، أو في كل زمن فإنه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق والعدل بحسب معرفتهم وعلى قدر طاقتهم.

القــــراءة

﴿وقولوا للناس حسناً﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي[1] بالياء ﴿لا يعبدون إلاّ الله﴾.

(١) هو أبو الحسن علي بن حمزة، فارسي الأصل، (١١٩ ـ ١٨٩هـ)، رئيس القراء في الكوفة بعد حمزة الزيات، وهو أحد القراء السبعة.

٨٤ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾.

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ تذكير بوحدة الأمة واعتبارها كالشخص الواحد، يصيب الخلف أثر ما كان عليه السلف من خير وشر ما استنوا بسنتهم، وجروا على طريقتهم، في وقت أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثراً يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر ووجدان يتأثر، فقال ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه، ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ على هذا النسق، وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن، وهذه الأحكام لا تزال في التوراة، وإن لم يجر العمل عليها عندهم، ثم ﴿أقررتم وأنتم تشهدون﴾ أي أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم، ولا تنكرونه بألسنتكم، بل تشهدون به، فالحجة ناهضة عليكم به.

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه، ذكر نقضهم إياه فقال:

٨٥ ـ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ بقتل بعضكم بعضاً ظلماً ﴿وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم﴾ قال الفراء: أهل الحجاز يجمعون الأسير على أسارى، وأهل نجد أكثر كلامهم (أسرى) بالألف المقصورة، والمفاداة، إعطاء شيء وأخذ شيء مكانه. والتظاهر: التعاون، أصله من الظهر، يستند إليه، والإثم: المعصية، والعدوان: هو الظلم.

والمعنى: أن اليهود في زمن النبي كانوا يحتجون بكتابهم على المؤمنين، وتجري المناقشة والمجادلة معهم على ما جاء به، فكانوا يغيرون الكلام فيه، ويخفون ما لا يرضون منه ويكتمون أموراً يسوءهم إظهارها، فأعرضوا عن كثير منه ومن ذلك حرم عليهم سفك الدماء لبعضهم وأن يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، كما هو حاصل منهم حيث تحالف فريق منهم مع الأوس إحدى القبائل العربية التي أسلمت وفريق آخر تحالف مع قبيلة الخزرج التي أسلمت فكان كل فريق من اليهود يقاتل ويحارب الفريق الآخر فإذا أسر أحد من اليهود فدوه، وكانوا إذا سئلوا لِمَ تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا أمرنا بالفداء في كتابنا فردّ الله عليهم ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ من التوراة ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾.

القـــراءة

﴿تظاهرون﴾: قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر[(١)] بالتشديد (تظّاهرون).

﴿أسارى﴾: قرأ حمزة والأعمش[(٢)] بغير ألف (أسرى) وقرأ الباقون (أسارى).

﴿تفادوهم﴾: قرأ نافع وعاصم والكسائي بالألف (تفادوهم) وقرأ الباقون (تفدوهم) أي تشتروهم من العدو.

ثم أكد سبحانه ذلك الوعيد الشديد وبين سببه فقال:

٨٦ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلاً من الآخرة بما فرطوا في جنب الله وأهملوا شريعته حتى لم يتبعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم، ولا يعارض شهواتهم ﴿فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ يوم القيامة، ولا شافع يشفع لهم من دون الله.

٨٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل﴾ فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلاّ وكان فيه نبي مرسل أو أنبياء متعددون يأمرون وينهون، وقفّينا: أي أتبعنا رسولاً من بعد رسول ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ البينات: فهي ما يتبين به الحق من الحجج القيمة والآيات الباهرة وما دعا إليه من أحكام التوراة.

ويرى بعض المفسرين أن البينات[(٢)] هي المعجزات، مثل إحياء الموتى، وإبراء الأكمه الذي ولد أعمى، وشفاء الأبرص.

روح القـــدس

وأما روح القدس فهو روح الوحي الذي يؤيد الله تعالى به أنبياءه والصالحين من عباده وهو الصلة بين العبد وربه، يؤيدهم في عقولهم، ويثبت به أقدامهم ويربط به على قلوبهم، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾[(٣)] ويرى بعض المفسّرين أن يكون التأييد بروح القدس هو جبريل عليه السلام لطهارته ونقاوته، أو أن يكون روح القدس هو نفس عيسى، ولكن الأرجح لدينا هو الأول

---

(١) هو عبد الله بن عامر، ويكنّى: أبا عمران اليحصبي الدمشقي (٨ ـ ١١٨هـ)، إمام أهل الشام في القراءة، من القراء السبعة.

(٢) هو سليمان بن مهران، أبو محمد الكوفي مولى بني أسد (٦٠ ـ ١٤٨هـ).

(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

لقوله تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾[١] ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ هذا استفهام توبيخي لهم على فعلهم بالرسل الذين جاؤوهم بالبينات ومن جملتهم عيسى، فاتبعتم الهوى، وأطعتم الشهوات وعصيتم الرسل ﴿ففريقاً كذبتم﴾ رسالتهم وأنكرتم عليهم نبوتهم ﴿وفريقاً تقتلون﴾ قدم الله التوبيخ وأخر ذكر المساوىء على غير المعهود في كلام الناس العادي لتفاجىء النفوس بقوة التشنيع والتقبيح، وتبرز لها في ثوب الإنكار والتوبيخ، وفي ذلك الإيماء إلى أن هذه المعاملة السوأىٰ مما يخفى خبرها، ولا تغيب عن الإنكار صورها، وأورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال، لاستحضار الصورة الفظيعة.

قتلوا من الأنبياء المرسلين زكريا ويحيى عليهما السلام.

القـــراءة

﴿القدس﴾: قرأ ابن كثير بإسكان الدال (القدْس) وذلك في جميع القرآن.

٨٨ ـ ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿وقالوا﴾ للنبي ﷺ استهزاء ﴿قلوبنا غلف﴾ أي مغشاة بأغطية جمع أغلف وهو ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء، والمراد أننا لا نعقل قولك ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك. وهو بمعنى قول الله ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب[٢] وقد ردّ الله عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي أن قلوبهم ليست كما وصفوا غلفاً لا تفهم الحق بطبعها، وإنما أبعدهم الله من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين، وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرّفوه ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي بقليل مما في أيديهم، ويكفرون بأكثره.

وقال ابن جرير الطبري[٣]: فإيمانهم قليل، والقول في ﴿ما﴾ أنها تجمع جميع الأشياء ثم تخص بعض ما عممته بما يذكر بعدها، وهذا أفضل من القول أن ما زائدة، على معنى أنه لا يؤمن بالنبي محمد ﷺ وما جاء به إلا قليل منهم، وذلك لكي لا يذهب ذاهب إلى أنهم قوم قد سجل على عمومهم الشقاء حتى لا مطمع في إيمان أحد منهم، فجاء قوله تعالى: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ يبين أن هذا الوهم لا يصح إطلاقه على الجميع.

٨٩ ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ من التوراة ﴿وكانوا من قبل﴾ بعثة النبي محمد ﷺ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٣) هو الإمام الكبير والمحدث الشهير، من أطبقت الأمة على تقدّمه في التفسير، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفّى ٣١٠هـ.

﴿يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي يستنصرون، وكانت اليهود إذا قاتلت المشركين استنصروا باسم نبي الله محمد ﷺ فيقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ حسداً وخوفاً على مكاسبهم الدنيوية ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾. ذم لهم وبعد من الله.

٩٠ ـ ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

﴿بئسما اشتروا﴾ باعوا ﴿به أنفسهم﴾ وبئس كلمة مستوفية لجميع الذم، ونقيضها نعم، والذي باعوا به قليل من الدنيا ﴿أن يكفروا بما أنزل الله بغياً﴾ حسداً ومعنى الكلام كفروا بغياً، لأن الله نزل الفضل على النبي محمد ﷺ ﴿أن ينزل الله من فضله﴾ أي وحيه ﴿على من يشاء من عباده﴾ الرسل ﴿فباؤوا﴾ رجعوا ﴿بغضب على غضب﴾ الغضب الأول لتبديلهم التوراة، والثاني لتكذيبهم محمداً ﷺ، وتنكير الغضب للتعظيم ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ مذل.

٩١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله﴾ القرآن ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ يعنون التوراة ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أي بما بعد الذي أنزل عليهم وهو القرآن ﴿وهو الحق مصدقاً﴾ يعود على ما وراءه ﴿لما معهم﴾ من الكتب السماوية ﴿قل﴾ لهم ﴿فلم تقتلون أنبياء الله﴾ هذا جواب قولهم ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ ﴿من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتلهم والخطاب للموجودين في زمن نبينا بما فعل آباؤهم لرضاهم به وتبريرهم لتلك الأعمال والدفاع عنها.

كذبهم في ادعائهم الإيمان بالتوراة

٩٢ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ بالمعجزات بما في الألواح من الحلال والحرام والأحكام، أو الآيات التسع كالعصا واليد وأخذ آل فرعون بالسنين الجدب ونقص الثمرات والأنفس والجراد والقمّل والضفادع والدم وانفلاق البحر انظر الأعراف آية (١٣٠) ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ إلهاً تعبدونه من بعد ذهاب موسى إلى الميقات، وفي ذكر عبادتهم العجل واتخاذه إلهاً تكذيب لقولهم ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ ﴿وأنتم ظالمون﴾ باتخاذه.

٩٣ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا

يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ على العمل بما في التوراة، والكلام عن الماضي ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ الجبل المعروف بسيناء رفع إرهاباً لهم وقلنا ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ ما تؤمرون به ﴿قالوا سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي خالط حُبُه قلوبهم فكأنّهم سقوا حبه ﴿بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ المزعوم أن تكذبوا المرسلين، وتقتلوا النبيين بغير حق وتكتموا الهدى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فبئس الإيمان الذي يأمركم بعبادة غير الله الخ....

اليهود وحرصهم على الحياة

٩٤ ـ ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس﴾ كانت اليهود تزعم أن الله تعالى لم يخلق الجنة إلا لإسرائيل وولده ـ ومن ذلك زعمهم أنهم شعب الله المختار ـ فنزلت هذه الآية ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ في زعمكم أنها لكم، ومن كانت له يؤثرها والموصل إليها الموت فتمنوه وهو خير لكم من الذل والمسكنة بدفع الجزية أو القتل والسبي وغير ذلك. وقد أخبر النبي ﷺ أن من صفاتهم عدم تمني الموت بقوله تعالى:

٩٥ ـ ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ولن يتمنّوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ فما تمناه أحد منهم والذي قدمت أيديهم من قتل الأنبياء وتبديل التوراة، وتكذيب الأنبياء ﴿والله عليم بالظالمين﴾.

٩٦ ـ ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ولتجدنهم﴾ لام قسم ﴿أحرص الناس على حياة﴾ ورغم أنهم أصحاب كتاب فإنهم أحرص ﴿و﴾ حتى ﴿من الذين أشركوا﴾ المنكرين للبعث ﴿يود﴾ يتمنى ﴿أحدهم لو يعمّر ألف سنة﴾ أحدهم من اليهود والمشركين ﴿وما هو﴾ أي أحد هؤلاء المذكورين ﴿بمزحزحه﴾ مبعده ﴿من العذاب أنْ يعمّر والله بصير بما يعملون﴾.

موقفهم من الملائكة

٩٧ ـ ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ كان سبب نزول هذه الآية أنّ الرسول ﷺ سئل عمن يأتي بالوحي من الملائكة

فقال: جبريل فقالوا: هو عدونا، ﴿فإنّه نزّله﴾ أي القرآن ﴿على قلبك بإذن الله مصدّقاً لما بين يديه﴾ قبله من الكتب، ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾.

القـــراءة

في ﴿جبريل﴾ عدة قراءات:

١ - لغة أهل الحجاز بكسر الجيم والراء من غير همز وبها قرأ ابن عامر وأبو عمرو من القراء السبعة (جبريل).

٢ - جبريل بفتح الجيم وكسر الراء وبعدها ياء ساكنة من غير همز على وزن فعيل وبها قرأ الحسن البصري وابن كثير.

٣ - جبرئيل، وبعدها همزة مكسورة على وزن جبرعيل وبها قرأ الأعمش وحمزة والكسائي.

٤ - جبرئل بفتح الجيم والراء وهمزة بين الراء واللام على وزن جبرعل، رواها أبو بكر[1] عن عاصم.

٩٨ - ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ عطف على الملائكة من عطف الخاص على العام ﴿فإنّ الله عدوّ للكافرين﴾.

القـــراءة

وفي ﴿ميكال﴾ خمس لغات:

الأولى: ميكال مثل مفعال وهي لغة أهل الحجاز وبها قرأ أبو عمرو وعاصم[2].

والثانية: ميكائيل بياء ساكنة بعد الهمز مثل ميكاعيل وهي لغة تميم وقيس وكثير من أهل نجد وبها قرأ ابن عامر وابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم.

الثالثة: ميكائِل بهمزة مكسورة بعد الألف من غير ياء مثل ميكاعل وبها قرأ نافع وغيره.

الرابعة: ميكئل على وزن ميكعل قال الكسائي جبريل وميكائيل اسمان لم تكن العرب تعرفهما فلما جاءا عربتهما.

٩٩ - ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

---

(١) هو أبو بكر بن عياش الأسدي النهشلي الكوفي (٩٥-١٩٣هـ)، الإمام العلم راوي عاصم.

(٢) هو أبو بكر بن بهدلة الحناط مولى بنى أسد (١٢٧هـ)، شيخ الإقراء بالكوفة، جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد، أحسن الناس صوتاً بالقرآن.

﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلّا الفاسقون﴾ أي آيات بينات من القرآن الكريم، فيها تحدٍّ لهم.

١٠٠ ـ ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿أوكلّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ الهمزة للاستفهام، والواو للعطف على محذوف، أي أكفروا بالآيات البينات؟ والعهد الذي عاهدوه، أنّهم قالوا: والله لئن خرج محمد لنؤمننّ به، ونقض العهود ورفضها من عادة اليهود ودأبهم، كما فعل بنو قريظة يوم الأحزاب بإعانتهم المشركين.

١٠١ ـ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ محمد ﷺ ﴿مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ ما في التوراة من أنه نبي حق وغيرها من الأحكام.

قصة الملكين هاروت وماروت

١٠٢ ـ ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ أي واتبع اليهود ما كذبت به الشياطين على عهد سليمان من السحر ونسبوه إليه ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ أي لم يخرج عن طاعة الله ويتعاطى السحر وما كفر بنعمة ربه إنما كان رسولاً يعلم الناس الحق والهدى وإنما الذين كفروا بنعمة الله هم شياطين الإنس والجن، الذين ﴿يعلمون الناس السحر﴾ مخلوطاً ومدسوساً بما يأخذونه من الرجلين الصالحين من العلم ليدلسوا على الناس به ولذلك قال الله ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ والواو تدل على أن الذي يعلم الناس ما يضرهم ولا ينفعهم هم الشياطين أي أن الشياطين يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين الرجلين الصالحين اللذين اشتهرا لدى الناس بصلاحهما حتى أطلقوا عليهما ملكين، ولا دليل يعيّن أن الذي أنزل على الملكين سحر، إذ السحر موجود لدى الشياطين، والإنزال عليهما يخرجهما من كونهما ملكين، فالتوراة أنزلت على اليهود، والإنجيل أنزل على النصارى، والقرآن أنزل على المسلمين، فكلمة نزل لا يختص بها الأنبياء بل هي عامة كما قال الله في

الشعراء: ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ وقال في النساء: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾[1] وقال في سورة الروم: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾[2]. أي يائسين يقال أبلس إذا يئس، والملكان رجلان لعدة أسباب:

١ ـ سكناهما بابل إذ هي بلد بالعراق، والملائكة لا قرار لهم في مكان معين فذلك من علم الله الذي اختص به، ويؤيد ذلك قراءة ملكين بكسر اللام، وهي مروية عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير.

٢ ـ كثيراً ما يذكر القرآن ما اصطلح عليه الناس من إطلاقات، كما في قصة يوسف حيث أطلق عليه ملك كريم ﴿ما هذا بشراً إنْ هذا إلا ملك كريم﴾ ويوسف بشر.

٣ ـ تصدي الملائكة لتعليم الناس الشر والسحر الذي برأ الله منه رسله، يتنافى مع حقيقة الملائكة الذين خلقوا للخير والهداية، وأما الشر والسحر والكفر فمن دأب الشياطين وأبناء إبليس بل إن الناس بقدر ما عرفوا من عنصر الخير بالملائكة صاروا يصفون الإنسان الطاهر فيقولون فلان ملاك وبالرجوع إلى الآيات يقول الله ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ أي أن الرجلين الصالحين كانا يحذران الناس الذين يعلمونهم العلم يحذرونهم من الشر فيقولان إنما نحن أي بني الإنسان، يفتن بعضنا بعضاً ويزين بعضنا لبعض السوء، ومن ذلك الميل إلى السحز فلا تكفر والمعني بذلك هو الشيطان الإنسي أو الجني الذي خلط الخير بالشر، ومزج من العلم النافع بالسحر الضار ففتن الناس به وأضلهم ﴿ويتعلمون﴾ أي اليهود الذين اتبعوا الشياطين ﴿منهما﴾ الضمير عائد إلى الشياطين وما أنزل على الملكين، أي من كلا الأمرين، من السحر والعلم الذي أنزل على الملكين ﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أو يتعلمون من الملكين وحدهما علماً يستعملونه بالشر دون الخير ومن ذلك التفرقة بين المرء وزوجه، قد تكون التفرقة بوسائل شتى ومنها البيانية كقول الرسول ﷺ ﴿إن من البيان لسحرا﴾[3] ﴿وما هم﴾ دليل آخر على الجمع وأن الضر يأتي من جهة الشياطين والسحرة ﴿بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ بإرادته وعلمه الواسع ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي أن الذين اتبعوا الشياطين بأخذهم الشر وترك الخير، وسعيهم بضر الناس، وإفساد ذات البين إنما يتعلمون ما يضرهم ولا يستفيدون مما ينفعهم.

ويقول الشيخ شلتوت في كتابه ((إلى القرآن الكريم) عن مجمل الآيات (أخذ الله يطمئن رسوله بأن ما أنزل عليه من الآيات الواضحة، لا يكفر بها إلا من فسد طبعه وزاغ عن فطرته، وكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم، نبذوا هداية الله قديمها وحديثها، وأخذوا يصرفون الناس عن النظر في الحقائق بالأوهام والأكاذيب، كانوا يخترعون، إن ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة، وإن الملكين عندهما أشد أنواع السحر التي تفرق بين المرء وزوجه، ولمثل هذه الأحاديث شيوع فشاعت بين الناس، حتى تأثروا بها واتخذوها ديدنهم في الحياة، شغلوا بها حتى صرفتهم عن كل فضيلة، وقد بين الله الحق فيما اختلقوا على سليمان وعلى الملكين، وقرر أن سليمان ما كان ساحراً وما كفر بنعمة ربه، إنما كان هادياً ورسولاً، وإن الملكين: الرجلين الصالحين، ما كانا بمفسدين في الأرض ولا بمدلسين على الناس، إنما كانا ناصحين أمينين، ولكن المفسدين أنكروا على سليمان النبوة والملك الإلهي

(١) الآية: ١٥٣.
(٢) الآية: ٤٩.
(٣) متفق عليه.

كما أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين، في معرفة خصائص الأشياء وأسرار النفوس، وزعموا أن ما عندهما وما عند سليمان سحر وشعوذة).

﴿ولقد﴾ لام قسم ﴿علموا لمن اشتراه﴾ اختاره أي الشر وعبر بالشراء كأنه دفع به الثمن ﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾ النصيب الوافر من الخير ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾ أي باعوها به ﴿لو كانوا يعلمون﴾ العقاب فيه.

١٠٣ ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ولو أنهم﴾ أي اليهود ﴿آمنوا﴾ بالنبي محمد ﷺ ﴿واتقوا﴾ عقاب الله ﴿لمثوبة﴾ ثواب ﴿من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ يعلمون بعلمهم الذي بين أيديهم لهداهم ولكنهم قالوا قلوبنا غلف.

أدب وتوجيه رباني للمؤمنين

لما شرح الله قبائح اليهود شرع في قبائح أخلاق المعاصرين منهم لرسول الله ﷺ فقال:

١٠٤ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا﴾ للنبي ﴿راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾ كان المسلمون يقولون للرسول ﴿راعنا﴾ أي راع أحوالنا، مأخوذ من الرعن والرعونة، وذلك لأن المنافقين من اليهود يقولون للرسول ﷺ راعنا ويقصدون بها أنت أرعن. فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب، وفيه النهي عن الجائز في المقام الذي يجعله وسيلة إلى المحرم، وفيه الأدب ﴿وقولوا انظرنا﴾ بمعنى انتظرنا ﴿واسمعوا﴾ سماع قبول ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ مؤلم هو النار.

الآيات الكونية وتفسير آية ما ننسخ من آية

١٠٥ ـ ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ الخير عام في كل شيء فيشمل الرسالة والآيات آيات القرآن والآيات الكونية كالمطر الذي به الخير والنفع ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ من الأشخاص فيختصهم بالنبوة أو العباد فيختصهم بسوق الخير لهم والنعمة عليهم ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

١٠٦ ـ ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ما ننسخ من آية﴾ من آيات الله الكونية، المعجزة أو العلامـة الدالة على قدرة الله تعالى ومخلوقاته وقد تطلق الآية على الشريعة والنبوة، فيكون المعنى: ما ننسخ من شريعة أو نبوة أو رسالة مما سبق، ويكون المقصود من الآية، إنما هو التعريف بالكفار من أهل الكتاب والمشركين حيث كانوا يستكثرون الخير الذي اختص الله به نبيه محمداً ومن تبعه من المؤمنين، ويحسدونهم على ذلك كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة، فصاروا لا يفتأون يؤذونه بانتهاز كل فرصة لتعويق دعوته.

وبتلاوة ما قبل الآية وما بعدها يتضح معناها فأول الآيات قوله في سورة البقرة ﴿ما يود الذين﴾ ثم يأتي بعدها ما ننسخ من آية. وكان اليهود يستأثرون بالنبوة بأنفسهم، ويحسدون العرب على أنها جاءت فيهم وكان حسدهم للنبي ﷺ أشد ما يكون، وهو ﴿النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ ثم انظر بقية الآيات التالية لتستخلص منها المعنى.

﴿أو ننسها﴾ أي نجعلها منسية كأن لم تكن، فلا تذكر، وهذا ما لا يصح أن ينطبق على آيات القرآن التي تكفل الله بحفظها فلا تنسى والله يقول ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ و﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾ وإزالة الآيات الكونية والشرائع السابقة أو نسيانها وارد، وفيه أدلة كثيرة ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ وقوله في سورة الأعراف ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾.

﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ وهذا ما لا يصح أن ينطبق على القرآن فما الفائدة من نسخ آ ية ثم الإتيان بمثلها والقرآن كله كلام الله وكله خير وهذا ما يمكن أن ينطبق على الشريعة أو الآيات الكونية التي يزيلها الله ويأت بخير منها أو مثلها لحكمة يراها سبحانه، أي بعد أن ينتهي ذلك الشيء يأت الله بمثله أو خير منه مثل المطر والزرع والمعادن والأرزاق. وكل ما يدل على قدرة الله ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ وهذا التعبير بالقدرة يعزز الدلالة بالآية الكونية، والدعوة إلى توحيده سبحانه.

١٠٧ - ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ والقول بأن هذه الآية نزلت للرد على اليهود لما نسخت قبلة بيت المقدس في قولهم إن محمداً يحلّ لأصحابه إذا شاء، ويحرم عليهم إذا شاء ليس هذا موضعه بل موضعه قول الله: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب﴾(١) فآية ما ننسخ بعيدة عن هذا الموضوع.

١٠٨ - ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾ هذه الآية متصلة المعنى بما سبقها من الآيات بدليل قوله

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

أم بمعنى بل وهي هنا للاستفهام، لأنها مردودة على استفهام قبلها، وهو قوله تعالى ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ وسبب نزولها أن الكفار سألوا النبي عدة آيات كونية مثل ﴿ائتنا بكتاب نقرؤه مكتوباً كما جاء موسى بالتوراة لبني إسرائيل وفجر لنا في الأرض أنهاراً أو إئت بالله والملائكة قبيلاً أي مقابلة فيروهم كما سئل موسى من قبل حين طلب بنو إسرائيل منه أن يريهم الله جهرة حيث قالوا ﴿أرنا الله جهرة﴾ ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ وهذه الآية تؤكد أن معنى ما ننسخ من آية بأن المراد الآية الكونية وليست الآية القرآنية لأن سياق الآيات لا يجعل هذه الآية دليلاً للقائلين بالنسخ في القرآن. وحتى كلمة الإزالة التي هي تفسير للنسخ لغة لا تسعف القائلين بالنسخ.

موقفهم من المؤمنين

ثم ذكر نوعاً آخر من مكائد اليهود فقال:

١٠٩ ـ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ من عند أنفسهم موصول بـ (ود كثير) لا بقوله ﴿حسداً﴾ لأن حسد الإنسان لا يكون إلا من عند نفسه، والمعنى مودتهم لكفركم من عند أنفسهم، والحسد تمنّي زوال نعمة الغير ﴿من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا﴾ عنهم اتركوهم ﴿واصفحوا﴾ اعرضوا وكان الكفار يؤذون النبي ﷺ وصحابته من الهجاء بالشعر والصد عن الدعوة الإسلامية فأمر النبي بالصفح عنهم ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ بحكمه فيهم ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فجاء الله بأمره في بني النضير بالجلاء والنفي وفي بني قريظة بالقتل والسبي. وإنما قال كثير كحي بن أخطب وأخيه ياسر وكعب بن الأشرف وأمثالهم لأنه إنما آمن منهم القليل كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار.

١١٠ ـ ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

موقف كل من اليهود والنصارى من بعض

١١١ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هودا﴾ جمع هائد ﴿أو نصارى﴾ قال ذلك يهود المدينة والنصارى لما تناظروا بين يدي النبي ﷺ قال اليهود: لن يدخلها إلا اليهود وقال النصارى لن يدخلها إلا النصارى ﴿تلك أمانيهم﴾

أي ذلك شيء يتمنونه، وظن يظنونه ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ حجتكم على ذلك ﴿إن كنتم صادقين﴾ في قولكم.

١١٢ - ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

﴿بلى من أسلم وجهه لله﴾ أي أخلص في الدين والعمل إنفاذاً لأمر الله، وخصّ الوجه لأنّه أبرز ما في المواجهة أو لأنّه أشرف الأعضاء في الإنسان، فيقال: كرم الله وجهه، ويقال: كرم الله وجه فلان ﴿وهو محسن﴾ في عمله ﴿فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

١١٣ - ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ على حق وكفرت بعيسى ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ من الحق وكفرت بموسى ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ المنزل عليهم ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون﴾ أي المشركون وعبر القرآن فيهم بأنهم لا يعلمون لكون قولهم على جهل ﴿مثل قولهم﴾ قالوا لأهل الأديان ليسوا على شيء ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

تخريب المساجد

جرى ذكر المشركين في قوله تعالى: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون﴾ فعقب ذلك بسائر قبائحهم فقال:

١١٤ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها﴾ عام في كل مسجد أو في أي منع يؤدي إلى التعطيل لها ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ من عذاب الله ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ الخزي هو عقوبة ذل وهو أمر غير محسوس ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾.

١١٥ - ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ قيل في سبب نزولها إن الصحابة كانوا مع رسول الله ﷺ في غزوة في ليلة مظلمة فلم يعرفوا القبلة فصلوا فلما أصبحوا إذ هم على غير القبلة، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت: وعلى هذا فيكون في الآية حكم مرخص للمجتهد في القبلة ولم يعرفها إذا صلّى إلى الجهة التي غلبت على اجتهاده أنها القبلة فصلاته صحيحة، وهناك ترخيص خاص في صلاة التطوع على الراحلة، وفي صلاة الخوف،

﴿إن الله واسع عليم﴾ وفي الحديث الصحيح ﴿جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً﴾[١] وكل ذلك من تيسير الله على الناس، فرحمته واسعة، وعلمه محيط بالنيات ويعلم الأفعال والأقوال.

١١٦ ـ ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾.

﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون﴾ قال اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى في نجران: المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله، القائلون هم الكفار من أهل الكتاب والمشركون، والقنوت: القيام بأمر الله لطاعته هو لزوم الطاعة مع الخضوع.

١١٧ ـ ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

﴿بديع السماوات والأرض﴾ موجدهما لا على مثال سبق ﴿وإذا قضى أمراً﴾ أي إذا أراد إيجاد أمر ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾.

القــــراءة

وقرأ ابن عامر من القراء السبعة بنصب فيكونَ.

١١٨ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾.

﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ أي الكفار ﴿لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾ ووجه الارتباط بين الآيتين أن الأولى قدح في توحيد الله، وهذا قدح في النبوة، والذين لا يعلمون هم جهلة المشركين يقولون ذلك بإيعاز من اليهود وقصدهم في ذلك مما اقترحوه من قبل في طلب الآية الكونية مثل ما طلب قوم موسى فردّ عليهم القرآن ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ في الكفر ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ أي قد أوضحنا كثيراً من الآيات الكونية والعلمية الدالة على صدق رسالة محمد ﷺ، وعرفها القوم الذين يعلمون الأمور للمعرفة دون عناد. وكان اليهود قد طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة، وطلبوا من غيره أن يأتيهم التابوت فقال الكفار ذلك كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾[٢] وقالوا: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾[٣]، وقالوا: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾[٤].

تحذير الرسول من اليهود والنصارى

لما بيّن إصرارهم على العناد بعد نزول ما يكفي من الآيات أراد أن يسلّي رسوله فقال:

---

(١) متفق عليه وفي رواية وتربتها طهوراً.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٠.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢١.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٥.

١١٩ - ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ بشيراً بالجنة ونذيراً من النار، والحق هو القرآن والإسلام ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾.

القــــراءة

وقرأ نافع ويعقوب[1] بفتح التاء وسكون اللام على معنى النهي عن السؤال عنهم ﴿تسأل﴾ وعلى هذه القراءة يكون المعنى لا تسأل عنهم فإنهم في أمر عظيم، فأما الجحيم فهي النار والجمر على الجمر أو النار الشديدة الوقود.

١٢٠ - ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ دينهم ﴿قل إن هدى الله﴾ الإسلام ﴿هو الهدى﴾ وما عداه ضلال ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم﴾ من الوحي بالقرآن والإسلام والعلم بضلالة القوم الكافرين ﴿ما لك من الله من ولي﴾ ينفعك ﴿ولا نصير﴾ يمنعك منه.

١٢١ - ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾.

بعد تعداد مواجب النقم رجوع إلى أول القصة تذكيراً للنعم يتنبّه منهم من وفّق للتنبه فقال:

١٢٢ - ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

١٢٣ - ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

﴿واتقوا﴾ خافوا ﴿يوماً لا تجزي نفس على نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل﴾ فداء ﴿ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ يمنعون من عذاب الله.

إبراهيم عليه السلام وتكوين البيت

إنه تعالى لما استقصى في شرح نعمه على بني إسرائيل والمشركين ومقابلتهم النعمة بالكفران والعناد شرع في نوع آخر من البيان فقال:

١٢٤ - ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن زيد، أبو محمد مولى الحضرميين (١١٧ - ٢٠٥هـ)، إمام أهل البصرة ومقرئها، من أحد القراء العشرة.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه﴾ الابتلاء هو الاختبار والمراد أنه كلفه بتكاليف ليجازيه عليها، فاختبر بكلمات أي بعدة أمور اجتازها ونجح فيها ﴿فأتمهن﴾ أداهن بكمال حسب ما أمره الله تعالى ولا يمنع أن تكون تلك الأشياء المعبر عنها بكلمات ـ البحث عن الله بالكوكب والشمس والقمر، والهجرة من مكان إلى مكان بعيد والنار، وذبح ولده إسماعيل وغيره، لذلك استحق من الله أن قال له ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ واتخذه خليلاً أي محبوباً ﴿قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي﴾ الإمامة والنبوة ﴿الظالمين﴾.

١٢٥ ـ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

﴿وإذ جعلنا البيت﴾ الكعبة ﴿مثابة للناس﴾ المثابة المعاد وثاب إليه إذا عاد والمراد أن الناس يعودون إليه مرة بعد مرة ﴿وأمنا﴾ يأمن به كل أحد حتى الوحش وحتى الجمادات كالأشجار ولهذا كانوا في الجاهلية على شركهم يحترمونه أشد الاحترام ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه الثأر فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً، فمن دخله من أي جنسية كان آمناً ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم﴾ هو الحجر الذي قام عليه ووقف عليه عند بناء البيت، ﴿مصلى﴾ مكان صلاة ركعتي الطواف، ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع والسجود﴾.

القـــراءة

وقرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على الخبر ﴿واتخذوا﴾.

١٢٦ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ ذا أمن وقد أجاب الله دعاءه فجعله حرماً لا يسفك فيه الدم ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده، ولا يختلى خلاه ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ والمعنى: لما دعا إبراهيم لهذا البيت أن يجعله الله بلداً آمناً ويرزق أهله من أنواع الثمرات، قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين تأدباً مع الله إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق. ﴿قال ومن كفر فأمتعه﴾ والإمتاع إعطاء ما تحصل به المتعة، ﴿قليلاً﴾ مدة زمن ﴿ثم أضطره إلى عذاب النّار﴾ أدفعه إلى النار وأسوقه إليها في الآخرة ﴿وبئس المصير﴾ المرجع والمآب.

القـــراءة

قرأ ابن عامر بالتخفيف ﴿فأمتعه﴾.

تضرع ودعاء

١٢٧ - ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد﴾ القواعد أساس البيت واحدها قاعدة، فأما قواعد النساء فواحدتها قاعد وهي المرأة العجوز ﴿من البيت وإسماعيل﴾ يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع﴾ السامع بمعنى المسامع للقول ﴿العليم﴾ بالفعل.

١٢٨ - ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك﴾ دعا إبراهيم وإسماعيل الله أن يتقبل منهما عملهما حتى يجعل فيه النفع العميم، ودعوا لأنفسهما وذريتهما من بعدهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح فاستجاب الله دعوته ﴿وأرنا مناسكنا﴾ جميع أفعال الحج من الذبح وغيره. ﴿وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم﴾.

القـــراءة

وقرأ ابن كثير بجزم الراء ﴿وأرنا﴾.

١٢٩ - ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ فيهم راجع إلى أهل مكة كما في قوله ﴿وارزق أهله﴾ والرسول هو النبي محمد ﷺ حيث أجاب الله دعاءه ﴿يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ المراد بتلاوة الآيات عليهم الآيات القرآنية الدالة على وجود الله ووحدانيته، ولهذا قدمت على الكتاب في مجمله وهو القرآن والحكمة هي السنة ﴿ويزكيهم﴾ يطهرهم من الشرك والكفر ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ العزيز الغالب قال تعالى: ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي غلبني والغالب هنا الذي لا يعادله شيء لا في القوة ولا في المثل.

١٣٠ - ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ من لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها التقرير والتوبيخ. والمعنى: ما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ويقال رغبت في الشيء إذا أردته، ورغبت عنه إذا تركته ﴿إلا من سفه نفسه﴾ جهل

نفسه فلم يفكر في عقله ﴿ولقد اصطفيناه﴾ اخترناه ﴿في الدنيا﴾ بالرسالة ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ الفائزين.

١٣١ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١٣٢ ـ ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

﴿ووصّى بها﴾ الهاء تعود على الملة، ﴿إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ بنيه ﴿يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ يريد إلزموا الإسلام فإذا أدرككم الموت وجدكم ممسكين به وبتعاليمه السمحة.

القــــراءة

قرأ ابن عباس وأهل المدينة[1] ﴿وأوصى﴾ بألف مع تخفيف الصاد.

الرد على اليهود أنّهم على دين إبراهيم

١٣٣ ـ ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

﴿أم[2] كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي﴾ بعد موتي ﴿قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ عدّ إسماعيل من الآباء وذلك لأنّه عمّ يعقوب والعرب كانت تطلق على العم أباً، والقرآن نزل بلغة العرب، ﴿إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾.

في الآية استفهام إنكاري وجّه إلى اليهود عن وصية جدهم يعقوب لآبائهم، إذ أنّ خلاصة هذه الوصية عقيدة الوحدانية في العبادة وإسلام القلب لله تعالى والإخلاص له، بما جاء به الأنبياء وآخرهم محمد ﷺ فبينت هذه الآيات أن الدعاوي من التعصب للتقاليد من اليهود والنصارى وغيرهم من العرب المشركين ممن يزعمون أنّهم على دين إبراهيم زعم باطل، ولذلك قال الله تعالى في سورة الشورى، الآية: ١٣ ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ والقرآن جاء يطالب الجميع بالاتفاق في الدين والاجتماع على عبادة الله وحده.

١٣٤ ـ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي مضت والإشارة إلى إبراهيم وبنيه، ويعقوب وبينه وخلت سلفت ومضت ﴿لها ما

(١) كلمة أهل المدينة تعني نافعاً وأتباعه.
(٢) «أم» سبق الكلام عليها عند الكلام على (١٠٨).

كسبت﴾ من العمل ﴿ولكم ما كسبتم﴾ والخطاب لليهود ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ كما لا يسألون عن أعمالكم.

شبه الطاعنين والرد عليها

لما بيّن الله بالدلائل المتقدمة صحة دين الإسلام ذكر أنواعاً من شبه الطاعنين فقال:

١٣٥ - ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ أو للتفضيل قالت اليهود للمسلمين كونوا هوداً، وقالت النصارى لهم كونوا نصارى ﴿قل بل﴾ نتبع ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ قال ابن قتيبة[1] الحنيف المستقيم كما يقال للأعرج حنيف. وكما يقال للأعمى بصير.

وعلى كل فمعناها اللغوي المائل إلى الشيء، والمقصود فيها، مائلاً عن الأديان التي تدعونها ﴿وما كان من المشركين﴾.

١٣٦ - ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ من القرآن ﴿وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أولاد يعقوب الذين تتابعت منهم قبائل بني إسرائيل وشعوبهم جمع سبط وهو ولد الولد ﴿وما أوتي موسى﴾ من التوراة ﴿وعيسى﴾ من الإنجيل ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾ من الكتب والآيات ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾.

١٣٧ - ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

﴿فإن آمنوا﴾ أي أهل الكتاب ﴿بمثل﴾ جاءت الباء للتوكيد كما وردت كذلك في قوله تعالى: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ بسورة مريم ﴿ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق﴾ خلاف معكم، ويلزم من المشاقة الحادة والعداوة البليغة التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذيّة الرسول وأصحابه لبعدهم عن الإيمان الذي يلين قلوبهم ويلطف طباعهم فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم لأنه السميع لجميع الحاجات العليم بما بين

(١) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم المروزي (٢١٣ - ٢٧٦ هـ). قال مسلم بن قاسم: «كان ابن قتيبة: لغوياً كثير التأليف، عالماً بالتصنيف، صدوقاً، من أهل السنة.

أيديهم ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع﴾ لأقوالهم ﴿العليم﴾ بأحوالهم وهذا ضمان لنصر النبي ﷺ على أعدائه.

١٣٨ ـ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾.

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ صبغة الله دين الله وإنما سمى الدين صبغة لبيان أثره على الإنسان كظهور الصبغ على الثوب وهذا إشارة إلى أن المسلم يجب أن يظهر بالشخصية الإسلامية المميزة له.

١٣٩ ـ ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾.

﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ كان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين وهذه مجرد دعوى تفتقر إلى الدليل والبرهان فإذا كان رب الجميع واحد ليس رباً لكم دوننا، وكل منّا ومنكم له عمله وإنما حصل التفضيل عليكم بإخلاصنا للأعمال الصالحة لله وحده وفي هذه الحالة وصف للمؤمنين وحدهم فيتيقن أنهم أولى بالله من غيرهم لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص.

١٤٠ ـ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله﴾ أي الله أعلم وقد برأ إبراهيم منهما بقوله: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد لهم.

القــــراءة

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو عمرو ﴿أم يقولون﴾ بالياء على وجه الخبر عن اليهود.

١٤١ ـ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي قد مضت ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم، ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم.

المسلمون وسط بين الأمم

يورد الله شبهة ثانية من أهل الكتاب طعناً من الإسلام مخبراً بأنهم سيقولون ذلك وهذا من إعجاز القرآن فيقول:

١٤٢ ـ ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ

وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ تعم أهل الكتاب والمشركين، ﴿السفهاء﴾ جمع سفيه، من السفه وهو الخفة الناشئة من نقصان العقل ﴿ما ولّاهم﴾ أي شيء صرف النبي والمؤمنين ﴿عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ على استقبالهم في الصلاة وهي بيت المقدس، فإذا قال الكفار من أهل الكتاب والمشركون ذلك ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ فبالرغم من أن بيت المقدس يعتبر شمال جزيرة العرب، ومكة تقع في الجنوب إلّا أن الإشارة إلى المشرق والمغرب في الآية تنبيه إلى ملك الله سبحانه لجميع الجهات ومن فيها.

١٤٣ - ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ أي عدولاً والعدل: الخيار، وأصل ذلك القول خير الأمور أوساطها، ووسط هذه الأمة أن النبي محمداً ﷺ بعث فيها بمنطقة وسط بين الشرق والغرب، وربما شمل الوسط اليوم على المعنيين المتقدمين منطقة المسلمين عامة، فهي أعدل المناطق وأخيرها بما حباها الله من نعمة، وهي ميزة واضحة لمعنى خاص وذلك ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ من الأمم والشعوب السابقة واللاحقة، بأن محمداً ﷺ قد بلغ الرسالة، كما بلغها الأنبياء والرسل من قبل ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ بأنه بلغكم الرسالة، وفي هذا دعوة للمؤمنين لحمل الدعوة الإسلامية وتبليغها للناس بعد النبي ﷺ لأن الرسول سوف يشهد علينا يوم القيامة ونحن نشهد على الناس بما نعلمهم، ولذلك وجب علينا أن نكون قدوة صالحة لهم ليقتدوا بنا وهذه نعمة كبرى فلنحمد الله عليها، ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ أي بيت المقدس الذي صلى إليه نحو ثمانية عشر شهراً ﴿إلّا لنعلم من يتبع الرسول﴾ العلم بالنسبة لله قديم، ولكن المراد به هنا ليظهر فتعلموه أنتم واقعاً ﴿ممن ينقلب على عقبيه﴾ أي يرجع إلى الكفر لضعف إيمانه، وقد ارتد لذلك جماعة ﴿وإن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي: وإنها ﴿كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾ المراد بالكبيرة الردة من الإسلام إلى الكفر، ولذلك استثنى الله الذين هداهم الله لقوة إيمانهم، فالمسألة فيها اختبار كبير شاق على اليهود والمنافقين ومن انخدع فيهم ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ وسبب نزولها أن المسلمين قالوا يا رسول الله أرأيت إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فنزلت ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم وعبادتكم.

القـــــراءة

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿لرؤف﴾ على وزن رعُف وهي لغة حجازية وقرأ الباقون: ﴿لرؤوف﴾ على وزن «فعول».

تحويـل القبلـة

١٤٤ ـ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ متطلعاً إلى الوحي ومتشوّقاً لاستقبال الكعبة، وكان النبي ﷺ يود ذلك، لأنها قبلة إبراهيم ومعنى تقلب وجهه: نظره إليها و﴿في﴾ بمعنى إلى ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ ذكر الفخر الرازي أن الله أعطى سيدنا محمداً ﷺ ثلاثة مواضع في القرآن رضاء له أولها: ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ وثانيها ﴿لعلك ترضى﴾ وثالثها ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾[1] أي الكعبة ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق﴾ الإشارة إلى ما أمروا به من التوجه إلى الكعبة ﴿من ربهم﴾ أي يعلمون أن ذلك التحوّل من الله، وليس من محمد لكونه مذكوراً في كتبهم أنه نبي صادق لا يكذب ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ في ذلك توعد لهم على كتمان الحق مما علموا وفي الآية دليل على نسخ السنة العملية بالقرآن، إذ أن الصلاة إلى بيت المقدس ثابتة بالسنة بوحي الله لنبيه وأمره له.

١٤٥ ـ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ أي أن الجدال والنصح معهم أصبح لا يجدي، فقد قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم، فليسوا بتابعي قبلتك عنادا، ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ حتماً ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ فاليهود يصلون قبل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قبل المشرق وكل منهم لا يرى الآخر على شيء ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ الخطاب لكل فرد مسلم، المراد بالأهواء، أهواؤهم الباطلة التي يدعون إليها ﴿من بعد ما جاءك من العلم إنك﴾ يا من تتبعهم ﴿إذاً لمن الظالمين﴾ تظلم نفسك.

١٤٦ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه﴾ أي الحق ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ لأنه في كتبهم ﴿وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ وقد ورد في سورة الأنعام مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما

(١) المسجد الحرام له مدلولات ثلاثة، الكعبة، المسجد الحرام، الحرم.

يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾[١].

١٤٧ ـ ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾.

﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ أي الشاكين، والخطاب يقتضي العموم.

١٤٨ ـ ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾.

﴿ولكل﴾ من الأمم السابقة على الإسلام ﴿وجهة﴾ قبلة في الصلاة ﴿هو موليها﴾ الله موليها إياهم ﴿فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾.

القــــراءة

قرأ ابن عامر ﴿هو مولاها﴾ بفتح اللام، وقرأ الباقون ﴿هو موليها﴾ أي متبعها.

١٤٩ ـ ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾.

﴿ومن حيث خرجت﴾ لسفر أو غيره ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعلمون﴾ تكرار تأكيد ليحسم طمع أهل الكتاب في رجوع المسلمين إلى قبلتهم.

القــــراءة

قرأ أبو عمرو ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ بالياء وقرأ الباقون بالتاء.

١٥٠ ـ ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾.

﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ أي المسجد الحرام بمكة في الصلاة والحج، كرر ذلك للتأكيد ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ أي مجادلة في التولي إلى غيره من مسائل الدين، وتسمية باطلهم على وجه الحكاية، عن المحتج به، كقوله تعالى في سورة الشورى ﴿حجتهم داحضة﴾[٢] ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي الذين ظلموا باحتجاجهم فيما قد وضح لهم ﴿فلا تخشوهم﴾ في

---

(١) الآية: ٢٠.

(٢) الآية: ١٦.

انصرافكم إلى الكعبة. ﴿واخشوني﴾ في تركها وامتثال أمري ﴿ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾.

١٥١ ـ ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾ والآية خطاب للمشركين ﴿يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم﴾ يطهركم من الشرك ﴿ويعلمكم الكتاب﴾ القرآن ﴿والحكمة﴾ السنة ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ من قبل.

١٥٢ ـ ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

﴿فاذكروني﴾ بطاعتي ﴿أذكركم﴾ بمغفرتي، واذكروا في جواب ﴿كما أرسلنا﴾ والمعنى إن تذكروني أذكركم ﴿واشكروا لي﴾ نعمتي والشكر: الاعتراف بحق المنعم مع الثناء عليه، ﴿ولا تكفرون﴾ بعدم شكرها.

الصابرون والمقاتلون في سبيل الله

لما أوجب الله تعالى بقوله: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي﴾ جميع الطاعات ورغّب بقوله: ﴿ولا تكفرون﴾ لمباشرة جميع المنهيات، ندب إلى الاستعانة عن تلك الوظائف بالصبر والصلاة فقال:

١٥٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أمر الله بالاستعانة على الأمور الدينية والدنيوية العامة بالصبر والصلاة، فالصبر هو حبس النفس وكفّها عما تكره، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابرين أن يدركوا مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة مثل الصيام والصلاة، والاستعانة بالصلاة فلعظمها وتكررها وأنها عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، وبها تطمئن القلوب لأن فيها ذكر الله ومناجاته بالدعاء بل إن الصلاة نفسها كلها دعاء، فتفتتح بالتكبير، وتختتم بالتسليم، والله يقول: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1]، وهذه الآية متعلقة بما سبقها فاذكروني أذكركم وبما بعدها بما سنبينه من المعنى الإجمالي للآيات التالية.

١٥٤ ـ ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

لما ذكر الله الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال ذكر هنا نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات وأشقّها على النفس ولكونه مؤدّياً للقتل وعدم الحياة، ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلاّ لمحبوب أعلى وأعظم منه، فأخبر تعالى أن من قتل في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا لم تفته الحياة المحبوبة بل حصلت له حياة أعظم وأكمل مما تظنون، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾[1]، فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه مما يعود مردوده بدنياً وروحياً، بل جاء في الحديث الصحيح «إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش»[2]، وفي هذه الآية إخبار بأن الشهادة في سبيل الله حياة أبدية خالدة، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلّف عن الجهاد أحد.

١٥٥ ـ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف﴾ الخوف هو الفزع في القتال وغيره للعموم ﴿والجوع ونقص من الأموال﴾ ذهاب الأموال بالهلاك، أو عدم الإنبات للزرع ﴿والأنفس﴾ بالقتل في الحَرب أو الموت بالمرض نتيجة لنقص الأموال والجوع والفزع، ﴿والثمرات﴾ أي، وشيء من نقص الثمرات كذلك ﴿وبشّر الصابرين﴾ على البلاء بالجنة.

١٥٦ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾.

١٥٧ ـ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾.

﴿أولئك عليهم صلوات﴾ مغفرة ﴿من ربهم ورحمة﴾ نعمة ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ بالاسترجاع إلى الصواب.

بعض شعائر الحج

لما كان السعي بين الصفا والمروة من شرائع إبراهيم عليه السلام كما في قصة هاجر فذكر عقب تحويل القبلة الذي فيه إحياء شرع إبراهيم فقال:

١٥٨ ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿إن الصفا والمروة﴾ جبلان بمكة ﴿من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ وسبب نزولها أن رجالاً من الأنصار قالوا يا رسول الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة إلا تعظيماً للصنم مناة فهل علينا من حرج أن نطوف بهما فنزلت هذا الآية كما في الصحيح، والصفا في اللغة: الحجارة الصلبة، وواحده صفاة، والمروة: الحجارة اللينة، وشعائر الله: أي من أعلام متعبداته، وواحدتها شعيرة، والجناح، الإثم، وإنما

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ ـ ١٧١.
(٢) رواه مسلم.

تحرّج المسلمون من الطواف بينهما لوجود الأوثان عليهما في الجاهلية ﴿ومن تطوع خيراً فإنّ الله شاكر عليم﴾ أي زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب شوطاً ثامناً وتاسعاً ونحو ذلك فإن الله يثيب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه، ﴿لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾[1].

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿يطوع﴾ بالياء وجزم العين، وقرأ الباقون: بالتاء وفتح العين على لفظ المضيّ ومعناه الاستقبال. ثم بدأ الله بكلام مُستأنف يتناول كل من كتم شيئاً من الدين سواء من أهل الكتاب أو من غيرهم مما يتعلق بصفة النبي ﷺ أو غير ذلك فقال:

١٥٩ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾.

﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ الذين عام فيشمل أهل الكتاب بكتمانهم البينات الواضحات الدالات على نبوة محمد ومواضع الهدى في دين الإسلام، ويشمل كذلك المسلمين من الذين يتقاعسون عن الدعوة إلى الله وعملهم هذا بمثابة الكتمان لعلم الله ﴿من بعد ما بيناه للناس في الكتاب﴾ ويشمل الكتاب جميع الكتب السماوية وما فيها من الهدى ولا شك أن القرآن قد نسخها لتضمنه كل ما فيها وهيمنته على جميع شرائعها ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ واللاعنون هم الملائكة والمؤمنون.

١٦٠ ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿إلّا الذين تابوا وأصلحوا﴾ عملهم ﴿وبينوا﴾ علمهم وما كتموا ﴿فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾

إثبات وحدانية الله

١٦١ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾.

إنما شرط الموت على الكفر، لأن حكمه يستقر بالموت عليه، ولعنة الناس أجمعين راجع إلى يوم القيامة ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾[2] وقال في سورة الأعراف ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾[3] وربما أريد بالناس التغليب.

١٦٢ ـ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾.

﴿خالدين فيها﴾ النار ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ يمهلون.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

١٦٣ - ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾.

﴿وإلهكم إله واحد﴾ وسبب نزولها أن الكفار قالوا يا محمد صف لنا ربك، فنزلت هذه الآية وسورة الإخلاص، والإله المعبود، واحد لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ﴿لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾.

١٦٤ - ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك﴾ والفلك هي السفن ﴿التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي بعد يباسها ﴿وبثّ فيها من كل دابة﴾ من كل نوع زوجين، والدابة: كل ما يدبّ على وجه الأرض من حيوان وحشرات، وغلّب اللفظ على ما يركب ويحمل عليه كالحمار والحصان والبغل ﴿وتصريف الرياح﴾ أي تقلبها شمالاً مرة وجنوباً مرة أخرى، ودبوراً حيناً وصبا حيناً آخر، وعذاباً ورحمة، حارة وباردة، وجافة ورطبة، وتكون لواقح، وإلى غير ذلك من مهامها المتعددة، وأنواعها حسب قدرة الله ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ المذلل والآية في السحاب ابتداء كونه غيماً، وانتهاء تلاشيه وقيامه بلا دعامة ولا علاقة تمسكه، وإرساله إلى حيث يشاء الله تعالى دون أن يغرق البشر فيموتوا ولا ينقطع عنهم فيهلكوا ولكنّه يتزل بقدر ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ نعم آيات فالسماوات تدل على صانعها، إذ هي قائمة بغير عمد ترونها.

والأرض في ظهور ثمارها وتمهيد سهولها، وبسط أرضها، وإرساء جبالها وهي مكورة لا تميد بكم، وما بها من عوالم الحيوان والنبات والمعادن والأنهار، أفلا يدل ذلك على صانع منفرد بالوحدانية، إذ لو كان له شركاء لاختل النظام ﴿لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا﴾ واختلاف الليل والنهار وطولهما وقصرهما، حرارتهما وبرودتهما، واختلاف الفصول بسبب خطوط الطول والعرض، كل ذلك يدل على الواحد الأحد الفرد الصمد، وهذه السفن تجري على الماء حسب قانون نظرية ثقل الأجسام، وطبيعة الرياح، واختلاف المناخ، وتعاقب الليل والنهار، والسحاب المذلل، وكيفية بدئه وانتهائه، أفلا يدل كل ذلك على الخالق الواحد، الذي له ملك السماوات والأرض.

حالة المشركين مع آلهتهم في الدنيا والآخرة

لما قرر الله تعالى للتوحيد الدلائل الباهرة عقبها بقبح ما يضاده فقال:

١٦٥ - ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾.

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ نظراء في العبادة مثل الأصنام ﴿يحبونهم كحب الله﴾ أي يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى في المحبة ولذا سموا مشركين ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ من حبهم لأي محبوب آخر ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ أنفسهم باتخاذ الأنداد ﴿إذ يرون العذاب﴾ لرأيت أمراً عظيماً منهم ومن عذابهم ﴿أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾ جواب لو محذوف والمعنى لو علموا في الدنيا شدة عذاب الله وقت معاينتهم له لما اتخذوا من دون الله أنداداً.

القــــراءة

قرأ نافع وابن عامر ﴿ولو ترى﴾ على الخطاب للنبي ﷺ.

لما ذكر الذين اتخذوا الأنداد ذكر سوء حالهم في المعاد فقال سبحانه:

١٦٦ ـ ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾.

﴿إذْ﴾ بدل من إذْ السابقة ﴿تبرأ الذين اتبعوا﴾ أي الرؤساء والدعاة والقادة ﴿من الذين اتبعوا﴾ أي من تابعيهم فأنكروهم حين رأى التابعون والمتبوعون العذاب ﴿ورأوا العذاب وتقطعت بهم﴾ أي عنهم ﴿الأسباب﴾ مثل ﴿فاسأل به خبيراً﴾[1] والأسباب التي يتواصلون بها في الدنيا من الأرحام والمودة والأعمال وغيرها، والسبب في اللغة الحبل وكل ما يتوصل به إلى المقصود.

١٦٧ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾.

﴿وقال الذين اتبعوا لو أنّ لنا كرة﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فنتبرأ منهم﴾ أي نتبرأ من القادة والرؤساء المتبوعين في الدنيا ﴿كما تبرؤوا منا﴾ اليوم أي في الآخرة ولو للتمنّي، ونتبرّأ جوابه ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ ندامات لأن أعمال الكافر لا تنفعه، والحسرة التلهف على الشيء الفائت، والحسرة أشد الندامة، ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ إلا ما شاء الله.

من علاج المتخذين لله أنداداً

إن بعض المشركين لما حرّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام وغيرها ساق الله هذه الآية لتقرير طرف من جهالات المشركين المتخذين من دون الله أنداداً فقال:

١٦٨ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات﴾ جمع خطوة وهي سبيله ومسلكه والخطوة ما بين القدمين، وبفتحها الفعلة الواحدة واتباعهم خطواته أنّهم كانوا يحرمون أشياء قد أحلّها الله، ويحلّون أشياء قد حرّمها الله، ﴿الشيطان إنّه لكم عدو مبين﴾ ظاهر العداوة بوسوسته وتزيينه المناكر والقبائح.

القـــراءة

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة ﴿خطْوات﴾ بسكون الطاء.

ثم بين أن ذلك التحريم إنما هو من طاعة الشيطان فقال:

١٦٩ ـ ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿إنما يأمركم بالسوء﴾ السوء كل إثم وقبح وإنما سمّي سوءاً، لأنه تسوء عواقبه ﴿والفحشاء﴾ من فَحشَ الشيءُ إذا زاد قذارة، وقال بعض المفسرين إنّها كل معصية لها حد في الدنيا، وقال السّدي: إنّها الزنى، ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ من تحريم ما لم يحرم.

١٧٠ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ في القرآن ﴿قالوا بل نتبع ما ألفينا﴾ وجدنا ﴿عليه آباءنا﴾ والضمير لهم عائد على قوله تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ الآية (١٦٥)، فالقول قول المشركين، وما وجدوا عليه آباءهم من الضلال والكفر وعبادة الأوثان ﴿أولـو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً﴾ من توحيد الله وعبادته وهدايته في دينه، أيتبعونهم أيضاً في خطئهم وافترائهم؟ والهمزة للإنكار ﴿ولا يهتدون﴾ إلى الحق.

١٧١ ـ ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ومثل الذين كفروا﴾ ودعوتهم إلى الهدى والإسلام ﴿كمثل الذي ينعق﴾ بصوت، والنعيق: دعاء الراعي الشياه ﴿بما لا يسمع إلّا دعاء ونداء﴾ أي صوتاً، ولا يفهم معناه في التصامم عن سماع الموعظة، وعدم تدبّرها كالبهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهمه، ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ لا يفكّرون.

والمعنى: مثل داعي الذين كفروا إلى الإسلام، كمثل الراعي الذي يدعو سوائمه وغنمه، فكل من الكفار والبهائم لا يعي شيئاً مما يسمع، وإنما يسمع بجرس اللفظ ورنينه، لأن الكفار قد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة بمعصيتهم وكفرهم فليس عندهم استعداد للخير أبداً، والبهائم لا عقل لها تعي به.

الحلال والحرام في المأكولات

فيما مر من أول السورة كان الكلام في دلائل التوحيد والنبوة ومن هنا شرع في بيان الأحكام الشرعية فقال:

١٧٢ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله﴾ على ما أحلّ لكم من الطيبات والمستلذات ﴿إن كنتم إيّاه تعبدون﴾.

١٧٣ ـ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿إنما حرّم عليكم الميتة﴾ اسم لكل حيوان خرجت روحه بغير ذكاة، وحرم أكلها ﴿والدم﴾ أي المسفوح كما في سورة الأنعام ﴿أو دماً مسفوحاً﴾[1] ﴿ولحم الخنزير﴾ الحكم يعمّ جميع الخنزير وإنما خصّ اللحم، لأنّه معظم المقصود وكل ما بقي بعد اللحم مختلط به ﴿وما أهلّ به لغير الله﴾ ما رفع فيه الصوت عند الذبح بتسميته غير الله، ومثله الإهلال بالحج فهو رفع الصوت بالتلبية ﴿فمن اضطر﴾ أي ألجأته الضرورة إلى أكل شيء مما ذكر (الضرورات[2] تبيح المحظورات) فأكله ﴿غير باغ﴾ شهوته بذلك ﴿ولا عاد﴾ متعدّ الحد بالشبع منه، والبغي هو الفساد يقال: بغى الجرح إذا ترامى للفساد، ﴿فلا إثم عليه﴾ في أكل المقدار الذي يقيمه ويسدّه عن الجوع دون تجاوز ﴿إنّ الله غفور رحيم﴾.

الحيوان الميت لا يموت إلّا لسبب مثل المرض أو الشيخوخة: فإن كان المرض فإنّه ربما لا يزال في الجسم نتيجة التسمم بقية من مواد ضارة للإنسان، التي ربما أدّى الأكل منها إلى الوفاة وكذلك الدم، فإنّه نسيج أغلبه وأهم عنصر فيه وهو الكرات الحمر خلايا حيّة، وفيه من إفرازات الجسم ما هو معدّ للإفراز بواسطة البول أو العرق، فالدم مزيج من مواد قليلة مفيدة للجسم ولكن غالبه مواد مضرّة، وإذا كان الحيوان الذي أخذ منه الدم مريضاً، كان شرب الدم أشدّ ضرراً، وكثيراً ما يصاب الخنزير بأمراض تضرّ الإنسان، وتطهير لحم الخنزير المصاب ليست بسهولة.

القــــراءة

قرأ أبو جعفر بالتشديد ﴿الميّتة﴾ وفي المائدة والنحل ﴿وبلدة ميتا﴾.

١٧٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

هذه الآية عامة في اليهود وغيرهم ممن يكتمون الحق عن الناس وهم يعلمونه مفضّلين المصالح الدنيوية وما

(١) الآية: ١٤٥.
(٢) الضرورات الشرعية.

يصيبونه من أتباعهم في الدنيا والذي يأكلونه يعذبون به، فكأنّهم يأكلون النار ولا يكلّمهم الله، هذا دليل على أنّ الله لا يكلّم الكفّار ولا ينظر إليهم ولا يطهّرهم من دنس كفرهم، وجزاؤهم النار.

١٧٥ - ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾.

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي اختاروها على الهدى ﴿والعذاب﴾ المعد لهم ﴿بالمغفرة﴾ ﴿فما أصبرهم على النار﴾ أي ما أجرأهم على ذلك لتقبّل النار، فأصبرهم على تقبّلها وهو تعجّب من المؤمنين من ارتكابهم أي الكفار موجباتها من غير مبالاة، وإلاّ فأيّ صبر لهم أن يتحمّلوا ذلك فيستبدلوا العذاب بالمغفرة.

١٧٦ - ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾.

﴿ذلك بأنّ الله نزّل الكتاب بالحق﴾ إشارة إلى ما تقدّم من الوعيد بالعذاب، تقديره: ذلك العذاب بأنّ الله نزّل الكتاب بالحق، فكفروا به ﴿وإنّ الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ فكفروا واختلفوا فيه أي في التوراة والقرآن حيث قال بعضهم: إنه شعر، وقال بعضهم: إنه سحر، وقال بعضهم: كهانة، ومنهم من قال: إنّما يعلّمه بشر، والشقاق معاداة بعضهم لبعض وخلاف بعيد عن الحق والهدى.

حقيقة البرّ

لما كثر خوض الناس في أمر القبلة وضّح الله لهم الطريق الحق فقال:

١٧٧ - ﴿ ۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾.

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ في صلاتكم أيها الكفار ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين﴾ الطالبين، ﴿وفي الرقاب﴾ أي فك الرقاب والأسرى، ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ المفروضة ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ إشارة إلى المعاهدات والاتفاقيات التي تبرم لصالح المسلمين، أو العقود الخاصة التي يعقدها الناس فيما بينهم، كعقود العمل والتجارة والشركة ﴿والصابرين في البأساء﴾ الفقراء والبأساء: ما يصيب الناس في الأموال ﴿والضراء﴾ المرض، والضراء ما يصيب الناس في الأنفس ﴿وحين البأس﴾ القتال والجهاد في سبيل الله ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ الذين تكلموا بالإيمان وحققوه بالعمل.

القـــراءة

قرأ حمزة وحفص[1] ﴿ليس البر أن تولوا﴾ نصباً، وقرأ الباقون بالرفع.

قرأ نافع وابن عامر ﴿ولكن﴾ خفيفة ﴿البر﴾ رفعاً، وقرأ الباقون ﴿ولكن البر﴾ بالتشديد والنصب.

القصـــاص

لما بين سبحانه أن البر لا يتم إلا بالإيمان والتمسك بالشرائع، بين بعض الأحكام وبدأ بحكم الدماء والجراح فقال:

١٧٨ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم﴾ أي فرض عليكم ﴿القصاص﴾ مقابلة الفعل بمثله، مأخوذ من قص الأثر ﴿في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء﴾ أي من ترك له القتل ورضي بالدية، ﴿فاتباع بالمعروف﴾ أي مطالبته بالمعروف بأن لا يرهقه في طلب الدية ويترك له فرصة تحصيلها ﴿وأداء إليه بإحسان﴾ يؤمر المطالب بأن لا يبخس ولا يماطل ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ قال سعيد بن جبير: كان حكم الله على أصل التوراة أن يقتل قاتل العمد، ولا يعفى عنه، ولا يؤخذ منه دية، كما في البقرة، فرخص الله لأمة محمد في ذلك وخفّف عنهم ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ أي من ظلم بعد ذلك، فقتل قاتل صاحبه بعد العفو وأخذ الدية، فله عذاب أليم بالقصاص منه.

وسبب نزول الآية: أنّ أهل الجاهلية، إذا قتل عبدهم عبد قوم آخرين قالوا لن نقتل به إلا حراً تعززاً لفضلهم على غيرهم وكذا المرأة إذا قتلت امرأة قتلوا بها رجلاً، فنزلت الآية تعلّم المسلمين حكم الله في القصاص، والعدل يقتضي المساواة فلا يقتل شخص بجريرة غيره، فلا تزر وازرة وزر أخرى، بل إنّ النفس بالنفس والجروح قصاص، إذ دليل الخطاب حجة ما لم يعارضه دليل أقوى منه، وساقت الآية عدة أمثلة العبد بالعبد والحر والمرأة للدلالة على المساواة في الحكم. ولا تدل الآية على أن لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى فإن المفهوم يعتبر حيث لم يظهر بالتخصيص غرض.

ودعوى التعارض في هذه الآية وآية المائدة: بقوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس﴾ أو بآية ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنّه كان منصوراً﴾ فلا تعارض بين الآيات فآية البقرة تعطي أمثلة للمتساوين في الحكم المختلفين في القدر، ألا ترى لو أنّ أنثى قتلت رجلاً ألا تقتل، ولو أنّ عبداً قتل حراً ألا يقتل وهكذا، وأما آية بني إسرائيل فهي لبيان نظام الإجراءات التي تتخذ في الدعوى، وفضلاً عن آية

(١) هو حفص بن سليمان أبو عمر الأسدي الكوفي البزاز (٩٠ ـ ١٨٠هـ) أعلم أصحاب عاصم بقراءته.

المائدة تحكي ما كتبه الله عز وجلّ في التوراة، وآية البقرة تقرر حكم القصاص وتحدده في شريعتنا.

أما آية الإسراء ﴿ومن قتل مظلوماً﴾ فهي مكية النزول كسورتها، فلا تنسخ آية البقرة المتأخرة عنها في النزول لكونها مدنية، وفي النهاية لا تعارض بين الآيتين.

١٧٩ ـ ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

إذا علم الرجل أنّه إن قتل قُتِل، أمسك عن القتل فكان في ذلك حياة للذي همّ بقتله ولنفسه، وأنّه من أجل القصاص أمسك، والألباب العقول، ولعلّكم تتقون الدماء وسفكها وفي هذه الآية من البلاغة والإيجاز ما فاق قول العرب «القتل أنفى للقتل» بأكثر من ثلاثين موضعاً، ولذلك انبهر بلغاء العرب وفصحاؤهم منه، فآمنوا به ودافعوا عنه، وقالوا: إنّ له لطلاوة وإنّ عليه لحلاوة.

الوصيـــة

ثم بين سبحانه حكماً آخر من أحكام الشريعة وهي الوصية فقال:

١٨٠ ـ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف﴾ والمعنى: إن الله أوجب على كل من يحوز مالاً وينال خيراً، وشعر بدنو موته أن يوصي للوالدين والأقربين إذ كانت الوصية بالمال للذين لا يرثون، ومن هؤلاء الجد والجدة مع وجود الأب والأم فهما محجوبان بهما، ولا شك أن الجد والجدة يسميان والدين، لورود ذلك في القرآن كثيراً مثل قوله تعالى في سورة يوسف ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾[1] ووالده المباشر هو يعقوب، وأما الأقربون: الذين لا يرثون مثل ابن الابن، وبنت الابن، الذي مات أبوه في حياة والده وغيرهم من الأقارب، والوصية من الوالدين للورثة وغيرهم إن كانت بغير المال، ووجوب ذلك يؤخذ من قوله تعالى حقاً على المتقين، وقوله كتب أي فرض، والآية محكمة.

وأما دعوى النسخ في الآية بآية المواريث قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ في سورة النساء فهذه الآية ليست مخالفة لآية المواريث ولا تتعارض معها فبينهما عموم وخصوص ويمكن الجمع بينهما، وقال الإمام محمد عبده في تفسير المنار: لا دليل على أن آية المواريث نزلت بعد آية الوصية هنا، كما أن السياق ينافي النسخ، فقد أكد الله أمر الوصية من كونه حقاً على المتقين، ومن الوعيد لمن بدّله، وآيات الوعيد لا يجوز أن يدخلها نسخ.

وأما القول بأن الآية منسوخة بحديث لا وصية لوارث، فنقول إنه خبر آحاد وليس في مرتبة القرآن المتواتر

---

(١) الآية: ٣٨.

حتى ينسخه، والسنة جاءت شارحة ومبينة للقرآن ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾(١)، وقد ردّ العلماء نسخ القرآن بالسنة إجمالاً، وحتى على فرض تخصيص الكتاب بالسنة على رأي من يرى ذلك فإن حكم الآية باق في الأقارب الذين لا يرثون، ولا يتصور مسح حكم الوصية في هذه الآية بمثل ما ادعي مع وجود هذه التأكيدات التي تضمنتها الآية ﴿حقاً على المتقين﴾ ثم أردف الله ذلك بالآية التالية ﴿فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ كل ذلك يؤكّد أن الآية محكمة، وأنه لو كان هناك نسخ لبيّنه الله بصراحة وأوضحه بمثل ما وردت به الآية من صراحة وتأكيد، أو صرح النبي ﷺ بحديث ينصّ فيه على وجود النسخ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ذلك على الله ورسوله، ولكننا والحمد لله لم نجد حديثاً واحداً مرفوعاً صحيحاً يقول بنسخ الآية بل إنه قد جاء في صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين وفي رواية ثلاث ليال ـ إلا وصيته مكتوبة عنده».

١٨١ ـ ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿فمن بدّله﴾ أي الإيصاء من الشهود أو الأوصياء ﴿بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم﴾.

١٨٢ ـ ﴿ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

﴿فمن خاف من موص جنفا﴾ ميلاً عن الحق، ﴿أو إثماً﴾ عمداً ﴿فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾ أي لا حرج عليه ﴿إن الله غفور رحيم﴾ والمعنى: من حضر رجلاً قارب الوفاة فأسرف في وصيته أو قصر عن حق، فليأمره بالعدل ويصحح خطأه له.

الصيـــام

ثم بين سبحانه حكماً آخر من أحكام الشريعة فقال:

١٨٣ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ من الأمم السابقة ﴿لعلكم تتقون﴾ بالصوم كثيراً مما تتلطخ له النفس من المعاصي بما في ذلك محظورات الصوم.

١٨٤ ـ ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿أياماً معدودات﴾ هي شهر رمضان والآية محكمة ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي فمن أفطر لمرض أو سفر فعليه صوم تلك الأيام في غير رمضان متى قدر عليها ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ بشدة وعنت لكبر أو مرض لا يرجى برؤه ﴿فدية طعام مسكين﴾ أي قدر ما يأكله في يومه من غالب قوت البلد لكل يوم.

ودعوى النسخ بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ لا تساندها اللغة ولا تساندها الآية نفسها فأما اللغة: يطيقونه يتجشّمونه، فالطاقة اسم للقدرة على الشيء مع الشدة والمشقة وفي قراءة ﴿يطوقونه﴾ وأما الآية ففضلاً عن أسباب نزولها في الشيخ والشيخة الكبيرين العاجزين فإن سياقها ينبو عن النسخ حيث ابتدأ الله الآية بـ ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ فهو فرض قاطع على الجميع صومه ثم استثنى من المفروض عليهم صومه، المسافر والمريض وفرض عليهم صومه في أيام أخر ولو كان الصوم فيه تخيير لكان المريض والمسافر أولى من الأصحاء القادرين على الصوم بالاكتفاء بالفدية، وأما ما نقل عن ابن مسعود ومعاذ وابن عمر وغيرهم ممن قيل أن بعضهم كان يصوم والبعض الآخر يفطر ويفدي حتى نزلت ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فإنه محمول على عدم علمهم بالوجوب والفرضية حيث كانوا في بداية الصوم والآيات تنزل تبين الأحكام وهم معذورون في ذلك، وعندما بلغتهم الفرضية بالآيات المتتابعة نزولها، والتي لم تكن على فترات طويلة فاصلة حيث لم يثبت ذلك ﴿فمن تطوّع خيراً﴾ بالزيادة على القدر المذكور في الفدية، ﴿فهو خير له﴾ ثواباً عند الله ﴿وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ إن كنتم تعلمون أنكم قادرون على الصيام فإنه خير لكم ديناً ودنيا وقد أثبت الطب اليوم أن في الصيام صحة ومعالجة لبعض الأمراض فهو خير من الإفطار لمن احتاج إلى الصيام للمعالجة إذا كان مرضه يشفيه الصيام.

القـــراءة

قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام﴾ إضافة فدية إلى طعام ﴿ومساكين﴾ جمع، ﴿ومن تطوع﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء وتشديد الطاء وقرأ الباقون بالتاء.

١٨٥ - ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ﴿هدى للناس وبينات من الهدى﴾ من الحق ﴿والفرقان﴾ بما يفرق بين الحق والباطل ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ من كان حاضراً غير مسافر ﴿فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ وهذا

دليل آخر على عدم النسخ في الآية السابقة، إذ لو كان أول ما نزل من الأمر بالصيام بقوله تعالى كتب فيه تخيير بين الصيام والفدية لما جاءت هذه الآية بذكر اليسر وعدم العسر إلا أنها تقرير للرخصة التي ذكرت في التمهيد السابق، بل توكيد على حرص الإسلام على صحة الأبدان من التضرر بالصيام لمن لا يقدر عليه، وخاصة بالسفر أو المرض إذ ليس من البر الصيام في السفر ﴿ولتكملوا العدة﴾ أي عدة صوم رمضان ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ التكبير مشروع بعد انتهاء الصوم برؤية الهلال حتى الفراغ من الصلاة شكراً لله.

القـــراءة

قرأ أبو بكر عن عاصم بتشديد الميم ﴿ولتكمّلوا﴾.

١٨٦ ـ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾.

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي﴾ أي فليجيبوني بالطاعة ﴿وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون﴾ الرشد: هو الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه.

١٨٧ ـ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾: الجماع، وهو في الأصل الفحش من القول، والقول بأن هذه الآية معارضة بما قبلها قول غير مفهوم المعنى، لأن هذه الآية تقرر أحكاماً جديدة لا تتعارض مع الآية السابقة ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ ستر كل واحد للآخر ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ تخونونها بالجماع أو الأكل ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ قال ابن كثير هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ورفع ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا في ذلك حرجاً ومشقة كبيرة فنزلت الآية تزيل عنهم ذلك الحرج وترفع ما كانوا عليه من العمل الذي تقرر بالسنة، لا بالآيات السابقة وعليه فلا تكون هذه الآية ناسخة لما سبقها من الآيات ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ من الحلال في الجماع والطعام والشراب ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ أي الفجر الصادق ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلّهم يتقون﴾ الحدود محارمه، والآية واضحة في أنها ناسخة للسنة العملية لا للقرآن.

النهي عن أكل أموال الناس بالباطل

لما كان الصوم ينتهي إلى وقت حلول الإفطار، والإفطار يتضمن الأكل ناسب أن يردف حكم الصيام ما يصلح للأكل وما لا يصلح له فقال:

١٨٨ ـ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ الباطل هو الحرام والمعنى: لا يأكل بعضكم أموال بعض، والمال الباطل إما أن يأخذه من صاحبه بإكراه ويد ساطية أو بطرق ملتوية محرمة غير شريفة كالغصب والقمار وبيع الخمر والربا الخ. وإما أن يكون بغير طيب نفس ودون يد ساطية من مالكه، كالسرقة والخيانة، وقال الزجاج[1]. الباطل الظلم ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ والمعنى ولا ترسلوا أموالكم إلى مجالس الحكم والخصومة وهي المحاكم للتخاصم بشأنها أمام الحكام، وإدلاء الحجة بالباطل ﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ والمعنى: تعلمون على ما يوجبه إدلاء الحجة، وتخونون في الأمانة، وأنتم تعلمون أن الحجة عليكم في الباطن.

الأهلّـــة

ثم بيّن حكماً آخر من أحكام الشريعة فقال:

١٨٩ ـ ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

﴿يسألونك عن الأهلّة﴾ قال ابن الجوزي: هذه الآية من أولها إلى قوله ﴿والحج﴾ نزلت على سبب وهو أن رجلين من الصحابة قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد ويمتليء حتى يستدير ويستوي ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، فنزلت ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن الواضح أن الجواب جاء من جنس السؤال، والمواقيت جمع ميقات أي زمن يعلم به الناس أمورهم الدنيوية والدينية ﴿والحج﴾ يعلم به وقته كعبادة، والسؤال كان عن الأهلة أي المنازل للأهلة ولم يكن عن القمر.

قاعدة مهمة في الإسلام

﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ ولهذه الآية سبب آخر

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن السرّي (٢٤٠ ـ ٣١٠هـ) من أهل الفضل والدين، كان يخرط الزجاج، ثم لزم المبرد وتمكّن في النحو، له تصانيف منها: معاني القرآن.

وهو أنهم كانوا إذا حجوا، ثم قدموا المدينة، لم يدخلوا من باب، ويأتون البيوت من أسوارها، ولفظه في البخاري ومسلم، وهذا العمل بدعة جاهلية ما زالت عالقة في بعض الناس فجاء القرآن لاستئصالها، والبر هو الإخلاص لله واتباع سنته وترك بدع الشيطان ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ تفوزون.

وهذه الآية تعم كل من يريد الدخول في أمر معنوي أو مادي أن يبحث عن مدخله الموصل إليه ليفوز بالفلاح ويكون دخوله بالأمان، ولذلك جعلت للبيوت حرمة في الإسلام لا يجوز تسورها ولا فتح أبوابها إلّا بإذن صاحبها فلربما كان أهل الدار على غير استعداد لاستقبال الضيف أو الطارق، والتسور فيه ما فيه من عدم الحرمة والاستهتار بها.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي بكسر باء ﴿البيوت﴾ وعين ﴿العيون﴾ وغين ﴿الغيوب﴾ وروي عن نافع أنه ضم باء ﴿البيوت﴾ وعين ﴿العيون﴾ وغين ﴿الغيوب﴾ وجيم ﴿الجيوب﴾ وشين ﴿الشيوخ﴾ وروي عن قالون أنه كسر باء ﴿البيوت﴾ وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر بضم الأحرف الخمسة وكسرهن جميعاً.

القتال في سبيل الله

لما أمر في الآية السابقة بالتقوى أمر في هذه الآية بأشق أقسامها على النفس وهو المقاتلة في سبيل الله فقال:

١٩٠ ـ ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾.

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا﴾ أي قاتلوا الكفار في سبيل الله لإعلاء دينه ولا تعتدوا بارتكاب المناهي من المثلة، أي التمثيل بجسد المقتول، وقتل النساء والصبيان الصغار، والشيوخ الذين لا رأي لهم، ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع الذين يعتزلون ميدان المعارك والتحريض على الفتن، واجتناب تحريق الأشجار، وقتل الحيوان بغير مصلحة ظاهرة ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ وأما دعوى النسخ في الآية، قوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا﴾ سواء بآية السيف بسورة التوبة ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ أو بالآية التي تليها، فغير مقبول لدى العلماء لأنه ورد في عدم الاعتداء في أثناء الحرب، وهو حكم ثابت فقها، وقال أبو جعفر النحاس: هذا هو الصحيح.

١٩١ ـ ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أينما وجدتموهم ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ من مكة ومن غيرها ﴿والفتنة أشدّ من القتل﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الفتنة هنا الشرك ونقول إنّه يعمّ الشرك وغيره من الأمور التي فيها إيذاء وتعذيب، كالإخراج من الوطن والإبعاد عن الأهل والولد ومصادرة الأموال إذ كلّ ذلك بلاء واضطهاد في

جسم الإنسان ونفسيته وعقليته، وقد استعملت الفتنة في كل اختبار شاق وأشده الفتنة في الدين ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾(١).

﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ أي إن من دخل منهم المسجد الحرام يكون آمناً إلّا أن يقاتل هو فيه وينتهك حرمته فلا أمان له حينئذ، ولما كان القتل في المسجد الحرام أمراً عظيماً يتحرج منه أكد الإذن فيه بشرطه فقال ﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ أي لا تستسلموا لهم، فالبادىء أظلم، والمدافع غير آثم، خطب النبي ﷺ يوم الفتح بمكة فقال: «يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ولم يحلها لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من النهار، ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة» فثبت ذلك حظر القتال في الحرم إلا أن يقاتلوا فيدفعون دفعاً، وهذا أمر مستمر الحكم.

القــــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام﴾ بغير ألف.

١٩٢ ـ ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

﴿فإن انتهوا﴾ عن الكفر والقتال والظلم وأسلموا ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ لكل ما تقدم منهم.

١٩٣ ـ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ وأما الادعاء بأن قوله تعالى ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ منسوخ بآية السيف فهو قول ضعيف يرده سياق الآية، وعدم التعارض، ولا فائدة من القول بالنسخ، وكيف يقبل القول بنسخ كلمة من آية، وردّ البيضاوي قولهم أيضاً، إن هذه الآية ناسخة لما قبلها حيث قال: وذلك أنه كبر على هؤلاء أن يكون الإذن بالقتال مشروعاً باعتداء المشركين، ولأجل أمن المؤمنين في الدين، وأراد أن يجعلوه مطلوباً لذاته، ثم قال وهذه الآيات نزلت مرة واحدة في نسق واحد وقصة واحدة فلا معنى لكون بعضها ناسخاً لآخره(٢).

١٩٤ ـ ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ أي بالمقابلة فكلما قاتلوكم فيه فاقتلوهم فيه أو في مثله ﴿والحرمات قصاص﴾ هذه قاعدة لوجوب مقاصة المشركين على انتهاك الشهر الحرام بمقابلتهم بالمثل ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي واعلموا أن المحرمات يجب أن تحترم ويقتص بمثلها إذا انتهكت.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢.
(٢) راجع تفسير المنار ج١ص ٢١٠.

الإنفاق في سبيل الله

١٩٥ ـ ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾ الجهاد وغيره ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ والمعنى: يأمر الله بإخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى مرضاة الله، وفي ترك الإنفاق في ذلك انهيار المجتمع وتسليط للأعداء عليه، فيكون قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ كالتعليل لذلك ومن التهلكة تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة من لا يقدر عليه، أو الذهاب في سفر مخوف، أو محل مسبعة، ويدخل تحته كل شيء فيه خطر ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان لأنه لم يقيله بشيء دون شيء، وهذه قاعدة مهمة في الإسلام.

أحكام الحج والعمرة

١٩٦ ـ ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

﴿وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم﴾ منعتم عن إتمامهما بعدو أو مرض أو غيره، يقال للرجل إذا حبس قد حصر، فهو محصور، ويسن أن يقول عند النيّة بالميقات فيشترط (إن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني) ﴿فما استيسر من الهدي﴾ أي فإن أحصرتم دون تمام الحج والعمرة فحللتم فعليكم ما استيسر من الهدي، ذبح شاة ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم﴾ أي لا تتحللوا بإزالة الشعر ﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾ وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر كما تدل عليه الآية، ويستدل من هذه الآية على أن المتمتع إذا أحرم وطاف وسعى وحلق أو قصر تحلل وله ذبح هديه بمكة كما صرح به عابد في مناسكه ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه﴾ كقمل أو قروح، وينتفع بالحلق فإنه يحل له ذلك ﴿ففدية من صيام﴾ ثلاثة أيام ﴿أو صدقة﴾ بإطعام ستة مساكين ﴿أو نسك﴾ ذبح ما يصح ذبحه في الأضحية فهو مخير والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام ﴿فإذا أمنتم﴾ العدو بأن ذهب، بأن قدرتم على الوصول لبيت الله الحرام من غير مانع ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ التمتع أن يأتي بالعمرة قبل الحج في أشهر الحج ثم يتحلل منها من لم يسق الهدي ﴿فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عند مسافة قصر فأكثر ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾.

١٩٧ ـ ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

﴿الحج أشهر معلومات﴾ شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة ﴿فمن فرض فيهنّ الحج﴾ ألزم نفسه بالإحرام

﴿فلا رفث﴾ جماع فيه ﴿ولا فسوق﴾ معاصي ﴿ولا جدال﴾ خصام في الحج ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ بالضم والتنوين ﴿ولا جدال﴾ نصباً.

١٩٨ ـ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً﴾ رزقاً ﴿من ربكم﴾ كانوا يتقون التجارة ويقولون أيام ذكر فنزلت، والفضل التماس الرزق بالتجارة والكسب وغيره من الأمور المفيدة للمجتمع والناس ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله﴾ بعد المبيت بمزدلفة بالتلبية والتهليل والدعاء ﴿عند المشعر الحرام﴾ هو جبل في آخر المزدلفة ﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ والذكر مشروع في المزدلفة والصلاة فيها جمع المغرب والعشاء جمع تأخير.

١٩٩ ـ ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ من المزدلفة بعد عرفات من حيث كان الناس يفيضون من لدن إبراهيم عليه السلام، وكلمة الناس عامة يخرج بها خصوص الناس الذين يقفون عند مزدلفة كما كانت تفعل قريش ويقولون نحن الحمس أي المتحمسون المتشددون فلا تميز في الإسلام بين قبيلة وقبيلة في الدين ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ الاستغفار بعد الفراغ من العبادة لجبر الخلل الذي ربما حصل في العبادة أو التقصير فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه.

٢٠٠ ـ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾.

﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ حجكم بأن رميتم جمرة العقبة وهي الرمية الأولى لإبليس وطفتم واستقررتم بمنى ﴿فاذكروا الله﴾ بالتكبير والثناء ﴿كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ منهم ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق﴾ نصيب.

٢٠١ ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة﴾ كلمة عامة تشمل كل ما يطلبه العبد من العلم والرزق والمرأة الصالحة والذرية وغير ذلك ﴿وفي الآخرة حسنة﴾ وكذلك حسنة الآخرة عامة وأهمها رضوان الله ﴿وقنا عذاب النار﴾.

٢٠٢ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

﴿أولئك لهم نصيب﴾ ثواب ﴿مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ والمعنى: إنّ كلاً من هؤلاء الذين حجوا ودعوا لأمورهم الدنيوية، وأولئك الذين حجوا ودعوا لأمورهم الدنيوية والأخروية، لهم نصيبهم وحظّهم من عملهم ودعائهم، سيجازيهم على حسب إعطائهم ونياتهم بعدله وفضله ورحمته ومغفرته التي وسعت كل شيء، ولن يفوته عمل ولا كسب ولا دعاء فإنّه أسرع المجيبين الحاسبين كما ورد ذلك في سورة الأنعام.

٢٠٣ ـ ﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ هي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد لمزيتها وشرفهاوكون بقية المناسك تفعل بها، فهي أيام أكل وشرب وذكر من صلاة وغيرها ﴿فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه﴾ أي بأن نفر من منى مبكراً في ثاني أيام التشريق التي هي (١١ و١٢ و١٣) من ذي الحجة بعد رمي الجمار أي الحصى ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ بأن بات بمنى ليلة أخرى فرمى الجمرة الأخيرة ﴿لمن اتقى﴾ الزلل والخطأ والمعصية التي تبطل الحج ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ في الآخرة فيجازيكم.

من علامات النفاق

لما آل أمر بيان الحج إلى تعديد فرق الناس بحسب أغراضهم في الدعاء، ناسب أن يعطف على ذلك تقسيماً آخر يعرف منه مطامح أنظار الناس ليعرف أرباب النفاق من أصحاب الوفاق فقال:

٢٠٤ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾.

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ من الناس فريق يعجبك قوله إذا تكلّم في هذه الحياة لأنك تأخذ بالظواهر وهو منافق اللسان يظهر خلاف ما يبطن، ويقول ما لا يفعل فهو يعتمد على خلابة لسانه، في غش معاشريه وأقرانه ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ إما أن يحلف بالله أن ما في قلبه موافق لما يقول ويدعي أو يقول الله يعلم ويشهد علي بأن ما ينطق لساني هو الحق وأنني أحب كذا وأريد كذا ﴿وهو ألدّ الخصام﴾ أي هو في الحقيقة وفي نفسه أشدّ الناس مخاصمة وعداوة لمن يتودد إليهم، هذا الفريق من الناس على اختلاف في شخص المنافق ومركزه في المجتمع رئيس أو مرؤوس، يوجد في كل أمة، وتختلف الخلابة اللسانية في الأمم ففي بعض الأزمنة لا يتيسر للواحد أن يغش بزخرف القول إلاّ الفرد أو الأفراد المعدودين، وفي بعضها ما يتيسر له أن يغش الأمة في

مجموعها حتى ينكل بها تنكيلاً، وكم رأينا من مدعي الإخلاص لوطنهم وأمتهم باسم التقدمية والحرية وغيرها، وإنّ أخطر الوسائل التي تسلط عليها هؤلاء المنافقون المخادعون هي أجهزة الإعلام، وأعظمها شأناً وأكثرها ضرراً هي الجرائد في عصرنا التي قد تكون لو استعملت في الخير لكانت أفضل طريق للنصح العام.

تحديد النسل

٢٠٥ ـ ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾.

﴿وإذا تولى﴾ أي هذا المنافق شديد العداوة مركزاً من المراكز التي تمكنه من الضر بالمؤمنين ﴿سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ بأنواع الفساد بالظلم وتخريب العمران. والفساد عام يشمل الكفر والظلم والمعاصي ﴿ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ والحرث إشارة إلى اعتدائه على قوت البشر بذهاب ثمرات الزرع، وذكر النسل إشارة إلى منع التكاثر بالنسبة للإنسان والحيوان وفي الآية دلالة على تحريم منع الحمل للنساء بواسطة السلطة والقوة الجبرية دون موافقة صاحب الشأن، وتحديد النسل معناه، التقليل من كثرة الأولاد والحد منهم ويلزم منع النساء من الحمل مدة من الزمن، والمقصود منه وقف زيادة عدد السكان في البلاد الكثيرة السكان مع قلة الموارد الكافية لإعاشتهم والذي توصّل اجتهادنا إليه في حكم تحديد النسل، أنه ممنوع جماعياً من قبل السلطة بالإكراه، وذلك لأن الله تعالى ذم الذين إذا صارت إليهم مقاليد أمور الناس يعبثون في الأرض فيهلكون الزرع ويمنعون النسل وسمى ذلك فساداً في الأرض الآية: هذا هو حكم الشرع في تحديد النسل جماعياً من قبل الدولة.

أما تحديد النسل فردياً من قبل الشخص واختياره فهو جائز لم يرد ما يمنعه، لأنه قد يكون ضرورة وحاجة ملحة لبعض الأفراد في المجتمعات، وكل ما ورد في النصوص خاص بتحريم قتل الجنين أو الولد، وهو خارج عن موضوع بحثنا، فالإنسان بمفرده لم يوجب عليه الشرع أن يكون له أولاد أصلاً فضلاً عن تحديد النسل بتناول دواء قبل الجماع أو بإجراء عملية جراحية لمنع الحمل، أو بوضع مانع للمرأة أو الرجل بمعرفة الطبيب المختص، أو بالعزل وقت الجماع وكل ذلك جائز شرعاً وقد فعله الصحابة رضوان الله عليهم كما في عملية العزل وأقرهم الرسول ﷺ.

٢٠٦ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾.

﴿وإذا قيل له اتق الله﴾ فيما تقول وتفعل من الضر بالناس ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ الأنفة والحمية والتعالي ﴿فحسبه جهنم وبئس المهاد﴾ أي كافية له وساءت فراشاً له، وأصل المهاد ما يوطأ للصبي لينام عليه.

٢٠٧ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

﴿ومن الناس من يشري نفسه﴾ أي يبيعها، والعرب تطلق على البيع شراء، أي يبذلها في طاعة الله، ﴿ابتغاء

مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾ نزلت في المهاجرين حيث تركوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله بالهجرة لنصرة النبي محمد ﷺ وصحابته.

القـــراءة

﴿مرضاة﴾ قرأ الكسائي بالإمالة إلى الياء ﴿مرضيت﴾.

جزاء من لا يتبع جميع أحكام الدين

٢٠٨ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم﴾ الإسلام ﴿كافة﴾ أي دوموا فيما دخلتم فيه أي جميع الشريعة الإسلامية أصولها وفروعها ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ وسبب النزول عام في المسلمين وغيرهم، ﴿خطوات الشيطان﴾: آثاره وطرائقه التي يزين لكم بها المعاصي جمع خطوة وأصلها ما بين قدمي الماشي.

القـــراءة

فقد قرأ ابن كثير ونافع والكسائي، بفتح السين وتسكين اللام ﴿السَّلْم﴾ في البقرة والأنفال ومحمد.

٢٠٩ ـ ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات﴾ الحجج بالآيات الظاهرة على أنه حق ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ عزيز في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه، ونقضه وإبرامه.

٢١٠ ـ ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾.

﴿هل ينظرون﴾ ينتظرون ﴿إلا أن يأتيهم الله﴾ أي أمره كقوله تعالى في الأنعام ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي عذابه ﴿في ظلل من الغمام﴾ جمع ظلة والغمام السحاب الذي لم يمطر بعد ﴿والملائكة وقضي الأمر﴾ فرغ منه ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي تصير. والمعنى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض المتبعون لخطوات الشيطان وطرقه، المتعالون على الناس بعزتهم وأنفتهم، هل ينتظرون إلّا يوم الجزاء الذي قد حشي من الأهوال والشدائد، وإنه لوعيد وتهديد تنخلع له القلوب وتتزلزل له الأقدام.

القـــراءة

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح ﴿تَرجع﴾ بالبناء للفاعل.

لما أمر الله بالدخول في السلم أي الإسلام نهى عن مقابل بقوله ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات﴾ أي تنحيتم عن القصد وعدلتم عن الطريق القويم الذي أمركم الله بسلوكه صرتم من مستحقي التهديد ثم بين ذلك التهديد بقوله ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ ثم ثنّى ذلك التهديد بقوله ﴿هل ينظرون﴾ ثم ثلّث التهديد فقال:

٢١١ ـ ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم﴾ سل لغة الحجاز، واسأل لغة تميم ﴿كم﴾ استفهامية والخطاب للنبي ﷺ، والمعنى: له وللمؤمنين، والمراد بالسؤال التقرير والإذكار بالنعم ﴿من آية بينة﴾ والآية العلامة الواضحة كالعصا، والغمام، ورفع الجبل، والمن والسلوى، وانفلاق البحر، كذلك الآيات المعنوية التي جاءت في التوراة والألواح ﴿ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته﴾ كفراً بها أو عنادا ﴿فإنّ الله شديد العقاب﴾ والمعنى: اسألوا التاريخ عما حلّ ببني إسرائيل الذين جاءتهم الآيات الواضحات الدالة على صدق الرسل فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر الله على ما أعطاهم ووهب لهم من المطالب والأرزاق بل إنهم كفروا بها وبدّلوا نعمة الله كفراً لا شكراً، فاستحقوا العذاب الشديد.

٢١٢ ـ ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

﴿زيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ والمعنى: تصوّر وتوهم الذين كفروا في أعينهم، ما يرون أمامهم وفي قلوبهم من اعتقادهم الفاسد، أنّ الحياة الدنيا بما امتلأت من زينات وشهوات وأطعمة وخيرات إنّها مبلغ علمهم وغاية همهم، فلا تعلوها زينة ولا غيرها خلود، ولذلك تراهم يستهزئون من الذين آمنوا حين يدعونهم إلى الإيمان والصلاح والكفّ عن الشهوات والمعاصي. ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ بإقبال الكافرين على زينة الدنيا وحدها وإنهماكهم فيها وتعظيمهم لها ومن شاركهم فيها، جعلهم يحتقرون المؤمنين ويستهزئون بهم، وقالوا: هؤلاء منّ الله عليهم من بيننا والأمر سوف يختلف عند الله فيرفع المؤمنين في عليين ويضع الكفار في سجين، والله هو الذي يرزق من يشاء من عباده المغفرة والرحمة والمحبة بغير محاسبة.

الحاجة إلى الرسل

٢١٣ ـ ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿كان الناس أمة واحدة﴾ الناس جميع بني آدم، والأمة هنا الدين الواحد فاختلفوا، فاحتاج الأمر إلى الرسل ﴿فبعث الله النبيين﴾ إليهم مبشرين من آمن ﴿ومنذرين﴾ من كفر ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ اسم جنس بمعنى الكتب ﴿بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه﴾ أي الكتاب ﴿إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ بغياً مفعول له بالمعنى: لم يوقعوا الاختلاف إلا للبغي وهو الظلم، لأنّهم عالمون بحقيقة الأمر فيما أنزل إليهم، ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ هدى الله الذين آمنوا لتصحيح ما اختلف فيه الجميع من الحقوق وهو عام يشمل الحقوق الدينية والدنيوية، ﴿بإذنه﴾ أي أنّ كل ذلك لا يخرج عن محيط إرادة الله وعلمه ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ الطريق المعتدل، طريق الهدى، طريق الحق الذي لا اعوجاج فيه.

ما يلاقيه الرسول والمؤمنون في سبيل دعوتهم

ولما كان ذلك المطلب لا يتأتى إلا باحتمال شدائد التكليف وأعباء الإرشاد والتعليم قال سبحانه:

٢١٤ ـ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل﴾ شبه ما آتى ﴿الذين خلوا من قبلكم﴾ من المؤمنين ﴿مستهم البأساء﴾ شدة الفقر ﴿والضراء﴾ المرض ﴿وزلزلوا﴾ كأن زلزالاً نزل بهم، ومن أنواع البلاء ﴿حتى يقول﴾ بالرفع والنصب ﴿الرسول والذين آمنوا معه﴾ استيفاءً للنصر لتناهي الشدة عليهم ﴿متى نصر الله ألا﴾ قل لهم ﴿إنّ نصر الله قريب﴾ إنّ مع العسر يسراً. ومعنى الآية: إنّ البلاء والجهد بلغ بالأمم المتقدمة إلى أن استبطؤوا النصر لشدة ما أحاط بهم من البلاء. وأم: هنا بمعنى بل، وتقدّم شرحها في آية رقم (١١٨) وحسبتم ظننتم أي بل ظننتم أنّ الطريق إلى الجنّة سهل دون أن يمرّ المرء فيه بالاختبار والامتحان فاعتبروا بمن كان قبلكم من المؤمنين بما أصابهم من الجهد والبلاء والفقر والمرض وكأنّ زلزالاً أصابهم من شدة وقع المحن التي أصابتهم حتى وصلت بهم الحال وآل بهم الزلزال إلى استبطاء نصر الله مع يقينهم به، ولكن كان الفرج بعد الشدة والضيق كلّما ضاق الأمر اتسع.

القـــراءة

قرأ نافع: ﴿حتى يقول الرسول﴾ بالرفع، وقرأ الباقون: ﴿حتى يقول﴾ بالنصب.

النفقة وأحقّ الناس بها

٢١٥ ـ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

﴿يسألونك﴾ يا محمد ﴿ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن

السبيل﴾ أي هم أولى ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾.

يزعم البعض أن هذه الآية متعارضة بآية الزكاة، فقد نفى ذلك أكثر المفسرين وقالوا: هي لبيان صدقة التطوع، والوالدان لا يأخذان من الزكاة بوصفهما فقيرين، بل إن النفقة لهما واجبة والقاعدة متى أمكن الجمع بين النصين فلا تعارض.

القتال في الإسلام

٢١٦ ـ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿كتب﴾ فرض ﴿عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ قال ابن قتيبة، الكره بالفتح معناه: الإكراه والقهر، وبالضم المشقة، وكره المؤمنين في هذه الآية للقتال والجهاد لمشقته على النفوس، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى، ولذلك بين الله لهم بأن هذا الكره للجهاد قد يكون فيه الخير لكم مثل الفتح والغنيمة أو الشهادة، وربما أحببتم شيئاً ومنه القعود عن الجهاد فكانت النتيجة شراً عليكم، فلا تصيبون نصراً ولا غنيمة ولا شهادة، بل ربما دهمكم العدو وأثخن فيكم ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾

أما دعوى التعارض بقوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾(١) على اعتبار أن الآية في سورة البقرة فرض عين، والآية في سورة التوبة فرض كفاية، فهذا خلط في فهم الآيات، إذ أن آية البقرة معناها فرض عليكم الجهاد للقادرين على حمل السلاح ممن يحتاج إليهم الجيش، لا أن يخرج للجهاد كل الناس والآية في سورة التوبة ليست آية جهاد بل إنها آية علم ومعناها أنه لا يخرج للجهاد كل الناس كافة بل يجب أن يبقى من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، وليعلموا الجنود الإسلام بعد رجوعهم إليهم من القتال، فلا تعارض ما دام بين الآيتين عموم وخصوص.

الشهر الحرام

٢١٧ ـ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ الذي تعارف العرب على تجنب القتال فيه وهي أربعة، رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ﴿قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ عظيم ﴿وصد عن سبيل الله﴾ دينه ﴿وكفر به﴾ وصد عن ﴿المسجد الحرام وإخراج أهله منه﴾ النبي وصحابته كل ذلك ﴿أكبر﴾ أعظم وزراً ﴿عند الله﴾ من القتال في الشهر الحرام ﴿والفتنة﴾ الشرك من الكفار ﴿أكبر من القتل ولا يزالون﴾ الكفار ﴿يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم﴾ كافرين ﴿إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أرسل عبد الله بن جحش في أول سرية ليرصد قريشاً في مكان اسمه نخلة، وكان ذلك في أواخر جماد الثانية فمر بهم عمرو بن الحضرمي في عير تحمل تجارة لقريش فقتلوا رئيس القافلة وآخر وأسروا رجلين واستاقوا العيرظناً منهم أنهم ما زالوا في جمادى لكن القتل وقع في رجب، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فأوقف العير والأسيرين منتظراً حكم الله، فانتهزت قريش الفرصة واتخذت من هذا الحادث وسيلة للدعاية ضد النبي ﷺ في جزيرة العرب، ودخلت اليهود في هذه الدعاية وصارت تشنع على المسلمين.

واشتد الحال على المسلمين فنزلت الآية جواباً عن سؤال، وسواء أكان السؤال من المسلمين أم الكفار فهو عام والآية تؤكد حرمة القتال في الشهر الحرام وأنه كبير تبين أن صد الدعوة الإسلامية التي هي سبيل الله ودينه والكفر بالله والصد عن دخول المؤمنين المسجد الحرام وإخراجهم منه بإرغامهم على الخروج للهجرة فراراً بدينهم بعد أن تركوا أولادهم وأموالهم، كل ذلك أكبر عند الله من قتل كافر في الشهر الحرام، والأكبر من ذلك شركهم بالله وهؤلاء الذين يعظمون حرمة الشهر الحرام والذين يعيبون عليكم ويعيرونكم فيه لا يزالون يرفعون رايتهم لقتالكم حتى يتمكنوا من ردكم إلى كفرهم إن استطاعوا، لكن اعلموا أن من يدخل الإسلام ثم يخرج مرتداً ويموت وهو كافر بالله تبطل كل أعماله الصالحة، ويكون مخلداً في النار فكان نزول الآية تطميناً للمسلمين.

٢١٨ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

هذه الآية عامة في كل المهاجرين المجاهدين وإن كان سبب نزولها في أصحاب عبد الله بن جحش لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٢١٩ ـ ﴿ ۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ والقمار ما حكمها، السائل هو عمر بن الخطاب ﴿قل فيهما﴾ أي في تعاطيهما ﴿إثم كبير﴾ من وقوع العداوة، والبغضاء، وتغطية العقل الذي يقع به التمييز ﴿ومنافع للناس﴾ مالية دنيوية

من غير تعب، والتعبير بالناس دون المؤمنين فيه إشارة إلى أن هذه المنفعة في نظرهم تبعاً لاعتقادهم ﴿وإثمهما﴾ ضررهما وما ينشأ ويعود على المجتمع من المفاسد ﴿أكبر من نفعهما﴾ يقول الأطباء: إن تعاطي الخمر يحدث التهاباً مزمناً في الأعصاب وفي الكلى وتصلباً في الشرايين وتحجراً في الكبد وضعفاً في القلب، ويلاحظ أن الخمر حتى قليلها لا يزيد قوة التفكير العميق بل يضعفها، وأما الملكات الأخرى مثل الموسيقى والشعر فربما ظهرت بوضوح من قليل من الخمر، وهذا مما يؤكد قول الله عز وجل ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

والآية محكمة غير منسوخة وأسلوبها وسياقها يبعد عن النسخ، ومعناها أنها تقتضي ذم الخمر دون التحريم فهي لم تتعرض للحكم بالحرمة بل للذم، وأعتقد أن ذم الخمر إلى يومنا هذا مجمع عليه فلا يصح القول بالنسخ[١] ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ أي قدره من الصدقة ﴿قل العفو﴾ أي الفاضل عن الحاجة مما تطيب به النفس من قليل أو كثير ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

ودعوى النسخ في غير محلها فهذه آية محكمة في بيان حكم فضول الأموال عن الحاجة للفقراء دون تحديد مبلغ معين فيها حسب رغبة المسلم، وآية الزكاة في بيان مصارف الزكاة وفرضيتها.

القــــراءة

﴿إثم كبير﴾ قرأ حمزة والكسائي بالثاء ﴿إثم كثير﴾.

قرأ أبو عمرو برفع واو ﴿العفو﴾ فجعل ذا بمنزلة ﴿الذي﴾ ومن نصب جعل ﴿ماذا﴾ اسماً واحداً.

٢٢٠ ـ ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿في الدنيا والآخرة﴾ فتأخذون الأصلح لكم فيهما ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ في شأن معاملتهم ﴿قل إصلاح لهم خير﴾ في أموالهم وكل أمور معاشهم ﴿وإن تخالطوهم﴾ بالأكل والشرب والمعاملة كالبيع والشراء والشراكة ﴿فإخوانكم﴾ في الدين ﴿والله يعلم المفسد﴾ منكم في المعاملة والوصاية ﴿من المصلح﴾ بها ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ ضيق عليكم ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ وسبب نزول هذه الآية أن بعض الصحابة لما نزلت الآية ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ تحرّج من كان عنده يتيم فعزل عنه المأكل والمعاملة فأصابهم الحرج في شأنهم. ولكن لما نزلت هذه الآية: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم في الدين والله يعلم المفسد من المصلح﴾ ارتفع الحرج إذا ما صفت النوايا في المخالطة والشركة والمعاملة وكان الهدف هو مصلحة اليتيم فلا بأس حينئذ بأخذ العوض والأتعاب المعقولة لأن من شأن الإخوان أن يعين بعضهم بعضاً ويصيب أحدهم من مال أخيه.

زواج المسلم بغير المسلمة

٢٢١ ـ ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا

(١) وسوف نتعرض لمزيد من الشرح عند مناقشة موضوع الخمر في الآية ٤٣ في سورة المائدة.

تُنكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ولا تنكحوا﴾ تتزوجوا ﴿المشركات﴾ الكفار من غير المعترفين بوجود الله ووحدانيته ﴿حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة﴾ امرأة ولو خادمة ﴿خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ في جمالها ﴿ولا تنكحوا المشركين﴾ أي لا تزوجوهم بناتكم ﴿حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ ذلك المشرك الكافر ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾ باعتقادهم وعملهم ﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾.

الحيـــض

٢٢٢ ـ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾.

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ سبب نزول الآية أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها، فسئل النبي عن ذلك فنزلت الآية فقال: ﴿اصنعوا كل شيء إلا النّكاح﴾[1].

وكونه أذى فقد بينه الأطباء، إن في الجسم إفرازات على نوعين، نوع له فائدة مثل الهضم والتناسل، ونوع ليس له فائدة بل يجب إفرازه من الجسم إلى الخارج وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت في الجسم أضرّت به، وذلك كالبول والبراز، والعرق والحيض، كما بينوا أن الأعضاء التناسلية تكون في حالة احتقان، والأعصاب تكون في حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية، والاختلاط الجنسي يضرها، وربما نزل الدم وقد يكون سبباً في التهاب الأعضاء التناسلية، وهذا هو السبب في أن الأخصائي لا يكشف على مرضاه وقت الحيض ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي في الفرج ﴿إن الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين﴾.

حكم الحيض والنفاس

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي (الحيض دم طبيعة وجبلة، فلا حد لأقله ولا لأكثره، ولا للسن التي يأتيها الحيض فيها، أو إذا زاد أو نقص الدم، وهذا القول الصواب الذي لا يمكن للنساء العمل إلاّ به، وذلك لما ذكرنا أن الحيض تابع للطبيعة، والطبيعة متفاوتة تفاوتاً كبيراً ويدل على ذلك أن النساء في وقت النبي ﷺ لا يعتبرن من ذلك شيئاً، فإذا أصابهن الدم جلسن عن الصلاة ونحوها، وإذا انقطع اغتسلن وتعبدن[2].

ورداً على حديث علي مع شريح في المرأة التي ادعت أنها حاضت في شهر ثلاث حيض بأن ليس فيه دلالة على أن أقل الحيض يوم وليلة ولا أقل الطهر ثلاثة عشر يوماً، وإنما يدل إذا صح الأثر أن المرأة قد يجتمع لها في

(١) رواه مسلم.
(٢) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ص ١٦.

شهر واحد ثلاثة قروء وذلك نادر جداً، ولذلك طلب البينة على ذلك، وإلاّ فقول المرأة مقبول في حيضها وطهرها.

١ ـ المستحاضة: التي يطبق عليها الدم لمرض أو نحوه أو تكون شبيهة بها بأن لا تطهر إلاّ أوقاتاً لا تذكر، وحكمها إن كان لها عادة عملت بعادتها وما زاد عن عادتها استحاضة تغتسل وتصلي ولها أن تجمع الصلاة وإن كان دمها بعضه أسود غليظ منتن مثلاً أو بعضه دم مختلف أصفر مثلاً فهو استحاضة.

٢ ـ المتحيرة: التي لا تميز الحيض من غير دم الحيض وليست لها عادة تعمل بها، عليها أن تجلس غالب عادات النساء ستة أيام أو سبعة.

٣ ـ المبتدئة: تعمل بغالب عادات النساء حتى تكون لها عادة.

٤ ـ النفساء: إذا رأت الدم قعدت وإذا انقطع عنها الدم اغتسلت وتعبدت.

القـــراءة

﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿يطهرن﴾ بتشديد الطاء والهاء، وقرأ الباقون ﴿يطهرن﴾ بتخفيف الطاء وضم الهاء.

٢٢٣ ـ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ كيف شئتم في القبل الذي هو الفرج من قيام أو قعود، واضطجاع، وإقبال أو إدبار، والحرث هو المزدرع، وكني به عن الجماع فسماه حرثاً لأنه مزدرع الأولاد كالأرض للزرع ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾.

الحلف بالله جلّ وعلا

٢٢٤ ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ولا تجعلوا الله﴾ بالحلف به ﴿عرضة لأيمانكم﴾ بأن تكثروا الحلف به ﴿أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ والمعنى: لا تجعلوا الحلف بالله علة أو حجة في أن لا تبروا ولا تتقوا ولا تصلحوا لكي تكونوا من البررة و الأتقياء والمصلحين من الناس لأن من كذب بيمينه لا يوثق بحلفه بل ائتوه وكفّروا لأنّ سبب النزول ذلك ﴿والله سميع عليم﴾.

٢٢٥ ـ ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ وهو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد. ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت

قلوبكم﴾ أي ولكن يؤاخذكم بالعقوبة في الآخرة بما تعمّدتم فيه الكذب، ﴿والله غفور حليم﴾ الحليم ذو الصفح الذي لا يستفزه غضب فيعجل، ولا يستخفه جهل جاهل مع قدرته على البطش به والانتقام.

الإيــلاء

٢٢٦ ـ ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾ أي يحلفون أن لا يجامعوهنّ ﴿تربص﴾ انتظار ﴿أربعة أشهر فإن فاؤوا﴾ أي رجعوا إلى الجماع ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ غفور لإثم اليمين رحيم بهم.

٢٢٧ ـ ﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وإن عزموا الطلاق﴾ أي إذا مضت الأربعة أشهر استحق عليه أن يفيء، أو يطلّق، وإن لم يطلق طلّق عليه القاضي ﴿فإن الله سميع عليم﴾.

الطــلاق

٢٢٨ ـ ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿والمطلّقات يتربّصن بأنفسهن﴾ أي يحملن أنفسهن على الصبر والانتظار عن الزواج والمراد بالمطلقات هنا البائنات، المدخول بهن غير الحوامل، وهو عام في المبتوتات، ﴿ثلاثة قروء﴾ والقرء هو الحيض، وهذا في المدخول بهنّ، أما غيرهنّ فلا عدة عليهنّ لقوله تعالى[1]: ﴿فما لكم عليهن من عدة﴾ وعدة من لا تحيض ثلاثة أشهر، والحامل عدتها وضع الحمل.

﴿ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ من الولد والحيض ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهنّ﴾ أي أزواج المطلقات طلاقاً رجعياً أولى وثانية ﴿أحق بردهن﴾ بمراجعتهنّ ﴿في ذلك﴾ أي زمن التربّص للعدة ﴿إن أرادوا إصلاحاً ولهنّ مثل الذي عليهن﴾ من الحقوق ﴿بالمعروف﴾ وهو حسن العشرة وترك الإصرار على الطلاق ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ والدرجة هي القوامة والمسؤولية والرياسة في المنزل كما قال الله تعالى[2]: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ ولا شك أن الله جهّز الرجل بغير ما جهّز به المرأة، فالرجل عليه، علاوة على الإنفاق، الحماية وتحمّل مسؤولية المنزل والأسرة، والذود عن الشرف والنسب، فاقتضى أن يفضّل عليها في النبوة والإمامة، والميراث ﴿والله عزيز حكيم﴾.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

الثلاثة قروء غالباً ما تكون في ثلاثة أشهر، ورأى الطب أنّ في هذه المدة تكون علامات الحمل قد ظهرت، من عدم وجود الطمث ومن الاضطرابات، ومن كبر في الجزء الأسفل من البطن وميعاد ثلاثة أشهر هو ميعاد تسنده الحكمة الفائقة، لأنّه من رب العالمين إذ قبل ذلك بشهر يصعب جداً التثبت من الحمل حتى بواسطة الأطباء والمختصين بل الكيمائيين، وبعد هذا التاريخ تكون أعراض الحمل ظاهرة للشخص العادي، قد توجد حالات نادرة لم يستبن الحمل فيها بعد الثلاثة أشهر لأسباب طبيعية كالتي تحيض قرؤها في سنة واحدة، والنادر لا يدخل تحت القاعدة العامة وله حكم الشذوذ.

٢٢٩ ـ ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿الطلاق﴾ الذي يراجع بعده ﴿مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم﴾ أيها الأزواج ﴿أن تأخذوا مما آتيتموهن﴾ من المهور ﴿شيئاً إلّا أن يخافا﴾ أن يوقنا أي الزوجان ﴿ألا يقيما حدود الله﴾ بأن يتيقن بأنها سوف تعصي الله في أمر زوجها لبغضها إياه، ويخاف من الزوج أن يعتدي عليها لامتناعها عن طاعته أي أن لا يأتيا بما حدّده لهما الله من الحقوق والواجبات ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ هذا خطاب للولاة الحكام ﴿فلا جناح عليهما﴾ فيما اتفقا عليه لأجل الطلاق ﴿فيما افتدت به﴾ المرأة نفسها من المال تعطيه الرجل ليطلقها والمعنى: لا حرج عليهما في هذا الاتفاق ما دام الأمر قد وصل إلى الخوف والتيقن من عدم حسن العشرة بالمعروف وذلك يكون طلاقاً على مال لا رجعة وهو طلاق الخلع فيه ﴿تلك حدود الله﴾ أحكام الله ﴿فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

القــــراءة

قرأ حمزة ﴿يخافا﴾ بضم الياء والباقون بالفتح.

٢٣٠ ـ ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿فإن طلقها﴾ بعد التطليقتين المذكورتين سابقاً ﴿فلا تحل له من بعد﴾ الطلقة طلقة ثالثة ﴿حتى تنكح﴾ تتزوج ﴿زوجاً غيره﴾ ويدخل فيها بالجماع لما في الصحيح لامرأة رفاعة عندما طلبت من الرسول الرجوع إلى زوجها الأول ولم تتلذذ بجماع الثاني فقال لها: «حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» فإن طلقها الزوج الآخر ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي على الزوج الأول الذي طلقها ثلاثاً ثم تزوجت غيره فطلقها، فلا جناح عليه وعليها ﴿أن يتراجعا﴾ أي يجددا عقداً جديداً بينهما وإضافة التراجع إليهما على اعتبار التراضي والتفاهم وبحث مسائل الخلاف بينهما لتلافيها حتى يتم الانسجام من جديد مرة ثانية على أسس قوية وسليمة ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ يتدبرون.

القــــراءة

قرأ الحسن[1] ومجاهد[2] والمفضل[3] عن عاصم ﴿نبينها﴾ بالنون.

ثم إنه تعالى لما بين الأحكام المهمة للطلاق استأنف لحكمي الإمساك والتسريح ببيانين آخرين في آيتين متعاقبتين فقال:

٢٣١ ـ ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ﴾ عدتهن ﴿فأمسكوهن﴾ بالرجعة قبل انقضاء العدة، والتعبير بالإمساك فيه إشارة إلى أنّ المطلقة الرجعية تقضي عدتها في بيت زوجها، لأنّها ما زالت في حكم الزوجية ﴿بمعروف﴾ من غير ضرر، والقيام بما يجب لها من حق ﴿أو سرحوهنّ بمعروف﴾ من غير ضرر بهنّ بالرجعة أو غيرها من أنواع الضرر، والمعروف: الشيء الحسن المتعارف عليه بين الناس بالحق لا بالباطل ﴿ولا تمسكوهنّ ضراراً﴾ مفعول لأجله، أي لأجل الضرر دون محبة وانسجام، وإنّما القصد الاعتداء ﴿لتعتدوا﴾ عليهن لإرغامهن على الافتداء أو الطاعة على كره ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ بارتكاب الإثم ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله واعلموا أنّ الله بكل شيء عليم﴾ لما بيّن تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم والعمل بها وعدم مجاوزتها نهى عن اتخاذها هزواً أي لعباً بها، وهو التجرؤ عليها وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارّة في الإمساك أو الفراق أو كثرة الزواج والطلاق، والله من رحمته جعل طلقة بعد طلقة، رفقاً وإحساناً والله هو الذي يعلم كل مصالح عباده فيشرّع لهم.

٢٣٢ ـ ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وإذا طلّقتم النساء فبلغن أجلهنّ﴾ انقضت عدتهنّ ﴿فلا تعضلوهن﴾ وهو خطاب للولي ومعناه لا تحبسوهنّ والعرب تقول للشدائد: معضلات، وسبب نزول هذه الآية أن أخت معقل بن يسار طلّقها زوجها طلقة رجعية ومضت، فخطبها زوجها مع جملة من الخطاب فرضيت أن ترجع إليه فغضب معقل وقال: أكرمتك بها فطلّقتها لا والله لا ترجع إليك، فعلم الله عزّ وجلّ حاجة الرجل إلى امرأته وحاجة المرأة إلى بعلها، فنزلت هذه الآية فسمعها

(١) هو الحسن البصري، أبو سعيد بن يسار (٢١ ـ ١١٠هـ)، إمام زمانه علماً وعملاً.

(٢) هو مجاهد بن جبير أخذ عنه القراءة محمد بن عبد الرحمن والأعمش.

(٣) هو المفضل الضبي راوي عاصم وروى عنه سعيد بن أوس.

معقل فقال سمعاً لربي وطاعة، فدعا زوجها، فقال: أزوجك، وأكرمك، وفيها دلالة على أن الزواج لا بد له من ولي ﴿أن ينكحن أزواجهن﴾ المطلقات بعقد جديد ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به﴾ إشارة إلى نهي الولي عن المنع، ﴿من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم﴾ أي ترك العضل بردّ النساء إلى أزواجهنّ ﴿أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وأزكى، وأفضل وأطهر وأنقى لقلوبكم من الريبة حيث كان هناك نوع من المحبة، فيجتمعان على صلاح بسبب العلاقة القديمة بينهما بعد أن زال الخلف عنهما واشتاق للآخر كل منهما.

في عملية الرضاع

ما زال القرآن يبين أحكام الشرع ومنها الرضاع فيقول:

٢٣٣ ـ ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر مثل قوله تعالى[1]: ﴿والمطلقات يتربّصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ عام في الزوجات والمطلقات ﴿حولين كاملين﴾ سنتين، وكاملين توكيد ﴿لمن أراد أن يتمّ الرضاعة﴾ وبعده يصير اللبن كسائر الأغذية فلا يعتبر اللبن بعد الحولين ولا يحرم ﴿وعلى المولود له﴾ الأب ﴿رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ نفقة للوالدات بالمقدار المتعارف عليه ﴿لا تكلّف نفس إلاّ وسعها﴾ طاقتها حسب دخل الوالد ومعيشته ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلّف الله نفساً إلاّ ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾[2] ﴿لا تضارّ والدة بولدها﴾ أي بسببه لا تأبى أن ترضعه ضراراً بأبيه، ﴿ولا مولود له بولده﴾ فيمنع أمه أن ترضعه، ليحزنها بذلك ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أي وارث المولود الصغير الذي مات أبوه، على الوارث من النساء والرجال من النفقة للحاضنة للرضاعة مثل الذي على الأب من الرزق والكسوة والنهي عن الضرار وجميع ما على المولود له، فيحلّ محله. ﴿فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾ الفصال الفطام والمعنى: لا بد لفطام الطفل قبل إتمام الحولين من التشاور والاتفاق بين الزوجين لمصلحة الطفل فلا يستبد واحد منهما بالفطام دون الآخر ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ مراضع غير الوالدات لا على وجه المضارة ﴿فلا جناح عليكم إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ أي إذا وفّيتم ما عليكم للأمهات من حقوق الرضاعة والحضانة، ويشمل كذلك خقوق الرضاعة الجديدة، ﴿واتقوا الله واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير﴾.

والطبّ يرى أن لبن الأم أصحّ غذاء؛ لأنّ اللبن بالنسبة للأمّ إفراز لمواد بعضها يتزايد مدة الحمل لهذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٧.

الغرض، والرضاعة نفسها مفيدة للأعضاء التناسلية، وتقلل من الاستعداد للحمل مدة الرضاعة عند البعض، وهذا يمنع الحمل المبكر الذي ينهك القوى، وأما مدة الرضاعة فيجب أن تراعى فيه صحة المولود، وصحة الوالدة والظروف المحيطة بهما ومدة سنتين هي أقصى مدة لها والآية لم تقيِّد الرضاعة بتمام السنتين بل بحسب الحال لمن أراد أن يتمّ الرضاعة.

وأما دعوى أنّ قدر مدة الرضاعة منسوخ بقوله تعالى ﴿فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما﴾ فبعيد جداً، لأنّها أية واحدة وثانياً أنّ المقصود بيان مدة الرضاعة، ويتعلق به أحكام، منها كمال مدة الرضاعة، ومنها أنّه يلزم الأب نفقة الرضاعة في مدة الحولين، ومنها أنّه يؤخذ من النص على الحولين، ومن قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ إنّ أقلّ مدة الحمل ستة أشهر.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لا تضارُ﴾ بالرفع وقرأ الباقون بفتح الراء على النهي. وقرأ ابن كثير ﴿ما أتيتم﴾ بالقصر وقرأ الباقون بالمد.

عدة المتوفى عنها زوجها وخطبتها

وهذا حكم آخر في عدة الوفاة يبينه الله لنا فيقول:

٢٣٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

﴿والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجاً يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً﴾ من الليالي ولم يقل عشرة، لأنّ العرب إذا أبهمت العدد من الليالي والأيام غلّبوا عليه الليالي، فيقولون: «صُمنا عشراً من رمضان» ﴿فإذا بلغن أجلهنّ﴾ انقضت عدتهنّ ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ﴾ من التزين والخطبة بالمعروف شرعاً مثل الأمر بالمعروف ﴿والله بما تعملون خبير﴾ خبير بما تعملون أيّها الناس مدة الخطبة من المعروف أو المنكر.

ودعوى النسخ: بقوله تعالى ﴿وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ﴾ قال ابن الجوزي: والصحيح أنّها عامة دخلها التخصيص لأنّ ظاهرها يقتضي وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، سواء أكانت حاملاً أو غير حامل، غير أنّ آية الطلاق، خصّت أولات الحمل، فبان أنّها من العام الذي دخله التخصيص، أقول: وإذا كان النسخ منسوباً لابن عباس رضي الله عنهما وهو ـ كما ترى ـ تخصيص لعام فإنّ هذا مما يدلّ على رأي السلف في معنى النسخ.

القــــراءة

قرأ المفضّل عن عاصم ﴿يتوفّون﴾ بفتح الياء في الموضعين.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

وهذا أيضاً حكم من الأحكام في حياة الأسرة يبينه الله لنا فيقول:

٢٣٥ - ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

﴿ولا جناح عليكم فيما عرّضتم﴾ لوحتم وألمحتم ﴿به من خطبة النساء﴾ في العدة مثل إنّي لراغب ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ قال ابن قتيبة: «أكننت الشيء إذا سترته»، وكننته إذا صنته ﴿علم الله أنّكم ستذكرونهنّ﴾ في أنفسكم لرغبتكم في خطبتهن فأباح لكم التعريض في العدة والتصريح بعد انقضائها، ﴿ولكن لا تواعدوهنّ سراً﴾ بل يجب أن يكون الكلام والمقابلة أمام محرم؛ لأنّ اللقاء السّري بين الرجل والمرأة الأجنبية بشأن الخطبة يفضي إلى الشر ﴿إلاّ أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ في الشرع مثل أن يقول لوليها سرّاً دون علانية بين الناس، لا تزوّجها حتى تعلمني ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أي تنتهي مدة العدة المكتوب أجلها عند الله في الكتاب القرآن. ﴿واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أنّ الله غفور رحيم﴾.

المطلّقة قبل الدخول ولم يسمّ لها صداق

ثم بيّـن سبحانه حكم الطلاق قبل الدخول فقال:

٢٣٦ - ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿لا جناح عليكم إن طلّقتم النساء ما لم تمسّوهنّ﴾ أي تجامعوهنّ ﴿أو﴾ ما لم ﴿ تفرضوا لهنّ فريضة﴾ صداقاً ﴿ومتّعوهنّ﴾ المتاع اسم لما ينتفع به ﴿على الموسع﴾ الغني أو القادر منكم ﴿قدره وعلى المقتر﴾ الفقير أو الضيّق رزقه ﴿قدره﴾ أي الزوج ﴿فلينفق ذو سعة من سعته﴾[1] ﴿متاعاً بالمعروف﴾ شرعاً بقدر الإمكان، وهو صفة لمتاع، ﴿حقاً على المحسنين﴾ المحسن هو المتقن الذي لا يترك خللاً في عمله ﴿وللمطلّقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾[2].

القــــراءة

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ﴿على الموسع قدَره﴾ بفتح الدال وقرأ الباقون بالسكون قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿تماسوهنّ﴾ بألف وضمّ التاء في الموضعين.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤١.

المطلقة قبل الدخول ممن سمي لها صداق

٢٣٧ ـ ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ ويرجع النصف للأزواج ﴿إلا أن يعفون﴾ أي النساء عن حقهن من النصف فيتركن جميع الصداق للزوج ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ وهو الزوج فيترك لها جميع الصداق ﴿وأن تعفوا﴾ خطاب للزوج والزوجة والولي، والعفو يكون حسب الحال وأسباب الطلاق والخلف، وهل كان بسببه أو بسببها، ولا يلزم أن يكون العفو عن كل النصف بل يجوز على أقل من ذلك أو أكثر حسب ما تطيب به النفس، فإن ذلك ﴿أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ وكلمة الفضل هنا فيها إشارة إلى الهدايا بين الناس وخاصة بين الزوجين، ولما لها من الناحية المعنوية سميت فضلا، فيقال فلان له عليّ فضل، ولما كانت المعاملة بين الناس على درجتين، إما عدل وإنصاف واجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب، ويدخل فيه الهدايا، لذلك لا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة وخصوصاً لمن كان بينهم معاملة مخالطة مثل الزوجين.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي ﴿من قبل أن تُماسّوهن﴾ بضم التاء وبألف، وقرأ الباقون ﴿من قبل أن تمسوهن﴾ بفتح التاء.

المحافظة على الصلاة

لما بين سبحانه للمكلفين ما بين من معالم الدين وشعائر اليقين، أعقبها بذكرة الصلاة التي تفيد انكسار القلب من هيبة الله فقال:

٢٣٨ ـ ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾.

﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ لفظ الصلوات هي الخمس في القرآن، وأما لفظ الصلاة إذا أطلق فيشمل واحدة وأكثر من واحدة، وإذا كانت صلاة الصبح في أول النهار تصلى لوحدها وصلاة المغرب والعشاء في آخر النهار، وتجمع مع بعضها، فتكون الصلاة الوسطى هي الظهر والعصر، لأنه وسط النهار ويجمعان فكأنهما صلاة واحدة، وقد فعل ذلك النبي ﷺ، وصلّى بتلك الكيفية في المدينة حسب ما رواه مسلم في صحيحه، ويؤكد هذا المعنى ما رواه البخاري ومسلم قال النبي ﷺ يوم الخندق «شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً» ولم يذكر العصر، ولذلك قال بعضهم إنها الظهر لأنه شغل عنها يوم الأحزاب وعن العصر جميعاً، ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي خاشعين.

صلاة الخوف

٢٣٩ ـ ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿فإن خفتم فرجالاً﴾ جمع راجل أي مشاة ﴿أو ركباناً﴾ جمع راكب، سيارة أو طيارة أو حيوان، وفيه تأكيد أمر الصلاة على أي كيفية مستطاعة ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله﴾ أي عودوا إلى الصلاة المعتادة وصلّوا ﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ من ذكره وطاعته، وصلاة الخوف على قسمين أن تكون في حال القتال والمواجهة مع العدو وهو المراد بهذه الآية، أو أن تكون في غير حال بل وربما كان الخوف من هجوم العدو أو هجوم غيره من أنواع الخوف التي يقدرها الإنسان حسب حاله وهي المراد بقوله تعالى في سورة النساء ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك﴾ إلى آخر الآية.

حقوق المتوفّى عنها زوجها

٢٤٠ ـ ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصيّة لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ أي أن الزوجة بعد وفاة زوجها لها أن تمكث في بيت زوجها ولها نفقة والسكنى لمدة سنة متاعاً ﴿فإن خرجن﴾ من المنزل إلى غيره ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الأولياء للميت ﴿فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ أي التشوق إلى الزواج كالتزين وترك الحداد، ورفع الجناح المراد منه هنا قطع النفقة عنهن، إذا خرجن قبل انقضاء الحول، أو ترك منعهن من الخروج، لأن ذلك ليس بواجب عليها، بل هو تطيب لها من أهل الميت وبذلك يكون تفسير ﴿وصية لأزواجهم﴾ أي أوصوا لأزواجهم وصية لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته ويمتعوها، ولا يخرجوها، فإن رغبت أقامت، وإن أحبت الخروج فلها.

دعوى النسخ: بآية العدة، والآية السابقة آية عدة، وهذه آية متاع، جبراً لخاطرهنّ الذي انكسر بموت بعولتهنّ، ما دمن ساكنات في بيت الزوجية إلى مدة عام وهذا من باب تعليم الإسلام للناس الوفاء، ولا نرى تعارضاً بين الآيتين، حتى يقال: بينهما نسخ فكل آية جاءت لمعنى وحكم غير الأخرى، لا سيما وأنّ المتاع قد تكرّر في القرآن في أكثر من آية.

القـــراءة

قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص: ﴿وصيةً﴾ بالنصب وقرأ الباقون بالرفع.

متاع المطلّقة

٢٤١ ـ ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿وللمطلقات متاع بالمعروف﴾ بقدر الإمكان المتعارف عليه بين الناس حسب حالتهم ﴿حقاً على المتقين﴾ لما بين الله في الآية السابقة إمتاع المفارقة بالموت ذكر هنا أن كل مطلقة لها على زوجها أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأكّد ذلك بقوله ﴿حقاً﴾ وإنما يوفي الحقوق الذين يتقون الله، والمطلقة التي تستحق هذا المتاع، هي التي طلقت تعسفاً، لا التي تطلب الطلاق فتجاب ولا المخالعة على مال فهو غير الصداق وغير نفقة العدة بل هو جبر لخاطرهن الذي انكسر بهذا الإجراء من جانب واحد، وقد شرعت معظم دول شعوب المسلمين ذلك بقوانينها وجعلته بحدود نفقة سنة يقدّرها القاضي.

٢٤٢ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أحكامه فتحافظوا عليها إذ ثمرة العقل استعمال الأشياء في أماكنها واتباع الطريق المستقيمة.

جرت سنة الله أن يذكر في كتابه بعد بيان الأحكام القصص اعتباراً للسامعين فقال:

٢٤٣ ـ ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

﴿ألم تر﴾ ألم تعلم على وجه التعجب كما تقول ألا ترى ما يصنع فلان ﴿إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾ فراراً من الموت بسبب انتشار الوباء، ولم يعين الله زمانهم ولا مكانهم، لأن العبرة بما حدث لهم ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ بعد مدة ليعتبروا بأنفسهم ويعتبر الناس بهم، ويعلموا أن الله على كل شيء قدير ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ ومنه إحياء هؤلاء وفضله كثير عميم على سائر خلقه ﴿ولكن أكثر الناس﴾ لجهلهم بنعمة الله عليهم ومقدارها أو لتجاهلهم لها ﴿لا يشكرون﴾ الله عليها ولا يقدرونها حق قدرها.

تفضل الله عليهم بأن خرجوا من الدنيا على المعصية فأعادهم إلى الدنيا ومكّنهم من التوبة وبين أن الموت إذا لم ينفع منه الفرار فأولى أن يكون في سبيل الله فقال:

٢٤٤ ـ ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ لإعلاء دينه ﴿واعلموا أن الله سميع عليم﴾ بأحوالكم وأقوالهم وأفعالهم، والمعنى: قاتلوا ولا تهربوا من الموت، كما هرب هؤلاء فما ينفعكم الهرب فأين تذهبون فالله محيط بكم وإليه مرجعكم.

ولما أمر المكلفين بالقتال في سبيل الله أردف ذلك بقوله:

٢٤٥ ـ ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ

وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ بإنفاق ماله وجهده وعلمه في سبيل الله ﴿قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض﴾ يمسك الرزق عمن يشاء ﴿ويبسط﴾ يوسّعه لمن يشاء امتحاناً واختباراً ﴿وإليه ترجعون﴾.

القـــراءة

قرأ ابن كثير ﴿فيضعِّفه﴾ بالرفع والتشديد، وقرأ ابن عامر ﴿فيضعِّفه﴾ بالنصب والتشديد، وقرأ عاصم ﴿فيضاعفه﴾ بالنصب والألف، وقرأ الباقون بالألف والرفع.

قرأ نافع والكسائي وأبو بكر ﴿يقبض ويبصط﴾ بالصاد وقرأ الباقون بالسين.

طالـوت وجالـوت

القصة الثانية هي قصة طالوت:

٢٤٦ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذْ قالوا لنبي لهم﴾ شمويل والملأ الجماعة ﴿ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ معه لتنظيم كلمتنا ﴿قال هل عسيتم إنْ كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ أي أعرضوا عن الجهاد إلا تلك الفئة الذين عبروا النهر مع طالوت الذي نصّب ملكاً كما سيأتي.

القـــراءة

قرأ نافع: ﴿هل عسِيتم﴾ بكسر السين، وقرأ الباقون بالفتح.

٢٤٧ ـ ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وقال لهم نبيهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه﴾ لأنه لم يكن من سبط النبوة، ولا سبط المملكة ﴿ولم يؤت سعة من المال قال﴾ لهم النبي ﴿إنّ الله اصطفاه﴾ اختاره

للملك عليكم ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ وهذا يفيد بأن الولاية لا يلزم لها الغنى بل يكفي القدرة والعلم بالأمور التي تحتاجها الولاية ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾.

٢٤٨ ـ ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وقال لهم نبيهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾ الصندوق الذي فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، وكان بنو إسرائيل يقدمون هذا الصندوق أمامهم في الحرب يستفتحون به، أي يستنصرون، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتتقوى على الثبات ﴿فيه سكينة﴾ السكينة من السكون أي تسكنون إليه إذا آتاكم فتذكرون آيات الله وتذكرونه وبذكر الله تطمئن القلوب فهو مثل قوله تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته عليه وأيده﴾[1] إلى آخر الآية، ومثل قوله تعالى[2]: ﴿وهو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ لم يبين لنا الله أسماء الأشياء التي تركها آل موسى وهارون في التابوت، قد تكون العصا والألواح والثياب والنعال، وكان الصندوق قد اختفى عن بني إسرائيل فأصابهم الهلع والجزع فلذلك حرصوا على طلبه آية للتسليم بملك طالوت، ولكي يطمئنوا بأنهم سوف ينتصرون على أعدائهم بقيادته فسارعوا إلى طاعته والخروج معه.

٢٤٩ ـ ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

﴿فلما فصل﴾ خرج ﴿طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم﴾ مختبركم ﴿بنهر فمن شرب منه فليس مني﴾ أي من أتباعي ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فاكتفى بها ولم يزد عليها. والمعنى: تدل الآية على أنهم كانوا عطشى حين وصلوا النهر، وأنهم في حاجة إلى الماء، فكان في ذلك محل الامتحان ومحل الاختبار ليتعرف طالوت على جنوده، فيعرف الصابر من الناكل والصالح من الطالح، فالمسألة ليست بالكثرة بقدر ما هي بالعزم والإيمان والصبر والثبات والطاعة للقادة فقال لهم سوف نمر بنهر فيه ماء كثير لم يعين مكانه ليس بمسموح لكم الشرب منه إلا أن يسدّ الشخص ظمأه بغرفة يغترفها بيده كلّما عطش يفعل ذلك، ومن يفعل ذلك يكون من

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٤.

أتباعي ومن عصى أمري شرب منه، والمقصود بالشراب هنا التروّي منه وحمله لغاية الإطعام منه للطبخ والتزوّد فإنه ليس من أتباعي، وهذا ما يفيده ظاهر الآية وربما كانت الحكمة في ذلك والله أعلم نهيهم عن حمل الكثير من الماء وهم في مواجهة مع العدو، فيثقلهم عن الزحف أو أن في شرب الكثير منه ضرراً على الجسم لخاصية فيه ويخسر بحمله وتخزينه فيسبب انهزام الجيش لضعف الجنود، والمهم أنه كان امتحاناً للقوم ليفرز الله الصادقين الصالحين للقتال من المرجفين الخائفين.

قال الله تعالى: ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾ اقتصروا على الغرفة طاعة لأمر ملكهم ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه﴾ وهم الذين اقتصروا على الغرفة التي فيها البركة والشفاء وفي الزيادة عليها المرض والعناء ﴿قالوا﴾ أي الذين شربوا أكثر من الغرفة ﴿لا طاقة لنا بجالوت وجنوده﴾ أي لا قدرة لنا بقتالهم وجبنوا ولم يجاوزوه وهو قول الناكلين، وهو يدلّ على الضعف والتأثر مما أصابهم بسبب الماء الذي اكثروا منه فأقعدهم عن القتال وأخرجهم عن الطاعة والإيمان، وقول البعض بأن الغرفة كفتهم لشربهم ودوابّهم، هذه من الإسرائيليات الخيالية، وقول بعض المفسرين، ليس المراد غرفة الكف، وإنما المراد المرة الواحدة بقربة أو جرة أو ما أشبه ذلك، على ما نقله ابن الجوزي وهو قول بلا دليل، ولا أدري كيف جاز لهم إضافة القربة والجرة، والقرآن يقول ومن لم يطعمه، والإطعام معناه التزود ﴿قال الذين يظنون﴾ أي يوقنون ﴿أنهم ملاقوا الله﴾ وهم الفئة القليلة التي جاوزت النهر ببركة تلك الغرفة ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ بإرادته، مثل معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون لقلتهم على الكفار مع كثرتهم وذلك بأنهم كانوا مع الله ومستعينين بالله ﴿والله مع الصابرين﴾.

القــــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿غرفة بيده﴾ بفتح الغين وقرأ الباقون بالضم.

٢٥٠ ـ ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

وهذا يدل على أن جالوت وجنوده كانوا من عبدة الأوثان.

٢٥١ ـ ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿فهزموهم﴾ أي هزم جنود طالوت جيش جالوت ﴿بإذن الله وقتل داود﴾ وهو نبي الله أبو سليمان ﴿جالوت وآتاه الله الملك﴾ في بني إسرائيل ﴿والحكمة﴾ النبوة ولم يجتمعا لأحد قبله ﴿وعلمه مما يشاء﴾ كصنعة الدروع ومنطق الطير ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ يدفع بعضهم ببعض لأنه أدرى بمصلحتهم وهم عباده.

التفسير: لولا أن الله جعل الناس مؤمنين وكافرين يتدافعون في ميدان الحياة ومنها الحروب فيموت

بعضهم ويحيا بعض، وسبب هذا التدافع أن المكان أصبح لا يسعهم في العيش معاً، بسبب اختلاف العقيدة وهذا يؤدي إلى اختلاف المفهوم والفكر المؤدي إلى الصراع الفكري ثم البدني وهو التدافع وذلك أن الحق لا يعيش مع الباطل والباطل كثيراً ما يتدافع مع الباطل فيصرع بعضه بعضاً، أي ولولا ذلك الصراع العنيف المستمر في كل العصور يسقط فيه الناس في الحروب قتلى وجرحى ومرضى، فينقص عددهم أي لولا ذلك لفسدت الأرض فلم تعد صالحة للسكن والعيش فيها، فيهلك من عليها لعدم حصولهم على الطعام والشراب واللباس الكافي لكثرتهم فيأكل بعضهم بعضاً، ولكن حكمة ربك اقتضت أن يموت البعض ليعيش البعض الآخر، وهذه سنة الله في خلقه ولله في خلقه شؤون وأما على القول بأن معنى الآية لولا دفع الله المشركين بالمسلمين لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المسلمين وخربوا، أو على المعنى الذي يقول لولا أن الله يدفع بمن أطاعه من عصاه كما في دفع المتخلفين عن طالوت بمن أطاعه، حيث اجتمع الكل على المعصية فهذا يمكن القول به في تفسير آية سورة الحج ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ (٤١) الحج.

٢٥٢ ـ ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿تلك﴾ القصص المذكورة من حديث الآلاف وإماتتهم ثم إحيائهم، ومن تمليك طالوت وظهور آية التابوت ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ بدلالة إخبارك بهذه الآيات مع أنك لم تشاهدها ولم تخالط أهلها ولا تعلم ذلك مع عدم المشاهدة ومخالطة أهلها إلا بوحي من الله والله سبحانه لا يوحي إلا إلى أنبيائه.

القـــراءة

قرأ نافع: ﴿ولولا دفاع الله﴾ الناس بالألف وقرأ الباقون: ﴿دفع الله﴾ مصدر من «دفع دفعاً».

درجات الأنبياء وطبيعة الناس في اتباعهم

٢٥٣ ـ ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله﴾ يعني موسى ﴿ورفع بعضهم﴾ أي محمداً ﴿درجات﴾ على غيره بعموم الرسالة وختم النبوة ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ راجع تفسيرنا لمعنى ﴿روح القدس﴾ في الإسراء والبقرة[١]، وكتابنا مشكل القرآن عند قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن

(١) الآية: ٨٧ وتفسير مشكل القرآن ص ١١٧.

الروح﴾ ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ بعد الرسل ﴿من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا﴾ والاختلاف في الأمم والشعوب سبب الصراع وسفك الدماء ﴿فمنهم من آمن﴾ بالرسل وثبت وصبر ثم ظفر ﴿ومنهم من كفر﴾ كاليهود بعد موسى والنصارى بعد المسيح ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ من دفع بعضهم ببعض، لتصلح الأرض وتعمر ويذكر اسم الله عليها، إشارة إلى أتباع الأنبياء من المؤمنين وأعداء الذين من الكافرين، وهو صراع الحق مع الباطل.

الحث على الإنفاق

لما أخبر عن فضيلة الخواص بأنها كانت بسبب تفضيلهم إياهم أخبر عن اختلاف العوام وافتراقهم وأنه كان بمشيئته تعالى، لا بمشيئتهم، ثم أخبر عن إحراز الفضل وأنه في الإنفاق والبذل، فخاطب أهل الإيمان فقال:

٢٥٤ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ أي ليس فيه سوق للبيع والمتاجرة والمرابحة، ومنه المبادلة وإنما ذكر لفظ البيع لما فيه من المعاوضة، ويدخل في ذلك تقديم الفداء بالمال وغيره لدفع العذاب، والمراد من الآية البيع والمعاوضة، من العمل الصالح في الدنيا لينازعوا فيه، وجزاؤه في الآخرة كقول الله عز وجل: «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله»[(١)] ﴿ولا خلة﴾ أي ولا صداقة تنفع كما لا تنفع كذلك ﴿ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ لأنفسهم بما حلّ بهم بسبب كفرهم.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لا بيع ولا خلة ولا شفاعة﴾ بالنصب من غير تنوين.

آيـة الكرســـي

وإذ تقدم من علم الأحكام والقصص ما اقتضى المقام إيراده، ذكر الآن ما يتعلّق بعلم التوحيد فقال:

٢٥٥ ـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود بحق في الوجود سواه ﴿الحي القيوم﴾ الدائم البقاء والقيوم الذي لا يزول

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

لاستقامة وصفه بالوجود، حتى لا يجوز عليه التغيير بوجه من الوجوه، القائم بتدبير خلقه ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ السنة النعاس من غير نوم فهو حي لا يموت وقيوم لا ينام، لا شيء يشبهه في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ﴿له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي لا أحد يشفع بغير إذنه، وفيه رد على الكفار الذين كانوا يقولون «ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى»[1] ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ جميع الخلق بما فيهم الملائكة، والعلم متعلق بأمور الدنيا والآخرة ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾ المعلوم فلم يبلغوا أقصاه ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ أي ودخل في حكمه وتحت سيطرته كل من في السماوات والأرض، واختلف العلماء في معنى الكرسي، فمنهم من يفسّره بعلمه، قال ابن كثير: والصحيح أن الكرسي غير العرش أكبر منه كما دلّت على ذلك الآثار والأخبار، لكننا نؤمن بأن لله عرشاً وأن له كرسياً لا يشبه ما لدى المخلوقين، ونفوض الأمر لله في الكيفية التي عليها العرش والكرسي لأنه لم تتعلق لنا بهما حاجة، ولو تعلقت لما تأخر بيان الله سبحانه لخلقه. ﴿ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ أي لا يثقله حفظ السماوات والأرض لعظمته وقدرته ذو الجلال والإكرام العالي بمجده المنزّه عن مخلوقاته الذي يَخلُق ولا يُخلَق، يُعبَدُ ولا يَعْبُدْ.

الدخول في الدين والولاية على الناس

لما تقدّم ذكر اختلاف الأمم وأنّه لو شاء الله لأكرههم على الدين ثم بين تعالى دين الحق والتوحيد عقّبه بأن الحق قد ظهر والعبد قد خيّر فلا إكراه فقال:

٢٥٦ ـ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿لا إكراه في الدين﴾ أي لا يجوز أن يحمل الأشخاص بالقوة على اعتناق الدين الإسلامي، إذ أنّ العقيدة لا بد أن تكون عن اقتناع ويطمئن بها القلب، ويصدّقها العمل، وإلاّ كان الشخص منافقاً مسلماً ظاهراً وكافراً باطناً، أما المجتمعات والنظام العام والآداب فإنّه يجب أن تعلو فيها كلمة الله وتزال منها جميع المظاهر الكافرة والمشركة، ليكونوا في ذمة المسلمين وحمايتهم والإشراف عليهم وحمل الدعوة الإسلامية إليهم، يتفهموا الإسلام فيقتنعوا به عن إيمان، ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ الحق من الباطل، الإيمان من الكفر، اكتمل الإسلام بنزول القرآن وتكوين المجتمع الإسلامي الفاضل بالمدينة يدعو إلى الله وبقي مجتمع الكفر بمكة يدعو إلى الشيطان، ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾، ومعناه الطاغي عليهم بشره وتسلّطه، ويدخل فيه كل طاغ كالشيطان، والحاكم المستبد الظالم المتسلط على أتباعه ﴿ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ هذا مثل للإيمان، شبه التمسّك به كالتمسّك بالعروة الوثيقة، كالذي عقد لنفسه عقداً وثيقاً لا انفصام أي لا أغلال لها ولا سبيل لفكها لما ذكر سبحانه المؤمن والكافر بيّن ولي كل واحد منهما فقال:

٢٥٧ ـ ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

ٱلطَّـٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ أي الله متولي أمورهم وناصرهم، ومعينهم حيث أخرجهم من الضلالة إلى الهدى والإيمان، ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ الإخراج هنا مستعار ليس على حقيقته فقد يقال للممتنع عن الدخول في شيء خرج منه، وإن لم يكن يدخل فيه أو لا يصحّ له الدخول فيه أصلاً مثل قوله تعالى[١]: ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ ﴿ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر﴾[٢] ولم يكن المؤمنون في ظلمة، لكن عصمة الله للمؤمنين عن مواقعة الضلال، إخراج لهم من ظلام الكفر، كذلك لم يكن الكفار في نور يخرجون منه، ولكن تزيين قرناء السوء لهم الباطل الذي يحيدون به عن الهدى، إخراج لهم من نور الهدى ﴿أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾.

من غرور الكافرين بالله وقصة النمرود

لما بيّن تعالى أنّه ولي المؤمنين وأن الكفار لا ولي لهم سوى الطاغوت تسلية لنبيه ﷺ قصّ عليه بعده قصة إبراهيم ونمرود فقال:

٢٥٨ ـ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

﴿ألم تر إلى الـذي حاجّ﴾ جادل ﴿إبراهيم في ربّه أن آتاه الله الملك﴾ هو النمرود ﴿إذ قال إبراهيم﴾ لما قال له من ربك الذي تدعونا إليه قال ﴿ربي الذي يحيي ويميت قال﴾ النمرود ﴿أنا أحيي وأميت﴾ بالقتل والعفو فأترك من شئت وأقتل من شئت، فانتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لما رأى من فساد معارضته أمراً يدل على ضعف فهمه؛ لأنّه عارض اللفظ بمثله، وجهل اختلاف الفعلين في المعنى لذا ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ أي تحيّر وانقطعت حجته قال الكسائي: من العرب من يقول: ﴿بهت﴾ بكسر الهاء وضم الباء ومنهم من يقول بهت بفتح الباء وضم الهاء ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يهديهم إلى الحجة.

القــــراءة

قرأ نافع: ﴿أنا أحيي﴾ و﴿أنا آتيك﴾ بإثبات الألف «من أنا» في الوصل وقرأ الباقون: أنا أحيي بغير ألف في الوصل.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٠ وسورة الحج، الآية: ٥.

قصة صاحب الحمار

ثم عطف قصة أخرى على قصة إبراهيم لتأكيد قدرة الله على البعث فقال:

٢٥٩ ـ ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿أو كالذي مر على قرية﴾ معطوف على معنى الكلام الذي قبله ومعناه: أرأيت كالذي حاجّ إبراهيم أو كالذي مر، والكاف للتشبيه، ومن الخطأ القول أنها زائدة، ألا ترى أنك لو حذفتها اختلت روعة وَقع الآية على السامع وفَتر أسلوبها ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ مهدَّمة سقوفها من الخراب، وربما كانت بيت المقدس حين خرَّبها الملك بختنصر حاكم بلاد بابل من قبل ملك الفرس، ثم سار إلى الشام في طريقه إلى بيت المقدس وترك عندهم بعض الرهائن ولكن أهلها تمردوا على ملكهم وقتلوا الرهائن، فبعد أن خرب بختنصر بيت المقدس وأجلى اليهود عنها، وفعل بهم الأفاعيل بظلم منهم عاد إلى الشام وانتقم لرهائنه. ﴿قال﴾ الرجل وهل هو عزير أو غيره؟ ولكن الظاهر أنه شاك بإعادة بناء هذه القرية وإعادة الحياة فيها لما رأى ما حلّ بها من الدمار والخراب فاستعظم ذلك ﴿أنى﴾ كيف ﴿يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام﴾ هو وحماره وما بقي إلا عظامه ﴿ثم بعثه، قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ وذلك بحسب ما ظنه فقال ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام، ومن تمام رحمة الله به وبالناس أنه أراه الآية عياناً فبعد ما عرف أنه ميت قد أحياه الله قيل له ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه﴾ لم يتغير مع طول الزمان، واللفظ مأخوذ من السنه ﴿وانظر إلى حمارك﴾ كيف تراه ميتاً وقد ابيضت عظامه، وتفرقت أوصاله ﴿ولنجعلك﴾ آية للناس ﴿وانظر إلى العظام﴾ عظامك وعظام حمارك ﴿كيف ننشزها﴾ والمعنى نرفع بعضها فوق بعض للإحياء ﴿ثم نكسوها لحماً فلما تبين له﴾ بأن له وحده إحياء الموتى بالمشاهدة ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾.

القــــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿لم يتسنّ﴾ بحذف الهاء في الوصل وقرأ الباقون: ﴿لم يتسنه﴾ بإثبات الهاء في الوصل.

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿ننشرها﴾ بالراء أي كيف نحييها وقرأ الباقون: وكيف ﴿ننشزها﴾ بالزاي أي نرفعها.

قرأ حمزة والكسائي: ﴿قال اعلمْ أن الله على كل شيء قدير﴾ جزماً على الأمر من الله وقرأ الباقون: ﴿قال أعلم﴾ رفعاً على الخبر عن نفس المتكلّم.

قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿كم لبِثت﴾ بالإدغام أي بإدغام الثاء في التاء.

آية إحياء الموتى

ثم ذكر القصة الثالثة فقال:

٢٦٠ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَلَمْ تؤمن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي﴾ بالمعاينة المضمومة إلى الاستدلال ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾ اجمعهن إليك ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾ والتعبير بالسعي يدل على المشي السريع لأن الطير إذا طار لا يقال له يسعى، لأن السعي لا يطلق إلا على المشي كقوله تعالى في سورة عيسى: ﴿وأما من جاءك يسعى وهو يخشى﴾[1] وفي سورة طه ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾[2] أي الحية على بطنها. ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ منيع لا يغلب حكيم فيما يدبّر، والظاهر أن نبي الله إبراهيم عليه السلام لما ناقشه وحاوره النمرود بشأن إحياء الموتى تشوق لرؤية ذلك حقيقة للتخلص من الوسواس في قلبه ولذلك سأل الله سبحانه وتعالى لا عن شك ﴿قال أولم تؤمن قال بلى﴾ ولكن ليملأ قلبه إيماناً بعظمة الله وقدرته على إحياء الموتى والإتيان بالمسمى من جهة لم يستطع أحد أن يفعل مثلها ولو كان ملكاً، وليزداد يقيناً على يقين.

القــــراءة

قرأ حمزة ﴿فصرهن إليك﴾ بكسر الصاد وقرأ الباقون بضم الصاد.

قرأ أبو بكر: ﴿جزؤاً﴾ بضم الزاي وقرأ الباقون بإسكان الزاي وهما لغتان معروفتان.

الإنفاق في سبيل الله وآدابه وشروطه

لما ذكر أصول المبدأ والمعاد وأتبعه بيان التكاليف والأحكام ففصل بعد ذلك ما أجمل من ذكر القرض الحسن المضاعف فقال:

٢٦١ ـ ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ وهي ما يوصل إلى مرضاته من المصالح العامة، لا سيما ما كان

---

(١) الآيات: ٨ ـ ٩.

(٢) الآية: ٦٦.

نفعه أعمّ وأثره أبقى ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة﴾ كمثل حبة حنطة بر في أخصب أرض نمت أحسن نمو فجاءت غلتها مضاعفة سبع مئة ضعف، وذلك منتهى الخصب والنماء، أي أن هذا المنفق يلقى جزاءه مضاعفاً أضعافاً كثيرة، فالتمثيل للتكثير لا للحصر ولذلك قال ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ فيزيده على ذلك زيادة لا تقدر ولا تحصر. فذلك العدد لا مفهوم له ﴿والله واسع﴾ لا ينحصر فضله ولا يحد عطاؤه ﴿عليم﴾ بمن يستحق المضاعفة من المخلصين الذين يهديهم إخلاصهم إلى وضع النفقات في مواضعها التي يكثر نفعها وتبقى فائدتها زمناً طويلاً. كالمنفقين في إعلاء شأن الحق وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التي تسوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد، حتى إذا ما ظهرت آثار نفقاتهم النافعة في قوة ملتهم وسعة انتشار دينهم وسعادة أفراد أمتهم، عاد عليهم من بركات ذلك وفوائده ما هو فوق ما أنفقوا بدرجات لا يمكن حصرها.

٢٦٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى﴾ قال الشيخ الإمام محمد عبده: إن هذه الآية لبيان ثواب الإنفاق في الآخرة بعد التنويه بمنفعته في الدنيا. وقد شرط لهذا الثواب ترك المن والأذى، والمن هو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه يظهر به تفضله عليه مثل قوله قد أحسنت إليك، وقد ساعدتك وأعطيتك وكل كلمة يؤذي بها شعور الفقير، والأذى فهو أعم وهو أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن إليه حيث يكون أشدّ على الفقير مما لو ذكره له، وقالوا هو كل ذكر كما لا يحب الفقير أن يشهر به ﴿لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يشعر بأن هذا الأجر عظيم، من رب كريم، فقد أضافهم إليه تشريفاً لهم وإعلاء لشأنهم، ولا خوف عليهم يوم يخاف الناس وتفزعهم الأهوال ولا يحزنون يوم يحزن البخلاء الممسكون عن الإنفاق في سبل الله والمبطلون لصدقاتهم بالمن والأذى بل هم أهل الأمن والطمأنينة والسرور الدائم والسكينة.

٢٦٣ ـ ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾.

﴿قول معروف﴾ كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يردّ به السائل من غير عطاء وستر لما وقع منه من الإلحاف في المسألة مما يثقل على النفوس أو ستر حال الفقير بعدم التشهير به ﴿ومغفرة﴾ أي وستر على المسلم خلته وفاقته، ومنها مسامحة السائل الفقير إذا ألحّ أو استطال في طلبه على المسؤول ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ وقيل المراد بالمغفرة من الله تعالى لمن يرد السائل رداً جميلاً، وذلك خير له عند الله تعالى من صدقة يتبعها أذى فهو يستحق عليها العقاب من حيث يرجو الثواب. والقول بالمعروف يتوجه إلى السائل إن كانت الصدقة عليه، وتارة يتوجه إلى المصلحة العامة لمن لم يكن له مال يمكنه أن يساعد بالقول بالمعروف الذي يحث على العمل وينشط الذين يجمعون الصدقات ويبعث عزيمة الباذلين. ﴿والله غني﴾ بذاته وبماله من ملك السماوات والأرض غني عن صدقة الناس وإحسانهم لبعضهم ﴿حليم﴾ لا يعجل العقوبة ويؤخرها للظالم.

٢٦٤ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ

وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ بيان لبطلان أجر الصدقة وذهاب ثوابها بزوال فائدتها وفي ذلك من المبالغة والتنفير عن هاتين الرذيلتين ﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس﴾ لأجل أن يحمدوه لا لوجه الله ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ نهى الله المؤمنين أن يتصفوا بصفات الكفار المنافقين الذين ينفقون للرياء لا لله؛ لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴿فمثله كمثل صفوان﴾ فمثل هذا المنافق المتصف بتلك الصفات كمثل الحجر الأملس ﴿عليه تراب فأصابه وابل﴾ المطر المستمر الشديد ﴿فتركه صلداً﴾ أملس لا شيء عليه ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ أي لا يجدون له ثواباً في الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شيء من التراب الذي أزاحه المطر ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ يريد سبحانه في ضرب هذا المثل للمنافقين أنه محق كسبهم، فلم يقدروا عليه حين حاجتهم إليه، كما أذهب المطر التراب عن الصفا، ولم يوافق في الصفا منبتاً.

مثل من ينفق للرحمن ومن ينفق للشيطان

٢٦٥ ـ ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أي تحقيقاً للثواب عليه بخلاف المنافقين ﴿كمثل جنة﴾ بستان ﴿بربوة﴾ الربوة ما ارتفع من الأرض إذا كان له ما يرويه من الماء، فهو أكثر ريعاً من مثيله بمكان منخفض، وهو على كل حال كل شيء ارتفع وزاد فقد ربا وأينع، ومنه الربا في البيع ﴿أصابها وابل﴾ المطر ﴿فآتت أكلها ضعفين﴾ أي أعطت ثمرها مثلين عن غيرها ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ وهو أضعف المطر وهو المطر الدائم أي صغار القطر التي لا تكاد تسيل منها المجاري والوديان والمسيلات ﴿والله بما تعملون بصير﴾.

القــــراءة

قرأ ابن عامر وعاصم: ﴿بربَوة﴾ بفتح الراء وهي لغة بني تميم.

وقرأ الباقون: ﴿برُبوة﴾ بضم الراء وهي لغة قريش.

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿أكلها﴾ بسكون الكاف وقرأ الباقون بضم الكاف على أصل الكلمة.

ثم ضرب مثلاً لروح الإنسان وقلبه بالجنة فقال:

٢٦٦ ـ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ

يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات﴾ هذه الآية متصلة بقوله تعالى: ﴿ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ وإنما ذكر الله تعالى النخيل والأعناب، لأنهما من أنفس ما يكون في البساتين ﴿وأصابه الكبر﴾ لأنه يئس من سعي الشباب حيث ضعف الجسم وذبل الفكر وعجز عن الكسب ﴿وله ذرية ضعفاء﴾ أولاد صغار وضعف الذرية وصغر سنهم يجعلان الوالد أحن عليهم، وأكثر إشفاقاً وحرصاً ﴿فأصابها﴾ أي البستان الجنة ﴿إعصار﴾ وهي ريح شديدة تهب بشدة فترفع إلى السماء تراباً كأنه عمود مصحوبة برعد وبرق وصواعق محرقة ﴿فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلّكم تتفكرون﴾.

لما رغّب في الإنفاق وذكر أنّ منه ما يتبعه المنّ والأذى ومنه ما لا يتبعه ذلك وشرح ما يتعلق بكل من القسمين وضرب لكل واحد مثلاً ذكر بعد ذلك فقال:

٢٦٧ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ أي زكوا وتصدقوا من الأصناف الجيدة غير الرديئة المتحصلة من الحلال ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾(١)، ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ من الحبوب والثمار ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾ أي لا تقصدوه ﴿منه تنفقون ولستم بآخذيه﴾ أي الخبيث لو أعطيتموه في حقوقكم ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ بالتساهل وغض البصر، فكيف تؤدون منه حق الله، والأصل فيه أن يصرف المرء بصره عن الشيء ويغمضه، فسمي الترخيص إغماضاً: ومنه قول الناس للبائع أغمض، وكن كأنك لا تبصر ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ أي لم يأمركم بالتصدق عن عوز فهو حميد على ذلك.

القــــراءة

قرأ ابن كثير في رواية البزي(٢): ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾، بتشديد التاء، وقرأ الباقون: بالتخفيف.

الشيطـان والإنفـاق

لما رغّب الله في أجود ما يملكه الإنسان حذّر عن وسوسة الشيطان فقال:

٢٦٨ ـ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) هو أحمد بن محمد بن عبد الله، أبو الحسن البزي مقرىء مكة ومؤذّن المسجد الحرام (١٧٠ ـ ٢٥٠هـ).

﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ معناه أنه يخيل إليكم بوسوسته أن الإنفاق يذهب بالمال، ويفضي إلى سوء الحال، فلا بد من إمساكه والحرص عليه استعداداً لما يولده الزمن من الحاجات ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ عبارة عما تولده الوسوسة من الإغراء والفحشاء والبخل، وهي في الأصل كل ما فحش أي اشتد قبحه، وكان البخل عند العرب من أفحش الفواحش ثم لما ذكر درجات وسوسة الشيطان أردفها بذكر إلهامات الرحمن قال: ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ بما أنزله من الوحي، وبما أودعه في النفوس الزكية من الإلهام الصحيح والعقل الراجح والفطرة السليمة في حب الخير والرغبة في البر، فإن الله جعل الإنفاق كفارة لكثير من الخطايا، وسبباً يفضل به المرء قومه ويسودهم، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الفضل هو ما يخلفه الله تعالى على المنفق من الرزق، ويؤيده قوله تعالى(٣): ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾ ﴿والله واسع عليم﴾ فهو إذا وعد أنجز، وهو أعلم حيث يضع مغفرته وفضله.

الحكمة والإنفاق

ثم نبّه على الأمر الذي لأجله يحصل ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان وهو الحكمة والعقل فقال:

٢٦٩ ـ ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

﴿يؤتي الحكمة﴾ العلم النافع والعمل الصالح ﴿من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ لمصيره إلى السعادة ﴿وما يذكر﴾ وما يتفكر فكراً يذكر به ﴿إلا أولوا الألباب﴾ أصحاب العقول.

قال ابن قتيبة ﴿أولو﴾ بمعنى: ذوو، وواحد: أولوا، ذو.

٢٧٠ ـ ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ أديتم من زكاة أو صدقة ﴿ونذرتم من نذر﴾ النذر: ما أوجبه الإنسان على نفسه، ﴿فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ أي المنفقون في المعصية مالهم مانع يمنعهم من عذاب الله.

٢٧١ ـ ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

﴿إن تبدوا﴾ تظهروا ﴿الصدقات﴾ وسبب النزول أن المسلمين سألوا الرسول ﷺ صدقة السر أفضل أم العلانية؟.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

وبدا الشيء يبدو: إذا ظهر وأبديته إذا أظهرته ﴿فنعما هي﴾ أي فحسن ذلك وفيها عدة لغات، نعم، بفتح النون، وتسكين العين، ونعم، بكسر النون وتسكين العين، قال الزجاج، ما، في تأويل الشيء، أي فنعم الشيء هي ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ يعني الإخفاء، وإخفاء صدقة النافلة أفضل من إظهارها، أما الزكاة الفرض فإظهارها أفضل ليقتدى به ولا يتهم، ولإظهار فرائض الله في الناس ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ و﴿من﴾، داخلة هنا للتبعيض، أي بعض، أي ينقص منها حتى تتلاشى حسب الأعمال الصالحة لأن الحسنات يذهبن السيئات.

القــــراءة

قرأ نافع وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿فنِعْما هي﴾: بكسر النون وسكون العين في كل القرآن وقرأ حمزة وابن عامر والكسائي: ﴿فنَعِما هي﴾ بفتح النون وكسر العين، وقرأ ورش[1] وابن كثير وحفص: ﴿فنعما﴾ بكسر النون والعين.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿ونُكفر﴾، برفع الراء على الاستئناف وقرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ونكفر﴾ بالجزم وقرأ ابن عامر وحفص ﴿ويكفر﴾ بالياء والرفع على الاستئناف.

٢٧٢ ـ ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

﴿ليس عليكم هداهم﴾ سبب نزولها أن المسلمين كرهوا التصدق على الكفار من أقربائهم لكي يسلموا ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ أي إنما عليك البلاغ للدعوة ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أي فلكم ثوابه ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ أي إلا طلب رضوان الله وثوابه لا غيره من المخلوقات ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

أهــل الصفــة

٢٧٣ ـ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

﴿للفقراء﴾ خبر مبتدأ محذوف، وفيه إيجاز، لأنه معلوم من سياق الآيات السابقة أي الصدقات ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ أي الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد وطاعة الله، ولم يكن لهم شيء من المال، لما

---

(١) هو عثمان بن سعيد المصري، ويكنّى: أبا سعيد، وورش لقب فيما يقال لشدة بياضه، وتوفّي بمصر سنة ١٩٧هـ.

حثهم الله على الصدقات والنفقات في الآيات السابقة، دلهم هنا على خير من يتصدق عليه وهم أهل الصفة أربعمائة من المهاجرين أرصدوا لتعلم القرآن والخروج مع السرايا، ويدخل في الآية كل من ينطبق عليه الوصف كبقية المهاجرين ومن حبس نفسه للعلم والغزو، ومن أصابتهم جراحات فصاروا زمنى، ويسمون اليوم بالمحاربين القدماء، وكل من أحصر من الخوف والمرض ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ التحرك والسعي بالسفر وغيره لأجل التجارة والرزق ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ أي يظنهم الجاهل بحالهم بما يظهر من تعففهم وكرامة نفوسهم وعزتها أنهم من الأغنياء، لا من الفقراء لعدم سؤالهم الصدقة ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد وقلة الموجود، أو بالسؤال عنهم ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ وهذه سيماء وعلامة لهم عدم السؤال، والإلحاف فهو الإلحاح في الطلب يقال ألحف في المسألة، إذا ألح، ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾.

القـــراءة

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿يحسبهم﴾ بفتح السين وقرأ الباقون: بالكسر في كل القرآن وهما لغتان.

٢٧٤ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ نزلت في الإمام علي كرم الله وجهه.

الربا وخطره على صاحبه وعلى الأمة

ثم يوالي بذكر حكم آخر من الأحكام الشرعية وهو الربا وذلك أن بين الصدقة وبين الربا مناسبة التضاد فقال:

٢٧٥ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿الذين يأكلون الربا﴾ الزيادة في النقود في حالة الدين ويسمى ربا النسيئة أو الزيادة في المطعومات في القدر مع اتحاد الجنس والنوع وهو ربا الفضل ﴿لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ الذي يصرعه الشيطان والمسّ الجنون.

يذهب جمهور المفسرين إلى تفسير ﴿لا يقومون﴾ أي لا يقومون من قبورهم، والواقع أن من تتبع حال أكلة الربا والمتعاملين من المرابين المحترفين، الذين لا يعترفون بحرمته شرعاً ولا بضرره على المجتمع وخاصة على الفقراء والمحتاجين، ليستجمع تلك الصورة البشعة التي وصفهم فيها القرآن، فوجوههم صفر، وقلوبهم سود،

وتقاطيع قسماتهم مقطبة وقد خلت منهم الرحمة والإنسانية والشفقة، وغلبت عليهم المادية على الروحية فانعكست على تصرفاتهم وحركاتهم وتعاملهم، فأنت تراهم لا يقدمون الخير أبداً، ولا يتكلمون بحق أبداً، لأن الشيطان قد سيطر عليهم، وتملكهم فصاروا عبيداً له، فهم صرعى للشيطان يتخبطون من المس الذي هو الجنون وكما يقول المثل «الجنون فنون» وصاحب المال الحرام دائماً ذو عصبية لا يحسن أصول الحديث ولا الذكر الجميل ولا يحب أن يسمع كلام الله العزيز الحميد، فهذه حالهم في الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب والنار مثواهم ﴿ذلك﴾ الذي ذكر مما نزل بهم ﴿بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ فقال الله رداً عليهم ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا، فمن جاءه موعظة من ربه﴾ موعظة ووعظ معبران عن معنى واحد لأنه تأنيث غير حقيقي، فجاز تذكيره وتأنيثه مثل طلع الشمس وطلعت الشمس ﴿فانتهى﴾ عن أكله ﴿فله ما سلف﴾ أي ما أكل من الربا قبل النهي ﴿وأمره إلى الله﴾ أي المرابي في العفو عنه ﴿ومن عاد﴾ إلى أكل الربا مستحلاً حرمته بمثل ما كان يقول أهل الجاهلية ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ثم إنّه تعالى لما بالغ في الزجر عن الربا وكان قد بالغ في الآية السالفة في الحث على الصدقات ذكر نتائج ومردود كل منهما على صاحبه فقال:

٢٧٦ ـ ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾.

﴿يمحق الله الربا﴾ ذهاب بركته وإبطال الصدقات والحسنات منه ﴿ويربي الصدقات﴾ يزيدها ويضاعف ثوابها ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾.

ثم ذكر الترغيب عقب الترهيب على عادته من ذكر الوعد مع الوعيد فقال:

٢٧٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

لما بيّن أن من انتهى من الربا له ما سلف كان يجوز أن يظن أنّه لا فرق بين المقبوض منه وبين الباقي في ذمة القوم فقال:

٢٧٨ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

صادقين في إيمانكم.

٢٧٩ ـ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾.

﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا﴾ اعلموا يقيناً ﴿بحرب من الله ورسوله﴾ فيه تهديد شديدٌ لهم، ولما نزلت قالوا لا بد

لنا من الحرب ﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾ أحداً بزيادة ﴿ولا تظلمون﴾ بنقص فاقتصروا على ما اقترضتموه.

القـــراءة

قرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ﴿فآذنوا﴾ بمدّ الألف وكسر الذال قال الزجاج من قرأ ﴿فأذنوا﴾ فالمعنى: أيقنوا، ومن قرأ بمد الألف وكسر الذال فمعناه: اعلِموا.

٢٨٠ ـ ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وإن كان ذو عسرة﴾ العسر الفقر والضيق ومعنى وإن كان وإن وقع ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾ والنظرة التأخير، فأمرهم بتأخير رأس المال بعد إسقاط الربا إذا كان المطالب معسراً، وأعلمهم أن الصدقة عليه بذلك أفضل بقوله ﴿وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

القـــراءة

﴿عسرة﴾ الجمهور على تسكينها، وضمها أبو جعفر هنا، وفي «ساعة العسرة» وقرأ الجمهور بفتح سين ﴿الميسرة﴾، وضمها نافع و﴿أن تصدّقوا﴾ الجمهور على تشديد الصاد وخفّفها عاصم مع تشديد الدال.

ثم إن العاملين بالربا كانوا أصحاب أعوان وتغلّب على الناس فاحتاجوا إلى مزيد زجر ووعيد فقال:

٢٨١ ـ ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾ ما عملت من خير أو شر ﴿وهم لا يظلمون﴾ وهذه الآية آخر آية نزلت من القرآن حيث توفي النبي ﷺ بعدها بأحد وثمانين يوماً. وربما كانت الآية إشارة إلى ذلك.

القـــراءة

قرأ أبو عمرو: بفتح تاء ﴿ترجعون﴾ وضمها الباقون.

كتابة الديـن

وهذا حكم آخر من أحكام الشريعة وهو المداينة وكان الحكمان المتقدمان الإنفاق وترك الربا سببين لنقصان المال فأرشد في هذه الآية فقال:

٢٨٢ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ

وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ بالحق لا يزيد في المال والأجل ولا ينقص ﴿ولا يأب﴾ يمتنع ﴿كاتب أن يكتب﴾ إذا دعي إليها ﴿كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق﴾ أي المدين والإملاء هنا ليس المقصود منه النص بل قد يجوز يمل المعنى، والكاتب بالعدل يكتب كما علمه الله بالعدل وليتق الله ربه في إملائه فربما غفل الدائن عن سماع الإملاء فيكون غشا ﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾ أي لا ينقص عند الإملاء ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾ السفيه هو الذي لا يحسن تصريف أمواله وصيانتها كسائر الناس، والسفه مفقد للأهلية في التصرفات القانونية يلزم للحجر عليه حكم القاضي وإشهاره، ويدخل فيه المبذر من غير تدبير ﴿أو ضعيفاً﴾ فلا يستطيع الإملاء لفقد الأهلية، إما لصغر أو كبر أو خرس ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ لخرس أو جهل باللغة أو عجز عن التعبير، لمرض أو نحو ذلك ﴿فيملل وليه﴾ الهاء تعود على المدين الذي عليه الحق، والولي هنا الولي والوصي بمعنى واحد في الأثر القانوني في المحجور عليهم، إلا أن الوصي يستمد وصايته على المجنون والمعتوه والسفيه وذي الغفلة بحكم القضاء، والولي يستمد ولايته على ولده الصغير الأبوة فهي ولاية طبيعية، ولغيره وصاية شرعية ﴿بالعدل واستشهدوا﴾ أي أشهدوا على عقد الدين ﴿شهيدين من رجالكم﴾ رجلين ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء﴾ في العدالة وعدم الاشتهار بالفسق والضلال ﴿أن تضل إحداهما﴾ تنسى الشهادة ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ الناسية ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ إلى تحمل الشهادة وأدائها إذ يتعين على الشاهد تحمل الشهادة وأداؤها، متى دعي للإدلاء بها إذا لم يوجد من يشهد غيره. فأما إذا كان قد تحملها جماعة لم تتعين عليه، وكذلك في حال تحملها، لأنه فرض على الكفاية كالجهاد، فلا يجوز لجميع الناس الامتناع عنه ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه﴾ أي لا تملوا وتضجروا أن تكتبوا القليل والكثير، التي قد جرت العادة بتأجيله إلى أجله ﴿صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط﴾ أعدل ﴿عند الله وأقوم للشهادة﴾ أي أعون على إقامتها لأنه يتذكرها ﴿وأدنى﴾ أقرب إلى ﴿ألا ترتابوا﴾ تشكوا في قدر الحق والأجل أو في حقيقة المعاملة. ﴿إلا أن تكون تجارة﴾ أي الأموال ﴿حاضرة تديرونها بينكم﴾ أي تقبضونها ولا أجل فيها ﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ والأمر للندب في الشهادة لا للوجوب ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ أي لا يجوز تكليف الكاتب أو الشاهد.

هذه الآية تتضمن الأمر بإثبات الدين في كتاب، وإثبات شهادة في البيع والدين وهل هذا على سبيل الوجوب أم الندب (الاستحباب)، والصحيح أنه على سبيل الندب والاستحباب وذكره الله من باب الإرشاد والتعليم لذلك قال الله ﴿ويعلمكم الله﴾. ﴿وإن تفعلوا﴾ ما نهيتم عنه من المضارة ﴿فإنه فسوق بكم واتقوا الله﴾ في أمره ونهيه ﴿ويعلمكم الله﴾ مصالح أموركم ﴿والله بكل شيء عليم﴾.

القـــراءة

﴿إن تضلّ﴾ قرأ حمزة بكسر الألف ﴿فتذكر﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف مع نصب الراء وقرأ حمزة مع تشديد الكاف، وقرأ الباقون بالنصب وتشديد الكاف فمن شدّد أراد الإذكار عند النسيان.

٢٨٣ ـ ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وإن كنتم على سفر﴾ وتداينتم وإنما خص السفر لأن الأغلب عدم الكاتب والشاهد فيه ﴿ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضه﴾ تستوثقون بها ويستفاد من مقبوضة، اشتراط القبض في الرهن والاكتفاء به من المرتهن ووكيله ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً﴾ أي الدائن والمدين على حقه ﴿فليؤد الذي اؤتمن أمانته﴾ الضمير عائد على الرهن ﴿وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة﴾ إذا دعيتم لإقامتها ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ إنما أضاف الإثم للقلب، لأن المآثم تتعلق بعقد القلب، وكتمان الشهادة إنما هو عقد النية لترك أدائها ﴿والله بما تعملون عليم﴾ لا يخفى عليه شيء منه.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعبد الوارث(١) ﴿فرهن﴾ بضم الراء والهاء من غير ألف وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿فرهان﴾ بكسر الراء وفتح الهاء وإثبات الألف.

إحاطة علمه وتمام ملكه وقدرته

لما جمع في هذه السورة أشياء كثيرة من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد وبيان الشرائع والتكاليف وغيرها ختم السورة بكلام دلّ على كمال ملكه فقال:

٢٨٤ ـ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

(١) هو عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان، أبو عبيدة التنوري البصري مولى بني العنبر (١٠٢ ـ ١٨٠هـ)، إمام حافظ مقرىء ثقة، عرض القراءة على أبي عمرو بن العلاء، وروى عنه جماعة.

﴿لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم﴾ من السوء والشر والضر فيظهر بالنطق والعمل علناً للمضرور وغيره في المجتمع ﴿أو تخفوه﴾ أي تخفوا ما بيتم في نفوسكم من شر عن أن يطلع عليه الناس فينكشف، فيدخل فيه المؤامرات وأعمال الجواسيس والمنافقين التي تحاك بالخفاء وتدبر في النفوس الشريرة فكل ذلك ﴿يحاسبكم به الله﴾ وهو الذي يقدر هذه الأعمال المباشرة وغير المباشرة، ويدخل في ذلك الاشتراك والاتفاق في الجريمة والتحضير لها، ألا ترى، لو أن إنساناً نوى قتل آخر حين قدومه إليه ولكنه تأخّر عنه لسبب خارج عن إرادته أفلا يحاسبه الله على ذلك، ومن نوى الكفر بعد الإيمان، أفلا يحاسبه الله عليه، وهو مما لا يطلع عليه البشر، ولكن الله ذو مغفرة واسعة ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ وأما دعوى النسخ بالتي بعدها ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ فقد رد عليه العلماء بأنه تثبت في المؤاخذة على العموم، فيؤاخذ من يشاء، ويغفر لمن يشاء، وهذا مروي عن ابن عمر، والحسن واختاره سليمان الدمشقي، والقاضي أبو يعلى. وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هذه الآية لم تنسخ ولكن الله عزّ وجلّ إذا جمع الخلائق يقول لهم: إنّي مخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، وهذا هو اختيار ابن جرير الطبري قال: فتأويل الآية وإن تبدوا ما في أنفسكم أيها الناس فتظهروه، أو تخفوه، فتنطوي عليه نفوسكم يحاسبكم به الله، فيعرف مؤمنكم تفضّل الله عليه بالعفو، ومغفرته له فيغفر له، ويعذّب منافقكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانية خالقه، ونبوءة أنبيائه.

أقول: في النسخ تعطيل لقوله تعالى: ﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء﴾ وهو جزء من الآية، وقد تكرّر في القرآن مثله كثير، وما دام بين الآيتين عموم وخصوص فلا داعي للقول بالنسخ.

القــــراءة

﴿فيغفر لمن يشاء ويعذّب﴾ قرأ الإمام قالون عن نافع: ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب﴾ بسكون الراء والباء.

٢٨٥ ـ ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ المرجع لما ذكر الله عز وجل ما تشتمل عليه هذه السورة من القصص والأحكام ختمها بتصديق نبيه والمؤمنين، ولا نفرق بين رسله لا نفعل كما فعل أهل الكتاب آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

القــــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿وكتابه﴾ وقرأ الباقون: ﴿وكتبه﴾.

التكليف حسب الطاقة

٢٨٦ ـ ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ

إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها﴾ أي ما تسعه قدرتها من الطاقة أي لا يكلّفها من العبادة وغيرها ما يستحيل عليها حمله أو تجشّمه وتحمله على مضرة ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أي لها ما كسبت من خير وطاعة وعليها ما اكتسبت من معصية فكلمة لها دليل على الخير وكلمة عليها دليل على الشر، قولوا ﴿ربنا لا تؤاخذنا﴾ هذا تعليم من الله للخلق أن يقولوا ذلك ﴿إن نسينا أو أخطأنا﴾ والمراد بالنسيان هنا هو الشك مع العمد، أي التغافل والتجاهل، لأن النسيان الذي هو بمعنى الغفلة قد أمنت الآثام من جهته، والخطأ أيضاً ها هنا لا من جهة السهو يقال أخطأ الرجل: إذا تعمد كما يقال أخطأ إذا أغفل ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ هو الأمر الثقيل علينا حمله، أي لا تثقل علينا من الفروض ما أثقلته على بني إسرائيل ﴿كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ ما يصعب ويشقّ من الأعمال.

قال أبو جعفر الطبري: والنسيان على وجهين: أحدهما على وجه التضييع من العبد والتفريط، وهذا الذي يرغب العبد إلى الله عز وجل في ترك مؤاخذته به وهو النسيان الذي عاقب الله عز وجل به آدم صلوات الله عليه، فأخرجه من الجنة، فقال في ذلك ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ والآخر على وجه عجز الناس عن حفظ ما استحفظوا ووكلوا به، وضعف عقلهم عن احتماله، فإن تلك من العبد غير معصية، وهو بها غير آثم، ولا وجه لمسألة العبد ربه أن يغفرها له.

وكذلك الخطأ وجهان: أحدها من وجه ما نهى عنه فيأتيه بقصد منه وإرادة، ذلك خطأ منه وهو به مأخوذ، وهذا الوجه الذي يرغب العبد إلى ربه في صفح ما كان منه من إثم عنه إلا ما كان من ذلك كفراً، والآخر ما كان منه على وجه الجهل به والظن منه، بأن له فعله كالذي يأكل في شهر رمضان ليلاً وهو يحسب أن الفجر لم يطلع فإن ذلك من الموضوع عن العبد الذي وضع الله عز وجل عن عباده الإثم فلا وجه لمسألته ربه ألا يؤاخذه به.

﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ وهاتان الآيتان من آخر سورة البقرة من فضائل القرآن.



سميت سورة آل عمران لورود ذكر آل عمران في السورة. إن الله تعالى لما ختم سورة البقرة بذكر التوحيد والإيمان، افتتح هذه السورة بالتوحيد والإيمان فقال:

١ ـ ﴿ الٓمٓ ﴾.

قد سبق الكلام عليه في سورة البقرة وهي من الحروف التي يتألف منها القرآن الكريم، وذكر المفسّرون أنّها مدنية.

٢ ـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾.

﴿الحي﴾ الدائم بالبقاء ﴿القيوم﴾ الذي لا يزول. إنه تعالى بعد أن أظهر أسرار ألوهيته المودعة في ﴿ألم﴾ أظهر ألطاف ربوبيته المكنونة في أستار العزة مع حبيبه محمد ﷺ فقال:

٣ ـ ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾.

﴿نزّل عليك الكتاب﴾ أي القرآن ﴿بالحق﴾ يعني العدل. ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب وإنما قال في القرآن ﴿نزّل﴾ وفي التوراة والإنجيل أنزل، بالتخفيف لأن كلّ واحد منهما أنزل في مرة واحدة، ونزل القرآن في مرات كثيرة،

٤ ـ ﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾.

﴿من قبل هدى للناس﴾ أي من قبل إنزال القرآن أنزل التوراة على موسى وأنزل الإنجيل على عيسى ﴿هدى للناس﴾. أي يهتدي أهل كل كتاب وأهل كلّ زمان بما أنزل في زمانه ﴿وأنزل الفرقان﴾ يعني به القرآن وإنما كرّر ذلك لما اختلفت دلالات صفاته، لأن كل صفة فيها فائدة غير الأخرى فإن الفرقان هو الذي يفرّق بين الحق والباطل، ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي بحججه ودلالاته ﴿لهم عذاب شديد﴾ لما بيّن حججه الدالّة على توحيده وصدق أنبيائه، عقّب ذلك بوعيد من خالف فيه وجحده ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ أي قادر ذو قدرة على الانتقام من الكفّار لا يتهيأ لأحد منعه.

لما ذكر أنه حيّ قيوم، والقيوم هو القائم بإصلاح مصالح الخلق فبين هنا أنه لا يخفى عليه شيء فقال:

٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾.

لما ذكر سبحانه الوعيد على الإخلال بمعرفته مع نصب الأدلة على توحيده وصدق أنبيائه، اقتصر أن يذكر أنّه لا يخفى عليه شيء، فيكون في ذلك تحذير من الاغترار بالاسترسال في معصيته، لأن المجازي لا تخفى عليه خافية. ثم إنه تعالى لما كان قيوماً بمصالح الخلق ومنها الجسمانية والروحانية أشار إلى الجسمانية بقوله:

٦ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء﴾ تنبيه إلى أمر عيسى عليه السلام ﴿يصوّركم﴾. أي يجعلكم من ذكورة وأنوثة وألوان وخلقة وطباع ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ في صنعه.

(المحكم والمتشابه في القرآن)

وهنا يشير جلّ وعلا إلى المصالح الروحانية وأشرفها العلم فقال:

٧ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات﴾ المحكم: هو المتقن المبين المشتمل على أمور بينة المعنى لكنها تحتاج إلى تفصيل إما لعمومها فتحتاج إلى التخصيص أو لإطلاقها فتحتاج إلى التقييد، أو لإجمالها فتحتاج إلى التبيين في فروعها، أو يكون تفصيلها بالاستثناء وما إلى ذلك وهذا مؤيد بقول الله عز وجل: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت﴾[1] بجنسها محكمة مثلها، وكلها واضحة الدلالة والمعنى، وهذا ما يطلق عليه السلف بالنسخ في القرآن، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿هن أم الكتاب﴾ أي العام والمطلق والمجمل والمستثنى وهكذا ﴿وأخر متشابهات﴾ وهي الآيات متشابهة، أي يشبه اللفظ في الظاهر والمعنيان مختلفان ﴿وأتوا به متشابهاً﴾[2] أي متفق المناظر مختلف الطعوم، ويقال لكل ما دق واستعصى فهمه متشابه ومن ذلك الحروف المقطعة في أوائل السور، ومثل المتشابه المشكل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله، وعلى ذلك فالمتشابه في القرآن هو ما اتحد معناه واختلف لفظه، أو ما اختلف لفظه واتحد معناه، ويطلق عليه أهل اللغة والتفسير الوجوه والنظائر، ويدخل في المتشابه كل ما لا يتوصل لمعناه إلا بالمجاز والكناية والاستعارة ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي ميل عن الحق ﴿فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ أي فأما الذين في قلوبهم زيغ عن الحق والهدى، وسواء كانوا من اليهود أو النصارى أو غيرهم، فإنهم كانوا يلبسون الحق بالباطل ويثيرون الفتنة من الشبهات المؤدية للكفر المفسد للمجتمع، بخلطهم بين المحكم والمتشابه أو بتأويلاتهم لظاهر القرآن على ما تهوى أنفسهم، لصرف القرآن كي يوافق معتقداتهم لكي يصلوا إلى مبتغاهم من إثارة الفتنة حول الإسلام.

---

(١) سورة هود، الآية: .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

والتأويل: هو التفسير وجاءت كلمة التأويل في القرآن لعدة معان، حسن العاقبة وتفسير الأحلام وتفسير القرآن ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ أي أن الله يعلم تفسيره بلا شك والراسخون في العلم الذين هم علماء الصحابة والتابعين والمتمكنون من العلم الصحيح، إنهم يعلمونه بدليل أنهم آمنوا به جميعه أي الكتاب محكمه ومتشابهه لذلك فهم يفسرونه ويعلمونه للناس ﴿كل من عند ربنا وما يذكر إلاّ أولوا الألباب﴾ أصحاب العقول (١).

ثم إنه تعالى حكى عن الراسخين في النوعين من الدعاء الأول قولهم:

٨ ـ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ تملها عن الحق والهدى ﴿بعد إذ هديتنا﴾ أرشدتنا إليه ﴿وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ الذي يجود بالعطاء من غير استثابة.

الثاني قولهم:

٩ ـ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

عاقبة الغرور بالمال

ثم بين سبحانه لما حكى عن المؤمنين حكى كيفية حال الكافرين وشدة عذابهم فقال:

١٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾.

والمعنى: إن المال والأولاد يدفع كل منهما عن صاحبه في الدنيا، أما في الآخرة فلا ينفع الكافر ماله ولا ولده من الله ومن عذابه.

١١ ـ ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا﴾ الدأب هو العادة والمعنى: أن الذين كفروا كاليهود ككفر آل فرعون والأمم السابقة كعاد وثمود الذين كذبوا الأنبياء لما رأوا الآيات عناداً ﴿فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب﴾.

لما تقدم ذكر ما أصاب القرون الخالية بالتكذيب للرسل من العذاب وحذر هؤلاء من أن يحلّ بهم ما حلّ بأولئك فقال:

(١) راجع في ذلك كتابنا تفسير مشكل القرآن ففيه تفصيل لذلك.

١٢ ـ ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.

المهاد الفراش، وسبب نزولها أن الكفار بعد بدر تعالوا ولم يعتبروا بنصر المسلمين فتتالت عليهم الغزوات والانتصارات وتحقق وعد الله بنصر نبيه، فوقع من لم يسلم منهم في القتل أو الأسر وكان لهم بئس العاقبة.

القــــراءة

﴿ستغلبون وتحشرون﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما ﴿سيغلبون ويحشرون﴾ أي بلِّغهم بأنهم سيغلبون، وقرأ الباقون بالتاء على المخاطبة.

١٣ ـ ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾.

﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا﴾ خذوا عبرة أيها الكفار في الفرقتين اللتين التقتا يوم بدر وهما جيش المسلمين وعدده ـ ٣١٣ ـ رجلاً ﴿فئة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم النبي وصحابته ﴿وأخرى كافرة﴾ وهم جيش الكفار الذين يبلغ عددهم ألف رجل، ولكن الرعب الذي في قلوبهم من المسلمين كانوا ﴿يرونهم مثليهم﴾ أي كانوا ثلاثة آلاف ﴿رأي العين﴾ أي مثل ما ترى العين إذ أن الله سبحانه قد كثر عدد المسلمين في أعين الكفار، وقلَّل عدد الكفار في أعين المسلمين، وذلك لحكمة يعلمها سبحانه تعالى ولرفع الروح المعنوية في نفوس المسلمين ﴿والله يؤيد﴾ يقوي ﴿بنصره من يشاء إن في ذلك﴾ الإشارة في ذلك ترجع إلى المذكور، أي الحادثة بجميع وقائعها ﴿لعبرة لأولي الأبصار﴾ والعبرة الدلالة الموصلة إلى اليقين، المؤدية إلى العلم وهي من العبور كأنه طريق يعبر به، ويتوصَّل به إلى المراد، والأبصار العقول والبصائر.

القــــراءة

﴿يرونهم﴾ قرأ نافع بالتاء ﴿ترونهم﴾ على مخاطبة اليهود، وقرأ الباقون بالياء.

الإنسان وشهواته

ثم ذكر ما هو كالشرح والبيان لمعتبر الإنسان وهو أنّه زيّن للناس اللذات الجسمانية، في الحياة الدنيا، والآخرة وهي عالم الروحانيات خير وأبقى فقال:

١٤ ـ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾.

﴿زين للناس حب الشهوات ما تشتهي النفس وتدعو إليه وقيل: زيّن الله تعالى ما أحسن منه وزيّن الشيطان ما

أقبح، ثم قدّم سبحانه ذكر النساء (من النساء) لأن الفتنة منهنّ أعظم ثم قال: ﴿والبنين﴾ لم يذكر البنات لشمول البنيـن لهنّ على سبيل التغليب وهم زينة الحياة الدنيا ﴿والقناطير المقنطرة﴾ جمع قنطار، وهو المال الكثير بعضه على بعض ﴿من الذهب والفضة﴾ وهي ترجع إلى القناطير وهي من جملة زينة الحياة الدنيا ﴿والخيل المسوّمة﴾ المحبوبة الراعية أو المعلّمة بأية مزية أو علامة ﴿والأنعام﴾ البقر والإبل والغنم، واحدها نعم وهو جمع لا واحد له من لفظه ﴿والحرث﴾ الزرع ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ يعني كل ما سبق ذكره مما يستمتع به في الحياة الدنيا ثم يفنى ﴿والله عنده حسن المآب﴾ يعني حسن المرجع.

وهذه الأشياء وغيرها من الكماليات، قد تحسن نية العبد بالتلبث بها فيثاب عليها، وإنما يتوجه الذم إلى سوء القصد فيها وبها.

ثم بيّن أنّ ذلك المرجع فكما هو حسن في نفسه فهو أحسن وأفضل من هذه الدنيا فقال:

١٥ ـ ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾.

أي المذكور مما تشتهيه الأنفس من الشهوات للذين اتقوا الشرك والمعاصي.. ثم استأنف ببيانه وتقريره فقال: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات﴾ ثم وصف الأزواج بصفة واحدة جامعة ﴿مطهرة﴾ أي من الأقذار، وبعد تذكر تمام النعمة ذكر ما هو فوق التمام فقال: ﴿ورضوان من الله﴾

القـــراءة

قرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿ورضوان﴾ بضم الراء في كل القرآن، والباقون بكسر الراء قرأ نافع ﴿أأونبئكم﴾ بالمد وابن كثير وأبو عمرو ﴿أأنبئكم﴾ بهمزة واحدة بغير مدٍ. الأصل في هذا ﴿أأنبئكم﴾ بهمزتين ثم بينوا الهمزة الثانية ولم يدخلوا بينهما ألفاً، وقرأ الباقون: بهمزتين على أصل الكلمة.

١٦ ـ ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

١٧ ـ ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾.

﴿الصابرين﴾ على طاعة الله، وعن محارمه ﴿والصادقين﴾ في عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم ﴿والقانتين﴾ المطيعين لله ﴿والمنفقين﴾ الصدقة ﴿والمستغفرين﴾ بالقول في الدعاء أو في صلاتهم ﴿بالأسحار﴾ الوقت الذي قبل طلوع الفجر إذ أنه وقت الغفلة ولذة النوم فوصفهم الله تعالى بهذه الطاعات، ثم وصفهم بأنهم لشدة خوفهم يستغفرون.

الشهادة بالوحدانية والعدل

ثم بيّن نفي الضد والند والصاحبة والولد بقوله:

١٨ ـ ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿شهد الله﴾ أي بين للناس بالدلائل والآيات ﴿أنه لا إله﴾ أي لا معبود في الوجود بحق ﴿إلا هو﴾ شهد ﴿الملائكة﴾ بالإقرار ﴿وأولوا العلم﴾ من الأنبياء والمؤمنين بالاعتقاد واللفظ ﴿قائماً﴾ بتدبير مصنوعاته ﴿بالقسط﴾ بالعدل ﴿لا إله إلا هو﴾ كرر تأكيداً قال جعفر الصادق إنما كرر ﴿لا إله إلّا هو﴾ لأن الاولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم، أي قولو لا إله إلا هو ﴿العزيز﴾ في مُلكه ﴿الحكيم﴾ في صنعه سأل بعض الاعراب: ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، أما يدلان على الصانع الخبير؟!

وفي رواية أخرى: فهذه السمٰوات ذات الأبراج والأرضون ذات الفجاج والبحار ذات الأمواج أفلا تدل على العليم القدير.

الإسلام دين العالم أجمع

ثم ذكر أنه أوضح الدلائل وأزال الشبهات فقال:

١٩ ـ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

﴿إن الديـن﴾ آخر دين ﴿عند الله الإسلام﴾ وسبب النزول أن اليهود ادعوا أنه لا أفضل من اليهودية وادعت النصارى أنه لا دين أفضل من النصرانية، نزلت هذه الآية رداً عليهم، والدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه، وأمرهم بالإقامة عليه، وهو: ما التزمه العبد لله عز وجل. قال ابن قتيبة: والإسلام الدخول في السلم، أي: في الانقياد والمتابعة ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، واختلافهم بينهم فمنهم من آمن ومنهم من كفر من بعد ما رأوا الآيات والإيضاح الدالة على أن الإسلام حق وأن نبوة محمد صدق ﴿بغياً بينهم﴾ عدواناً وعناداً وخروجاً عن الحق لا لقصد البرهان ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾.

القـــــراءة

﴿إن الدين﴾

قرأ الكسائي بفتح الهمزة ﴿أنّ الدين﴾ وقرأ الباقون بكسر الهمزة

ثم بين للرسول ﷺ ما يقوله في مهاجمتهم:

٢٠ ـ ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ

فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾.

﴿فإن حاجوك﴾ جادلوك وخاصموك أي الكفار في الدين ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾ أخلصت عملي وأنقدت بعبادتي لله ﴿أنا ومن اتبعن﴾ وخص الوجه لشرفه ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ اليهود والنصارى ﴿والأميين﴾ مشركي العرب وكل مشرك من غيرهم ﴿أأسلمتم﴾ هو استفهام ومعناه الأمر، كقوله تعالى في المائدة[1] ﴿فهل أنتم منتهون﴾ ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ فيجازيهم بأعمالهم، قال الحافظ ابن كثير: وهذه الآية من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق، وإن المراد بها تسكين نفس النبي ﷺ عند امتناع من لم يجبه، لأنه كان يحرص على إيمانهم ويتألم من تركهم الإجابة، وهذه الآية مع قوله تعالى في سورة البقرة ﴿لا إكراه في الدين﴾.

القـــراءة

﴿ومن اتبعن﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بياء في الوصل: ﴿ومن اتبعني﴾ وقرأ الباقون: بدون الياء.

جزاء قتل الأنبياء

ثم وصف المتولي بصفات ثلاث وأردفه بوعيده فقال:

٢١ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

القـــراءة

﴿يقتلون﴾ قرأ حمزة بألف ﴿ويقاتلون﴾ وبضم الياء، أي يحاربون والباقون: بغير ألف.

٢٢ ـ ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾.

﴿حبطت﴾ أي بطلت ﴿من ناصرين﴾ مانعين من العذاب.

٢٣ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

﴿نصيباً من الكتاب﴾ أي العلم الذين تعلموه من التوراة ﴿وهم معرضون﴾ أي عن قبول حكمه فيهم.

٢٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾.

---

(١) الآية: ٩١.

﴿ذلك﴾ التولي والإعراض الذي حملهم ﴿بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾ أربعين يوماً مدة عبادة آبائهم العجل ثم تزول عنهم ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ يختلقون، والذي اختلقوه قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، ولن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة.

مظاهر قدرة الله وعظمته

٢٥ - ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

المعروف أن اليوم المشار إليه في الآية هو يوم القيامة واللام بمعنى في. إنه سبحانه لما ذكر طريقة المعاندين علّم نبيه طريقة مباينة لطريقتهم من كيفية التمجيد والتعظيم فقال:

٢٦ - ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿قل اللّهم﴾ بمعنى يا الله، والميم المشدّدة جاءت عوضاً عن (يا) ﴿مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذلّ من تشاء﴾ بالنصر والغنيمة والخير والشر، فاكتفى بذكر أحدهما، لأنه عمل مرغوب فيه.

٢٧ - ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

- ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي يولج يدخل مكان الليل في مكان النهار على الأرضين أي يدخل أو يجعل مكان الليل يحل مكان النهار في سطوح الأرضين المنحنية التي يحيط بها الفضاء، وذلك بدورانها حول نفسها أمام الضياء ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ أي تنبت الزرع الذي ينمو من الأرض الميتة ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ ثمرة الشجر ميتة من الشجر الحي أما التفسير بإخراج الإنسان من النطفة والطائر من البيضة يرد عليه بأن كلاً من النطفة والبيضة فيها حياة فلا تصلح محلاً. ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي رزقاً واسعاً.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالتخفيف ﴿وتخرج الحيَّ من الميْت﴾

موالاة الكافرين والتحذير منها

٢٨ - ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ يوالونهم أي لا يجعل المؤمن موالاته لمن هو غير مؤمن كقوله تعالى: لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء[1] ﴿ومن دون المؤمنين﴾ وهذا نهي عن موالاة الكفار ومعاونتهم على المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء أي ليس هو من أولياء الله والله بريء منه ثم استثنى فقال: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ والمعنى إلا أن يكون الكفار غالبين والمؤمنون مغلوبين فيخافهم المؤمن إن لم يظهر موافقتهم ولم يحسن العشرة معهم، فعند ذلك يجوز له إظهار مودتهم بلسانه ومداراتهم تقية منهم ودفعاً عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك. وفي هذه الآية دلالة على أن التقية جائزة في الدين عند الخوف على النفس ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ يعني إيّاه، فوضع نفسه مكان إياه ومعناه ويحذّركم الله عقابه ﴿وإلى الله المصير﴾ أي الحكم والمرجع.

القـــراءة

﴿تقاة﴾

قرأ حمزة والكسائي: ﴿تقاة﴾ ممالة بالياء وهي الإمالة من إذا قلت وقيت، وقرأ يعقوب والمفضّل عن عاصم ﴿تقية﴾ بفتح التاء من غير ألف ثم حذر عن جعل الباطن موافقاً للظاهر في وقت التقية فقال:

٢٩ ـ ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

الإخفاء هنا المقصود فيه موالاة الكفّار، ثم استأنف بياناً أشفى وتحذيراً أوفى فقال: ﴿ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ ثم قال إتماماً للتحذير: ﴿والله على كل شيء قدير﴾

ثم خلط الوعيد بالوعد والترهيب بالترغيب فقال:

٣٠ ـ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

يوم نُصب بقوله تعالى: ﴿ويحذّركم﴾ ويجوز أن يكون متعلقاً بفعل مضمر أي اذكروا يوم تجد الجزاء كل نفس ﴿تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ غاية في نهاية البعد فلا يصل إليها.

ثم إنه تعالى دعا القوم إلى الإيمان به وبرسوله عن طريق آخر سوى طريق التهديد والتحذير فقال:

٣١ ـ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

(١) أول سورة الممتحنة.

اصطفاء الأنبياء

كما بيّن أن محبته تعالى لا تتم إلا بمتابعة الرسل بيّن علو درجاتهم وسمو طبقاتهم فقال:

٣٣ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿إن الله اصطفى﴾ اختار ﴿آدم ونوحاً وآل ابراهيم﴾ هم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وآل عمران﴾ موسى وهارون ﴿على العالمين﴾ بجعل الأنبياء من نسلهم واصطفاهم أيضاً بالنبوة على عالم زمانهم واصطفاهم من عالم زمانهم.

٣٤ - ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

أي الأبناء ذرية الآباء أولاداً وأعقاباً﴿بعضها من بعض﴾ في التناصر في الدين، وهو الإسلام أي دين بعضها من دين بعض كما قال تعالى: ﴿والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أي في التناصر والتعاضد على الضلال. لما ذكر سبحانه اصطفاء آل عمران عقَّبه بذكر مريم بنت عمران فقال:

قصة ولادة مريم

٣٥ - ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أم مريم وبينها وبين موسى ما يزيد على ألف سنة قالت لما كبرت واشتاقت للولد وأحسّت بالحمل ﴿ربّ إني نذرت﴾ أن أجعل ما في بطني محرراً، أي أوجبت لك بأن أجعل ما في بطني محرراً، أي خادماً عتيقاً، خالصاً من شواغل الدنيا يخدم في متعبّداتنا، وكان المحرّر إذا حرّر جعل في الكنيسة يقوم عليها ويكنسها، حتى يبلغ الحلم، وكانت ﴿حنّة﴾ أم مريم قد أمسك عنها الولد حتى أيست ، فدعت الله أن يرزقها ولداً، فلما حملت بمريم قالت ﴿ربّ إني نذرت لك﴾. الآية ﴿فتقبّل مني إنّك أنت السميع العليم﴾ أي تقبّل نذري.

٣٦ - ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾.

﴿فلما وضعتها﴾ ولدتها بنتاً وكانت ترجو أن يكون غلاماً لقولها محرراً، إذ لم يكن يحرر إلا الغلمان (قالت) معتذرة ﴿رب إني وضعتها أنثى والله أعلم﴾ أي عالم سلفاً ﴿بما وضعت وليس الذكر كالأنثى﴾ في تحقيق نذرها ﴿وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها﴾ أي أولادها ﴿من الشيطان الرجيم﴾ الرجيم المطرود الملعون المرجوم بالحجارة.

القـــــراءة

﴿بما وضعت﴾

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم التاء وإسكان العين وقرأ الباقون: بفتح العين وجزم التاء. ومن قرأ بضمّ التاء فهو من كلام أمّ مريم.

٣٧ ـ ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

﴿فتقبلها ربّها بقبول حسن﴾ أي جعل نشأها نشأً حسناً، وسلك بها طريق السعداء ﴿وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا﴾ معناه ضمّها إلى نبي الله زكريا، وجعله كفيلها وضمن القيام بأمرها حيث اقترع الأحبار لمن تكون عنده، فخرج سهم زكريا ﴿كلّما دخل عليها زكريا المحراب﴾ المحراب: هو الغرفة التي تقيم فيها وهي الوضع الشريف عندهم ﴿وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لكِ هذا قالت هو من عند الله﴾ كان نجار يأتيها بهذا الرزق من كسبه كل يوم من الفاكهة وغيرها. وقد بارك الله في هذا الرزق.

القـــــراءة

﴿كفّلها زكريا﴾

قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتشديد ﴿وكفّلها زكريا﴾ مقصوراً وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿زكرياء﴾ بالنصب وقرأ الباقون ﴿وكفلها﴾ بالتخفيف و﴿زكرياءُ﴾ بالمد والرفع.

قصة يحيى وزكريا

٣٨ ـ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾.

﴿هنالك﴾ لما عاين زكريا هذه الآية العجيبة من بركة الله تعالى لمريم، طمع في الولد على الكبر ﴿دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك﴾ من عندك الذرية تقال للجمع وتقال للواحد، والمراد بها ها هنا الواحد ﴿ذرية طيبة﴾ قال طيبة بالتأنيث وهو يريد ولداً ذلك لتأنيث الذرية والمراد بالطيبة النقية الصالحة ﴿إنك سميع الدعاء﴾ السميع بمعنى السامع.

ثم إنه تعالى وصف يحيى بصفات فقال:

٣٩ ـ ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾.

- ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب﴾ قبلة المسجد التي يصلي فيها الإمام ، وسمي محراباً لانفراد الإمام فيه وبعده عن الناس، والمحراب لغة أشرف الأماكن، وأشرف أماكن المسجد مقام الإمام حيث يتقدم المأمومين ﴿إن الله يبشّرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله﴾ الكلمة هي عيسى وسمي كلمة لأنه بالكلمة كان وهي ﴿كن﴾ ﴿وسيداً﴾ المتبوع في الخير إماماً لأهل التقى ﴿وحصوراً﴾ هو الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك لأن ذلك خلقة فيه ﴿ونبياً من الصالحين﴾.

القــــراءة

﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي﴾

قرأ حمزة والكسائي: ﴿فناداه﴾ بألف ممالة، وقرأ الباقون، فنادته الملائكة ثم إن الملائكة لما نادوه قال زكريا مخاطباً الله تعالى ومناجياً إيّاه:

٤٠ - ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر﴾ كأنه قال من أي وجه يكون لي الولد؟ أيكون بإزالة العقم عن زوجتي، وردّ شبابي، أم يأتي ونحن على حالنا؟ فكان ذلك على سبيل الاستعلام، لا على وجه الشك (قال) الله بالوحي ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ لا يعجزه عنه شيء. ثم سأل الله تعالى زكريا علامة يعرف بها وقت حمل امرأته.

ثم إنّه عليه السلام لفرط سروره وثقته بكرم ربّه سأل عن تعين الوقت فقال:

٤١ - ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾.

﴿قال رب اجعل لي آية﴾ علامة على حمل امرأتي ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس﴾ أي تمتنع عن كلامهم بخلاف ذكر الله ﴿ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ إشارة والرمز يكون بالعينين والشفتين والحاجبين أو باليد، وانما اعتقل لسانه عن الكلام آية من الله على وجود الحمل، ومحل الإعجاز في الآية أنه يستطيع التفاهم مع الناس بالرمز كما لو كان يتكلم معهم مشافهة بدليل استثناء الرمز من الكلام ولو لم يكن من جنسه لما استثني منه. ﴿واذكر ربك كثيراً وسبّح﴾ أي صلّ وسميت الصلاة تسبيحاً، لأن التسبيح تعظيم الله، وتبرئته من السوء ﴿بالعشي والإبكار﴾ أواخر النهار وأوائله. قدّم تعالى ذكر امرأة عمران وفضل بنتها على الجملة ثم ذكر تفصيل تلك الجملة فقال:

مريم وفضل الله عليها

٤٢ - ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿وإذا قالت الملائكة يا مريمُ إنّ الله اصطفاك﴾ اختارك ﴿وطهرك﴾ من الخبائث والفواحش ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ الاصطفاء الأول قبولها محررة لأمر كان خاصاً بالرجال، والاصطفاء الثاني تفضيلها على نساء زمانها بولادة عيسى عليه السلام وإنه لكبير نعمة واصطفاء عظيم.

٤٣ ـ ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾.

﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ أخلصي له وأطيعيه ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي صلّي مع المصلين.

٤٤ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾.

﴿ذلك﴾ المذكور من أمر زكريا ومريم ويحيى ﴿من أنباء الغيب﴾ إخبار ما غاب عنك ﴿نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾ أي سدنة بيت المقدس ومعهم نبيهم زكريا، يلقون أقلامهم في الماء ومن ظهر قلمه أولاً كان أولى بكفالة مريم ﴿أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ في أمر كفالتها وتربيتها، فكل واحد منهم يرغب في ذلك والأقلام التي ألقوها هي عبارة عن عصا جعلوها كالقداح عليها علامات يعرفونها للقرعة.

٤٥ ـ ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾.

﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ أي ولد جاء من كلمة قوله تعالى كن ﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ خاطبها الله بنسبته إليها تنبيهاً على أنها تلده بلا أب إذ عادة الرجال نسبتهم إلى آبائهم، وكذلك لينفي ما قاله الملحدون من النصارى، إذ أضافوه إلى الله تعالى ﴿وجيهاً في الدنيا﴾ بالنبوة، والوجيه عند العرب المحبب المقبول ذو الجاه والمنزلة الرفيعة ﴿والآخرة ومن المقربين﴾ عند الله.

القـــراءة

﴿إن الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾

قرأ حمزة وابن عامر وقالون عن نافع: ﴿إن الله يبشّرك﴾ بكسر الألف، وقرأ الباقون: ﴿أنّ الله ﴾ بالفتح.

قرأ حمزة والكسائي: ﴿يبشُرك﴾ بفتح الياء وإسكان الباء وضم الشين أي يسرك ويفرحك، وقرأ الباقون: ﴿يبشّرك﴾ بالتشديد أي يخبّرك.

٤٦ ـ ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿ويكلم الناس في المهد﴾ أي طفلاً قبل وقت الكلام وهو في الفراش مضجع ﴿وكهلاً ومن الصالحين﴾ والكهل هو الرجل التام السويّ الذي بلغ الأربعين فما فوق.

٤٧ ـ ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

﴿قالت رب أنىٰ﴾ كيف ﴿يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ بالجماع قالت هذا تعجباً واستفهاماً ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً﴾ أراد خلقه ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ بالقدر.

٤٨ ـ ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾.

﴿ويعلّمه الكتاب﴾ كتب النبيين من قبل التوراة والإنجيل ﴿والحكمة﴾ العلم والفقه والحجة وكيفية استعمال الآيات.

القـــراءة

﴿ويعلّمه الكتاب والحكمة﴾

قرأ عاصم ونافع: ﴿ويعلّمه﴾ بالياء، إخبار عن الله أنّه يعلّمه الكتاب وقرأ الباقون: ﴿ونعلّمه﴾ بالنون أي نحن نعلّمه.

٤٩ ـ ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ورسولا إلى بني إسرائيل﴾ نصب بفعل سابق يكّلم الناس أو بفعل مقدّر تقديره: وأرسله رسولاً ﴿أني قد جئتكم بآية﴾ علامة على أني رسول الله ﴿من ربكم﴾ هي ﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير﴾ أي على شكل صورته المجسمة ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ بإرادته وتقديره ﴿وأبرىء﴾ أشفي ﴿الأكمه﴾ الذي ولد أعمى ﴿والأبرص﴾ الذي به وضح، وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام علم الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك، إلا أنه ليس في الطب عندهم إبراء الأكمه والأبرص ولذلك خصّا بالذكر، ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ كرره لنفي توهم الألوهية فيه وقد أحيا عدة أشخاص عاشوا ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون﴾ أي كان يخبرهم بما أكلوا البارحة وما خبأتم، ﴿في بيوتكم﴾ مما لم يعاينه ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾.

القـــراءة

﴿أني أخلق لكم﴾

قرأ نافع: ﴿إني أخلق لكم﴾ بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الباقون: ﴿أنيّ﴾ بالفتح، ﴿فيكون طيراً﴾

قرأ نافع: ﴿فيكون طائراً﴾ على واحد، وقرأ الباقون: ﴿طيراً﴾

٥٠ ـ ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

﴿و﴾ جئتكم ﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم﴾ في التوراة من عهد موسى من الأطعمة ﴿وجئتكم بآية﴾ أي بآيات تعلمون بها صدقي، وإنما وحد الآية لإن الكل من جنس واحد ﴿من ربكم﴾ أي من عند ربكم وكرّره تأكيدا ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾.

٥١ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

قصة عيسى مع قومه

٥٢ ـ ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

﴿فلما أحسّ عيسى﴾ أي علم ﴿منهم الكفر﴾ وبدت منهم علاماته ﴿قال من أنصاري﴾ أعواني ﴿إلى الله﴾ وإلى بمعنى مع، والاستنصار بهم هنا لإقامة الحق وإظهار الحجة ونصرة دينه، ومن هنا سمي أتباع عيسى نصارى ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ أعوان دينه وهم أصفياء عيسى أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً من الذين أخلصوا، ونقوا من العيوب.

وكذا يقال الدقيق الحواري، وإنما سمي بذلك لأنه ينقى من لباب البر وخالصه، فهم الذين أخلصوا في تصديقهم ونصرتهم، ومن كانت هذه صفاتهم لا بد أن يكونوا مجاهدين ولا بد أن تكون ثيابهم نقية نظيفة بيضاء خالصة ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾.

٥٣ ـ ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

٥٤ ـ ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

﴿ومكروا﴾ أي الكفار من بني إسرائيل بعيسى حيث تآمروا على قتله كما كان شأنهم في الأنبياء من قبل ﴿ومكر الله﴾ بهم بأن ألقى شبه عيسى على من قصد قتله، فقتلوه ورفع الله عيسى عنهم ﴿والله خير الماكرين﴾ المكر من الناس: خبث وخداع، والمكر من الله عز وجلّ المجازاة فسمي بذلك لأنه مجازاة عليه كقوله تعالى الله يستهزىء بهم ﴿والله خير الماكرين﴾ لأن مكره مجازاة ونصر للمؤمنين.

٥٥ ـ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٣.

ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

في هذه الآيات ثلاثة أمور.

١ ـ هل نبي الله عيسى عليه السلام توفي ورفعت روحه فقط أم رفع بروحه وجسده، ولا يزال حياً.

٢ ـ ماذا تعني الفوقية في قوله تعالى ﴿الذين اتبعوك فوق الذين كفروا﴾.

٣ ـ هل الضمير في قوله تعالى ﴿موته﴾ يعود على عيسى أم على كل كتابي.

المسألة الأولى: ذهب بعض المفسرين إلى أن عيسى رفع إلى السماء بروحه وجسده، وأنه لا يزال حياً، اعتماداً على ما فهموه من قوله تعالى ﴿ورافعك إلي﴾ وإلى أحاديث النزول، فقالوا لا رفع إلا للسماء، ولا نزول إلا من السماء، وما دام الله قد رفعه فلا بد أن يكون حياً، ولا يموت إلا موتة واحدة.

وقد أشكل عليهم قوله تعالى ﴿إني متوفيك﴾ قبل ﴿رافعك﴾ ففسروا الوفاة بالقبض، أي قابضك من غير وفاة، أو متوفيك وفاة نوم للرفع، وقال بعض آخر: إن هناك تقديماً وتأخيراً بمعنى: رافعك ومتوفيك بعده[1].

أقول: وهذا تفسير للفظ بغير ما يحتمله، فإنه يرد عليه قول الله عز وجل في سورة المائدة: ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم[2]﴾قال الله في سورة مريم: ﴿والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً[3]﴾فإذا كان حياً في السماء كيف يبعث حياً في الأرض كما في الآية: والبعث لا يكون إلا بعد موت وقول الله مخاطباً النبي محمداً ﷺ ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[4] وغيرها من الآيات الدالة على حقيقة الوفاة التي لا تقبل الصرف عن معناها الحقيقي إلّا بصارف.

هذا فضلاً عن كلمة ﴿رافعك إليّ﴾ لا تفيد الرفع إلى السماء، كما لا تفيد بقاء الجسد حياً بعد الوفاة، ولو تساءلنا عن تحديد مكان وجود جسد عيسى المادي في السماء، لا نجد جواباً على ذلك.

وأما أحاديث النزول في الناس فلا تفيد مطلقاً نزوله من السماء، كما صرحت بعض الأحاديث التي رواها مسلم والإمام أحمد وغيرهما بكلمة (يبعث الله عيسى ابن مريم) فهذه تفسر معنى النزول، لا كونه حياً بجسده، وإنما تفيد بعثه فيهم، ونزوله بينهم داعيا وهاديا، فضلاً عن أنها أحاديث آحاد، ليست في مرتبة القرآن المتواتر، حتى نؤول ألفاظ القرآن عن معناها لتتفق مع ما فهم من تلك الأحاديث بما لا تحتمله واتباع القرآن أولى.

رأي العلماء

يرى العلماء المحققون أن وفاة عيسى المصرح بها في القرآن هي وفاة حقيقية، وأن الرفع للروح دون

(١) تفسير الماوردي ج ١ ص ٣٣٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٧.
(٣) سورة مريم، الآية: ٣٢.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

الجسد، وأن الرفع إليه رفع مكانة وتقدير في مقابلة الإهانة بادعاء الصلب والقتل.

يقول الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ليس في القرآن نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه وروحه، وعلى أنه حي الآن بجسمه وروحه، والظاهر من الرفع أنه رفع درجات عند الله، كما قال الله في إدريس عليه السلام: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾(١)، فحياة عيسى حياة روحية كحياة الشهداء وحياة غيره من الأنبياء(٢).

ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار: إنه لا حجة لمن يقول بأن عيسى رفع إلى السماء لأنه لا يوجد ذكر للسماء بإزاء قوله تعالى ﴿ورافعك إلي﴾، وكل ما تدل عليه هذه العبارة أن الله مبعده عنهم إلى مكان لا سلطة لهم فيه، كقول الله عز وجل في لوط ﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنّه هو العزيز الحكيم﴾(٣)، ولم يقل إني مهاجر إلى السماء.

وجاء في «ظلال القرآن»، (لقد أرادوا قتل عيسى وصلبه، وأراد الله أن يتوفاه وفاة عادية ففعل، ورفع روحه كما رفع أرواح الصالحين من عباده).

وقال الشيخ محمد أبو زهرة: إن نصوص القرآن لا تلزمنا بالاعتقاد بأن المسيح رفع إلى السماء بجسده، ويقول الألوسي في روح المعاني: إن قوله تعالى ﴿إني متوفيك﴾ معناها على الأوفق إني مستوف أجلك، ومميتك موتاً طبيعياً لا أسلط عليك من يقتلك، والرفع الذي كان بعد الوفاة هو رفع المكانة لا رفع الجسد، خصوصاً وقد جاء بجانبه قوله تعالى ﴿مطهرك من الذين كفروا﴾ مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم.

ويرى ابن حزم وهو من فقهاء الظاهر أن الوفاة في الآيات تعني الموت الحقيقي، وأن صرف الظاهر عن حقيقته لا معنى له، وأن عيسى بناء على ذلك مات ولكنه سيعود قبيل القيامة وعودته إحياء جديد.

لقد كتب في هذه المسألة الدكتور أحمد شلبي بحثاً طويلاً، وأورد كثيراً من آراء العلماء ممن ذكرنا وغيرهم أمثال الفخر الرازي، والإمام محمد عبده، ورشيد رضا، وشيخ الأزهر محمود شلتوت، والشيخ محمد الغزالي، والأستاذ صلاح أبو إسماعيل، وغيرهم قالوا بذلك.

ويشدد العلماء المعاصرون على هذه المسألة، بغية الحذر من التأثر بالفكر المسيحي الذي يرى أن عيسى هو الإله الابن رفع بعد صلبه وموته إلى السماء، ليجلس بجوار أبيه الإله الرب.

تفسيرنا للآيات

تفيد الآيات السابقة أن الكفار دبروا مؤامرة لقتل عيسى ﴿ومكروا ومكر الله﴾ أي ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر برسالته، فحاولوا قتله، وأبطل الله مكرهم فلم يفلحوا، ومكر الله بهم، إذ قال لنبيه إني متوفيك ورافعك إلي ومطهّرك من الذين كفروا، وفي ذلك بشارة بإنجائه من مكرهم قد تحققت، والوفاة على حقيقتها،

(١) سورة مريم، الآية: ٥٧.

(٢) كتاب الفتاوى للشيخ شلتوت ص ٧٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٦.

ورفعه الله بعد وفاته فلم يدل أحد عليه حيث اقتاد الأعداء شبيهاً له وصلبوه، وأما عيسى فقد طهره الله من ذلك، برفع مكانته وعدم الدلالة على جسده بعد موته، فرفعه يعني نجاته من أعدائه.

والقرآن يشير إلى أن عيسى عليه السلام سوف يموت موتة أخرى في آخر الزمان بعد أن يبلغ دعوة الله فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به قبل أن يموت عيسى عليه السلام ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾.

المسألة الثانية: الفوقية في قولهِ تعالى ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أن الفوقية وهي السيادة للذين آمنوا على الذين كفروا قد تحققت في عهد النبي محمد ﷺ للمسلمين لكونهم يؤمنون بعيسى كذلك، ويرد عليه أن الآية تفيد استمرار ذلك إلى يوم القيامة.

ويقول الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار، إن الفوقية هنا فوقية روحانية دينية، هي كونهم أحسن أخلاقاً، وأكمل آداباً، وأقرب إلى الحق والفضل، وأبعد عن الباطل، أو فوقية دنيوية، وهو كونهم يكونون أصحاب السيادة عليهم، ولكن هذا الوجه لم يتحقق في زمن المسيح، لأشد الناس اتباعاً له بل كانوا مغلوبين لليهود والرومان، فتعين أن يكون الوجه الأول هو المراد، وهذا الذي ذكره الشيخ رشيد رضا هو رأي أكثر المفسرين.

تفسيرنا للآية

أقول وإن كان هذا التفسير تحتمله الآية لكن هناك تفسيراً أقرب للواقع ويتفق مع مدلول الآية، هو أن الله بشر نبيه عيسى، علاوة على ما بشره به من إنجائه من المكر والتآمر على قتله بيد الكفار، أنه سوف يجعل كل من يتبعه ويؤمن به حين بعثه فوق الذين كفروا، فوقية سيادة دنيوية إلى جانب الفوقية الدينية من يوم مبعثه إلى أن تقوم الساعة يوم القيامة، والتعبير بجاعل، يدل على أن الأمر لم يتم بعد وهو الذي يصدقه الواقع، وأما التعبير بالماضي في ﴿اتبعوك﴾ دليل على تحقق الوقوع في المستقبل، وهذا الأمر قد تأيد بالقرآن، والأحاديث الصحيحة الدالة على وقوعه، قال الله تعالى في سورة الزخرف في الآية (٦١) بعد ما بين أنه عبد أنعم عليه وجعله مثلاً لبني إسرائيل قال ﴿وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾. وذلك لا يكون إلا في آخر الزمان.

المسألة الثالثة: هل الضمير في قوله تعالى ﴿موته﴾ يعود على عيسى أم على كل كتابي.

ذهب بعض المفسرين في تفسير الآية إلى أن معناها لا تخرج روح اليهودي والنصراني حتى يؤمن بمحمدﷺ، وقال آخرون: لا تخرج روح اليهودي والنصراني حتى يشهد أن عيسى عبد، ويؤمن به وهذا الرأي لا يتفق مع الآية ولا مع الواقع والصحيح كما هو تفسير السلف بأن الضمير يعود على عيسى عليه السلام.

ومعنى الآية أنه ما من أحد من أهل الكتاب في آخر الزمان يدرك عيسى عليه السلام، إلا آمن به قبل أن يموت عيسى عليه السلام موته الآخر.

٥٦ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

ـ ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا﴾ بالقتل والسبي والحرب والمرض والجزية وغير ذلك مما حل في بني إسرائيل الذين كذبوا عيسى ﴿والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ مانعين.

٥٧ ـ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

القــــراءة

﴿فيوفيهم﴾ قرأ حفص عن عاصم بالياء، وقرأ الأكثرون بالنون ﴿فنوفيهم﴾.

٥٨ ـ ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

﴿ذلك﴾ المذكور من أمر عيسى ﴿نتلوه﴾ نقصه ﴿عليك﴾ يا محمد ﴿من الآيات والذكر الحكيم﴾ الآيات الدالات على صحة رسالتك لتخبر بها الكفار الذين يعلمون أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، والذكر الحكيم هو القرآن. ثمّ ردّ الله تعالى على النصارى قولهم في المسيح أنه ابن الله فقال:

الرد على الإدعاء بألوهية عيسى

٥٩ ـ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ ووجه التشبيه في أن كليهما من غير أب فمن خلق إنساناً من التراب قادر على أن يخلق آخر من غير أب، وهذه آيات تنزل للرد على اليهود والنصارى من نجران وغيرها، وهذا التشبيه من التشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس ﴿خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ أي فكان وكذلك عيسى قال له كن من غير أب فكان. ومثله قوله تعالى ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين[1]﴾ أي ما تلت الشياطين على ملك سليمان.

آية المباهلة

٦٠ ـ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

الحق مرفوع على خبر ابتداء محذوف والمعنى: الذي أنبأك به في قصة عيسى الحق من ربك ولا تكن من الشاكين، والخطاب للنبي خطاب للخلق لأنه لم يشك.

٦١ ـ ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

﴿فمن حاجك﴾ جادلك من النصارى وغيرهم ﴿فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ فنجمعهم ﴿ثم نبتهل﴾ نتضرّع في الدعاء ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

هذه الآية تسمى آية المباهلة والابتهال هو التداعي باللعن يقال عليه بهلة الله وبهلته أي لعنته. وقيل هو المبالغة في الدعاء.

وسبب نزول هذه الآية والآيات التي قبلها من آل عمران في وفد نجران من النصارى جعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه من النبوة والألوهية فأنزل الله ذلك رداً عليهم، فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بملاعنتهم فقالوا بعد مشاورة بينهم قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن رجلاً من أصحابك يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا. ونعطيك ما سألتنا من الجزية.

٦٢ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ دخلت ﴿من﴾ توكيداً ودليلاً على نفي جميع ما ادعى المشركون من آلهة.

٦٣ ـ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿فإن تولوا﴾ أعرضوا عن الإيمان والبيان والإقرار بوحدانية الله، وتنزيهه من الصاحبة والولد ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أهل المعاصي. لما تمّ الحجاج على القوم دعاهم تعالى إلى التوحيد وإلى الاقتداء بمن اتفقوا أنّه على الحق فقال:

كلمة التوحيد وملة إبراهيم

٦٤ ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ اليهود والنصارى ﴿تعالوا إلى كلمة سواء﴾ هي لا إله إلا الله بالسواء أي بالعدل وهي من استواء الشيء، ويقال للعدل سواء وسواء وسواء؟ ﴿بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ موحدون.

٦٥ ـ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ بزعمكم أنه على دينكم ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ بزمن طويل ﴿أفلا تعقلون﴾ بطلان قولكم.

٦٦ ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ من أمر موسى وعيسى ﴿فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم﴾ من أمر إبراهيم ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ نزلت لما قال اليهود كان إبراهيم يهودياً ونحن على دينه، وقالت النصارى كذلك. ذلك قولهم بأفواههم.

القــــراءة

﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم﴾.

قرأ نافع وأبو عمرو: ﴿ها نتم﴾ بغير همزة ويمدّان قليلاً في جميع القرآن.

وقرأ ابن كثير في رواية القواس[1]: ﴿هأنتم﴾ مقصوراً على وزن ﴿هعنتم﴾
وقرأ الباقون: ﴿ها أنتم﴾ بالمد والهمز.

ثم كذّب الله اليهود والنصارى فقال:

٦٧ ـ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً﴾ مستقيماً في اللغة، والمراد به هنا، الميل عن اليهودية والنصرانية وكما يقال للأعرج حنيف وما هو بحنيف ولكن رجاء السلامة له، وقد سبق شرح ذلك في سورة البقرة رقم ـ ١٣٥ ـ ﴿ومسلماً﴾ موحداً الله ﴿وما كان من المشركين﴾.

٦٨ ـ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿إن أولى الناس﴾ أحقهم ﴿بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ في زمانه ﴿وهذا النبي﴾ محمد ﷺ لموافقته له في أكثر شرعه ﴿والذين آمنوا﴾ من أمته فهم الذين ينبغي أن يقولوا نحن على دينه ﴿والله ولي المؤمنين﴾.

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء لما ضلّوا دعوا إلى الضلال فقال:

٦٩ ـ ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿ودت﴾ أي تمنت ﴿طائفة﴾ جماعة ﴿من أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى أو من اليهود خاصة ﴿لو يضلونكم﴾ أي يهلكونكم بإدخالكم في الضلال ودعوتكم إليه ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ معنى ذلك لا يرجع وبال ونكال إضلالهم إلا على أنفسهم، ولا يلحق ضرره إلا بهم لأن المسلمين لا يجيبونهم إلى ما يدعونهم إليه من ترك الإسلام إلى غيره، ﴿وما يشعرون﴾ أي وما يعلمون أن وبال ذلك يعود عليهم.

ثم خاطب الله الفريقين فقال:

٧٠ ـ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾.

(١) هو أحمد بن محمد بن علقمة، أبو الحسن النبال، المكي، المعروف بالقواس، إمام أهل مكة في القراءة، توفّي سنة ٢٤٠هـ.

﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون﴾ بما يتلى عليكم من ﴿آيات الله﴾ يعني القرآن ﴿وأنتم تشهدون﴾ أي تعلمون وتشاهدون ما يدل على صحتها ووجوب الإقرار بها من التوراة والإنجيل إذ فيهما ذكر النبي والإخبار بصدق نبوته وبيان صفته.

كرر الله مرة أخرى النداء لأهل الكتاب باعتبارهم هم المعوقين للدعوة الإسلامية ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

٧١ ـ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل﴾ أي لم تخلطون الحق بالباطل قال الحسن وابن زيد إن المراد به تحريفهم لهما ﴿وتكتمون الحق﴾ أي نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه وما وجدتموه في كتبكم من نعته والبشارة به ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه على حق.

لما ذكر الله تعالى صوراً من أخبار القوم أعقبه بذكر هذه المكيدة الشديدة فقال:

٧٢ ـ ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾.

﴿وقالت طائفة﴾ أي جماعة ﴿ من أهل الكتاب﴾ بعضهم لبعض ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا﴾ يعنون النبي وأصحابه ﴿وجه النهار واكفروا آخره﴾ أي أطهروا الإيمان لهم أول النهار أي صباحاً وارجعوا عنه في آخره أي مساءً فإنه أحرى أن يتقلبوا ويرجعوا بذلك عن دينهم ﴿لعلهم يرجعون ﴾ أي عن دينهم الإسلام.

ثم زادوا في تحذير بعضهم حتى لا يؤثر فيهم أحد بتحبيب الإسلام إليهم فيسلموا وينكروا دينهم.

٧٣ ـ ﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾.

﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ أي لا تصدقوا إلا لمن اتبع اليهودية وقام بشرائعكم والمعنى: ولا تصدقوا ﴿أن يؤتى﴾ ﴿أحد مثل ما أوتيتم﴾ من العلم والبيان والحجة إلا لمن تبع دينكم من أهل الكتاب، وقيل إنما فعل ذلك يهود خيبر ليهود المدينة لئلا يعترفوا به فيلوموهم لإقرارهم بصحته ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ لأنكم أصح ديناً فلا تكون لهم الحجة عليكم ﴿قل إن الفضل بيد الله﴾ المراد به العلم والبيان والحجة التي أوتيها محمد ﷺ وقيل نعم الدين والدنيا وقوله ﴿عليم﴾ بمصالح الخلق وهو يعلم حيث يجعل رسالاته.

القـــراءة

﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾

قرأ ابن كثير: ﴿أن يؤتى أحد﴾ بمدّ الألف على الاستفهام على وجه الإنكار وقرأ الباقون: ﴿أن يؤتى﴾ بلا استفهام.

٧٤ ـ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

الأمانة والوفاء بالعهد عند بعض اليهود

٧٥ ـ ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار﴾ أي بمال كثير، وهو اسم لمعيار للوزن، والباء بمعنى على ﴿يؤده إليك﴾ لأمانته ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ لخيانته ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي ما دمت مواظباً عليه بالاقتضاء والمطالبة، والأصل أن المطالب بالشيء يقوم عليه، والتارك له يقعد عنه.

﴿ذلك﴾ أي ترك الأداء والخيانة للأمانة ﴿ بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين﴾ أي العرب ﴿سبيل﴾ إثم وحرج في ظلم من خالف دينهم، وينسبون إلى الله تعالى ذلك ﴿ويقولون على الله الكذب وهو يعلمون﴾ يقولون قد أحل الله لنا أموال العرب. وهم يعلمون أن ذلك محرم في التوراة ويعلمون أنه كذب.

القـــراءة

﴿من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك﴾

وقرأ الباقون: ﴿يؤدّهي إليك﴾ و ﴿لا يؤدّهي إليك﴾ يصلون بياء في اللفظ

وقرأ نافع في رواية الحلواني[1]: ﴿يؤدّه﴾ بالاختلاس.

٧٦ ـ ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿بلى﴾ فيه وقف ﴿ومن أوفى بعهده﴾ أي بعهد الله من أداء الأمانة وغيره ﴿واتقى﴾ الله بترك المعاصي ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر.

ثم ذكر تعالى الوعيد لهم على أفعالهم الخبيثة فقال:

---

(١) هو أحمد بن يزيد بن ازدار، الأستاذ أبو الحسن الحلواني إمام كبير، عارف صدوق، متقن، ولد سنة ست وستين ومائتين. وتوفّي سنة نيف وخمسين ومائتين.

٧٧ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿إن الذين يشترون﴾ يستبدلون ﴿بعهد الله﴾ إليهم في الإيمان بالنبوة وأداء الأمانة ﴿وأيمانهم﴾ حلفهم به تعالى كاذبين ﴿ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا ﴿يزكيهم﴾ يطهرهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

من كذبهم وافترائهم على الله أيضاً

٧٨ - ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وإنَّ منهم﴾ أي أهل الكتاب وإن كلمة مؤكدة واللام في قوله لفريقاً توكيد على توكيد ﴿لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ يقلبونها بالتحريف والزيادة، والألسنة جمع لسان يذكر ويؤنث ﴿لتحسبوه﴾ أي المحرف ﴿من الكتاب﴾ الذي أنزله الله ﴿وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون.

الرد على أهل الكتاب في إشراكهم بالله

لما تقدّم ذكر أهل الكتاب وأنهم أضافوا ما يتدينون به إلى الأنبياء، نزّههم الله عن ذلك فقال:

٧٩ - ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾.

﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحُكم﴾ البشر محمد والكتاب القرآن والحكم الفقه والعلم والمعنى لا يجتمع لرجل قرآن وفقه وعلم وحكم ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين﴾ يقول لهم كونوا علماء فقهاء يعلمون الناس الحكمة ويربونهم عليها، منسوبين إلى الرب بزيادة ألف ونون تفخيماً ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إيّاه.

القــــراءة

﴿بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب﴾ بالتخفيف

وقرأ الباقون: ﴿ بما كنتم تعلّمون﴾ بالتشديد.

٨٠ ـ ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله، ملائكة أو أنبياء لأن مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له، ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أي أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟ والاستفهام إنكاري.

القــــراءة

﴿ولا يأمركم﴾

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿ولا يأمركم﴾ بالنصب عطف على ﴿أن يؤتيه الله الكتاب﴾، وقرأ الباقون: ﴿ولا يأمركم﴾ بالرفع على وجه الابتداء.

لما تقدّم ذكر النبيين عقبه سبحانه بذكر نبينا وما أخذ من عهده عليهم أجمعين فقال:

٨١ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

﴿وإذْ أخذ الله ميثاق النبيين لما﴾ بفتح اللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق وما موصولة أي للذي ﴿آتيتكم﴾ إياه ﴿من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم﴾ من الكتاب والحكمة وهو محمد ﷺ ﴿لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ جواب القسم إن أدركتموه ﴿قال﴾ تعالى لهم ﴿أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري﴾ عهدي وأصله الثقل وسمي العهد إصراً لثقله ﴿قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ عليكم وعليهم.

القــــراءة

﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب﴾

قرأ حمزة: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لِما آتيتكم﴾ بكسراللام

وقرأ الباقون: ﴿لَما آتيتكم﴾ بفتح اللام.

قرأ نافع: ﴿لما آتيناكم﴾ بالنون والألف، وقرأ الباقون: ﴿آتيتكم﴾ ثم ضمّ إلى التوكيد الوعيد بقوله:

٨٢ ـ ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

﴿فمن تولى﴾ أعرض ﴿بعد ذلك﴾ الميثاق ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾

لما بيّن سبحانه بطلان الملّة اليهودية وسائر الملل غير الإسلام بيّن عقبه أنّ من يبتغ غير دينه فهو ضالّ لا يجوز القبول منه فقال:

٨٣ - ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم﴾ انقاد وخضع ﴿من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ والمعنى: أين يذهب الكفار في عزوفهم عن دين الله دين الحق الصراط المستقيم فأين تذهبون فمرجعكم إلى الله فمن لم يخضع وينقد إلى الله طواعية بسهولة ويسر، فإنه سوف ينقاد إلى الله بمشقة وعسر والموت هو القاسم المشترك، والتعبير بأسلم يدلّ على انقياد الكل وخضوعهم لنفاذ أمره، وهذا يتحقق في الموت.

القـــراءة

﴿أفغير دين الله يبغون.... وإليه يرجعون﴾
قرأ أبو عمرو: ﴿يبغون﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء.
وقرأ حفص: ﴿يبغون﴾ بالياء جعله خبراً عن اليهود، و﴿إليه يرجعون﴾ بالياء أيضاً يعني اليهود وقرأ الباقون بالتاء أي أنتم وهم.

إيمان المؤمنين بكل الأنبياء

لما بيّن أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق كل رسول كان قبله أمر النبي ﷺ بذلك فقال:

٨٤ - ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أولاده ﴿وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ مخلصون في العبادة.

٨٥ - ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

حكم الكفر بعد الإيمان

لما بيّن تعالى أنّ الإسلام هو الدين الذي به النجاة بيّن حال من خالفه فقال:

٨٦ - ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنّ الرسول حق وجاءهم البينات﴾ الحجج الظاهرات على صدق النبي ﷺ ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وكيف بمعنى الإنكار هاهنا، لفظها لفظ الاستفهام ومعناها الجحود والنفي، أي لا يهدي الله هؤلاء بسبب كفرهم وعنادهم فلا يوفقهم الله، ونزلت في قوم ارتدوا.

٨٧ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

٨٨ ـ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

﴿خالدين فيها﴾ أي اللعنة وهي الطرد من رحمة الله والبعد عنه ﴿ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ يمهلون يؤخرون عن الوقت.

٨٩ ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ من بعد ارتدادهم عن الإسلام ﴿وأصلحوا﴾ أي أظهروا أنهم على ضلال، وأصلحوا ما كانوا أفسدوه، وغروا به من تبعهم ممن لا علم له ﴿فإن الله غفور رحيم﴾.

لما تقدم ذكر التوبة المقبولة عقّبه الله بما لا يقبل منها فقال:

٩٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾.

﴿إن الذين كفروا﴾ بعيسى ﴿بعد إيمانهم﴾ بموسى ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بمحمد ﴿لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ عن الحق. وإن لم يدركوا موسى وعيسى، فالأصل الاعتقاد.

أصناف الكفار

ثم صرّح بعقابهم ونفي من يشفع فقال:

٩١ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾. والمعنى: لن تقبل توبتهم بعد الموت إذا ماتوا على الكفر ﴿أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ وملء الشيء: ومقدار ما يملؤه ﴿ولو افتدى به﴾ الواو هاهنا ليست زائدة كما يقول بعض المفسرين والنحويين، والتقدير فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً تبرعاً ولو افتدى وذلك يوم القيامة.

الإنفاق

٩٢ ـ ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

﴿لن تنالوا البر﴾ أي ثوابه، والبر عام يتناول أموراً عديدة منها الجنة والطاعة والخير والمعنى: لن تنالوا البر الكامل الذي تطلبونه بطاعتكم ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وهي جميع النفقات التي يبتغي بها العبد وجه الله سواءاً

كانت صدقة نافلة أم فرضاً مثل الزكاة، ومثل المال الذي يجب أن يتصدّق المرء به وهو في صحته وقوته صحيح شحيح ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾.

فرية اليهود في تحريم بعض المطعومات

لما ذكر أن البر يحصل بالإنفاق من المحبوب والطعام مما يحبّه الإنسان زاد فرغّب فيه وقال:

٩٣ ـ ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿كل الطعام كان حلًا﴾ أي حلالاً ﴿لبني إسرائيل إلّا ما حرم إسرائيل﴾ يعقوب ﴿على نفسه﴾ وهو الإبل وألبانها لسبب مرض فيها ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ وذلك بعد إبراهيم ولم تكن على عهده حراماً كما يزعم اليهود ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ لتتبين صدق قولكم من كذبه ﴿إن كنتم صادقين﴾ فبهتوا ولم يأتوا بها. والظاهر أن اليهود كلّما كرهوا أمراً حرّفوه لصالحهم في التوراة، ولم يدر بخلدهم أن القرآن يكشف للنبي محمد ﷺ أمرهم ويهتك سترهم، وفي ذلك الإعجاز الذي ما بعده إعجاز، وهكذا تجد الآيات تنزل على الرسول فاضحة أمرهم ولذلك نجد النبي ﷺ، يتوقف أحياناً عن الإجابة منتظراً الوحي من السماء.

٩٤ ـ ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك﴾ أي ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من عهد يعقوب لا على عهد إبراهيم ﴿فأولئك هم الظالمون﴾. المتجاوزون الحق إلى الباطل.

ثم بيّن تعالى أنّ الصدق فيما أخبر به فقال:

٩٥ ـ ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾ مائلاً عن كل دين إلى الإسلام ﴿وما كان من المشركين﴾ سبق شرح كلمة حنيف في البقرة رقم الآية ـ ١٣٥ ـ وآل عمران رقم ـ ٦٧ ـ لما أمر الله تعالى أهل الكتاب اتباع ملة إبراهيم، ومن ملته تعظيم بيت الله الحرام، فذكر تعالى البيت وفضله وحرمته وما يتعلّق به فقال:

٩٦ ـ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿إن أول بيت وضع﴾ أي معبداً ﴿للناس للذي ببكة﴾ مكة قال ابن قتيبة: إن الباء تبدل من الميم يقال سمد رأسه، وسبد رأسه، إذا استأصله، وشر لازم، وشر لازب. وبعد بناء البيت الحرام بأربعين سنة بني المسجد الأقصى ﴿مباركاً وهدى للعالمين﴾.

٩٧ ـ ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿فيه آيات بينات﴾ منهن ﴿مقام إبراهيم﴾ أي الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت فأثر قدميه فيه واضح ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ والمراد بالبيت الحرام كله، والأمن فيه لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر، وتقديره: ومن دخله فأمنوه، وهو عام فيمن جنى جناية قبل دخوله ثم دخله طالباً الأمان فإنه يترك حتى يخرج فيقتص منه، أما من ارتكب جناية داخل الحرم اقتص منه، وذلك أن الدخول فيه بما تفيد الآية لغرض الأمان أما إذا كان الدخول فيه لغرض الفساد في الأرض لا لغرض الأمان فالأمر يختلف ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ فرض واجب ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ من بدل من الناس بدل البعض من الكل، والسبيل هو الزاد والراحلة ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾.

والمعنى أن الدعوة لحج بيت الله والاعتراف به، يجب أن توجه إلى كل الناس «وأذّن في الناس» المشركين ممن يزعمون أنهم حماة البيت وأهله، وأهل الكتاب الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم وهم تبع له، وإبراهيم هو الذي وضع الحجر وأذّن في الناس بالحج، فها هو الحج قد فرض عليكم فمن آمن وحجّ فهو المسلم، ومن كفر بأن ظلّ على كفره وعناده وجحده، فالله سبحانه غني عن الكفر فلا ينفعه حج من آمن ولا يضرّه من كفر، لأنه غني مستغن عن العالم كله بما فيه.

القـــراءة

﴿ولله على الناس حجّ البيت﴾

قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿حِج البيت﴾ بكسر الحاء وقرأ الباقون بالفتح، هما لغتان، الفتح لأهل الحجاز وبني أسد، والكسرة لغة أهل نجد.

ثم عاد سبحانه الكلام إلى حجاج أهل الكتاب مخاطباً للنبي يأمره بخطاب اليهود والنصارى فقال:

٩٨ ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾.

٩٩ ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله﴾ أي دينه وطاعته ﴿من آمن﴾ بأقوالكم وأعمالكم وكتم الحق الذي عندكم ﴿تبغونها﴾ أي السبيل يذكر ويؤنث ﴿عوجاً﴾ ضلالاً ﴿وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون﴾من الكفر والتكذيب، ثم حذّر الله المؤمنين عن قبول قولهم فقال:

١٠٠ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾.

ثـم بيّن أن الكل بعصمة الله وتوفيقه فقال:

١٠١ ـ ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ

﴿ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿وكيف تكفرون﴾ استفهام تعجب وتوبيخ ﴿وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ يبين لكم ما نزل إليكم، ولكم في سنته وإخلاصه خير أسوة تغذي إيمانكم وتقوي برهانكم، فهل يليق بمن أوتوا هذه الآيات ووجدوا الرسول الحكيم الرؤوف الرحيم يرشد ويوجه إلى طريق الحق أن يتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا وأضلّوا كثيراً، حتى استحوذ عليهم الشيطان وغلب عليهم البغي والعدوان، فالاستفهام في الآية للإنكار والاستبعاد، ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ لا يضل فيه الشاك ولا يخشى على نفسه المهالك، ومن يعتصم بحبله فقد تحققت هدايته وثبتت استقامته، وهذه هداية البيان.

الدعوة إلى الوحدة والتمسك بالدين

لما نهى تعالى عن قبول أقوال الكافرين بين في هذه الآية ما يجب قبوله فقال:

١٠٢ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ بأن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وسبب نزولها أن قبيلتي الأوس والخزرج من قبائل الأنصار العربية، كان بينهما حرب في الجاهلية، فلما جاء النبي ﷺ أطفأ تلك الحرب بالإسلام، فأثار اليهود الفتنة بينهما بسبب رجلين اقتتلا، فخرجوا بالسلاح فجاء النبي فأصلح بينهم، فنزلت والخطاب بهذه الآية للأوس والخزرج وهي عامة.

وأما دعوى النسخ لقوله تعالى ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ بالآية ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ في سورة التغابن ففي غير محلها، والصحيح أنها محكمة كما هو مروي عن ابن عباس وهو قول طاوس وغيره، قال ابن الجوزي قال شيخنا علي بن عبد الله، فالمعتقد نسخها يرى أن ﴿حق تقاته﴾ الوقوف مع جميع ما يجب له ويستحقه، وهذا يعجز الكل عن الوفاء به، ومن يرى أنها محكمة يقول ﴿حق تقاته﴾ أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته، فكان قوله تعالى ﴿ما استطعتم﴾ مفسراً لـ ﴿حق تقاته﴾ لا ناسخاً ولا مخصصاً أقول: ويؤكد ذلك قول الله تعالى الذي سبق في آخر سورة البقرة ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾.

ثم إنه تعالى أمرهم بما هو كالأصل لجميع الخيرات وإصلاح المعاش والمعاد، وهو الاجتماع على التمسّك بدين الله واتفاق الآراء فقال:

١٠٣ ـ ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ استمسكوا، فأما الحبل فدين الله، وجميعاً منصوب على الحال ﴿ولا تفرقوا﴾

بعد الإسلام ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم﴾ بالإسلام ﴿فأصبحتم﴾ صرتم ﴿بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ أي كنتم على طرف حفرة من النار، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا الموت على الكفر، ﴿فأنقذكم منها﴾ بالإيمان ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ وهذه هداية البيان.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ثم رغب المؤمنين الكاملين في تكميل غيرهم فقال:

١٠٤ ـ ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك﴾ الداعون الآمرون الناهون ﴿هم المفلحون﴾ الفائزون، يدل على أنه أوجب على طائفة ﴿جماعة﴾ ممن يهتدون بالآيات أن يدعوا إلى الخير، والتعبير بالأمة يوحي بأن يكون الدعاة للخير أي للإسلام كثير مثل قوله تعالى ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ وأما المعروف فهو ما يعرف كل عاقل صوابه، وضده المنكر، أو هو طاعة الله والمنكر معصيته.

١٠٥ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

١٠٦ ـ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

﴿يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه﴾ من خشية الله وخوفه ﴿فأما الذين اسودّت وجوههم﴾ وهم الكفار وأهل البدع ويقال لهم توبيخاً﴿أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وحذف القول لأن في الكلام دليلاً عليه، كقوله تعالى: ﴿وإسماعيل ربّنا تقبل منا﴾ أي ويقولان، والهمزة لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها التقرير والتوبيخ، فذوقوا أصل الذوق باللسان، وهذا استعارة منه.

١٠٧ ـ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ وهم المؤمنون ﴿ففي رحمة الله﴾ أي جنة الله وسميت الجنة رحمة لأن دخولها كان برحمته، أي في ثواب رحمته، وأعاد ذكر ﴿فيها﴾ توكيداً ﴿هم فيها خالدون﴾.

١٠٨ ـ ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ لا يعاقبهم من غير جرم.

١٠٩ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ من بشر وحيوان ونبات وجماد وجن وملائكة وشياطين وغيرها ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾.

فضل الأمة الإسلامية

لما تقدّم ذكر الأمر والنهي عقبه تعالى بذكر من تصدّى للقيام بذلك، ومدحهم ترغيباً في الاقتداء بهم فقال:

١١٠ - ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾. والمعنى: كنتم أيها المؤمنون الأولون من المهاجرين والأنصار، والخطاب للنبي وأصحابه لأنه نزل بهم إلا أنه يعم سائر أمته، بدليل التعبير المضارع بعده ﴿تأمرون بالمعروف﴾ أي فيمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات، دخل معهم في هذا المدح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ من لم يؤمن ﴿لكان خيراً لهم﴾ مثلكم لكن اختلفوا فـ ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ الذين لم يسلموا.

ثم أخبر عن حالهم، وكان كما قال وهو آية الإعجاز بجملة مستأنفة هي قوله:

١١١ - ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

﴿لن يضرّوكم إلا أذى﴾ في الدعوة الإسلامية إلّا قولهم باللسان بما ينشرون من الدعاية المعتادة بين القبائل العربية من الحرب النفسية ﴿وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾ عليكم وهذا ما حدث، وكلّ ذلك مشروط بما تقدّم من وصف المؤمنين في الآيات.

يسوق الله خبراً آخر من مستقبلات أحوال اليهود المعلومة بالوحي فيقول:

١١٢ - ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾.

﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا﴾ حيثما وجدوا وأدركوا، وهذا شأن اليهود قديماً وحديثاً لا يعيشون إلّا خائفين مذعورين، دائماً يظهرون الذل والهوان والضعف أمام الناس ﴿إلّا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ حبل

الله هو الدين، وحبل الناس المساعدات التي يتلقونها، والعهود التي يبرمونها لصالحهم.

والمعنى: إنَّ شأن اليهود الذلة، والذلة لا تأتي إلا من الخوف في أي مكان يوجدون فيه من العالم، ولذلك تراهم يتمسكون بحبل الله، أي بدين الله فيؤمنون كما كان منهم من قبل ومن أسلم من بعد، أما الكفار منهم فإنهم يتخذون الفسق والفجور والنفاق والتظاهر بالمسكنة سبيلاً لهم، لنيل الإمدادات المادية والعسكرية لمساعدتهم من الناس ولم يقل الله من المؤمنين بل قال من الناس والناس كفار مثلهم والكفر ضد الإسلام ملة واحدة وهم لا يعيشون إلا بالعهود، ليستقروا ولذلك يسعون جاهدين للحصول عليها بأي ثمن ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ رجعوا من أعمالهم إلى غضب الله فيجازيهم.

﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ التظاهر بالفقر وهم أغنياء والذلة ولو أنهم أعزّاء ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ الفعل لآبائهم والخطاب لهم لرضاهم به ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ على محارم الله.

ثم إنه تعالى مدح الأمة المذكورة بصفات ثمان فقال:

١١٣ ـ ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

﴿ليسوا﴾ أي أهل الكتاب ﴿سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ الثابتة على أمر الله كعبد الله بن سلام وجماعته ﴿يتلون آيات الله آناء الليل﴾ في ساعاته ﴿وهم يسجدون﴾ ومثله ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما﴾(١)

١١٤ ـ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾.

﴿ثم شرط للأمة الموصوفة إيصال الجزاء إليهم فقال:

١١٥ ـ ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

أي من يعمل خيرا فلن يعدم ثوابه بل سيجازى عليه. فضمن الكفران معنى الحرمان ولهذا يعدّى لمفعولين، وسمّى منع الجزاء كفراً كما سمى إيصال الثواب شكراً في قوله: ﴿فإن الله شاكر عليم﴾

القــــراءة

﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ بالياء فيها إخباراً عن الأمة القائمة، وقرأ الباقون بالتاء فيها على الخطاب.

الكافرون وأعمالهم

لما تقدّم وصف المؤمنين عقّبه سبحانه ببيان حال الكافرين فقال:

١١٦ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿إنّ الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ وخصها الله بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه، ما يضره أو يجلب لها ما ينفعه. تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ثم إنّه لما بيّن أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيئاً أمكن أن يخطر ببال أحدهم أن الذين ينفقون ينتفعون به، فأزال ذلك الوهم بقوله:

١١٧ - ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

﴿مثل﴾ صفة ﴿ما ينفقون﴾ أي الكفار ﴿في هذه الحياة الدنيا﴾ ضد الدولة الإسلامية ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ الصر التصويت والحركة من الحصى والحجارة، ومنه صرير النعل، وعلى ذلك يكون معنى الصّر هو الصوت المصاحب للريح في أيام الحر أو البرد الشديد ﴿أصابت حرث﴾ زرع ﴿قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ لمعصيتهم وكفرهم وفسقهم، فلم ينتفعوا بزرعهم ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ بما سعوا لأنفسهم من الأسباب.

وهذا مثل ضربه الله لإبطال أعمالهم في الآخرة. وقد بدأ الله تعالى هذه الآية بالريح ومعنى الكلام على الحرث الزرع، كقوله تعالى: ﴿كمثل الذي ينعق بما لا يسمع﴾[1] وإنما معنى الكلام على المنعوق به.

مصادقة المنافقين والكافرين وخطرها

نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومخالطتهم خوف الفتنة منهم عليهم فقال:

١١٨ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة﴾ أصدقاء وأصفياء تأنسون إليهم ﴿من دونكم﴾ أي من غيركم من الكفار ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ لا يتأخرون في إلقائكم فيما يضركم، ولا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، ونصب خبالاً على نزع الخافض ﴿ودوا﴾ تمنوا لكم ﴿ما عنتم﴾ ما ينزل بكم من شدة وضرر ومكروه ﴿قد بدت البغضاء﴾ لكم التي يكنونها في نفوسهم ﴿من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات﴾ أي أخبركم الله بعداوتهم لكم مع سلامة قلوبكم معهم ﴿إن كنتم تعقلون﴾ تستعملون عقولكم قبل عواطفكم، وسبب نزول هذه الآية أن بعض المؤمنين لسلامة قلوبهم وطيب نفوسهم، كانوا يصادقون بعض المنافقين ويواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة، والصداقة والجوار، والرضاع، والحِلف في الجاهلية، فنهوا عن مباطنتهم.

ثم بين سبحانه ما هم عليه من عداوة المؤمنين تأكيداً للنهي عن مصافاتهم فقال:

١١٩ ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله﴾ الكتاب بمعنى الكتاب السماوي، فيطلق على الكتب، والآية تشير إلى المنافقين ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل﴾ أطراف الأصابع ﴿من الغيظ﴾ شدة الغضب لما يرون من ائتلافكم وعدم استجابتكم للتحول عن دين الإسلام إلى الكفر، ويعبر عن شدة الغضب بعض الأنامل مجازاً، وإن لم يكن هناك عض حقيقي ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ أي ابقوا معذبين بالغيظ حتى تموتوا، فلن تروا ما يسركم ﴿إنَّ الله عليم بذات الصدور﴾.
ثم أخبر سبحانه عن حال من تقدّم ذكرهم فقال:

١٢٠ ـ ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾.

﴿إن تمسسكم حسنة﴾ نعمة وهي الألفة والجماعة ﴿تسؤهم وإن تصبكم سيئة﴾ الفرقة والاختلاف، والحسنة عامة في كل حسن وخير كما أن السيئة عامة في كل شر ﴿يفرحوا بها﴾ والمعنى أنهم متناهون في عداوتكم فلم موالاتهم فاجتنبوهم ﴿وإن تصبروا﴾ على أذاهم ﴿وتتقوا﴾ الشرك وغيره من المعاصي ﴿ لا يضرّكم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾.

القــــراءة

﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً﴾

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿لا يضِركم﴾ بكسر الضاد وسكون الراء وقرأ الباقون: ﴿يضرّكم﴾ بضم الضاد وتشديد الراء.

ما نزل من القرآن في أحد

لما أمر الله تعالى بالصبر في قوله: ﴿وان تصبروا وتتقوا﴾ عقبه بنصرة المسلمين يوم بدر، وصبّرهم على القتال، ثم ذكر امتحانهم يوم أحد لما تركوا الصبر.

١٢١ ـ ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء﴾ تنزل ﴿المؤمنين مقاعد﴾ مراكز ﴿للقتال والله سميع عليم﴾ بأحوالكم، وقد خرج الرسول ﷺ من بيت عائشة من المدينة، فجعل يصف أصحابه للقتال في جبهة القتال وأمر بعض الرماة بأخذ أماكنهم بسفح الجبل لحماية ظهر المهاجمين وطلب منهم ألا يبرحوا.

١٢٢ ـ ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ الطائفتان هما بنو سلمة من جشم من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس من الأنصار، وهما الجناحان في الجيش، وكان همهما الذي هما به من الفشل الانصراف، والتراجع عن ساحة القتال، ولم يكن ذلك عن شك في الدين، وإنما كان ذلك عن جبن وضعف ووهْن أصابهما والسبب في ذلك أن عبد الله بن أبي سلول المنافق الكبير رجع أمامهم في الطريق بثلاث مائة رجل، وأخذ يحرضهم على التراجع والخذلان.

وقد جرى أسلوب القرآن على معنى همت بأنه شروع في البدء بالفعل ثم توقفت عنه دون إتمامه لسبب خارج عن إرادة الفاعل مثل ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ ومثل ذلك في النساء آية ـ ١١٣ ـ ﴿والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ لما كان الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، وولي المتقين ومتولي الصالحين، وكان هؤلاء الصحابة مؤمنين مخلصين، ولم يكن همهم عن غدر ولا شك، ولكنه عن سوء تقدير اجتهادي سوّله لهم المنافقون، فإن الله الذي هو وليهما لا بد ناصرهما وهو الذي يتولى الصالحين، فحفظهم من الزلل ودفع عنهم الوهن، وأذهب عنهم الحزن، ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي كان يقول من كان به ضعف أو وهن فليتوكل علي، وليستعن بي، أعنه على أمره وأدفع عنه حتى أبلغ به وأقويه على نيته، ثم بيّن تعالى ما فعله بهم من النصر يوم بدر فقال:

١٢٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ بدر: موضع بين مكة والمدينة، وفيه بئر لرجل اسمه بدر وسمي المكان به، وأذلة لقلة العدد والسلاح ﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ نعمته وتذكير للمؤمنين بغزوة بدر فكونوا من الشاكرين.

١٢٤ ـ ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾.

﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ أي في يوم بدر، وقد أمد الله فيه المؤمنين بألف من الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة﴾[1] ثم زادهم إلى ثلاثة آلاف: كما قال تعالى ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾ أيكفيكم ذلك؟ ولذا قال تعالى: بلى، ثم صار خمسة آلاف، لقوله تعالى ﴿إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة﴾ ﴿منزلين﴾ أنزلهم الله من السماء إلى الأرض لتثبيت قلوب المؤمنين وتكثير عددهم في أعين المشركين.

القــــراءة

﴿ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾.

قرأ ابن عامر: ﴿من الملائكة منزّلين﴾ بالتشديد. وخففها الباقون.

١٢٥ ـ ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾.

﴿بلى إن تصبروا﴾ على لقاء العدو ﴿وتتقوا﴾ الله ﴿ويأتوكم﴾ أي الكفار المشركون وحلفاؤهم ﴿من فورهم﴾ أصل الفور ابتداء الأمر والمعنى يأتيكم كفار قريش وأتباعهم يوم أحد من ابتداء غضبهم الذي غضبوه لقتلاهم في بدر ﴿هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ معلمين علامة مميزة التي يعلم بها الفارس نفسه، وكان إمداد الله للمؤمنين بالملائكة في مقابلة مدد المشركين لبعضهم يوم المعركة، والغاية منه التكثير والتثبيت.

القــــراءة

﴿بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: مسوِّمين بكسر الواو وقرأ الباقون: ﴿مسوَّمين﴾ بفتح الواو.

١٢٦ ـ ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾.

﴿وما جعله الله﴾ أي الإمداد ﴿إلا بشرى لكم﴾ بالنصر ﴿ولتطمئن﴾ تسكن ﴿قلوبكم به﴾ لئلا تجزع من كثرة العدو وقلتكم ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ وليس بكثرة الجند.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٩.

١٢٧ ـ ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾.

﴿ليقطع﴾ أي ليهلك ﴿طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم﴾ يذلهم بالهزيمة ﴿فينقلبوا﴾ يرجعوا ﴿خائبين﴾ لم ينالوا ما أملوا.

١٢٨ ـ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ بل الأمر لله فاصبر، وسبب النزول لما كسرت رباعية النبي ﷺ وشج وجهه يوم أحد قال له أصحابه لو دعوت عليهم فقال لم أبعث لعاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة ﴿أو﴾ بمعنى إلى أن ﴿يتوب عليهم﴾ بالإسلام ﴿أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ بالكفر.

لما قال تعالى: ليس لك من الأمر شيء عقب ذلك بأن الأمر كله له فقال:

١٢٩ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. بأهل طاعته.

النهي عن أكل الربا

لما ذكر سبحانه أن له التعذيب لمن يشاء والمغفرة لمن يشاء وصل ذلك بالنهي عن الربا الذي لو فعلوه لاستحقوا عليه العذاب فقال تعالى:

١٣٠ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

هذه الآية نزلت في ربا الجاهلية كان الرجل يكون له على الرجل المال، فاذا حلّ الأجل، فيقول: أخّر عني، وأزيدك على مالك خذ لك الأضعاف المضاعفة، قال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير، والمتلاعبون يزعمون أن هذه الآية تدل على أن الربا المحرم هو الأضعاف المضاعفة فقط حسب مفهوم المخالفة للآية، ويتركون الآية الصريحة المكملة لهذه الآية﴿وإنْ تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ يبتغون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله.

وقال الشيخ شلتوت في تفسيره[1]: فإن الله سبحانه أتى بقوله ﴿أضعافاً مضاعفة﴾ توبيخاً لهم على ما كانوا يفعلون وإبرازاً لفعلهم السيىء، وتشهيراً به، ومثله قوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾[1] وإنما أراد أن يبشع ما يفعلونه، ويشهر به.

---

(١) سورة ص، الآية: ١٥٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٣.

ثم خاطب العوام الذين هم أرباب الوسائط بقوله:

١٣١ ـ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾.

١٣٢ ـ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

لما حذّر الله تعالى عن الأفعال الموجبة للعقاب عقّبه بالحثّ على الأفعال الموجبة للثواب فقال:

١٣٣ ـ ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

أي بـادروا إلى ما يوجب المغفرة بالطاعة.

القــــراءة

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾

قرأ نافع وابن عامر: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ بغير واو، اتباعاً لمصاحفهم وقرأ الباقون: ﴿وسارعوا﴾ بالواو اتباعاً لمصاحفهم.

١٣٤ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ اليسر والعسر ﴿والكاظمين الغيظ﴾ الكافين عن الشر مع القدرة عليه ﴿والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين﴾ ومعنى الآية أنهم رغبوا في معاملة الله فلم يبطرهم الرخاء، فينسهم، ولم تمنعهم الضراء فيبخلوا، وكظم الغيظ هو أن تمسك على ما في نفسك منه.

١٣٥ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ ذنباً قبيحاً ومنه الزنا ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ بأي ذنب ﴿ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا﴾ أي لم يداوموا بل أقلعوا وهم يعلمون أن الذي أتوه معصية.

١٣٦ ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

سنن الله في الخلق

لما بيّن سبحانه ما يفعله بالمؤمن والكافر في الدنيا والآخرة بيّن أنّ ذلك عادته في خلقه فقال:

١٣٧ ـ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾.

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ السنن جمع سنة وهي الطريقة أي قد مضى قبلكم سنن الله في إهلاك من كذب من الأمم، فاعتبروا بهم ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ المراد بالسير السفر لتتبع الأخبار للاعتبار بالتاريخ عياناً، والتفكير لمعرفة قدرة الله وعظمته وسننه في خلقه إذ أنّه لا يكفي لتحصيل العلم قراءته ودراسته بل يخطّط لنا منهجاً عملياً للوصول إلى العلم الصحيح هو منهج السير والنظرة ففي السير مشاهد مختلفة يراها السائر، وفي تأملها تبدو له ملاحظات هامة يجمعها ثم يستقرئها ليستنبط منها القوانين العامة التي تربط بعضها ببعض.

١٣٨ ـ ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿هذا بيان للناس﴾ أي ما تقدم من الأخبار والاتعاظ المشار إليه، والبيان والكشف عن الشيء، ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿وموعظة للمتقين﴾. ثم حث الله تعالى المسلمين على النجدة ونهاهم عن الوهن والحزن ووعدهم الغلبة في الحال وحسن الباقيات في المآل فقال:

١٣٩ ـ ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ولا تهنوا﴾ لا تضعفوا ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما أصابكم بأحد من جُرح النبي واستشهاد إخوانكم وآثار المعركة من الجراح والمرض وغيره فلا تحزنوا ﴿وأنتم الأعلون﴾ بالغلبة عليهم حيث أن آخر الأمر صار لكم بعد دخول المشركين عليكم من ظهر الجبل حيث تركه الرماة أول الأمر لجمع الغنيمة ﴿إن كنتم مؤمنين﴾.

١٤٠ ـ ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾.

﴿إن يمسسكم قرح﴾ جهد من الجروح فشكوا إلى النبي ﷺ ما لقوا فنزلت، فأما المس فهو الإصابة، والقرح ألم الجراح وهما بمعنى واحد حسب رأي الزجاج ﴿فقد مس القوم﴾ الكفار ﴿قرح مثله﴾ ببدر ﴿وتلك الأيام نداولها﴾ أي نجعل الدولة في وقت للكفار على المؤمنين، إذا عصى المؤمنون أما إذا أطاعوا فهم منصورون، والغاية في ذلك إعطاء درس وعظة للمسلمين بإطاعة أوامر قادة الحق لأن المخالفة والاستبداد بالرأي في أثناء المعركة من أسباب الهزائم. ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي ليعلم واقعاً منهم فيعرفهم به، لأنه عالم قبل ذلك، وإنما يجازي على ما وقع ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ يكرمهم بالشهادة ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ المنافقين.

القـــراءة

﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ بضم القاف فيهما. وقرأ الباقون بالفتح فيها.

ثم بيّن تعالى وجه المصلحة في مداولة الأيام بين الناس فقال:

١٤١ ـ ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ يطهّرهم من الذنوب، أي يخلصهم ﴿ويمحق الكافرين﴾ يهلكهم ويحبط أعمالهم.

لما حثّ الله على الجهاد ورغب فيه زاد في البيان والإخبار بأن الجنة لا تنال إلا بالبلوى والاختبار فقال:

١٤٢ ـ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما﴾ لم ﴿يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ علم ظهور ﴿ويعلم الصابرين﴾ بالواقع.

عتاب لبعض من حضروا أحداً

١٤٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ أي قبل غزوة أحد حيث سمعتم من الرسول ما أعد الله للشهداء يوم بدر من الكرامة ﴿فقد رأيتموه﴾ أي أسبابه وهو قريب منكم ﴿وأنتم تنظرون﴾ وصوله إليكم.

ثم بيّن سبحانه أنّه لا ينبغي أن يترك أمر الله تعالى كان الرسول بين أظهرهم أو لم يكن فقال:

١٤٤ ـ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أي رجعتم إلى الكفر، وسبب نزولها أن المنافقين أشاعوا أن النبي ﷺ قتل فقال قوم من المنافقين للمسلمين إن كان قتل فارجعوا إلى دينكم.

﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ أي لن ينقص الله شيئاً برجوعه وإنما يضرّ نفسه.

ثم أثبت للعبد كسباً في طلب الهداية واستجلاب العناية فقال:

١٤٥ ـ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

﴿وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله﴾ بقضائه ﴿كتاباً﴾ أي كتب الله ذلك ﴿مؤجلًا﴾ توكيد. والمعنى كتب الله ذلك كتاباً ذا أجل والأجل الوقت المعلوم، لا يتقدم ولا يتأخر فلِمَ إذاً ينهزم الناس والهزيمة لا تدفع الموت، والثبات لا يقطع الحياة ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ أي من قصد بعمله الدنيا أعطي منها قليلًا أو كثيراً، فإنها لا قيمة لها عند الله ﴿ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾ أي ثوابها أي من قصد الآخرة بعمله أعطي منها. وقيل في الآية إشارة إلى من ثبت يوم أحد، ومن طلب الغنيمة فهي الدنيا ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ نعم الله كثيرة ودوامها شكرها.

ثم أكّد سبحانه ما تقدم بقوله:

١٤٦ ـ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

﴿وكأين﴾ كم ﴿من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ قال ابن قتيبة كأين لغتان ﴿كأين﴾ بالهمزة وتشديد الياء «وكائن» على وزن قائل والربيون الجماعات الكثيرة ﴿فما وهنوا﴾ ضعفوا وجبنوا ﴿لما أصابهم في سبيل الله﴾ من الجراح وقتل الأصحاب ﴿وما ضعفوا﴾ عجزوا عن الجهاد ﴿وما استكانوا﴾ خضعوا لعدوهم والمعنى: فما وهنوا بالخوف، وما ضعفوا بنقصان القوة ولا استكانوا بالخضوع لما أصابهم من قتل أو جرح.

القــــراءة

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾.

قرأ ابن كثير: «وكائن من نبيّ» على وزن «كاعن».

وقرأ الباقون: «وكأين» على وزن «كعين»

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «وكأيّن من نبيّ قتل» بضم القاف وكسر التاء.

وقرأ الباقون: «قاتل معه».

ثم إنّهم عمموا الذنوب الصغائر والكبائر ثم خصصوها.

١٤٧ ـ ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

﴿وما كان قولهم﴾ أي الربيون عند قتل نبيهم مع ثباتهم وصبرهم ﴿إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا﴾ تجاوزنا الحد الشرعي ﴿في أمرنا﴾ من الذنوب الصغيرة والكبيرة وذلك اعترافاً منهم بأن ما أصابهم لسوء فعلهم وعدم تدبير أمرهم لأنفسهم ﴿ثبت أقدامنا﴾ على الجهاد والنضال ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

١٤٨ ـ ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ النصر والغنيمة ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ الأجر والمغفرة وهذا تعليم من الله للمؤمنين ما يفعلون ويقولون عند لقاء العدو ﴿والله يحبّ المحسنين﴾ الذين يحسنون تدبير أمورهم في دينهم ودنياهم.

العزائم

ثم أمر سبحانه بترك مشاورة الذين يثبطون عن الجهاد من الكفار وقال:

١٤٩ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ فيما يقترحون عليكم ﴿يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾.

١٥٠ ـ ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾.

﴿بل الله مولاكم﴾ ناصركم ﴿وهو خير الناصرين﴾ فاستغنوا عن مناصرة الكفار وموالاتهم.

ثم بين سبحانه أن من نصرته للمؤمنين إلقاؤه الرعب في قلوب المشركين فقال:

١٥١ ـ ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾.

﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ لما ارتحل المشركون يوم أحد نحو مكة ندموا في بعض الطريق وقالوا ارجعوا فاستأصلوهم أي المسلمين حتى لا يبقى منهم أحد، فقذف في قلوبهم الرعب ونزلت الآية ﴿بما أشركوا بالله﴾ وهذه عقوبة نفسية في الدنيا لإشراكهم ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ حجة على عباده ﴿ومأواهم النار وبئس مثوى﴾ مأوى ﴿الظالمين﴾ الكافرين.

القــــراءة

﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ قرأ ابن عامر والكسائي ﴿الرعُب﴾ بضم العين، وقرأ الباقون بإسكان العين، وهما لغتان.

ما أصاب المسلمين في أحد

ثم يبين تعالى أنه صدقهم وعده فقال:

١٥٢ - ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ بالنصر ﴿إذ تحسونهم﴾ تقتلونهم ﴿بإذنه حتى إذا فشلتم﴾ جبنتم ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ أي أمر النبي بالمقام في سفح الجبل للرمي، فقال بعضكم نذهب لقد نصر أصحابنا، وبعضكم لا يريد ذلك فخالفتم أمر النبي ﷺ ﴿وعصيتم﴾ أمره لكم فتركتم المركز لحماية ظهر جيش المسلمين الملتحم لطلب الغنيمة ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا﴾ هم الذين طلبوا الغنيمة وتركوا مكانهم، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهم الذين ثبتوا حتى قتلوا شهداء ﴿ثم صرفكم﴾ أي ردكم عن المشركين بقتلكم وهزيمتكم ﴿ليبتليكم﴾ أي ليختبركم ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ بعدم قتل كل الذين تركوا مكانهم.

ثم عاتب الله سبحانه وتعالى المنهزمين من أصحاب رسول الله يوم أحد فقال:

١٥٣ - ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿إذ تصعدون﴾ إذْ معلقة بقوله تعالى ﴿ولقد عفا عنكم﴾ وهو من الإصعاد في ابتداء الأسفار تقول أصعدنا من بغداد إلى خراسان ومن منى إلى عرفات، وأما الصعود فهو من أسفل إلى أعلى وفي معنى الآية أنه صعودهم في الجبل ﴿ولا تلوون على أحد﴾ تعرجون ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي من وراء ظهوركم يقول إليّ عباد الله ﴿فأثابكم﴾ فجازاكم ﴿غماً بغم﴾ الباء بمعنى على: والغم الأول ما أصابهم من القتل والجراح وفوات الغنائم والثاني: حين سمعوا أن النبي محمداً ﷺ قد قتل، والغم على الغم مضاعفاً ﴿لكيلا﴾

متعلق بعفا ﴿تحزنوا على ما فاتكم﴾ من الغنيمة﴿ولا ما أصابكم﴾ من الجراح والقتل ﴿والله خبير بما تعلمون﴾.

ثم أخبر أن الذين كانوا مع النبي فريقان أحدهما الجازمون بحقيقة هذا الدين فخاطب الجماعة بقوله:

١٥٤ ـ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة﴾ الأمنة، الأمن، ومعنى الآية أعقبكم بما نالكم من الرعب أن أمنكم أمناً تنامون معه، لأن الشديد الخوف لا يكاد ينام ﴿نعاساً﴾ النعاس أخف من النوم ﴿يغشى طائفة منكم﴾ هم المؤمنون الذين من الله عليهم بالنوم سكينة لهم ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ أي المنافقون قد حملتهم أنفسهم على الهم بخلاص أنفسهم فذهب النوم عنهم ﴿يظنون بالله غير الحق﴾ أي أنهم يظنون أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه ﴿ظن الجاهلية﴾ أي كظن الجاهلية ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ لفظة الاستفهام ومعناه: الجحد، تقديره ما لنا من الأمر من شيء، قالوا لو كان الأمر إلينا ما خرجنا، وإنما خرجنا كرهاً أو المراد بالأمر النصر والظفر ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ أي كلية الإحاطة والعموم ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هـاهنا﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نقتل ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي لو تخلفتم لخرج منكم من كتب عليه القتل، ولم ينجه القعود، والمضاجع: المصارع بالقتل، ومعنى برزوا: صاروا إلى براز، وهو المكان المنكشف ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم﴾ أي ليختبره في أعمالكم ﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾ أراد ليطهّرها من الشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه من الأمنة، وإظهار سرائر المنافقين، وهذا التمحيص خاص للمؤمنين ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ لا يخفى عليه شيء.

القــــراءة

﴿يغشى طائفة منكم﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿تغشى﴾ بالتاء والإمالة، وقرأ الباقون: يغشى بالياء إخبار عن النعاس.

قرأ أبو عمرو ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ برفع اللام وقرأ الباقون بالنصب.

ثم ذكر الله الذين انهزموا يوم أحد أيضاً فقال:

١٥٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ

وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾ المؤمنون المشركون يوم أحد ﴿إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ من الغنائم، وسميت ذنوباً لأن المعركة لم تنته بعد، وسبب الفرار راجع إلى أنهم سمعوا أن النبي قد قتل، فترخصوا في الفرار، وكل ذلك من وسوسة الشيطان الذي أذكى قولة المنافقين ﴿ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾.

بث روح التضحية والجهاد في نفوس المؤمنين.

ثم نهى الله سبحانه المؤمنين عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال:

١٥٦ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ أي المنافقين ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ في شأنهم إذا ضربوا في الأرض﴾ ساروا وسافروا ﴿أو كانوا غزى﴾ جمع غـازٍ ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ أي لا تقولوا كقولهم ﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت﴾. ليجعل الله ما ظنّوا من أنّهم لو كانوا عندهم سلموا، والحسرة الحزن، وليس تحرز الإنسان يمنعه من أجله فالموت والحياة بيد الله ﴿والله بما تعملون بصير﴾

القــــراءة

﴿والله بما تعملون بصير﴾

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: ﴿والله بما يعملون بصير﴾ بالياء

وقرأ الباقون: ﴿بما تعملون﴾ بالتاء.

ثم إنّه لما كذّب الكافرين في قولهم لإخوانهم «لو كانوا عندنا ما ماتوا ومـا قتلوا» ونهى المؤمنين عن كونهم مثلهم لأنه يسبّب التقاعد عن الجهاد رغّبهم فيه بقوله:

١٥٧ ـ ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

﴿لئن قتلتم في سبيل الله﴾ في الجهاد ﴿أو متّم ﴾ في إقامتكم ﴿لمغفـرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾

القــــراءة

﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو مِتم﴾

قرأ نافع وحمزة والكسائي: ﴿أو متم﴾ بكسر الميم في جميع القرآن. وقرأ حفص هاهنا بالضم وفي سائر القرآن بالكسر.

وقرأ الباقون: ﴿متم﴾ بالضمّ

ثم رغّبهم بنوع آخر فقال:

١٥٨ ـ ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

﴿ولئن﴾ اللام لام قسم ﴿متم﴾ في إقامتكم ﴿أو قتلتم﴾ في الجهاد وغيره ﴿لإلى الله تحشرون﴾ وهذا تخويف من القيامة والحشر.

بعض أخلاقه ﷺ في مشاورة أصحابه

ثم بين سبحانه أن لين جانب النبي ﷺ ومجاملته لهم ومجاوزته عنهم من رحمته تعالى حيث جعله لين العطف حسن الخلق.

١٥٩ ـ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي ألان جانبك وحسن خلقك وكثر احتمالك ﴿ولو كنت فظاً﴾ الغليظ الجانب السيىء الخلق، والفظ ماء الكرش والفرث وإنما سمي بذلك لغلظ مشربه، ﴿غليظ القلب﴾ القاسي القلب الجافي وبذلك تكون الفظاظة والغلظة بمعنى واحد توكيداً، وقيل الفظ في القول، والغلظ في الفعل ﴿لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ أي استخرج آراءهم، واعلم ما عندهم في شؤون الحرب والمسائل الدنيوية الأخرى فيما لم يأت فيه وحي، والمقصود أرباب الفضل والتجارب وإلا لطغى الجهل على العلم لكثرته، ومن فوائد المشاورة تطمين القلوب، ولتكون سنة متبعة بعد النبي ﷺ وأنه إذا لم تنجح المشاورة في أمره لا يأسف ولا يلم نفسه أن استبد برأيه، وقد يعزم على أمر فيبين له بعد المشاورة وجه الصواب فيعدل، فيعلم عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح، قال علي رضي الله عنه وكرم وجهه، الاستشارة من الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم، وقال علي بن المبارك ينصح ابنه في قصيدته المشهورة.

وأكثر من الشورى فإنك إن تصب تجد مادحاً أو تخطىء الرأي تعذر

وقال غيره:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي حصيف أو إشارة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم

وقال بعض الحكماء ما استنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا حصلت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر، وقال غيره: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ العزم ما عقد عليه القلب من أمر يريد أن يفعله.

لما أمر الله سبحانه نبيه بالتوكل بيّن معنى وجوب التوكل عليه فقال:

١٦٠ - ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

لما قدم أمر الجهاد وذكر بعده ما يتعلق به من حديث الغنائم والنهي عن الخيانة فيها فقال:

١٦١ - ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ يخون بأخذ شيء أو يلفى خائناً أو يغير في الوحي ﴿ومن يغلل﴾ عام في كل شيء ﴿يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وقيل في سبب النزول أن قطيفة حمراء فقدت من المغنم، فقال بعض الناس لعل النبي أخذها وأخفاها.

القـــراءة

﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم، ﴿أن يَغُل﴾ بفتح الياء وضم الغين، وقرأ الباقون: ﴿يغل﴾ بضم الياء وفتح الغين.

لما بيّن تعالى أنّ كلّ نفس توفى جزاء بما كسبت من خير وشر عقّبه ببيان من كسب الخير والشر فقال:

١٦٢ - ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء﴾ رجع ﴿بسخط من الله﴾ حين غل لمعصيته ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ المرجع وفي هذا إشارة إلى أن الذين أخذوا المفقود من الغنيمة إنما هم المنافقون للتشهير بالنبي ﷺ واتهامه إذ لا يفعل ذلك من كان الله وليه.

١٦٣ - ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

الذين اتبعوا رضوان الله، والذين باؤوا بسخط من الله.

ثم ذكر سبحانه عظيم نعمته على الخلق ببعثه نبينا فقال:

١٦٤ - ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ من جماعتهم ونسبهم وبلسانهم، ووجه الامتنان كونهم يفهمونه ويتعلمون منه بسهولة تحتم عليهم حمل دعوته للناس كافة من بعده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وهذاالامتنان الذي من الله به والتفضل لا يأتي إلّا بمقابل اعتقاد وعمل، وهي نعمة كبرى ﴿يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم﴾ يطهّرهم بـالإسلام من الشـرك والرجس ﴿ويعلّمهم الكتاب﴾ القرآن ﴿والحكمة﴾ السنة ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ في جهالة جهلاء وفي حيرة عن الهدى عمياء وهذه هداية البيان.

الحديث عن غزوة أحد

ثم عاد الكلام إلى ذكر الجهاد فقال:

١٦٥ ـ ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿أو لما أصابتكم مصيبة﴾ الواو واو النسق دخلت عليها ألف الاستفهام، ومثل ذلك قول القائل: تكلم فلان بكذا وكذا، فيقول المجيب له: أهو ممن يقول ذلك، والمصيبة يوم أحد، وكانوا قد أصابوا مثليها من المشركين يوم بدر حيث قتلوا سبعين، وأسروا سبعين ﴿فقد أصبتم مثليها﴾ أي ببدر ﴿قلتم﴾ متعجبين ﴿أنّى هذا﴾من أين أصابنا هذا القتل بأحد حيث استشهد منهم سبعون ونحن مسلمون ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ من الأفعال الاختيارية: لا الجبرية وذلك بترك الرماة المركز الذي وضعهم فيه الرسول ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ من النصر والهزيمة وغيره.

١٦٦ ـ ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان﴾ بأحد حيث استشهد سبعون منكم ﴿فبإذن الله﴾ بإرادته ﴿وليعلم﴾ ليظهر إيمان المؤمنين بثباتهم ﴿المؤمنين﴾ حقاً.

١٦٧ ـ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾.

﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ أي ليظهر نفاق المنافقين بفشلهم وقلة صبرهم، والنافقاء: هو جحر اليربوع الذي يخرج منه كثيراً ويدخل منه كثيراً، وله ثلاثة جحور أخرى غيره، والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع ﴿وقيل لهم﴾

لما انصرفوا عن القتال وهم عبد الله بن أبي وأصحابه في ثلاث مائة رجل ﴿تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾ المراد بالدفع التكثير بالعدد، أو ادفعوا عن أنفسكم وبلدكم المدينة وحريمكم ﴿قالوا لو نعلم﴾ نحسن ونقدر ﴿قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ بما أظهروا من خذلانهم، وكانوا قبل أقرب في الظاهر إلى الإيمان حيث انكشفوا لكم ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ ينطقون بالإيمان، وليس في قلوبهم إلا الكفر ويقولون نحن أنصار وهم أعداء ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ العداوة النفاق.

١٦٨ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾ ممن استشهد في أحد والقائلون هم المنافقون وإخوانهم من النسب أو الرضاع، وقد قعدوا عن الجهاد أي الذين قالوا ﴿لو أطاعونا﴾ حيث أشاروا عليهم بالتخلف ﴿ما قتلوا قل فادرءوا﴾ ادفعوا ﴿عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ في أن القعود عن الجهاد ينجي من الموت.

الشهداء والمجاهدون في سبيل الله

لما بين الله سبحانه قول المنافقين في المقتولين الشهداء تثبيطاً للمؤمنين عن جهاد الأعداء، ذكر بعده ما أعد الله للشهداء من الكرامة وخصهم به من النعيم في دار المقامة فقال:

١٦٩ ـ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

هذا عام في كل شهيد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة آية ـ ١٥٤ ـ.

القــــراءة

﴿لا تحسبن الذين قتلوا﴾ قرأ ابن عامر ﴿قتّلوا﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف.

١٧٠ ـ ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ الفرح المسرة، والذي آتاهم ما نالوا من كرامة الله ورزقه، والاستبشار، السرور بالبشارة بإخوانهم الذين لم يلحقوا بالشهادة بعد لكنهم في طريقهم إليهم، لينالوا مثلهم من الفضل ﴿ألا خوف عليهم﴾ أي الذين لم يلحقوا بهم بعد ﴿ولا هم يحزنون﴾ وهي صفة أولياء الله الصالحين، وما دام مصير الشهيد هو الجنة، فلا يفكر في خوف ولا ينتابه حزن.

١٧١ ـ ﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

القـــراءة

﴿أن الله لا يضيع﴾
قرأ الكسائي وحده: ﴿وإنّ الله﴾ بكسر الألف على الاستئناف.

١٧٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ دعوته لهم بالخروج للجهاد، لما أراد الكفار معاودة الحرب ﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾ بأحد وهو الجراح والقتل والهزيمة ثم الانتصار ﴿للذين أحسنوا منهم﴾ بطاعة الرسول واتقوا مخافة الله وخاصة أنهم راجعون لتوّهم من حرب قاسية ﴿واتقوا أجر عظيم﴾.

١٧٣ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾.

﴿الذين قال لهم الناس﴾ الناس ركب فيهم أبو سفيان فكلفهم بتخويف النبي وأصحابه بأن يقولوا إن أبا سفيان قد جمع لهم جمعاً كثيراً ﴿قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم﴾ ذلك القول ﴿إيماناً وقالوا حسبنا الله﴾ أي هو الذي يكفينا أمرهم لأنه ولينا ومن كان الله وليه فلا يخاف ولا يحزن ﴿ونعم الوكيل﴾ الكفيل وكيل الرجال في ماله هو الذي كفله له، وخرجوا مع النبي ﷺ وألقى الله الرعب في قلوب الكافرين فلم يأتوا، وهذه الآية في كل عصر ومكان رغم خصوص السبب.

١٧٤ ـ ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾.

﴿فانقلبوا بنعمة من الله﴾ الانقلاب الرجوع والنعمة هي العافية والثواب ﴿وفضل﴾ ربح التجارة التي حصلوا عليها من بيع ما حملوه معهم من تجارة لسوق بدر، موعداً للقاء الذي لم يتم، وكانت بدر سوقاً تجارية توافى في كل عام ﴿لـم يمسسهم سوء﴾ لم يؤذهم أحد رغم قلتهم ﴿واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ أي ذو منّ يدفع المشركين عن المؤمنين لأنه يدافع عنهم.

ثم ذكر أن ذلك التخويف والتثبيط عن الجهاد من عمل الشيطان فقال:

١٧٥ ـ ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿إنما ذلكم الشيطان﴾ ذلك التخويف كان فعل الشيطان ﴿يخوف أولياءه فلا تخافوهم﴾.

معناه: يخوفكم من أوليائه بدليل قوله تعالى فلا تخافوهم ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ ثابتين.

تسلية النبي ﷺ وبيان بعض الأحكام

لما علّم الله تعالى المؤمنين ما يصلحهم عند تخويف الشيطان إياهم، خصّ رسوله بضرب من التعليم في هذه الآية فقال:

١٧٦ ـ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ التظاهر به والتناصر من رؤساء المشركين أو من المنافقين أو ممن يرتد عن الإسلام ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ أي لن ينقصوا شيئاً بكفرهم ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم﴾.

القــــراءة

﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾

قرأ نافع: ﴿ولا يحزنك﴾ بضم الياء في كلّ القرآن، وقرى الباقون: بالفتح، وهما لغتان.

١٧٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ثـم بين سبحانه أنّ إمهال الكفّار لا ينفعهم إذا كان يؤدّي إلى العقاب فقال:

١٧٨ ـ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي﴾ أي إملاءنا في إطالة العمر، وهو من الملوة وهي المدة من الزمان ومن ذلك قولهم البس جديداً وتملّ حبيباً ﴿خير لأنفسهم إنما نملي﴾ نمهل ﴿لهم ليزدادوا إثماً﴾ بكثرة المعاصي ﴿ولهم عذاب مهين﴾ ذو إهانة، وفي ذلك عقوبة نفسية في الدنيا علاوة على عقاب الآخرة ثم أتبعه الوعد بالثواب فقال:

١٧٩ ـ ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ما كان الله ليذر﴾ يترك ﴿المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ من اندساس المنافقين واختلاطهم بالمؤمنين ومن تعالي المشركين وبقائهم على كفرهم ﴿حتى يميز الخبيث ﴾ الكافر والمنافق ﴿من الطيب﴾ المؤمن أو يميز الله

المؤمن الصالح بإظهار التكاليف في العبادة وحمل الدعوة من الفاسق والفاجر.

﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ فتعرفوا الناس قبل التميز والكشف ﴿ولكن الله يجتبي﴾ يختار ﴿من رسله من يشاء﴾ فيطلعه على غيبه كما أطلع النبي محمداً ﷺ على حال المنافقين وما في نفوس المشركين ﴿فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ النفاق ﴿فلكم أجر عظيم﴾.

القـــراءة

﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾
قرأ حمزة والكسائي: ﴿حتى يميِّز الخبيث﴾ بالتشديد وقرأ الباقون: ﴿حتى يميز الخبيث﴾ بالتخفيف.

صفة مانعي الزكاة عند الله

ثم إنّه تعالى لما بالغ في التحريض على بذل النفس حرّض على بذل المال في سبيل الله فقال:

١٨٠ ـ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم﴾ خيراً مفعول ثان ليحسبن والمعنى: لا يحسبنَّ الباخلون البخل هو خير لهم، والذي آتاهم الله المال والبخل بالزكاة والصدقات ﴿بل هو شر لهم﴾ هو إشارة إلى البخل وليس مذكوراً ولكنه مدلول عليه بـ ﴿يبخلون﴾.

﴿سيطوقون ما بخلوا به﴾ بزكاته ﴿يوم القيامة﴾ ومعنى التطويق أنه يلزم إثمه أعناقهم ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ قال ابن الأنباري: ميراث الرجل انفراده بما كان لا ينفرد به، فلما مات الخلق، وانفرد عز وجل صار ذلك وراثة ﴿والله بما تعلمون خبير﴾.

القـــراءة

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ الخ...
قرأ حمزة: ﴿ولا تحسبنّ الذين يبخلون﴾ بالتاء خطاب للنبي ﷺ
وقرأ الباقون: ﴿ولا يحسبنّ﴾ بالياء.
قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿والله بما يعملون خبير﴾ بالياء، إخبار عن الكفرة
وقرأ الباقون: ﴿بما تعملون خبير﴾ بالتاء.

غرور أهل الكتاب ونهاية كل حيّ

ثم ذكر سبحانه خصلة أخرى من خصالهم الذميمة فقال:

١٨١ ـ ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا﴾.

سبب نزولها أن أبا بكر الصديق قال لليهودي «فنحاص» اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله وكان قد نزل قوله تعالى «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له» فقال اليهودي يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنّه إلينا لفقير، ولو كان غنياً ما استقرض منا فنزلت الآية. ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ فإن قيل أن القائل لم يقتل نبياً قط، فالجواب: أنه رضي بفعل متقدميه لذلك، وأمن عليهم، وحرض هو وجماعته على قتل النبي محمد ﷺ، فكان بذلك قد استباح القتل ولو لم يقتل.

القــــراءة

﴿سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء﴾

قرأ حمزة: ﴿سيكتب ما قالوا﴾ بالياء وضمها، وقتلُهم الأنبياء بالرفع على ما لم يسمّ فاعله ﴿ويقول﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿سنكتب ما قالوا﴾ بالنون أخبر جلّ وعلا عن نفسه، ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ نصب أي ونكتب قتلهم الأنبياء، ﴿ونقول﴾ بالنون.

١٨٢ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

﴿ذلك﴾ العذاب ﴿بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ والذي قدمت أيديهم هو الكفر والخطايا.

ثم ذكر قولهم الآخر فقال:

١٨٣ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿الذين قالوا إنّ الله عهد إلينا﴾ في التوراة ﴿ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ القربان ما تقرب به إلى الله تعالى من ذبح وغيره، وإنما طلبوا القربان، لأنه كان من سنن الأنبياء المتقدمين وكان نزول النار علامة القبول ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم﴾ أي بالذي سألتم القربان ﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ والخطاب لمن في زمن نبينا محمد ﷺ، وإن كان الفعل لأجدادهم لرضاهم به وتأييدهم له.

ثم سلّى رسوله بقوله:

١٨٤ ـ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

﴿فإن كذّبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات﴾ المعجزات الواضحات ﴿والزبر﴾ جمع زبور وهو كل كتاب ذى حكمة كصحف إبراهيم وداود ﴿والكتاب المنير﴾ النيرة بالبراهين والحجج وهو التوراة والإنجيل.

القــــراءة

﴿جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾

قرأ ابن عامر: ﴿بالبينات وبالزبر﴾ بالباء وقرأ الباقون: ﴿والزبر﴾ بغير باء ثمّ بيّن سبحانه أن مراجع الخلق إليه فيجازي المكذبين رسله على أعمالهم من حيث حتم الموت على جميع خلقه فقال:

١٨٥ ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.

﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ بشارة للمحسنين، وتهديد للمسيئين، وذكر الموت تهديد للمكذبين بالمصير، وتزهيد في الدنيا، وتنبيه على اغتنام الأجل ﴿فمن زحزح﴾ نجى وأبعد ﴿عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ تباعد عن المكروه ولقي ما يحب. يقال لمن نجى من هلكة، ولمن لقي ما يغتبط به: قد فاز.

﴿وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾ أي العيش فيها يغر الإنسان بما يمنيه من طول البقاء، وسينقطع عن قريب. قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأما من يشتغل بطلب الآخرة، فهي له متاع بلاغ ما هو خير منها.

ثم بين تعالى أن الدنيا دار محنة وابتلاء، وأنها إنما زويت عن المؤمنين ليصبروا فيؤجروا فقال:

١٨٦ ـ ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

﴿لتبلون﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات والواو ضمير الجمع ومعناها لتختبرن ﴿في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركو أذى كثيراً﴾ من السب والطعن والهجاء والتشبيب بالنساء، والاستيلاء على الأموال في مكة والقتل والتعذيب، وقصص المسلمين بمكة كثيرة ﴿وإن تصبروا﴾ على الأذى ﴿وتتقوا﴾ بمجانبة معاصيه ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ أي ما يعزم عليه لظهور رشده، فالصابر الشاكر له ثواب عظيم، والضاجر المتبرم ليس له ثواب من الله بل هو القانط، والقنوط منهي عنه.

وجمهور المفسرين ضد القول بنسخ بعض من الآية الذي هو ﴿الصبر﴾ بآية السيف لأن ذلك تعطيل لأعمال الآية وما أشد الحاجة لأعمالها في زماننا اليوم، والمسلمون بمثل هذا الضعف وليس لهم إلا الصبر.

كتمان أهل الكتاب للنبوة

ثم ذكر سبحانه نقض الميثاق والعهود بعد ذكره التكذيب بالرسل فقال:

١٨٧ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾.

﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ عام في كل كتاب منزل ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ أي لم يعبأوا به ﴿واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ يعني استبدلوا بما أخذ الله عليهم القيام به ووعدهم عليه عوضاً يسيراً عن الدنيا ﴿فبئس ما يشترون﴾.

قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء، أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينوهوا بذكره في الناس، ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه فكتموا ذلك، وتنكروا لما عاهدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ السخيف، فبئست الصفة صفتهم، وبئست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً فقد روي في الحديث الصحيح عمن سئل عن علم فكتمه، ﴿ألجم يوم القيامة بلجام من نار﴾.

القـــراءة

﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ﴿ليبيننه للناس ولا يكتمونه﴾ بالياء فيهما، وقرأ الباقون: بالتاء بلفظ الخطاب.

١٨٨ ـ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿ثم بيّن سبحانه خصلة ذميمة أخرى من خصال اليهود فقال:

﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ نزلت في اليهود الذين أتوا، هو كتمانهم من الحق، ومنهم المنافقون الذين ﴿يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ كانوا إذا خرج الرسول للغزو وتخلفوا عنه فرحوا بمقعدهم خلافه، فإذا قدم اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴿بمفازة من العذاب﴾ أي بمنجاة من العذاب.

القـــراءة

﴿لا تحسبن الذين يفرحون﴾
قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿لا تحسبنّ الذين يفرحون﴾ بالتاء
وقرأ الباقون: ﴿لا يحسبنّ﴾ بالياء.

لما ذكر سبحانه في الآية المتقدمة من فرح بمعصية ارتكبها وأحبّ أن يحمد بما لم يفعله وأخبر أنه لا نجاة لهم من عذابه ختم الكلام بقوله:

١٨٩ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ومنه تعذيب الكافرين وإنجاء المؤمنين.

لما بيّن سبحانه بأن له ملك السماوات والأرض عقّبه ببيان الدلالات على ذلك فقال:

١٩٠ ـ ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

ثم بعد ذكر الدلائل الإلٰهية ذكر الوظائف العبودية وهي أن تكون باللسان وسائر الأركان وبالجنان فقال:

١٩١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً﴾ الذكر في الصلاة وأحوالها، قائماً أو قاعداً أو على جنب والذكر في غيرها.

﴿وعلى جنوبهم﴾ والمقصود أن الصلاة والذكر يؤدى بأي حال يقدر عليها المرء حسب الطاقة ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ ليستدلوا به على قدرة الله وصنعه ووجوده يقولون ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾ براءة لك من السوء وتنزيهاً لك أن تكون خلقتهما باطلاً ﴿فقنا عذاب النار﴾

ثم ذكر سبب الاستعاذة من النار بقوله:

١٩٢ ـ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ المخزي المذل المحقور بأمر قد لزمه يقال أخزيته ألزمته حجة أذلته ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ من مانع يمنعهم من عذاب الله.

ثم توسّل إلى ما سأل بالإيمان بمحمد ﷺ وذلك قوله:

١٩٣ ـ ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾.

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ المنادي هو النبي محمد ﷺ ﴿أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾ حطها عنا وإنما جمع بين تكفير السيئات وغفران الذنوب، لأن الغفران بمجرد الفضل، والتكفير بفعل الخير ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ الأنبياء والصالحين.

القــــراءة

﴿وتوفّنا مع الأبرار﴾

قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي: (الأبرار والأشرار وذات قرار) وما كان مثله بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وعاصم: بالفتح.

١٩٤ ـ ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على﴾ ألسنة ﴿رسلك﴾ من الرحمة والفضل ﴿ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾ الوعد بالجزاء، فإن قيل ما وجه المساءلة والله لا يخلف الميعاد فالجواب: أن هذه صفة المهاجرين رغبوا في تعجيل النصر على أعدائهم فكأنهم قالوا لا صبر لنا على حلمك عن الأعداء، فعجّل خزيهم، وظفّرنا بهم.

ثم عقَّب سبحانه دعوة المؤمنين بذكر الإجابة فقال:

١٩٥ ـ ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾.

﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ دعاءهم ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ والمعنى أجابهم بأن قال لهم: إني لا أضيع عمل عامل منكم، وإن حكم جميعكم في الثواب واحد كلكم لآدم وحواء ﴿فالذين هاجروا﴾ من مكة إلى المدينة ﴿وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفّرنّ عنهم سيئاتهم﴾ أسترها بالمغفرة ﴿ولأدخلنّهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾.

القــــراءة

﴿وقاتلو وقتلوا لأكفّرنّ عنهم﴾

قرأ حمزة والكسائي: ﴿وقتلوا وقاتلوا﴾ يبدآن بالمفعولين قبل الفاعلين

وقرأ الباقون: ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾

قرأ ابن عامر وابن كثير: ﴿قاتلوا وقتّلوا﴾ بالتشديد، مرة بعد مرة للتكثير والتكرير.

المؤمنون والكافرون وجزاؤهم

ثم إنّه تعالى لما وعد المؤمنين بالثواب وكانوا في الدنيا في غاية الفقر والشدة، والكفار كانوا في التنعم، أراد أن يسليهم ويصبرهم فقال:

١٩٦ ـ ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾.

﴿لا يغرنّك تقلّب الذين كفروا﴾ تصرّفهم ﴿في البلاد﴾ بالتجارة والكسب والشهوات وتقلّبهم فيها وتقلّبهم غير مأخوذين بذنوبهم لأنه متاع قليل.

١٩٧ ـ ﴿ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾.

﴿متاع قليل﴾ منفعة يسيرة مؤقتة في الدنيا ﴿ثم مأواهم جهنّم وبئس المهاد﴾ الفراش.

١٩٨ ـ ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾.

﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً﴾ النزل ما تهيأ للنزيل، والنزيل الضيف ﴿من عند الله وما عند الله﴾ من الثواب ﴿خير للأبرار﴾ من متاع الدنيا الفاني والزائل.

لما ذمّ تعالى أهل الكتاب فيما تقدّم وصف طائفة منهم بالإيمان وإظهار الحق والصدق فقال:

١٩٩ ـ ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

﴿وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشي وفي كل مؤمن من أهل الكتاب عامة ﴿وما أنزل إليكم﴾ أي القرآن ﴿وما أنزل إليهم﴾ يعني كتابهم التوراة والإنجيل ﴿خاشعين﴾ ذليلين لله متواضعين ﴿لله لا يشترون بآيات الله﴾ التي عندهم ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي عرضاً من الدنيا كما فعل رؤساء اليهود ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾.

لما حكى الله تعالى أقوال المؤمنين والكافرين فيما تقدّم ختم السورة بالحث على الصبر على الطاعة ولزوم الدين في الجهاد في سبيل الله فقال:

٢٠٠ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ نزلت في انتظار الصلاة بعد الصلاة، وليس يومئذ غزو يرابط ﴿وصابروا﴾ على الطاعات والمصائب وعن المعاصي وصابروا الكفار فلا يكونوا أشد صبراً منكم ﴿ورابطوا﴾ أقيموا على الجهاد ﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿لعلكم تفلحون﴾ تفوزون.

تمّ بعون الله تفسير سورة آل عمران

ويليها سورة النساء.

سورة النساء

سمّيت هذه السورة سورة النساء؛ لأنها افتتحت بذكر النساء، وبعض الأحكام المتعلّقة بهنّ.

١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

ومن وجوه الاتصال بينها وبين ما قبلها: أن سورة النساء افتتحت بمثل ما اختتمت به سورة آل عمران، من الأمر بالتقوى وهو ما يسمى تشابه الأطراف، وغير ذلك من ذكر الكثير من الأحكام في السورتين، وقوله ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب عام لجميع المكلفين، وإن كانت السورة مدنية فلا يلزم كذلك بأن الآيات والسور التي نزلت بمكة أن تختص بأهل مكة بل الخطاب فيها هو الغالب ومع ذلك يعم غيرهم ﴿اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ أي خلقكم من شخص واحد هو آدم ﴿وخلق منها زوجها﴾ أي خلق حواء من آدم وهذا ما تؤكّده كلمة النفس الواحدة وما تدل عليه كلمة ﴿من﴾ ﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ أي أن الناس مخلوقون من الزوجين الذكر والأنثى ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ والمعنى: اتقوا الله الذي يسأل به بعضكم بعضاً بأن يقول سألتك بالله أن تقضي هذه الحاجة يرجو به سؤاله، فمعنى سؤاله بالله سؤاله بإيمانه به وتعظيمه إياه، والباء فيه للسبب. واتقوا الأرحام كذلك أن تقطعوها والمعنى احفظوا الأرحام، وأدوا حقوقها.

وهنا نريد أن ندفع توهم كون التساؤل بالأرحام هو قسم بها، وهو خطأ، فقولك سألتك بالله أن تفعل كذا، فهذا سؤال وليس بقسم، وفي الحديث «من سألكم بالله فأعطوه»(١) والسُّؤال بالرحم غير الحلف بها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة التوسل والوسيلة: «وأما السؤال بالمخلوق إذا كانت فيه باء السبب فهي ليست باء القسم، وبينهما فرق فالسؤال بالمعظم كالسؤال بحق الأنبياء، أو أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم أو بجاه فلان، أو بحرمة فلان، يقتضي أنّ هؤلاء لهم عند الله جاه وهذا من قبيل التوسل إليه سبحانه بشفاعة المأذون لهم في الشفاعة وهو جائز. وغير الجائز هو القسم بالمخلوقات بالباء(٢).

﴿إنّ الله كان عليكم رقيباً﴾ أي مشرفاً على أعمالكم، والرقيب هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي.
(٢) راجع كتابه التوسل والوسيلة.

القـــراءة

﴿واتقوا الله الذي تسّاءلون به والأرحام﴾. قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿تساءلون به﴾ بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد ﴿تسّاءلون﴾.

قرأ حمزة: ﴿والأرحامِ﴾ خفضاً، وقرأ الباقون: ﴿والأرحامَ﴾ نصباً.

اليتـامـــى

لما أمر الله سبحانه بالتقوى وصلة الأرحام عقّبه بباب آخر من التقوى وهو توفير حقوق اليتامى فقال:

٢ ـ ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾.

والمعنى: أعطوا اليتامى جمع يتيم، وهو من فقد أباه قبل بلوغه السن التي يستغني فيها عن كفالته، أي أعطوهم أموالهم إذا بلغوا سن الرشد، ولا تأخذوا الخبيث وهو المال الحرام، فتجعلوه بدلاً من الطيب الحلال مما تستلذه الحواس والأنفس، بعكس الخبيث الذي تكرهه النفس وخاصة إذا كان محسوساً أو معقولاً، من خبث الحديد وهو صدأه، وكان بعضهم يأخذ الجيد من مال اليتيم، ويدفع إليه الرديّ و﴿الحوب﴾ الإثم وفيه ثلاث لغات: حُوْب وحَوْبُ، وحَابُ.

٣ ـ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾.

إنّ الله سبحانه وتعالى لما أنزل من الآيات الزواجر التي تحذر من التفريط بحقوق اليتامى، تحرج الناس من معاملتهم، وحرصوا على صيانة أموالهم، وعدم مخالطتهم، وهذه الآية تواصل التحذير والحرص على أموالهم، وتبين أنّه إذا رغب أحد من أولياء اليتامى وأوصيائهم أو غيرهم التزوج منهن، وخشي عدم العدل في صداقها ونفقتها ومخالطتها وتحرج من ذلك، فقد أباح الله له، ورخّص له أن يتزوج غيرهن من النساء، فله واحدة، واثنتان وثلاث وأربع مما طاب له أي حل له ﴿فإن خفتم﴾ أي علمتم عدم قدرتكم على العدل بين الزوجات أيضاً كخوفكم عدم العدل والقسط في معاملة اليتامى، فعليكم الاقتصار على زوجة واحدة، فإن ذلك أقرب وأفضل من أن تميلوا عن العدل.

قال الزجاج «مثنى وثلث ورباع» هو بدل من ﴿ما طاب لكم﴾ ومعناه: اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، وإنما خاطب الله العرب بأفصح اللغات، وليس من شأن البليغ أن يعبر في العدد عن التسعة باثنتين، وثلاث وأربع، لأن التسعة قد وضعت لهذا العدد، فيكون عيباً في الكلام.

وقال ابن الأنباري: هذه الواو معناها التفرق، وليست جامعة فالمعنى: فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى، وانكحوا ثلاث في غير الحال الأولى، وانكحوا رباع في غير الحالين.

وقال القاضي أبو يعلى: الواو ها هنا لإباحة أي الأعداد شاء، لا للجمع.

قال الزمخشري: كما تقول للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم: درهمين، درهمين، وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة، ولو أفردت لم يكن له معنى. أي لو قلت للجميع اقتسموا المال الكثير درهمين لم يصح الكلام، فإذا قلت درهمين درهمين كان المعنى أن كل واحد يأخذ درهمين فقط لا أربعة دراهم.

قال فإن قلت لم جاء العطف بالواو دون «أو» قلت كما جاء بالواو في المثال الذي حذوته لك، ولو ذهبت تقول اقتسموا هذا المال درهمين أو ثلاثة أو أربعة علمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلاّ على أحد أنواع هذه القسمة، وليس لهم أن يجمعوا بينها.

هذا ما جاء في اللغة وما فهمه العرب منها، ولا يصح الاستدلال على ما قيل بموت النبي ﷺ عن تسع نسوة، وعقده على أكثر من ذلك للإجماع المتواتر عن النبي أن ذلك خصوصية له ﷺ، كما مضت السنة العملية والقولية على عدم الزيادة على الأربع، بل صدر الأمر من الرسول ﷺ لبعض الصحابة الذين أسلموا وتحتهم أكثر من أربع بمفارقة الزيادة، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أي شخص مسلم تزوج أكثر من ذلك.

لقد أجمع المسلمون سلفهم وخلفهم على أن الإسلام حرّم الزنا الذي كان مباحاً في الجاهلية، فحرمت بذلك جميع الفروج على الذكور إلا ما استثنى، ورخص به الشرع بالنص، على أن يكون ذلك بالعقد، وهذا واضح في أول سورة المؤمنون ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ ﴿إلا على أزواجهم﴾.

وقول الرسول ﷺ: «إن أحق الشروط أن توفوا به: ما استحللتم به الفروج»(١) ومن ذلك يتضح أن الأصل في الفروج الحظر، وأن الزواج والنكاح بالعقود إباحة بعد الحظر، فهي مقيدة بالنص، ولم تكن الإباحة مطلقة وإلا لما كان لذكر العدد مثنى وثلاث ورباع أي فائدة، وكان ذكره عبثاً وهو محال على الله سبحانه وتعالى. ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا﴾ في الزوجات، أي بالمعاشرة والنفقة وغيرها فاقتصروا على واحدة منهن ﴿ذلك أدنى﴾ أي أقرب ﴿ألا تعولوا﴾ أي تجوروا فتظلموا.

في هذه الآية أمرهم بإيتاء الصدقات وأباح لهم جواز قبول إبرائها وهبتها بقوله:

٤ ـ ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾.

المعنى: الخطاب للأزواج وأولياء الزوجات بأن هذه المهور التي سماها الله ﴿صدقاتهن﴾ ﴿هي نحلة﴾ أي فرض بمعنى أنها ملك للزوجات إن أعطوها لهن، فإن طابت أنفسهن لكم بشيء منه وسمحن فكلوه عن طيب خاطر ﴿هنيئاً مريئاً﴾ مأمون العاقبة من الإثم والعداوة، و﴿نفساً﴾ منصوب على التمييز.

السفهـــاء

لما أمر تعالى فيما تقدم بدفع مال الأيتام إليهم عقّبه بذكر من لا يجوز الدفع إليه منهم فقال:

(١) متفق عليه.

٥ ـ ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾.

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ السفهاء جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف في المال من النساء والرجال، وخصوصاً من تخلف من كبار السن وكل مسلوب الإرادة وحسن الإدارة، من الذين يحجر عليهم القاضي، ويعين لهم أوصياء يقومون بشؤونهم حتى يكونوا أهلاً للتصرفات، والتعبير بأموالكم عام في كل مال، سواء أكان هو مال السفيه المحجور عليه أم ملك لغيره، فالله ينهى أن يمكن السفيه من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً ﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾ أي تقوم بها معايش المجتمع من التجارات وغيرها ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ أي رداً جميلاً وادعوا لهم، والفائدة من ذكر هذه الآية بين أحكام اليتامى للتحذير من دفع الأموال لمن لا يحسن إدارتها والمحافظة عليها سواء من الأوصياء أو اليتامى البالغين فهي في محلها غير معترضة.

القـــراءة

﴿قياماً﴾ قرأ نافع وابن عامر بغير ألف ﴿قيماً﴾ وقرأ الباقون: بألف.

لما أمر الله بإيتاء الأيتام أموالهم ومنع من دفع الأموال إلى السفهاء بيّن هنا الحد الفاصل بين ما يحلّ من ذلك للوليّ وما لا يحلّ فقال:

٦ ـ ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

﴿وابتلوا اليتامى﴾ أي اختبروهم قبل الرشد في تصرّفهم، لتحذروا السفهاء منهم ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ وبلوغ النكاح في الشرع يأتي بعد البلوغ الفاصل بين الصغر والتكليف، ويحصل البلوغ بأحد خمسة أشياء: الاحتلام، واستكمال خمسة عشر سنة، وظهور الشعر الذي هو الإنبات، الحيض والحمل للنساء ﴿وإن آنستم منهم رشداً﴾ أي علمتم وأبصرتم صلاحاً في دينهم وما لهم وحالهم، والشرع في هذه الحالة ترك الأمر لوليّ اليتيم بعد الاختبار يكون له الخيار في دفع أمواله، لأن الناس يختلفون في قدراتهم، فمن نضج وفهم مصلحته كان أولى من غيره وأحرى، أن يحفظ أمواله بنفسه دون التقيّد بسن معيّنة ﴿فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً﴾ أي فإن آنستم منهم رشداً فأعطوهم أموالهم ولا تأكلوها قبل أن يبلغوا سن الرشد ﴿أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف﴾ أي من كان غنياً من الأولياء فليستعفف عن مال اليتيم ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ أي بقدر أجرته وتعبه ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ «حسيباً» أي الكافي.

آية في الميراث عامة

ثم من هنا شرع في بيان المواريث والفرائض فقال:

٧ ـ ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.

﴿للرجال نصيب﴾ عام لم يبيّن فيه مقدار النصيب وهو يعم الصغار والكبار ﴿مفروضاً﴾ مقطوعاً؛ لأنّ الفرض معناه القطع.

وجوب الصدقة لمن حضر قسمة الميراث

لما بيّن سبحانه فيما تقدّم أن الميراث كما يكون للرجال يكون للنساء من كثير التركة وقليلها غير أنه لم يوضح المنصب ولم يعين بين هنا حال من لا يرث. فقال:

٨ ـ ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾.

﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى﴾ الذين لا يرثون ﴿واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾ قبل القسمة ليس في مفهوم الآية ما يدل على الوجوب بل الرزق يدل على التصدق والإحسان، ليبارك الله في التركة ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ والخطاب للوارثين فيقولون للفقير خذ بارك الله فيك قال الحسن والنخعي أدركنا الناس يفعلون هذا ولكن تهاون الناس بالعمل بها.

لما أمر الله تعالى بالقول المعروف ونهاهم عن خلافه أمر بالأقوال السديدة والأفعال الحميدة ولقول الله العزيز فقال:

٩ ـ ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾.

﴿وليخش﴾ وليخف على اليتامى ﴿الذين لو تركوا﴾ أي قاربوا أن يتركوا ﴿من خلفهم ذرية ضعافاً﴾ وهم الأولاد الصغار ﴿خافوا عليهم﴾ الضياع ﴿فليتقوا الله﴾ في أمر اليتامى ﴿وليقولوا﴾ لمن حضرته الوفاة ﴿قولاً سديداً﴾ صواباً بأن يأمره بالتصدق والوصية لمن لا يرث من أقاربه ويترك الباقي لورثته، ولا يتركهم عالة.

القـــراءة

قرأ حمزة ﴿ضعافاً﴾ بإمالة العين. وكذلك قرأ حمزة: ﴿خافوا عليهم﴾ بإمالة الخاء.

ثم أكّد الوعيد في باب إهمال مال اليتيم فقال:

١٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾.

﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾.

القــــراءة

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿وسيصلون﴾ بفتح الياء، وقرأ الحسن وابن عامر وأبو بكر بضم الياء. والمعنى: يأكلون ما يصيرون به إلى النار، التي سيحرقون بها ويشوون، والسعير النار المستعرة.

تفصيل في الميراث وبيان نصيب كل وارث

١١ - ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾.

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي للذكر ضعف الأنثى إذا اجتمعت الأنثيان معه وذلك بالتعصيب بينهم ﴿فإن كن﴾ أي البنات ﴿نساءً﴾ فقط ﴿فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ وكذا الاثنتان لأنهما كالأختين حيث ثبت فرضهما بقوله في آخر السورة: ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ ﴿وإن كانت﴾ البنت ﴿واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد﴾ ذكر أو أنثى وولد الابن كالولد وكذا الجد كالأب عند فقده إلا في موضعين الأول الأب يحجب الإخوة والجد يرثون معه بالتساوي للذكر مثل حظ الأنثيين والثاني في فريضتي الغراوين وهما أبوان وزوج وأبوان وزوجة فأم الأم مع الأب تأخذ السدس عند فقد الأم أو تقتسمه مع جدة أخرى وارثة. ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه﴾ فقط ﴿فلأمه الثلث﴾ فإن كان مع الأبوين زوج أو زوجة كما في مسألتي الغراوين الماضيتين فلأمه ثلث الباقي تأدباً مع النص القرآني وإن كان مع إحداهما تأخذ السدس. ﴿فإن كان له إخوة﴾ اثنان فصاعداً ذكوراً أو إناثاً أشقاء أو لأب أو لأم أو مختلفين ﴿فلأمه السدس﴾ والباقي للأب ولا شيء للإخوة لأن الأب يحجبهم ﴿من بعد﴾ تنفيذ ما وصى به الميت من ﴿وصية يوصى بها أو﴾ قضاء ما كان عليه من ﴿دين﴾ فالدَّين مقدم على الوصية في المعنى وإن تأخر في اللفظ وهما مقدمان على حقِ الورثة لأن أوْ لا توجب الترتيب، يقول علماء الميراث في ترتيب هذه الحقوق: إن امرؤ قد انقضت سنونه كفِّن ثم أديت ديونه وبعد ذا تنفذ الوصية: ويضم الميراث في البقية ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ في الدنيا والآخرة ﴿إن الله كان عليماً﴾ بمصالح خلقه ﴿حكيماً﴾ فيما يفرض من أحكام.

والمعنى: لا تدرون هل موت الآباء أقرب، فينتفع الأبناء بأموالهم، أو موت الأبناء فينتفع الآباء بأموالهم فريضة من عند الله إن الله كان عليماً بما يصلح خلقه، حكيماً فيما يفرض من أحكام.

القـــراءة

﴿وإنْ كانت واحدة﴾ قرأ نافع بالرفع على معنى وإن وقعت أو وجدت واحدة. وقرأ الباقون بالنصب. وفي ﴿فلأمه﴾ قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو، وابن عامر بالرفع للهمزة ومثله (في بطون أمهاتكم وفي أمها وفي أم الكتاب). وقرأ حمزة والكسائي كل ذلك بالكسر، وفي ﴿من بعد وصية﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم ﴿يوصى بها﴾ بفتح الصاد في الحرفين.

وقرأ نافع وأبو عمرو، وحمزة والكسائي ﴿يوصي﴾ فيهما بالكسر، وقرأ حفص عن عاصم بالكسر في الأولى والفتح في الثانية.

ميـراث الـزوج

ثم ذكر أن هذه الأنصبة إنما تدفع إلى هؤلاء.

١٢ ـ ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد﴾ منكم أو من غيركم ويسمى في علم المواريث فرع وارث، ﴿فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ ويعتبر العلماء كلمة الولد شاملة للذكر والأنثى، ﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ وكلمة الولد تتعدى إلى ولد الابن فهو كالولد.

من يورث كلالة والإخوة لأم

﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ أي لا ولد له ولا والد ﴿أو امرأة﴾ تورث كلالة ﴿وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس﴾ مما ترك وهو فرض ميراث الإخوة لأم ﴿فإن كانوا﴾ أي الإخوة والأخوات لأم ﴿أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ يستوي فيه الذكر والأنثى ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾ للورثة بأن يوصي بأكثر من الثلث ﴿وصية من الله والله عليم حليم﴾.

١٣ ـ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

﴿تلك﴾ الأحكام المذكورة في اليتامى والميراث ﴿حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾.

القـــراءة

قرأ نافع وابن عامر: ﴿ندخله﴾ بالنون في الحرفين جميعاً، وقرأ الباقون: بالياء فيهما.

١٤ ـ ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾.

الفاحشة وجزاؤها

لما بيّن سبحانه حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث بيّن حكم الحدود فيهنّ إذا ارتكبن الحرام فقال:

١٥ ـ ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾.

﴿واللاتي يأتين الفاحشة﴾ اللاتي جمع التي، والفاحشة الزنا ﴿من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة﴾ خطاب للحكام والمعنى: اسمعوا شهادة أربعة منكم قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «إنما جعل الله عزّ وجلّ أربعة ستراً ستركم به دون فواحشكم». ﴿منكم﴾ أي من رجالكم ﴿فإن شهدوا﴾ عليهنّ جميعاً ﴿فأمسكوهنّ﴾ احبسوهنّ ﴿في البيوت﴾ وامنعوهن من مخالطة الناس ﴿حتى يتوفّاهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلاً﴾.

دعوى النسخ: قيل نسخ هذه الآية والآية التي بعدها آية النور ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ والجواب: أولاً: أن قوله تعالى: ﴿فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفّاهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلاً﴾ ممدود إلى غاية أن يجعل الله لهنّ سبيلاً وأنّ ذلك السبيل كان مجملاً. ولا نسخ بين المجمل والمفصل. ثانياً: أنّ الآيتين في النساء لا تعارضهما آية النور[1]، لأنّ الإمساك في البيوت هو ذلك الحبس الاحتياطي، وقد يكون في السجون، إلى أن يتوفاهنّ الموت إذا لم تكن هناك شبهة وكملت الشهادة بعد الحكم، ﴿أو يجعل الله لهنّ سبيلاً﴾ يعني مخلصاً ومخرجاً من الحد بظهور شبهة أو تبرئة في الحكم كما في

---

(١) قول الله تعالى ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾.

الحديث ﴿ادرءوا الحدود بالشبهات﴾[1] وعلى العموم فإنَّ آيتي النساء تعتبران من المجمل الذي فصّله الله في سورة النور فلا تعارض.

وأما القول بالنسخ في حديث[2] عبادة بن الصامت رضي الله وغيره فهذه أحاديث آحاد لا تنسخ القرآن المتواتر لأنّها في غير مرتبته.

١٦ ـ ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿واللذان يأتيانها﴾ أي الفاحشة الزنا أو اللواط ﴿منكم﴾ الرجال ﴿فآذوهما﴾ بالسبِّ والضرب ﴿فإن تابا﴾ منها ﴿وأصلحا فأعرضوا عنهما إنّ الله كان توّاباً رحيماً﴾. والمعنى: يرى المفسّرون أنّ هذه الآية في البكر غير المحصن، وأن عقابهما الإيذاء قد يكون بالكلام وقد يكون بالضرب بالنعال أو بأيّ وسيلة تحقق الضرب حسب حال المضروب من كبر وصغر، وفي ذلك ردّ على من يدّعي التعارض بالجلد. إذ لا تعارض بين الجلد والأذى، فكلّه أذى فالصغير لا بد له من أذى يتناسب مع سنه وحاله، ويدخل في ذلك السمين، ولا يخرج الأمر من أن تكون آية النور مبينة ومفصلة لآية النساء.

القـــراءة

﴿واللذان﴾ قرأ ابن كثير بتشديد النون وهذان في طه، والحج، وهاتين في القصص، وقرأ نافع وعاصم، وابن عامر وحمزة والكسائي بتخفيف ذلك، وشدّد أبو عمرو ﴿فذانك﴾ وحدها.

متى يقبل الله التوبة

لما وصف الله نفسه بالتواب الرحيم بيّن عقبيه شرائط التوبة فقال:

١٧ ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

﴿إنّما التوبة على الله للذين يعملون السوء﴾ المعاصي ﴿بجهالة﴾ كل أمر عصي الله به فهو جهالة، عمداً أو غيره، وإنما هو جهالة لمعاصيهم، لا أنهم غير مميزين ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ التوبة قبل الموت ﴿فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً﴾.

١٨ ـ ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) عن النبي (ص) أنّه قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهنّ سبيلاً. والثيب بالثيب جلد مائة، ورجم بالحجارة والبكر جلد مائة، ونفي سنة» رواه أحمد ومسلم.

إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ أخذ في النزع ﴿قال إني تبت الآن﴾ فلا ينفعه ذلك ﴿ولا الذين يموتون وهم كفّار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾. لما نهى الله فيما تقدّم عن عادات أهل الجاهلية في أمر اليتامى والأموال عقبه بالنهي عن الاستنان بسنتهم في النساء فقال:

١٩ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ بأن تتزوجوهن بكره منهن، وكانوا في الجاهلية يرثون نساء أقربائهم، فإن شاؤوا تزوجوهن بلا صداق، أو زوجوهن للغير وأخذوا صداقهن أو عضلوهن حتى يفتدين بما ورثنه أو يتركوهن حتى يمتن فيرثوهن ﴿ولا تعضلوهن﴾ خطاب للأزواج أو الورثة في العضل كان الرجل يكره صحبة امرأته، وهو لصحبتها كاره ولفراقها محب ولها عليه مهر، فيحبسها، ويضربها لتفتدي، ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ الزنا فإنه يحق لزوجها أخذ ما ساق لها من صداق وأخراجها. وأما الحد فهو حق الله لا يتعارض مع حق الزوج في الافتداء ولا يبطل أحدهما الآخر ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ قال ابن عباس: ربما رزق الله منهما ولداً، فجعل الله في ولدهما خيراً كثيراً، وقد ندبت الآية إلى إمساك المرأة مع الكره لها، ونبهت على معنيين أحدهما: أن الإنسان لا يعلم وجوه الصلاح فرب مكروه عاد محموداً، ومحمود عاد مذموماً. والآخر: أن الإنسان لا يكاد يجد محبوباً ليس فيه ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يحب.

القــــراءة

﴿لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿أن ترثوا النساء كرهاً﴾ بالضم، وقرأ الباقون بالنصب.

قرأ ابن كثير وأبو بكر: ﴿بفاحشة مبينة﴾ بفتح الياء، وقرأ الباقون: بكسر الياء.

النهي عن أخذ الصداق من المطلقة

لما حث الله على حسن مصاحبة النساء عند الإمساك عقّبه ببيان حال الاستبدال فقال مخاطباً للأزواج:

٢٠ ـ ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ خطاب للرجال والزوج المرأة وذلك بالطلاق ﴿وآتيتم إحداهن

قنطاراً﴾ مالاً كثيراً صداقاً ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً﴾ ظلماً ﴿وإثماً مبيناً﴾ وذلك في حق من وطئها، أو خلا بها، وإنما خص النهي عن أخذ شيء مما أعطى بحال الاستبدال، وإن كان المنع عاماً لئلا يظن ظان أن الثانية أولى بالمهر منها، لقيامها مقامها.

٢١ ـ ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾.

﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ بالجماع ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ شديداً الذي أخذه الله للنساء على الرجال، الإمساك بمعروف، أو التسريح بإحسان.

المحرمات من النساء

لما تقدم ذكر شرائط النكاح عقّبه تعالى بذكر من تحل له من النساء ومن لا تحل فقال:

٢٢ ـ ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ قال ابن عباس كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين فنزلت هذه الآية، وما سلف: ما سبق فإن الله يغفره في الجاهلية وأما في الإسلام فهو محرم ﴿إنه كان فاحشة﴾ أي ما يقبح ويفحش ﴿ومقتاً﴾ المقت أشد البغض يوجب مقت الله لفاعله ﴿وساء سبيلاً﴾ أي قبح هذا الفعل طريقاً.

٢٣ ـ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

المحرمات من الرضاعة

﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ ويلحق بهن البنات منهن، وكذا العمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت لحديث «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» متفق عليه، والرضاع المحرم هو: إذا ارتضع الرضيع من المرأة خمس رضعات في الحولين قبل الفطام ولو خمس مصات صارت المرأة أمه، وصار زوجها الذي جاء اللبن من طرفه أباه، فيكون جميع أولاد المرأة من هذا الرجل وغيره وجميع

أولاد الرجل وغيره وجميع أولاد الرجل منها ومن غيرها أخوة له، سواء ولدوا قبل الرضاع أو بعده باتفاق الأئمة، وكذلك أولادهم وأولاد أولادهم يكونون أولاد إخوته، فلا يجوز للمرتضع أن يتزوج أحداً من أولادهما ولا أولاد أولادهما كالنسب، وإخوة المرأة وأخواتها أخواله وخالاته من الرضاع.

وأولاد المرتضع يكونون أحفاداً للتي أرضعته وزوجها، ويحرم على أولاده ما يحرم على الأولاد من النسب، وأما إخوة المرتضع من النسب أبوه وأمه فهم أجانب لا صلة ولا علاقة لهم بالتي أرضعته ولا بزوجها وأولادها، فلا حرمة، فإنه يجوز أن يتزوج أخوه من الرضاعة بأخته من النسب، وكل امرأة تحرم على الرجل ابنتها من النسب أو المصاهرة إذا أرضعت طفلة حرمتها عليه، وكل رجل تحرم عليه بنته، إذا أرضعت امرأته بلبنه طفلة حرمتها عليه.

﴿وأمهات نسائكم وربائبكم﴾ جمع ربيبة، وهي بنت الزوجة من غيره ﴿اللاتي في حجوركم﴾ هذا على الأغلب أن تكون الربيبة تربى في حجر الرجل ﴿من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ أي جامعتموهن، ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ في نكاح بناتهن إذا فارقتموهن ﴿وحلائل﴾ زوجات ﴿أبنائكم الذين من أصلابكم﴾.

الجمع بين الأختين

﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما﴾ فكل ذلك محرم عليكم.

ثم عطف سبحانه على ما تقدّم ذكرهن من المحرمات فقال:

٢٤ - ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

في هاتين الآيتين بيان بقية ما يحرم من نكاح النساء، وحل ما عداه وحكم نكاح الإماء والمحصنات من النساء عطف على ما قبله من المحرمات أي وحرمت عليكم المحصنات من النساء أن تنكحوهن، ويقال أحصنت المرأة إذا تزوجت لأنها تكون في حصن الرجل وحمايته فلا يجوز التزوج بها.

ولما كان بعض العرب يطلق لفظ المحصنة بفتح الصاد وكسرها على المرأة من الحرائر والعفيفات غير المتزوجات، وربما أوهم بعض المسلمين بأن المراد به المسلمات المتزوجات جاء ﴿من النساء﴾ فدخل في تحريم العقد كل امرأة محصنة حتى ولو كانت كافرة، ورفع كل توهم أو تفسير آخر. ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ استثناء من المحصنات، أي إلا ما سبيتم منهن في حرب دينية، وهنا نود أن نقرر حقيقة بأن الإسلام لم يأمر ولم يفرض على المسلمين السبي، وكل ما جاء في القرآن والسنة لمعالجة واقع موجود ولمصلحة السبايا أنفسهن،

ولم يحرم السبايا من دار الحرب وتركه للمصلحة العامة، ورأي الإمام يقرر فيه ما يشاء: لأنه في بعض الأوقات قد يكون فيه المصلحة للسبايا في الأحوال التي تستأصل الحرب فيها معظم الرجال. وإذا علمنا أن الإسلام في هذا الباب قد ضيق المدخل ووسع المخرج، تأكد لنا أن العمل بالمصلحة العامة هي الأصل في هذا الباب. ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي كتب الله عليكم تحريم هذه الأنواع من النساء، وفرضه فرضاً ثابتاً. ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ هذا لفظ عام يتناول كل ما يسمح له السياق والمقام أن يتناوله ويخرج منه كل ما ورد النص بتحريمه في الآيات السابقة أو بآيات وأحاديث أخرى.

فإذا قال صاحب مصنع لعماله نظفوا السيارات الجديدة وأتلفوا ما عداها، فإنهم بالطبع يفهمون أن السيارات القديمة الصالحة للاستعمال غير داخلة في العموم. ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ أي أحل لكم ما وراء ذلكم لأجل تحصين أنفسكم والبعد بها عن السفاح وهو الاستمتاع المحرم. ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾ تتكلم الآية هنا عن حكم جديد متصل بما سبق الكلام عليه، وهذا الموضوع هو الصداق فكل من تم الاستمتاع بها من النساء والمذكورات، فيجب لها كامل المهر فريضة من الله، والمراد بالاستمتاع هو الوطء، والدخول والأجور هي المهور، والكلام هنا لبيان المهر الواجب بالدخول، والقول بأن الآية تشير إلى جواز نكاح المتعة وهو ما يسمى بالزواج المؤقت ـ غلط في التفسير، إذ أن الآية مترابطة في سياق واحد ويدل ذلك على نهاية الآية، ونكاح المتعة الذي أبيح في عهد النبي ﷺ في فترة معينة ولظرف معين، قد ثبت تحريمه، قد وقع في مكة المكرمة عام الفتح، وسورة النساء مدنية لا تصلح أن يكون ذلك سبباً لنزول آياتها.

وأما ما قيل عن بعض الصحابة يوجد في مصحفه كلمة ﴿إلى أجل مسمى﴾ فنقول أن ذلك ليس بقرآن ولا سنة ولو صح ذلك أنه كان قرآناً يتلى لذكر بين دفتي المصحف، وعدم ذكره دليل على عدم الأخذ به من قبل الصحابة، وإنه لم ينقل عن النبي ﷺ، كما نقل المصحف بالتواتر. وفي مقدمة الصحابة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يحرم نكاح المتعة ولم يعترض على عمر حين شدد في النهي عنها.

وكلمة الاستمتاع وردت كثيراً في القرآن، بشأن النساء في الزواج والطلاق فلا يجوز حصرها في الزواج المؤقت دون الدائم، ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ أي لا حرج ولا تضييق عليكم منه تعالى، إذا تراضيتم على الزيادة فيها أو النقص منها، أو حطها كلها فإن الغرض من الزوجية أن تكونوا في عيشة راضية ومودة ورحمة ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فيضع لعباده من الشرائع بحكمته ما يعلم أن فيه صلاح حالهم.

القــــراءة

﴿والمحصنات من النساء﴾ قرأ الكسائي: بكسر الصاد في جميع القرآن، وقرأ الباقون: ﴿المحصنات﴾ بفتح الصاد.

قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿وأُحِلَّ لكم﴾ بضم الألف وكسر الحاء على ما لم يسمّ فاعله. وقرأ الباقون ﴿وأَحَلَّ﴾ بالفتح.

الـزواج بالإمـاء

ثم بيّن تعالى نكاح الإماء فقال:

٢٥ - ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ الطول الغنى والسعة ﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ الحرائر غير المتزوجات وهو في مقابلة الإماء ﴿فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم﴾ والمعنى: من لم يقدر على الزواج بالحرة، فإنه يجوز له أن يتزوج بعقد الأمة المسلمة ﴿بعضكم من بعض﴾ كلكم بنو آدم فلا تستنكفوا من نكاحهن ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ مواليهن ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ كمهور أمثالهن بالمتعارف عليه عند الناس ﴿محصنات﴾ عفائف ﴿غير مسافحات﴾ غير زوان ﴿ولا متخذات أخدان﴾ أخلاء يزنون بهن سراً، والمسافحات: معلنات الزنى، والمتخذات أخدان: ذات الخليل الواحد، وهو فعل الجاهلية ﴿فإذا أحصن﴾ تزوجن ﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ وذلك بسبب تعرضهن لمختلف الرجال وضعفهن على مقاومة التحرش بهن ﴿ذلك﴾ الإشارة إلى إباحة تزويج الإماء ﴿لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾ العنت المشقة التي تجلب الضرر، قال ابن جرير الطبري في تفسير العنت «ذلك لمن خاف منكم ضرراً في دينه وبدنه، ويدخل فيه خوف الزنا إذ نتيجته الضرر».

القـــراءة

﴿فإذا أحصن﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿فإذا أَحصَن﴾ بفتح الألف والصاد، وقرأ الباقون ﴿فإذا أُحصِن﴾ بضم الألف وكسر الصاد.

ثم بيّن تعالى بعد التحليل والتحريم أنّه يريد بذلك مصالحنا ومنافعنا فقال:

٢٦ - ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿يريد الله ليبين لكم﴾ اللام بمعنى أن ومثله، ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾(١) والبيان من الله تعالى بالنص تارة، وبدلالة النص أخرى ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ السنن الطرق والمعنى: يدلكم على طاعته كما دل الأنبياء وتابعيهم من أهل الحق، وهذه هداية البيان من الله لعباده ﴿ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾ فيما دبّره لكم.

٢٧ ـ ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾.

﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ كرره للبناء عليه ومعناه يريد أن يدلكم لما يكون سبباً لتوبتكم ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ أهل الباطل لأنه عام فيدخل فيهم الزناة والكفار وأهل الكتاب ﴿أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ تعدلوا عن الحق بارتكاب ما حرم عليكم فتكونوا مثلهم.

٢٨ ـ ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾.

﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ يسهل عليكم الأحكام، والتخفيف تسهيل التكليف أو إزالة بعضه. والمعنى: قال ابن جرير الطبري يريد أن ييسر لكم بإذنه في نكاح الفتيات المؤمنات لمن لم يستطع طولاً لحرة ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ والمراد بضعف الإنسان، ضعف العزم عنده عن قهر الهوى وهو قول الزجاج وابن كيسان على ما ذكره ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير.

النهي عن أكل الأموال بالباطل

لما بيّن سبحانه تحريم النكاح على غير الوجوه المشروعة عقبه بتحريم الأموال في الوجوه الباطلة فقال:

٢٩ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ الباطل ما لا يحل بالشرع ﴿إلاَّ أنْ تكون تجارة عن تراض منكم﴾ ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً﴾ ظاهر النهي عن القتل بعضكم بعضاً ولكن دلالته، ألّا يعرض الإنسان نفسه للهلاك بألا يكلّفها عملاً ربما أدّى إلى قتلها، وإن كان فرضاً ومثله قوله تعالى: في البقرة ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ وله شاهد حديث عمرو بن العاص في عدم الاغتسال للصلاة وتيمم من شدة البرد، وأقره عليه الرسول ﷺ.

القـــراءة

﴿إلاّ أن تكون تجارة﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿إلا أن تكون تجارة﴾ نصباً وقرأ الباقون: ﴿تجارةٌ﴾ بالرفع.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٥.

٣٠ ـ ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي ما نهى عنه ﴿عدواناً وظلماً﴾ من أكل الحرام وقتل النفس وتعريضها للهلاك ﴿فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً﴾

جزاء ترك المعاصي (الكبيرة)

لما قدّم ذكر السيئات عقّبه بالترغيب في اجتنابها فقال:

٣١ ـ ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾.

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ الكبيرة هي الذنب الكبير الذي ورد فيه حد في الدنيا كالقتل والزنى والسرقة، أو جاء فيه وعيد في الآخرة من عذاب أو غضب، أو تهديد أو لعن فاعله ﴿نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾.

القـــراءة

﴿وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ قرأ نافع: ﴿مَدْخلاً﴾ بنصب الميم، وقرأ الباقون: ﴿مدخلاً﴾ بضم الميم.

النهي عن التمني والحث على العمل الجاد

لما بين سبحانه حكم الميراث وفضل بعضهم على بعض في ذلك ذكر تحريم التمني الذي هو سبب التباغض فقال:

٣٢ ـ ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾.

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ سبب نزولها أن النساء تمنوا أن لو كن مثل الرجال في الغزو، فينلن مثلهم من الغنيمة والأجر، وفي معنى التمني في الآية تمني النساء أن يكن رجالاً، وللتمني عدة معان أحدها: أن يتمنى مثل ما لغيره ولا يحب زواله عن الغير فهذا هو الغبطة، قال ابن كثير عن ابن عباس: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لي مال فلان وأهله، فنهى الله عن ذلك ولكن ليسأل الله من فضله ﴿للرجال نصيب﴾ ثواب ﴿مما اكتسبوا﴾ بسبب ما عملوا من الجهاد وغيره ﴿وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ من الفضل ومن الطاعة ﴿واسألوا الله من فضله﴾ الفضل الطاعة أو الرزق فيكون المعنى اسألوا الله ما تتمنونه من النعم ولا تتمنوا مال غيركم ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾.

القـــــراءة

﴿وسئلوا الله من فضله﴾ قرأ ابن كثير والكسائي: ﴿وسلوا الله من فضله﴾ بفتح السين وترك الهمزة وقرأ الباقون: ﴿وسألوا الله﴾ بالهمزة.

إعطاء الحقوق (ولاء العقل)

ثم عاد سبحانه إلى ذكر المواريث فقال:

٣٣ ـ ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾.

﴿ولكل﴾ من الرجال والنساء ﴿جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون﴾ الموالي الأولياء وهم الورثة، والمعنى: لكل إنسان عصبة يرثـون ما ترك من مال وهم الوالدان والأقربون ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ هم موالي المعاقدة بالتآخي وهم المهاجرون والأنصار الذين آخى بينهم رسول الله، كان المهاجرون يورثون الأنصار دون ذوي رحمهم للأخوة التي عقدوها بينهم فنزلت الآية: تصحح الوضع، لأنه يشبه ما كانت عليه الجاهلية من الأخلاق التي يعقدونها، حيث كان الرجل يلحق الرجل في الجاهلية، فيكون تابعه فإذا مات صار لأهله في الميراث وبقي تابعه بغير شيء، فجعلت الآية نصيبهم مؤخراً بعد ذوي الأرحام لأنهم أولى ببعض في كتاب الله لأن الأقربين في الآية عام يشمل كل قريب ولو كان بعيد النسب، وإلى ذلك يذهب الحنفية ويسمى ولاء العقل، وذلك بأن يقول رجل لرجل عاقدتك على أن ترثني وأرثك وتعقل عني وأعقل عنك، والعقل هو دفع الدية والنصرة والمعاونة، ومن ذلك أخذ حكم التأمين على الحياة.

وأما النصيب: فهو الميراث الذين عقدت أيمانكم على رأي من يورثهم بعد ذوي الفروض والعصبات وذوي الأرحام، ومن لا يرى توريثهم فيرى أن النصيب هو الوصية لهم وبإعطائهم نصيبهم من العقل ﴿الدية﴾ والنصرة والرفادة والنصيحة، وعلى كلا التفسيرين فالآية محكمة وليست منسوخة بآية المواريث ولا بآية ﴿أولوا الأرحام﴾ لأنها لا تتعارض معها في الحكم، لأن آخرها قد فسر النصيب بأنه معروف بقوله تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾[1] وهو بحدود ثلث المال، قال ابن جرير الطبري: وهو المعروف ونسبه لابن عباس، وذهب قوم إلى أن المراد: فآتوهم نصيبهم من النصر والتضحية من غير ميراث وأن المعاقدة إنما كانت في الجاهلية على النصرة ولا غير، والإسلام لم يغير ذلك وإنما قرره فقال النبي ﷺ «أيما حلف كان في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة» أراد النصر والعون وهذا قول سعيد بن جبير وهذا يؤكد أنّ الآية محكمة ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ مطلعاً.

تنظيم الحياة الزوجية (القوامة)

لما بين تعالى فضل الرجال على النساء ذكر عقبه فضلهم في القيام بأمر النساء فقال:

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

٣٤ ـ ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾.

﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أصحاب سلطة ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ أي أن الله جهز الرجل بغير ما جهز به الأنثى، فعليه تقع مسؤولية الأسرة والحماية والنفقة والكد، وفيه الخلافة والولاية العامة وعليه الجهاد، وبيده الطلاق ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ في المهر والنفقة على بيت الزوجية، قد يرد سؤال هنا فيقول قائل: قد تكون المرأة أفضل من الرجل وأكثر إنفاقاً، والجواب عليه: بأن الله تعالى جعل ذلك علة في جملة الرجال لا في آحادهم لأن الغالب أنهم أفضل في التدبير والرأي وطلب المعاش من النساء في أحوال كثيرة، والعلة إذا صارت للجملة لم يطعن فيها بالنادر في الآحاد ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ القانتات المطيعات لأزواجهن الحافظات لغيب أزواجهن وأسرار بيت الزوجية.

النشـــوز

﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ النشوز بغض المرأة للزوج، يقال نشزت المرأة على زوجها ونعت إذا تركته، ولم تطمئن عنده، وأصل النشوز الانزعاج ﴿فعظوهن﴾ الوعظ التذكير بالخير فيما يرق له القلب، وخوفوهن بالله ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ ترك فراشها ومضاجعتها ﴿واضربوهن﴾ ضرباً خفيفاً تأديباً ﴿فإن أطعنكم﴾ في المضجع ﴿فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي فلا تتجنّ عليها بالعلل أيها الزوج، لا تكلفها الحب لأن قلبها ليس في يدها ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ ومعنى الآية كلها على الترتيب، فالوعظ عند خوف النشوز وظهور بوادره منها، ثم الهجر عند ظهور النشوز صراحة حيث لم ينفع الوعظ، ثم الضرب عند تكرار النشوز منها واللجاج فيه، حيث لم ينفع الوعظ والهجر، ولا يجوز الضرب في الابتداء، فإن أطاعت فلا تلتمسوا الأعذار إلى ما لا يحل لكم من أبدانهن وأموالهن، وذلك بأن تقول لها وهي مطيعة لك: لست محبة لي، فتضربها أو تؤذيها فإن ذلك هو البغي والظلم الذي كان الله عليه علياً كبيراً.

لما قدم الله الحكم عند مخالفة أحد الزوجين صاحبه، عقبه بذكر الحكم عند التباس الأمر في المخالفة فقال:

٣٥ ـ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾.

﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾ الشقاق العداوة ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ والخطاب للحاكم إذا ترافعا إليه ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ راجع للحكمين، ومهمة الحكمين هي تقصي مواطن

الخلاف بين الزوجين، ومحاولة الصلح بينهما ورفع تقرير مفصل برأيهما للسلطات للحكم ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾.

وعظ وإرشاد

لما أمر سبحانه بمكارم الأخلاق في أمر اليتامى والأزواج والعيال عطف على ذلك بهذه الخلال المشتملة على معالي الأمور ومحاسنها فبدأ بالأمر بعبادته فقال:

٣٦ ـ ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾.

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ الغريب الذي ليس بينك وبينه قرابة وهو بعيد عنك ﴿والصاحب بالجنب﴾ الرفيق حضراً وسفراً ﴿وابن السبيل﴾ المنقطع في سفره ﴿وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ على الناس، المختال، ذو الخيلاء والكبر والصلف ولا يتيسر ذلك إلا بالإنفاق الصادق في سبيل الله لهذه الأصناف التي ذكرها الله، فنبّه بذلك على أن الإنفاق هو الذي يخرجه من أن يكون فخوراً ومن أن يكون بخيلاً، جمع الله في هذه الآية الإحسان إلى كل محتاج وإن كان بعضهم أقرب إلى المرء من بعض، فأمر بالإحسان إلى الكل.

القــــراءة

﴿والجار ذي القربى﴾ قرأ الكسائي: ﴿والجار ذي القربى﴾ ممال، وقرأ أبو عمرو بغير إمالة وبه قرأ الآخرون.

٣٧ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ نزلت في اليهود كانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويستنصحون لهم فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ من العلم والمال ﴿واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ ذا إهانة بادعائهم الفقر وتحريضهم المسلمين على عدم الإنفاق.

القــــراءة

﴿ويأمرون الناس بالبخل﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿بالبَخَل﴾ بفتح الباء والخاء وقرأ الباقون ﴿بالبخل﴾ وهما لغتان.

ثم عطف على ما تقدم بذكر المنافقين فقال:

٣٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن

يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾.

﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾ مرائين ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً﴾ صاحباً يعمل بأمره ﴿فساء قريناً﴾ بئس الصاحب الناصح.

٣٩ - ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾.

ترغيب وتحذير

٤٠ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿إن الله لا يظلم﴾ أحداً ﴿مثقال ذرة﴾ مثقال الشيء زنة الشيء الصغير، ومثله قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل﴾[1] ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

القـــراءة

﴿وإن تك حسنة﴾ قرأ نافع وابن كثير: ﴿وإن تك حسنةٌ﴾ بالرفع على أنها اسم كان ولا خبر لها. وقرأ الباقون: ﴿وإن تك حسنةً﴾ بالنصب خبر كان والاسم مضمر.

قرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿يضعّفها﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون: ﴿يضاعفها﴾ وهما لغتان.

لما ذكر اليوم الآخر وصف حال المنكرين له فقال:

٤١ - ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾.

﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ كيف لفظ الاستفهام، ومعناها التوبيخ، والشهيد نبي كل أمّة والمعنى: كيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة ﴿وجئنا بك﴾ يا محمد ﴿على هؤلاء شهيداً﴾.

٤٢ - ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾.

﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض﴾ أي لو جعلوا تراباً فكانوا هُم والأرض سواء قال الله تعالى في آخر سورة عم: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ ومقصودهم بذلك من تسوية الأرض بهم ألّا يخرجوا منها فيروا هول الموقف ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ قال ابن كثير إخباراً عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتمون منه شيئاً، أقول: ومن ذلك قولهم في سورة الأنعام ﴿والله ربنا ما كنّا مشركين﴾[2].

(١) الآية: ٤٧.
(٢) الآية: ٢٣.

القـــراءة

﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿لو تُسوّى﴾ بضم التاء على ما لم يسمّ فاعله.

وقرأ نافع وابن عامر: ﴿تسوّى﴾ بتشديد السين والواو وفتح التاء.

قرأ حمزة والكسائي: ﴿تسوّى﴾ بتخفيف السين وفتح التاء.

شروط الصلاة واجتناب الخمر

لما أمر سبحانه في الآية السابقة وما قبلها بالعبادة ونهى عن الشرك وارتكاب الكبائر نهى هنا عما يؤدّي إليه وهو السكر، وامتثال النهي يكون بترك السكر، والخطاب موجّه للمؤمنين ليجتنبوه، وأعقب ذلك ببيان ما يفسد الصلاة وما هو موجب لها والاستعداد لها فقال:

٤٣ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ أي لا تتعرضوا بالسكر في أوقات الصلاة، ولا تقربوا مواضع الصلاة وهي المساجد، وقد سمّى الشرع المساجد بالصلاة لعلاقة المكانية، وقد كان الصحابة يغشون المساجد كثيراً قبل أوقات الصلاة وبعدها، بل هي مدارسهم وملتقى جماعتهم، وقد كان عدد غير قليل يقيم فيها ليل نهار، لذلك كان النهي في هذه الأوقات بما في ذلك الدخول في الصلاة لكي يعلموا ما يقولونه في الصلاة وخارجها في المساجد، وآية ذلك أنّ السكران لا يمكنه أن يفك السكر عنه ويصحو ليفهم ويعقل مثل الناس العاديين عندما يسمع الأذان، بل إنّه لا بد له من وقت طويل حتى ينتهي من آثاره، ناهيك إذا كان الشارب ثملاً أو مكثراً وهو غالب حال السكارى، وسبب نزول الآية يؤكد هذا المعنى إذ أنّ بعض الصحابة شربوا خمراً حتى حضرت الصلاة فخلط إمامهم في القراءة ﴿ولا جنباً إلّا عابري سبيل﴾ إلّا مجتازين المسجد عابرين ﴿حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾ ولم تجدوا الماء أو كان استعماله يضرُّكم ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ أو بمعنى الواو، والغائط المكان المطئن من الأرض فكني بالمكان الذي تقضى فيه الحاجة ﴿أو لامستم النساء﴾ بالجماع ﴿ فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ والتيمم هو القصد كقوله تعالى: ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾ وأما الصعيد فهو التراب ذو الغبار الطاهر الحلال، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم روى عمار عن النبي ﷺ أنه قال: «التيمم ضربة للوجه والكفين»[1].

---

(١) رواه البخاري.

وأما دعوى النسخ بآية المائدة بقوله تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ الآية: (٩٠) فإنه مردود بأن الآية حرمت شرب الخمر في الصلاة والمساجد، ومن مقتضى ذلك تحريم شربها في أوقات الصلاة، وهذا الحكم باق إلى يومنا هذا، وحتى لو اقتصر التحريم على الصلاة فالحكم كذلك باق. والآية لم تبح شرب الخمر لأن شربها كان في الأصل مباحاً، وقد رد السيوطي على القول بالنسخ في كتاب الإتقان في آية المائدة أفادت زيادة على ما جاء في آية النساء فلا تعارض.

القــــراءة

﴿أو لامستم﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر وعاصم ﴿أو لامستم﴾ وقرأ حمزة والكسائي وخلف، والمفضل بغير ألف. ﴿أو جاء﴾ قرأ الإمام قالون عن نافع ﴿أو جا أحد منكم﴾ بغير مد في كل القرآن وكذلك ﴿تلقا﴾ بدون مد.

اليهود وأعمالهم

لما ذكر سبحانه الأحكام التي أوجب العمل بها وصلها بالتحذير مما دعا إلى خلافها فقال:

٤٤ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة﴾ بالهدى وهم اليهود ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي طريق الحق وتتابعوهم.

٤٥ ـ ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾.

﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ منكم فسيخبركم بهم ﴿وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾ والمعنى: في الآيتين: كما قال ابن كثير يخبر الله تبارك وتعالى عن اليهود أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله ورسوله ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين في صفة النبي محمد ﷺ، ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا ويودون لو تكفرون بما أنزل الله عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، وهو يعلم بهم ويحذركم منها، وكفى به ولياً لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره.

ثم بين صفة من تقدم ذكرهم فقال:

٤٦ ـ ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿من الذين هادوا يحرفون﴾ من اليهود أي يغيرون ﴿الكلم﴾ جمع كلمة ﴿عن مواضعه ويقولون﴾ للنبي

﴿سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك ﴿واسمع غير مسمع﴾ ومعناه اسمع لا سمعت ﴿وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾ اللي تحريك ألسنتهم بذلك ومنها قولهم راعنا للنبي، ولم يقولوا انظرنا وطعنهم في الدين هو تحريفهم وتغييرهم الكتاب المنزل من عند الله، حيث حشوه بقصص وتاريخ زعمائهم فاختلط كلام الله بكلام الآدميين، وضاع الحق بالباطل ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا﴾ انظر إلينا بدل راعنا ﴿لكان خيراً لهم وأقوم﴾ أعدل مما بدلوا ﴿ولكن لعنهم الله﴾ فأبعدهم من رحمته ﴿بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً﴾ منهم والباقون إيمانهم قليل فيكم وبدينكم لأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ولذلك قال تعالى: ﴿بكفرهم﴾ ولم يقل لكفرهم.

ثم خاطب الله أهل الكتاب بالتخويف والتحذير فقال:

٤٧ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا﴾ من القرآن ﴿مصدقاً لما معكم﴾ من التوراة ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ بالعمى ﴿فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ فيما مضى ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ والمعنى: يخاطب الله الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فيدعوهم للإيمان بالإسلام لأن نبي الإسلام جاء بالقرآن الذي يتوافق مع الكتب السماوية من التوراة والإنجيل، لما فيه من الأخبار والقصص والحق عن الأنبياء وغيرهم المذكورة أخبارهم في كتبكم، فآمنوا ما دامت الفرصة سانحة لكم من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم، إذا نزل العذاب وجاء أجل الكتاب، فتقدمت أعمالكم السيئة واعتقادكم الفاسد حيث وجوهكم قد سودتها وطمست معالمها وخلقتها وأعمت أبصارها وبصيرتها، فلا تستطيعون السير إلى الأمام لتنالوا مرضاة الله، فترك هذه الوجوه على أدبارها راجعة على أعقابها في الضلالة، فتطرد من رحمة الله كما كان الشأن لأصحاب السبت فيما مضى في التيه حتى هلك فيه أكثرهم، وطمس الوجوه وردها على أدبارها من عظيم ما يخوف به المرء من المعصية.

ما يغفره الله من الذنوب

ثمّ إنّه تعالى آيس الكفار من رحمته فقال:

٤٨ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾.

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾ من الذنوب ﴿لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم يكن مشركاً ومات مصرّاً عليه.

أهل الكتاب وجزاؤهم على أعمالهم

ثم ذكر تعالى تزكية هؤلاء أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب فقال:

٤٩ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾.

﴿ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم﴾ زكى الشيء إذا نما في الصلاح، والذين يزكون أنفسهم هم اليهود والنصارى حيث قالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾(١) وقالوا ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾(٢) ﴿بل الله يزكّي﴾ يطهر ﴿من يشاء ولا يظلمون فتيلاً﴾ الفتيل ما يكون في شق النواة في التمرة من سحاة.

٥٠ ـ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

﴿انظر﴾ متعجباً ﴿كيف يفترون على الله الكذب﴾ مما قالوا لا ذنب لنا ﴿وكفى به﴾ أي حسبهم بقولهم الكذب ﴿إثماً مبيناً﴾ يتبين كذبهم لسامعيه.

بيّن الله تعالى أفعالهم القبيحة وضمّها إلى ما عدده فيما تقدّم فقال:

٥١ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ سبب نزولها أن جماعة من علماء اليهود، التقوا مع المشركين فقالوا لهم مادحين لهم أنتم أخير من محمد، وأما الجبت والطاغوت فهما اسمان لكل معظم من دون الله بعبادة كالأصنام، أو طاعة أو خضوع له من حجر أو إنسان أو شيطان، ومن المعلوم أن اليهود لا يؤمنون بعبادة الأصنام، ولكن خضوعهم وتحالفهم لأئمة الشرك، وإيمانهم بالكهانة والسحر يدخلهم في دائرة الجبت والطاغوت كقوله تعالى: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾(٣) وهو الباطل، وكقوله تعالى في شأن أهل الكتاب الذين يؤمنون بزعمائهم وعلمائهم: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾(٤). ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء﴾ أي جماعتكم ﴿أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي طريقاً.

٥٢ ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾.

لما بيّن حكم اليهود بأن المشركين أهدى من النبي ﷺ وأصحابه بيّن الله سبحانه أن الحكم ليس إليهم إذ الملك ليس لهم فقال:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٠.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣١.

٥٣ ـ ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾.

﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ استفهام معناه الإنكار إذ التقدير ليس لهم ولو كان لهم ﴿فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ النقطة التي في ظهر النواة، قال الأزهري: الفتيل، والنقير، والقطمير، تضرب أمثالاً للشيء التافه الحقير.

٥٤ ـ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾.

﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ النبي وأصحابه، والحاسدون هم اليهود والفضل هو النبوة والرسالة التي تشرف بها النبي وحملها أصحابه من بعده للناس كافة ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾. والمعنى: عجباً لأهل الكتاب يحسدون النبي محمداً وأصحابه على ما آتاهم الله من شرف رسالة الإسلام وأعزّهم، وإن تعجبوا من ذلك فقد سبق أن أعطى آل إبراهيم الذين من سلالته كالنبي موسى وداود وسليمان التوراة والإنجيل والزبور وأعطاهم سياسة الدنيا وشرع الدين.

٥٥ ـ ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾.

﴿فمنهم من آمن به﴾ بمحمد ﷺ ﴿ومنهم من صدّ﴾ أعرض ﴿عنه وكفى بجهنّم سعيراً﴾. أي ناراً موقدة إيقاداً شديداً للصّادين عنه.

جزاء الكفار وثواب الإيمان

لما تقدّم ذكر المؤمن والكافر أعقبه بذكر الوعد والوعيد على الإيمان والكفر فقال:

٥٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم﴾ ندخلهم ﴿ناراً﴾ يحترقون فيها ﴿كلّما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً﴾.

٥٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة﴾ من الحيض ومن كل قذر ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ هو الذي يظل من الحر والريح، وليس كل ظل كذلك لا حر معه ولا برد، إشارة إلى كمال وصفها، وتمكين بنائها.

السياسة العامة للحكومة الإسلامية

ثم أمر سبحانه بأداء الأمانة فقال:

٥٨ ـ ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.

﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ يعمّ جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله مما لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إنّ الله نعما يعظكم به﴾ نعم الشيء يعظكم به، ﴿إنّ الله كان سميعاً بصيراً﴾.

لما بدأ في الآية المتقدمة بحث الولاة على تأدية حقوق الرعية على طاعتهم والتسوية بين البرية ثنّاه في هذه الآية بحثّ الرعية على طاعتهم والاقتداء بهم والردّ إليهم فقال:

٥٩ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ طاعة الرسول في حياته امتثال أمره واجتناب نهيه، وبعد مماته اتباع ما جاء به من الوحي، وأولي الأمر هم ولاة المسلمين بالأمر فيما كان لله طاعة، وللمسلمين مصلحة، فإن تنازعتم في شيء، المنازعة الاختلاف في الرأي أي إنّ كل فريق يقول القول قولي، فكل واحد يتذرع بالحجة، فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ردّوه إلى الله إلى كتابه وردّوه إلى الرسول وردّوه إلى سنّته.

وملخّص معنى الآية: أنّ هذا أمر من الله، لما بين وجوب ردّ الأمانات والحقوق إلى أصحابها ووضع الأمور في نصابها بين أنّ كلّ شيء تنازع فيه الناس من مسائل الدين يجب أن يكون المرجع فيه عند الاختلاف إلى القرآن أولاً ثم السنة ثانياً، وما لم يوجد فيهما فولي الأمر أن يشرّع فيه ما يحقق مصلحة الأمة مهتدياً برأي أهل الحلّ والعقد، وطاعته في الرّد إلى الله والرسول والتشريع والولاية واجبة، ذلك خير أي الرّد والطاعة، وأحسن تأويلاً أحسن عاقبة ومآلاً من التنازع والاختلاف لما فيه من الشر والهلاك.

المنافقون وأعمالهم

لما أمر الله أولي الأمر المسلمين بالحكم بالعدل وأمر المسلمين بطاعتهم وصل ذلك بذكر المنافقين الذين يرضون بحكم الله ورسوله فقال:

٦٠ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾.

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك﴾ أي المنافقين والزعم لغتان: بالفتح والضمّ، والزعم في أصل اللغة القول والدعوى، وإذا شكّ في القول فلم يدْره لعلّه كذب أو باطل قيل زعم فلان كذا، ويطلق على الظن والكذب، وكثر استعمالها فيما لا تتحقق صحته، ﴿وما أنزل من قبلك﴾ وهم اليهود ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ الكثير الطغيان وهو كاهن يدعى كعب بن الأشرف ﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾ وأن يتبرؤوا من الكهنة ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ يريد أن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة فيكون ضلالهم عنه مستمراً لشدة بعدهم عنه، وسبب نزول هذه الآية: أن أبا بردة الأسلمي كان كاهناً يقضي بين اليهود، فتنافر إليه ناس من المسلمين المحسوبين على الإسلام، من المنافقين وضعفاء الإيمان فنزلت، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، سئل الإمام محمد عبده ماذا تقول في هذه المحاكم الأهلية والقوانين الوضعية؟ قال: تلك عقوبة عوقب بها المسلمون أن خرجوا عن هداية قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾[1].

٦١ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله﴾ في القرآن من أحكام ﴿وإلى الرسول﴾ ليحكم بينكم ﴿رأيت المنافقين يصدون﴾ يعرضون ﴿عنك صدوداً﴾ صرّح الله في هذه الآية بما دلّت عليه الآية التي قبلها من نفاق هؤلاء الذين يرغبون عن حكم كتاب الله وحكم رسوله إلى حكم الطاغوت من أصحاب الأهواء، والآية ناطقة بأن من صدّ وأعرض عن حكم الله ورسوله عمداً، ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به، فإنه يكون منافقاً لا يعتد بما يزعمه من الإيمان، وما يدعيه من الإسلام.

ثم عطف تعالى على ما تقدّم بقوله:

٦٢ ـ ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾.

﴿فكيف﴾ يكون حال هؤلاء الضالّين ﴿إذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت أيديهم﴾ من المعاصي ومنها تحكيم الطاغوت ﴿ثم جاءوك﴾ معتذرين لما صدر منهم ﴿يحلفون بالله إن أردنا إلّا إحساناً وتوفيقاً﴾ أي ما قصدنا في ذلك إلّا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم وهم كذبة في ذلك، وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنّهم لا يردعهم عن النفاق العبر والنقم، وأنّهم لم ينيبوا إلى الله بل يحلفون بالله كذباً وجرأة عليه.

٦٣ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾.

(١) الآية: ٥٩ من السورة نفسها.

﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ من الزيغ والنفاق والقصد السيىء ﴿فأعرض عنهم﴾ لا تقبل عليهم بالبشاشة والتكريم، أي لا تبال بهم وبأعذارهم ولا تقابلهم على ما فعلوه، وافتروه ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي بين لهم حكم الله ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ أي انصحهم سراً بينك وبينهم فإنه أنجح لحصول المقصود والبلاغة: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة، وقيل الإيجاز مع الإفهام، والتصرف من غير إضجار. قال خالد بن صفوان «أحسن الكلام ما قلّت ألفاظه، وكثرت معانيه، وخير الكلام ما شوق أوله إلى سماع آخره».

إرشـــادات

ثم لامهم سبحانه على ردّهم أمره وذكر أنّ غرضه من البعثة الطاعة فقال:

٦٤ - ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع﴾ فيما يبلغ ويحكم به عن ربه ﴿ومنْ﴾ دخلت للتوكيد ﴿بإذن الله﴾ للاحتراس لأن الطاعة في الحقيقة لله تعالى، فهذا القيد من قيود القرآن المحكمة الذاهبة بظنون من يظنون أن الرسول يطاع لذاته بلا شرط ولا قيد، فهو عز وجل يقول إن الطاعة الذاتية ليست إلا لله تعالى رب الناس وخالقهم، وقد أمر أن تطاع رسله، فطاعتهم واجبة بإذنه ﴿من رسول﴾ أبلغ في استغراق النفي من أن يقال وما أرسلنا رسولاً ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ بتحاكمهم إلى الطاغوت ﴿جاءوك﴾ معترفين تائبين ﴿فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول﴾ من صنيعهم ﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ وهذا المجيء للرسول لا يكون إلا في حياته.

ثم بيّن الله أنّ الإيمان إنما هو بالتزام حكم رسول الله والرضا به فقال:

٦٥ - ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾.

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ أي في كل شيء يحصل فيه اختلاف، قال الإمام محمد عبده هذا تفريع على ما سبقه، وهو نفي وإبطال لظن الظانين أنهم بمجرد محافظتهم على أحكام الدين الظاهرة يكونون صحيحي الإيمان، مستحقين للنجاة من عذاب الآخرة والفوز بثوابها والصحيح أنهم لا يكونون مؤمنين حتى يكونوا موقنين في قلوبهم مذعنين في بواطنهم ولا يكونون كذلك حتى يحكموك فيما شجر واختلط بينهم من الحقوق ثم لا يجدوا في أنفسهم الضيق الذي يحصل للمحكوم عليه، إذا لم يكن خاضعاً للحكم في قلبه فإن الحرج إنما يلازم قلب من لم يخضع.

أقول: ولا يمنع أن تكون الآية قد نزلت شاملة لخلاف الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ وحاطب

ابن أبي بلتعة، اختصما في المسقى «فقضى النبي ﷺ أن يسقى الأعلى ثم الأسفل والعبرة بعموم اللفظ قال ابن جرير الطبري سبب نزولها في المنافق واليهودي اللذين تحاكما إلى الطاغوت كعب بن الأشرف[1] ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾.

ثم أخبر سبحانه عن سرائر القوم فقال:

٦٦ ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾.

﴿لو﴾ حرف يمتنع به الشيء لامتناع غيره، كتبنا بمعنى فرضنا أي لو أنّا فرضنا على المؤمنين ﴿أن اقتلوا أنفسكم﴾ كما فرضنا على قوم موسى، لم يفعله إلاّ قليل منهم ولو أنهم فعلوا أي المنافقون الذين يزعمون أنّهم آمنوا كذباً وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ويصدّون عنك ﴿ما يوعظون به﴾ ما يذكرون به من طاعة الله والوقوف مع أمره، ﴿لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً﴾ أثبت لأمورهم وأصدق لإيمانهم.

القـــراءة

﴿أن اقتلوا أنفسكم﴾ قرأ أبو عمرو: ﴿أن اقتلوا أنفسكم﴾ بكسر النون ﴿أو اخرجوا﴾ بضم الواو وقرأ ابن عامر وابن كثير ونافع والكسائي: ﴿أن اقتُلوا أو اخرجوا﴾ بضم النون، والواو وقرأ عاصم وحمزة بكسرهما، ﴿إلا قليل منهم﴾ قرأ ابن عامر ﴿إلا قليلاً﴾ بالنصب وقرأ الباقون: بالرفع.

٦٧ ـ ﴿ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿وإذاً﴾ أي لو تثبتوا ﴿لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي في العاجل والآجل.

٦٨ ـ ﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

﴿ولهديناهم صرطاً مستقيماً﴾ طريق العمل الصالح على الوجه الصحيح، والصراط هنا هو الصراط المذكور في سورة الفاتحة، صراط الذين أنعم الله عليهم، المذكورين في الآية التالية:

الترغيب في طاعة الرسول (الشهيد)

ثم بيّن سبحانه حال المطيعين فقال:

٦٩ ـ ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّـۧنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾.

(١) راجع التفصيل في زاد المسير لابن الجوزي ج ٢ ص ١٣٣ وابن سعدى ص ٤٣ والمنار ج ٢ ص ٢٣٣.

﴿ومن يطع الله والرسول﴾ فيما أمر به ودعا إليه ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين﴾ كثيري الصدق لكل أصحاب الأنبياء، لصدقهم وتصديقهم ﴿والشهداء والصالحين﴾ اسم لكل من صلحت سريرته وعلانيته، والشهيد ليس من قتل في الحرب فقط بل إن الشهيد الذي يشهد بصحة دين الله تعالى تارة بالحجة والبيان، وأخرى بالسيف والسنان، فالشهداء هم القائمون بالقسط ويقال للمقتول في سبيل الله شهيد من حيث أنه بذل نفسه في نصرة دين الله، وشهادته له بأنه هو الحق وما سواه هو الباطل ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ منصوب على التمييز، أي مرافقة أولئك الأصناف في الدرجة، والرفيق كالصديق والخليط والصاحب والأصحاب يرتفق بعضهم ببعض والرسول ﷺ يقول «المرء مع من أحبّ» رواه الجماعة.

٧٠ ـ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾.

﴿ذلك الفضل من الله﴾ الذي أعطيه المذكورين ﴿وكفى بالله عليماً﴾ التذكير بالعلم الالٓهي في آخر السياق يشعرنا بأن شيئاً من أعمالنا ونياتنا لا يعزب عن علمه، ليحذر المنافقون المراءون ذلك لعلّهم يتذكرون فيتوبون، وليطمئن المؤمنون الصادقون، لعلّهم ينشطون ويزدادون.

السياسة الحربية في الإسلام

ثم أمر الله سبحانه المؤمنين بمجاهدة الكفار والتأهب لقتالهم فقال:

٧١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ من عدوكم واحترزوا منه، وتيقظوا له، وأخذ الحذر والاستعداد المادي بتهيئة السلاح والعتاد والتدريب، وبالرصد لتتبع أخباره، وجمع المعلومات عنه بتشكيل أجهزة الاستخبارات وغيرها ﴿فانفروا ثبات﴾ أي جماعات، واحدتها ثبة، جماعة بعد جماعة بأن تكونوا فصائل وسرايا، والنفير التحرك كالتحرك من عرفات يسمى نفرة ﴿أو انفروا جميعاً﴾ إشارة إلى التعبئة العامة أو تحريك الجيش كله بجميع فرقه، والأمر متروك لتقدير الظروف والحاجة بالقدر الذي يفي لصد العدو وإعلاء كلمة الله والآية تشير إلى وجوب النفير العام على القادرين إذا تطلب الموقف ذلك ولا يجوز لأحد أن يتخلف لأنه أمر من الله خاصة بعد أن يعين الله منزلة من يدافع عن دينه.

ولا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى في التوبة ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً إليماً﴾ وقوله تعالى في التوبة ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾لأن كل هذه الآيات آيات جهاد وكلها تحثّ على النفر وعلى معنى واحد، ومعنى آية التوبة يطلب الله من المؤمنين ألّا ينفروا كلهم أجمعين للحرب، بل يجب أن يبقى من كل فرقة أي الجماعة الكبيرة طائفة، عدد يبقى في المدينة ليتفقهوا في الدين ليعلّموا أفراد الجيش عندما يرجعون من الحرب والقتال، حيث يمضون وقتاً طويلاً بلا علم وهذا ما فعله الخلفاء حيث أبقوا كبار الصحابة والقراء والرواة للعلم، وأرسلوا غيرهم للحرب.

لما حث الله على الجهاد بيّن حال المتخلفين عنه فقال:

٧٢ ـ ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ ليتأخرن عن الجهاد كالمنافقين الذين ظاهرهم أنهم من المسلمين ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ كقتل وجراح ﴿قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ أي حاضراً المعركة فأصب.

٧٣ ـ ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ كفتح وغنيمة ﴿ليقولن﴾ نادما ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾، والمعنى: الخطاب في الآية لجموع المؤمنين يدخل فيهم المنافقون وضعفاء الإيمان، وخاصة الأعراب فهؤلاء يحاولون التأخر عن الجهاد والقتال، إما لغرض شخصي بحت أو لغرض عام كالمنافقين، وشيمة هؤلاء أنهم إذا لقيت السرية نكبة، قالوا فرحين هذه نعمة إذ لم يخرجوا وإذ لقيت غنيمة، قالوا نادمين على عدم الخروج قولة من ليس منكم، ولا جمعته مودة بكم يا ليتنا كنا معكم لننال من تلك الغنيمة التي توزع على المقاتلين.

القـــراءة

﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ قرأ ابن كثير وحفص: ﴿كأن لم تكن بينكم﴾ بالتاء لتأنيث المودة كقوله ﴿ولا تقبل منها شفاعة﴾ وقرأ الباقون: ﴿كأن لم يكن﴾ بالياء.

الترغيب في القتال في سبيل الله

لما أخبر الله سبحانه في الآية الأولى أن قوماً يتأخرون عن القتال أو يبطئون المؤمنين عنه حثّ في هذه الآية على القتال فقال:

٧٤ ـ ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ يشرون يبتغون ويطلبون ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾. والمعنى: ليكن قتال المقاتلين على وجه الأرض إخلاص، وطلب الآخرة أي أنّ من أراد أن يبيع الحياة الدنيا ويبذلها ويجعل الآخرة ثمناً لها وبدلاً عنها، فليقاتل في سبيل الله وقوله يقتل أو يغلب، خرج مخرج الغالب، وقد يثاب من لم يغلب ولم يقتل.

ثم حثّ سبحانه على تخليص المستضعفين فقال:

٧٥ ـ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾.

﴿وما لكم لا تقاتلون﴾ استفهام توبيخ، أي ما منعكم من القتال، ﴿في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ أي ما لكم لا تسعون في خلاص هؤلاء المسلمين الذين كانوا بمكة، لا يستطيعون أن يخرجوا منها، ﴿واجعل لنا من لدنك وليّاً﴾ سألوا الله أن يجعل لهم وليّاً من عنده يتولّى إخراجهم منها ﴿ واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ يمنعنا منهم وقد استجاب الله دعاءهم فيسّر لبعضهم الخروج وفكّ أسر الآخرين بفتح مكة.

ثم شجّع المجاهدين ورغّبهم في الجهاد بقوله:

٧٦ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾.

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ الشيطان ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾، مكره وصنيعه لا يقف أمام الحق، وهذه الآية جواب لما عساه يجول في خواطر أولئك الضعفاء، وهو أننا لا نقاتل، لأننا ضعفاء والأعداء أكثر منا عدداً، وأقوى منا عدة، فدلّهم على قوة المؤمنين التي لا تعادلها قوة، وهو أنّ المؤمنين يقاتلون في سبيل الله، وهو تأييد الحق الذي يوقن به صاحبه.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر القتال ومن كرهه فقال:

٧٧ ـ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾.

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم﴾ عن قتال الكفار بمكة لأذى الكفّار لهم، وهم نفر من المسلمين ولما يفرض القتال بعد، وقيل لهم اكتفوا الآن بما هو المطلوب ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ أي الكفار، لما صاروا بالمدينة تغيّرت طباعهم ولانت أجسامهم فنفرت نفوسهم عن القتال وخشوه، ﴿كخشية الله أو أشدّ خشية﴾ ﴿أو﴾ بمعنى أي إنّهم يخشون الناس بالقعود عن قتالهم على ما فيه من مخالفة أمر الله تعالى، ولما كان من شأن الذي يساوي بين اثنين في الخشية، أن يميل إلى هذا تارة وإلى الآخر تارة، وكان هؤلاء قد رجّحوا ترك القتال خشية الناس مطلقاً قال: ﴿أو أشدّ خشية﴾ أي بل أشد خشية والآية نزلت بدون شك في ضعفاء الإيمان. وهذه الآية متصلة بما قبلها، فقد أمر الله بأخذ الحذر والاستعداد للقتال والنفر، وذكر حال المبطئين لضعف قلوبهم، وأمرهم بما أمرهم به من القتال في سبيله وإنقاذ المستضعفين، ثم ذكر بعد ذلك شأناً آخر من شؤونهم، وذلك أنّ المسلمين قبل الإسلام كانوا في تخاصم وتلاحم وحروب مستمرة، لم تنقطع إلاّ بالإسلام، وبعد هجرة النبي ﷺ أمرهم الإسلام بالسلم، وتهذيب النفوس بالعبادة والكف عن الاعتداء والقتال لمجرد القتال، وألاّ يكون إلا لحاجة

وظرف مقدر وقالوا لما فرض القتال: ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا﴾ هلّا، ﴿أخرتنا إلى أجل قريب قل﴾ لهم ﴿متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً﴾ شيء حقير بقدر قيمة السحاة التي بشق النواة وهو ما يكون في شقها.

القـــراءة

﴿والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ بالياء وقرأ الباقون: ﴿ولا تظلمون﴾ بالتاء.

القضـاء والقـدر

ثم خاطبهم تعالى فقال:

٧٨ ـ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾.

﴿أين ما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج﴾ حصون ﴿مشيّدة﴾ مرتفعة ﴿وإن تصبهم﴾ أي المنافقين واليهود ﴿حسنة﴾ خصب وسعة ومطر ﴿يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة﴾ من جدب أو غلاء أو مجاعة ﴿يقولوا هذه من عندك﴾ يا محمد أي بشؤمك ﴿قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أي فما بال هؤلاء القوم وماذا أصاب عقولهم حال كونها بمعزل عن الغوص في أعماق الحديث وفهم مقاصده وأسراره، فهم لا يعقلون حقيقة الحديث الذي هو القرآن لأنهم يبعدون منه بإعراضهم عنه وكفرهم وهذه الآية والتي بعدها تتعرض لموضوع القضاء والقدر فإذ أصاب الإنسان من حسنة من رزق ومطر وغنيمة وخير وعافية، لا كسب له في جلبه، وكذلك ما أصابه من سيئة شر من هزيمة وغدر وجدب ومجاعة أو حريق أو موت عزيز لا كسب له فيه، وبغير إرادته، كل ذلك داخل تحت قضاء الله وقدره.

٧٩ ـ ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ لا كسب لك فيها وهي النعمة والخير كالرخاء والخصب والغنيمة، وكتسخيره سبحانه وتعالى لنا الهواء والماء العذب الذي يمد الحياة، وهذه الأزواج من النبات والحيوان مختلف ألوانها وطعومها وتذليلها لنا، كل ذلك خير ونعمة، فهو من فضل الله، وهو من الدائرة التي تسيطر على الإنسان، ولا كسب له فيها وقد كرر الله سبحانه وتعالى إضافة الحسنة له هنا، ليؤكد أن مقام الآية التي سيقت إليه هو بيان نفي الشؤم والتطير وإبطالهما ليعلم الناس أن ما يصيبهم من الشر لا يصيبهم بشؤم أحد، وكانوا كثيراً

ما يتطيرون في الجاهلية وهو من الخرافات، وقد جاء في غير هذا الموضع إضافة الأفعال الحسنة الاختيارية للإنسان، مما له كسب فيها وقدر ة وله ثواب على فعلها ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلّا مثلها وهم لا يظلمون﴾(١) ﴿وهديناه النجدين﴾ أي طريق الخير وطريق الشر. ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ هذا من الأفعال الاختيارية التي للإنسان فيها كسب واختيار وهي من الدائرة التي يسيطر عليها، فيختار لنفسه الخير فيفعله والشر فيتجنبه، ومن ذلك فعل المعاصي كشرب الخمر فيجازى عليه وهو سيئة له، والفرار يوم الزحف هو سيئة بالنسبة له، فيجازى بالقتل أو الأسر أو الجرح، ويدخل في ذلك كل ما يختاره الإنسان من الأمور السيئة، وأما الشر الذي وصفه الله في الآية السابقة بالسيئة بأنه من عند الله، فهو ما يقع على الإنسان من غير إرادته.

وكان أجدر بهؤلاء الناس الذين يوجهون التهم إلى النبي ﷺ أن يفقهوا ويميزوا بين ما يصيبهم من شر وخير من الله في الدائرة التي تسيطر عليهم وبين الأفعال الاختيارية التي لهم كسب فيها وتصدر عنهم ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ ﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ حال مؤكدة ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ منصوب على التمييز شهيداً بأنك رسوله مبرأ من تهم الكفار.

طاعة الرسول

ثم رغّب تعالى في طاعة الرسول فقال:

٨٠ - ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾.

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى﴾ أعرض، فلا تهتم بأمره ما دمت بذلت جهدك معه ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي مراقباً ومحاسباً.

٨١ - ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

﴿ويقولون﴾ أي المنافقون ﴿طاعة﴾ لك ﴿فإذا برزوا من عندك﴾ خرجوا ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ دبرت جماعة منهم ليلاً غير الذي تقول لها وتظهر الطاعة لك فيه نهاراً ويحتمل المعنى أنها بيتت غير الذي تقوله هي لك من طاعتك، والتبييت ما يدبر في الليل من عزم على عمل ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أي يكتب في القرآن ذلك فيفضحهم بمثل هذه الآية ويجازيهم عليه غداً ﴿فأعرض عنهم﴾ أيها الرسول ولا تبال بهم وبما يبيتون، ولا تؤاخذهم على ما أسروا ولم يظهروا ولا تقبل عليهم كما تقبل على الصادقين؛ لأن الرسول كان يقول «إنا لنبشّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم» ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

تدبّر القرآن وبيان كونه من عند الله

لما بيّن إرساله أمره بتدبر القرآن وأنه المعجزة الكبرى فقال:

٨٢ ـ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾.

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ يتأملونه، فيرون ما فيه من المعاني والإعجاز الذي لا يقدر على صنعه بشر ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً﴾ والمعنى: يقول ابن جرير الطبري «أفلا يتدبر المبيتون كتاب الله فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي انبأتهم به من التنزيل من عند ربهم لا تساق معانيه وائتلاف أحكامه وتأييد بعضه بعضاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه وتناقضت معانيه وأبان بعضه عن فساد بعض.

أقول: والمراد بالاختلاف التناقض لمجرد التناقض، ولو كان لمرة واحدة فالمراد نفي جنس الاختلاف، ووصفه بالكثير بالنظر لكثرة آيات وسور القرآن الكريم، وما فيه من الحِكَم وأخبار ومواعظ واحتجاج وأحكام، وأعذار وإنذار، ووعد ووعيد وتعليم، وأخلاق وشيم وتوجيه نبيه وإرشاده، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ولا يتوهم متوهم أن ذكر الكثير يجوز القليل، فإن ما يصدق على الكثير ينطبق على القليل.

ضرر إذاعة الأخبار المتعلقة بالأمن

٨٣ ـ ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ المشار إليهم في الآية المنافقون وضعفاء الإيمان والمعنى: إذا بلغهم خبر من أخبار سرية غازية تمكنت من الأعداء بالظفر والغلبة، أو خيف عليها منهم الهزيمة والانتصار بظهورهم عليها أو اطلاعهم عنها، أو إذا جاء هؤلاء الناس أمر من أمور الأمن والخوف مطلقاً، وأطلعوا عليه قبل غيرهم سواء من ناحية السرايا التي تخرج للحرب أو المركز العام للسلطة أذاعوا به، وبثّوه في الناس وأشاعوه بينهم حتى صار مشهوراً، أي أنّهم من الطيش والخفة، بحيث يستفزهم كل خبر عن العدو يصل إليهم، فيطلقون ألسنتهم ومثل ذلك ما ينشر ويذيعه المراسلون لوكالات الأنباء والصحفيون من غير وعي، مما فيه مصلحة للأعداء ومضرة للبلاد والعباد، بحجة أن في ذلك سبقاً صحفياً أو ما يطلقون عليه سر المهنة، ولو كان فيه دمار الأخلاق، وضياع الديار، ثم يتذرّعون بحرية الصحافة وحرية الفكر، وكأن الفكر والصحافة منبتة عن المجتمع، أو مستقلة الإرادة عنه ﴿ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ الاستنباط الاستخراج، ومنه استنباط المجتهد الحكم من النص أي لو سكتوا حتى يكون الرسول وذوو الأمر يتولون التحقق فيه ليستخرجوا منه المصلحة العامة للدولة فيصححوه إن كان صحيحاً، أو يبطلوه إن كان

باطلاً، لعلم حقيقته ولكان ذلك أسلم وآمن ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بالإسلام والقرآن ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ أي عدداً منكم ثبتوا مع النبي ﷺ يوم أحد، والشيطان هو المنافق عبد الله بن أبي سلول. والمعنى: اذكروا أنه لولا فضل الله عليكم ورحمته يوم أحد وقت أن أشاع هؤلاء المرجفون في الأرض بمن عنتهم الآية في صدرها قتل النبي محمد ﷺ عندما انسحب المنافقون بقيادة زعيمهم عبد الله بن أبيّ، حيث همّت طائفتان من المؤمنين أن تتبعا هذا الشيطان، ولما تولاهما الله بعنايته بسبب توكلهما عليه، صرف عنهم ذلك الهم والجبن واتباع ما وسوسه لهم الشيطان، وقد يكون الشيطان من الجنة والناس.

تحريض المؤمنين على القتال

ثم عاد تعالى إلى الأمر بالقتال فقال:

٨٤ - ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾.

﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ مرتبطة بما قبلها ففي هذه الآية يطلب الله من نبيه أن يباشر القتال بعد أن يفرغ وسعه في تحريض المؤمنين عليه وأن يدخل الميدان بنفسه ولو بقي وحده منفرداً ولا يهمه فرار أحد فإنّه موعود بالنصر ﴿وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً﴾ بهم أي تعذيباً لهم.

٨٥ - ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾.

﴿من يشفع﴾ بين الناس ﴿شفاعة حسنة﴾ في الإصلاح ﴿يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل﴾ نصيب من الوزر ﴿منها وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ مقتدراً. لما أمر المؤمنين بالجهاد أمرهم أيضاً بأن الأعداء لو رضوا بالمسالمة، أو ألقوا في المبادرة بالسلم فقابلوهم بالإكرام فقال:

٨٦ - ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾.

﴿وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها﴾ أي بالزيادة عليها ﴿أو ردّوها﴾ بمثلها ﴿إنّ الله كان على كل شيء حسيباً﴾ محاسباً.

لما أمر تعالى ونهى فيما سبق بيّن بعده أنّه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه، فقال:

٨٧ - ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

﴿الله لا إله إلاّ هو ليجمعنكم﴾ اللام للقسم ﴿إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾.

المنافقون وكيف نعاملهم

ثم أعاد الكلام إلى ذكر المنافقين فقال تعالى:

٨٨ ـ ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾.

﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ فرقتين لأي شيء اختلفتم أيها المؤمنون بفرقتين في شأن المنافقين ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ من الكفر والمعاصي ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله﴾ حيث عطف عليهم بعض المسلمين لقرابة أو صداقة أو جوار ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ طريقاً إلى الهدى.

٨٩ ـ ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

﴿ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون﴾ أنتم وهم ﴿سواء﴾ في الكفر ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ ليطابق القول العمل ﴿فإن تولوا﴾ أي رفضوا وأقاموا على ما هم عليه ﴿فخذوهم﴾ بالأسر ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً﴾ صاحباً أو حليفاً توالونه ﴿ولا نصيراً﴾ تنتصرون به على عدوكم. والمعنى: المنافقون هنا في هذه الآية غير من نزلت فيهم آيات البقرة وسورة المنافقين، وأمثالهن من الآيات، وهم فريق من المشركين كانوا يظهرون المودة للمسلمين والولاء لهم، وهم كاذبون فيما يفعلونه، وذلك كلما لمسوا فيهم قوة، فإذا ظهر لهم ضعف المسلمين انقلبوا عليهم وأظهروا لهم العداوة، فكان المؤمنون فيهم على قسمين: منهم من يرى أن يعدوهم من الأولياء ويستعان بهم على سائر المشركين المحادين لهم، ومنهم من يرى أن يعاملوهم كما يعامل غيرهم من المجاهرين بالعداوة، فأنكر الله عليهم في شأنهم والحال أنّ الله أركسهم وصرفهم عن الحق الذي أنتم عليه، بما كسبوا من أعمال الشرك والمعاصي، وهؤلاء الذي ترجون نصرهم لكم وتطمعون في هدايتهم، إنما يودون أن تكونوا كفاراً مثلهم حتى يُقضى على الإسلام في مهده، فلا تتخذوا منهم أنصاراً على المشركين لعدم الاطمئنان إلى جانبهم حتى يهاجروا إليكم وتتحروا عنهم. فترك الهجرة مع القدرة عليها دليل على النفاق فيهم، وكانت الهجرة لازمة مفروضة لكي يثبت بها قلوب المسلمين ويكثر عددهم ويضعف عدوهم وذلك حتى فتح مكة.

لما أمر تعالى المؤمنين بقتال الذين لا يهاجرون عن بلاد الشرك وأن لا يوالوهم استثنى من جملتهم فقال:

٩٠ ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾.

﴿إلا الذين يصلون﴾ يلجأون ويحتمون ﴿إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ عهد بالأمان لهم ولمن وصل

إليهم والاستثناء راجع إلى القتل ﴿أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ والمعنى: ضاقت صدورهم للعهد الذين بينكم وبينهم وعن قتال قومهم، فلا تنشرح لأحد الأمرين وهذا يتفق مع أصل الإسلام الذي تقدّم في سورة البقرة ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا﴾ ﴿ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ ولكنّه ألقى في قلوبهم الرعب ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم﴾ بأن أعطوكم زمام أمرهم في المسألة وانقادوا لكم بالصلح أو العهد أو غيره ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ طريقاً بالأخذ بالقتل.

ثم بيّن تعالى طائفة أخرى منهم فقال:

٩١ - ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾.

﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ ليبقوا على الحياد ﴿كلما ردّوا إلى الفتنة﴾ دعوا إلى الإسلام وترك الشرك ﴿أركسوا فيها﴾ قال في المصباح المنير: ركست الشيء ركساً، قلبته ورددت أوله على آخره، وأركسته بالألف رددته على رأسه، وأهل الكويت يقولون للشيء إذا اختفى في الماء ركس، وهذا شأن أولئك المذبذبين بين المؤمنين والكفار كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء فيرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان فأمر بقتالهم ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ بترك قتالكم ﴿ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم﴾ بالأسر ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾.

القتل الخطأ والدية

إنّه تعالى ذكر الكفار وأمر بقتلهم ثم ذكر من كان بينهم وبين المسلمين عهد ومنع من قتلهم، ثم ذكر من نافق وحكم بقتلهم، ثم ذكر قتل المؤمن ووصل به ذكر أحكامه من دية وغيرها فقال:

٩٢ - ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ من غير قصد ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي عتقها ﴿ودية مسلمة﴾ يؤديها ﴿إلى أهله﴾ أي إلى ورثة المقتول ﴿إلاّ أن يصدقوا﴾ عليه بأن يعفوا بها أو بعضها

قال في المغني لابن قدامة: ولا نعلم بين أهل العلم خلافاً في أن دية المقتول خطأ على العاقلة تتحملها عنه وهم العصبات من ذوي الأنساب، وفي النظم الوضعية حلت شركة التأمين محل العاقلة في دفع قيمة الدية في حوادث السيارات، وفي حالة عدم معرفة القاتل فإنه حسب القانون الكويتي المدني يجب الضمان على الدولة، ومقدار الدية في القانون المدني الكويتي عشرة آلاف دينار، وأما مقدارها في أيام النبي ﷺ مائة من الإبل مختلفة في السن، ﴿فإن كان﴾ المقتول ﴿من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾ كفارة، ولا دية له وذلك لأن الإسلام يهدف إلى عدم ذهاب أموال المسلمين إلى يد الكفار لتساعدهم ﴿وإن كان﴾ المقتول ﴿من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ عهد كأهل الذمة ﴿فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾.

القتل العمد

لما بين تعالى قتل الخطأ وحكمه أعقبه ببيان قتل العمد وحكمه فقال:

٩٣ ـ ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾.

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه﴾ أبعده عن رحمته ﴿وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾ في الدنيا والآخرة.

التسرّع في الحكم وعدم قتل من ينطق بالشهادة

لما بيّن تعالى أحكام القتل وأنواعه عقّب ذلك بالأمر بالتثبت والتأنّي حتى لا يفعل ما يعقب الندامة فقال:

٩٤ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾ سافرتم للجهاد ﴿فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ معنى السلام: الانقياد والتسليم وذكر ما يدل على أنه مسلم كالشهادتين فلكم الظاهر والله يتولى السرائر ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ ما فيها من مال قلّ أو كثر كالغنيمة التي حصل عليها بعض الصحابة لقتلهم بعض من نطق بالشهادتين أمامهم، وتأولها نفاقاً وتقية ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ منها أبواب الرزق في الدنيا والجنة في الآخرة ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ تخفون إيمانكم بمكة وغيرها كما كان يفعل من ألقى إليكم السلام ولم تعرفوا أنه مسلم حقيقة ﴿فمنَّ الله عليكم﴾ بالاشتهار بالإسلام والظهور ﴿فتبينوا﴾ تكرر تأكيداً للأول ليحرصوا عليه تبينوا أن تقتلوا مؤمناً بالاجتهاد الخاطىء ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازيكم.

القـــراءة

﴿فتبيّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿فتثبتوا﴾ بالثاء، وقرأ الباقون: ﴿فتبينوا﴾ بالياء والنون.

قرأ نافع وابن عامر وحمزة: ﴿لمن ألقى إليكم السلم﴾ بغير ألف، المفادة والاستسلام، وقرأ الباقون: ﴿السلام﴾ أي التحية.

فضل المجاهدين على القاعدين عن الجهاد

لما حثّ سبحانه على الجهاد أعقبه بما فيه من الفضل والثواب فقال:

٩٥ - ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمٗا ﴾.

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ عن الجهاد ﴿غير أولي الضرر﴾ أصحاب الأعذار كالمرضى والعمي والمعوقين وكبار السن ﴿والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ وهي الفضيلة ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ الجنة ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين﴾ بغير ضرر أو عذر ﴿أجراً عظيماً﴾.

القـــراءة

﴿غير أولي الضرر﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي: ﴿غير أولي الضرر﴾ بنصب الراء، وقرأ الباقون بالرفع.

٩٦ - ﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةٗ وَرَحْمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾.

﴿درجات منه﴾ منازل بعضها فوق بعض ﴿ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

في الهجرة من مكة إلى المدينة

ثم أخبر تعالى عن حال من قعد عن نصرة النبي ﷺ بعد الوفاة فقال:

٩٧ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

﴿إن الذين توفتهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ بالمقام مع الكفار وصحبتهم وترك الهجرة ﴿قالوا﴾ لهم

موبخين ﴿فيم كنتم﴾ أي في أي شيء كنتم؟ أفي أي أمر دينكم؟ ﴿قالوا﴾ معتذرين ﴿كنا مستضعفين﴾ عاجزين عن إقامة الدين ﴿في الأرض قالوا﴾ لهم توبيخاً ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ وتخرجوا من أرض الكفار كما فعل غيركم ﴿فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ يذهب بعض المفسرين جرياً مع الروايات في أسباب النزول، إلى أن المراد بالمستضعفين هم مسلمون مقيمون بمكة ولم يهاجروا، وإن بعضهم قتل يوم بدر بسلاح المسلمين حيث أكرهوا على القتال مع الكفار. لكن سياق الآية يأبى أن يكون هؤلاء من المسلمين الذين يخفون إيمانهم، أو أنهم أكرهوا على تكثير سواد الكفار، أو لعدم هجرتهم إلى المدينة، فكل هذه الأمور من الواضح أنها في غير مقدورهم، لكونهم مستضعفين غير قادرين فكيف يجازيهم الله بالنار التي ساءت مصيراً بهذا الوعيد الصارم فالأقرب أن يكونوا من المنافقين الذين امتحنهم الله لكي يبرهنوا على صدقهم بالهجرة وقولهم كنا مستضعفين تغطية لبقائهم، ويؤكد ذلك الآية السابقة رقم (٨٩)، أما المستضعفون في مكة من المسلمين الصادقين فقد ندب الله المسلمين في المدينة لقتال الكفار لإنقاذهم، لأنهم كانوا يدعون الله ويقولون ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ النساء (٧٥).

٩٨ ـ ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾.

﴿إلّا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ أي المستضعفين حقيقة وهو استثناء عمّن مأواهم جهنم ﴿لا يستطيعون حيلة﴾ لا يقدرون على الخروج ولا لهم نفقة ولا قوة ﴿ولا يهتدون سبيلاً﴾ لا يعرفون طريقاً يوصلهم.

٩٩ ـ ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾.

أنّه لما رغّب في الهجرة ذكر بعدها ما يجده المهاجر أمامه من أعداد كثيرة مهاجرة وسعة في الرزق فقال:

١٠٠ ـ ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً﴾ المراغم المهاجر كان الرجل إذا أسلم خرج عن قومه مغاضباً ومقاطعاً من الهجران، فقيل للخارج عن قومه في الأرض مراغم؛ وقيل للخارج من مكة إلى المدينة مهاجر ﴿كثيراً وسعة﴾ أي يجد عدداً كثيراً من المراغمين ويجد سعة في الرزق من فضل الله على الناس ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت﴾ في الطريق ﴿فقد وقع﴾ ثبت ﴿أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

قصر الصلاة في السفر

إنّه لما أمر بالجهاد والهجرة بيّن صلاة السفر والخوف رحمة منه وتخفيفاً لعباده فقال:

١٠١ - ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾.

﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ الرباعية من أربع إلى اثنين ﴿إنْ خفتم أن يفتنكم﴾ أي ينالكم بمكروه ﴿الذين كفروا إنّ الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾.

والحكم في الصلاة أن صلاة المقيم أربع وصلاة المسافر ركعتان، وصلاة الخوف ركعة، وعن ابن عباس أنه قال فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة رواه أحمد ومسلم وأبو داوود والنسائي، وهو فعل النبي ﷺ في جميع أسفاره وإقامته، ولم يثبت أن أتم الصلاة الرباعية في السفر، أما مدة إقامة المسافر التي يجوز له فيها قصر الصلاة فقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في كتاب المختارات الجلية «والصحيح أن رخص السفر القصر والفطر والمسح، مترتبة على وجود حقيقة السفر، الذي يسمى سفراً، وسواء أكان يومين أم أقل، لأن الله ورسوله قد رتبا الرخص على مجرد حقيقة وجوده، ولم يحدا ذلك بمدة، وأيضاً فالنبي ﷺ قصر في عرفة، ومزدلفة ومنى وخلفه أهل مكة يصلون بصلاته، ويقصرون كما كان يقصر، ولم يكونوا يتمون الصلاة، ولم يثبت عن النبي ﷺ شيء يدل على تحديده بيومين، والقاعدة أن النص المطلق في كلام الله وكلام رسوله يعلن الحكم بوجود حقيقته إذا لم يرد فيه حد عن الله ورسوله، وأيضاً فإن الحكمة وهي المشقة التي علق الشارع عليها التخفيضات موجودة في قصير السفر وطويله، وقال والصحيح أن يترخص المسافر إن كان صائماً أو تائهاً لا يقصد جهة معينة أو يطلب ضالة فإنه يدخل في العموميات ومثل هذا أحق بالرخصة من غيره وليس على منعه دليل، والصحيح أن المسافر إذا أقام بموضع لا ينوي فيه قطع السفر فإنه مسافر وعلى سفر، وإن كان ينوي إقامة من أربعة أيام فأكثر فلم يرد المنع من الترخيص في شيء منها، بل ورد عن النبي ﷺ وأصحابه ما يدل على الجواز، فإنه أقام بتبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة، وأقام بمكة أكثر من أربعة أيام وهو يقصر وكذلك روي عن كثير من الصحابة من هذا النوع شيء كثير».

صلاة الخوف

ثم ابتدأ تعالى بيان صلاة الخوف في جماعة فقال:

١٠٢ - ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

﴿وإذا كنت فيهم﴾ وأنتم تخافون العدو ﴿فأقمت لهم الصلاة﴾ الخطاب للنبي وهو لأمته ﴿فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم﴾ معهم فيتقلدوها ويضعوها أمامهم للمحافظة عليها، واستعمالها عندما يهاجمهم العدو من أمامهم حيث يرونه ﴿فإذا سجدوا﴾ الذين يقومون معك في الصلاة ﴿فليكونوا من ورائكم﴾ أي الذين لم يصلوا مع النبي ليحرسوكم من خلفكم ﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا﴾ معك ركعة من قبل ﴿فليصلوا معك﴾ بعد انصراف الطائفة الأولى للحراسة بدلهم ﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾ التي كانت معهم وقت الصلاة ﴿ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ وهذه هي الحكمة من الأمر في أخذ الأسلحة الخفيفة مع المقاتلين في أثناء الصلاة، كالبندقية والمسدس والرشاش والرمح والسيف وغيره ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إنّ الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

بعد الفراغ من صلاة الخوف

١٠٣ ـ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾.

﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم﴾ أمنتم وزال الخوف عنكم ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أدّوها كاملة بشروطها من ركوع وسجود وذكر فتكون أربعاً في الحضر وركعتين في السفر، بعد أنْ كانت في الخوف مع الإمام ركعة ﴿إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا﴾ أي فرضاً في أوقاتها المعلومة.

الحثّ على القتال

عاد الكلام إلى الحثّ على الجهاد فقال تعالى:

١٠٤ ـ ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

﴿ولا تهنوا﴾ تضعفوا وكل وهن فهو ضعف وبالعكس ﴿في ابتغاء القوم﴾ أي في طلبهم للكفار لتقاتلوهم ﴿إن تكونوا تألمون﴾ تشكون من ألم الجراح والوجع والتعب ﴿فإنهم يألمون كما تألمون﴾ أي مثلكم ولكنكم أفضل منهم بأنكم ﴿ترجون من الله ما لا يرجون﴾ الرجاء هو الأمل. والمعنى: تأملون من الله ثوابه لكم بالنصر عليهم أو الشهادة ودخول الجنة ﴿وكان الله عليماً﴾ بكل شيء ﴿حكيماً﴾ في صنعه. وسبب نزول هذه الآية كما هو واضح من السياق أن النبي ﷺ أمر أصحابه لما انصرفوا من غزوة أحد ـ وقد كانوا متعبين مثقلين لما أصابهم من الكرّ والفرّ ـ أن يسيروا في إثر فرقة من المشركين بقيادة أبي سفيان وأصحابه، فشكوا ما بهم من الجراحات فنزلت الآية.

حفظ الحقوق وعدم المحاباة في الأحكام

ثم خاطب الله نبيه فقال:

١٠٥ ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾.

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب﴾ القرآن ﴿بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ بما أنزل الله إليك في كتابه وأعلمك إياه من ظاهر ما يدلي به الخصوم إليك من حجج لأنك أمرت أن تحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وفي ذلك إشارة إلى أن الحاكم القاضي لا يجوز له أن يحكم بعلمه الخاص بل بما يرى ويعلم في مجلس القضاء ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ لا تكن أنت ومن بعدك لمن خان مسلماً أو معاهداً في نفسه أو ماله خصيماً تخاصم عنه، وتدافع عنه من مطالبه بحقه الذي خانه فيه ولهذا كان النبي ﷺ يقول كما في الصحيحين والسنن «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار».

وإنما في هذه المسألة لكون الخصومة بين منافق ظاهره الإسلام، والمفروض في المسلم ألا يسرق، وبين يهودي كافر يحاول ويدافع ويجادل قوم المنافق أن يبرئوا ساحة صاحبهم أمام الرسول ﷺ، وإلصاق التهمة باليهودي البريء، وعملهم هذا فيه تضليل للنبي ﷺ من أن يحكم بالحق والعدل، وإشعال نار العداوة بين المسلمين، وأهل الكتاب أنصار اليهودي وفي ذلك ضرر على المسلمين وعلى العدل وحقوق الإنسان التي جاء بها الإسلام فكان لا بد أن ينزل الوحي يبين للنبي وجه الحق من الباطل ويفضح أولئك المارقين.

١٠٦ ـ ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿واستغفر الله﴾ إذا اجتهدت فحكمت فأخطأت ﴿إنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾.

ثم نهى تعالى عن المجادلة والدفع عن أهل الخيانة مؤكّداً لما تقدّم فقال:

١٠٧ ـ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾.

﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أي يخونون أنفسهم فيجعلونها خائنة بارتكاب الخيانة والمراد بهم طعمة بن أبيرق وقومه الذين جادلوا عنه، ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ أي كثير الخيانة.

١٠٨ ـ ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾.

﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم﴾ الاستخفاء الاستتار والله معهم بالعلم ﴿إذ يبيتون

ما لا يرضى من القول﴾ جمهور العلماء على أن المشار إليه بالاستخفاء، والتبييت قوم طعمة، وهم الذين بيتوا احتيالهم ببراءة صاحبهم بالكذب ﴿وكان الله بما يعملون محيطا﴾.

١٠٩ ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾.

﴿ها أنتم هؤلاء﴾ الخطاب لقوم طعمة وكل من تصير حاله مثلهم ﴿جادلتم﴾ خاصمتم ودافعتم عنهم بالباطل ﴿في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ المجادلة شدة المخاصمة، والجدل شدة القتل، والمعنى من الذي يتوكل لهم منكم في الخصومة يوم القيامة.

ثم بيّن تعالى طريق التلافي والتوبة مما سبق منهم من المعصية فقال:

١١٠ ـ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿ومن يعمل سوءاً﴾ ذنباً يسوء به غيره ﴿أو يظلم نفسه﴾ بفعل المعصية ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.

قصة طعمة بن أبيرق المنافق

١١١ ـ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

﴿ومن يكسب إثماً﴾ ذنباً ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ لأن وباله عليها ولا يضر غيره ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ في صنعه.

١١٢ ـ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

﴿ومن يكسب خطيئة﴾ ذنباً صغيراً ويدخل في ذلك الخطأ غير العمد ﴿أو إثماً﴾ ذنباً كبيراً ﴿ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ وهذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق، والبهتان الكذب الذي يبهت المكذوب عليه، أي يحيره ويدهشه، فإن قيل الخطيئة والإثم اثنان فكيف قال به، والجواب أنها تعود على الكسب للفعل مهما كان نوعه صغيراً أم كبيراً.

ثم بيّن سبحانه لطفه برسوله وفضله عليه، إذ صرف كيدهم عنه وعصمه من الميل إليهم فقال:

١١٣ ـ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

﴿ولولا فضل الله عليك﴾ يا محمد ﴿ورحمته﴾ بالعصمة والوحي ﴿لهمت طائفة منهم﴾ أي من أصحاب طعمة، والهمة هنا الشروع في البدء بالفعل ثم التوقف عنه لسبب خارج عن إرادة الفاعل ﴿أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء﴾ لأن الله منعهم من ذلك وفضح أمرهم بالوحي ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ من الأحكام والغيب ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ ولو حرف امتناع لوجود، والمعنى: أي ولولا فضل الله عليك بالنبوة والتأييد بالعصمة والوحي الذي ينزل عليك حيث يبين لك أمر طعمة، وحولك بالقرآن عن تصديق الخائن حسب شرع جماعته وهم الطائفة التي همت أن يضلوك أن يجعلوك تخطىء في الحكم فتحكم على البريء، وتبرىء الجاني فيستزلوك عن الحق، وتلك الطائفة هم الذين يختانون أنفسهم بالمعصية، أو بمساعدة الخائن السارق وهم طعمة بن أبيرق وقومه الذي أرادوا أن يلصقوا جرمهم باليهودي البريء، فهو كقوله تعالى ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ فالحق هو المطلوب في الحكم، وهمهم بالتضليل، أي شروعهم فيه هو مجادلتهم للنبي ﷺ حيث قالوا إن صاحبنا بريء.

قال الشيخ محمد رشيد رضا في المجلد الخامس من تفسير المنار: «فالحادثة التي نزلت هذه الآيات في إثر وقوعها، كانت فذة في بابها، وما زال المفسرون يجزمون بأن المسلمين الذين سرق أحدهم أو خان بعضهم ونصره آخرون وبهتوا اليهودي برميه بجرمه وهو بريء، لم يكونوا مسلمين إلا في الظاهر، إنما هم منافقون في الباطن لأن مثل هذا الإثم المبين، والبهتان العظيم، لا يكون من المؤمنين الصادقين[1].

النجــوى

١١٤ - ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ والنجوى ما يتحدّث به الناس سراً ﴿إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ والأمر بالصدقة الحثّ عليها.

القــــراءة

﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة: ﴿فسوف يؤتيه﴾ بالياء أي فسوف يؤتيه الله. وقرأ الباقون: ﴿فسوف نؤتيه﴾ بالنون.

لما بيّن سبحانه التوبة أعقبه بذكر حال الإصرار فقال:

١١٥ - ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

---

(١) ص ٤٠١.

﴿ومن يشاقق الرسول﴾ نزلت فيمن ارتد عن الإسلام وفي المنافق طعمة، خاف على نفسه من الفضيحة فهرب إلى جهة الشرك والكفر حتى مات، ﴿من بعد ما تبيّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي دينهم وحكمهم ﴿نولّه ما تولّى﴾ نتركه في ضلاله ﴿ونصله﴾ ندخله ﴿جهنم وساءت مصيراً﴾.

١١٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾.

سبق تفسير الشرك في الآية (٤٨).

الشيطــــان

لما ذكر في الآية المتقدمة أهل الشرك وضلالهم ذكر في الآية حالهم وفعالهم فقال:

١١٧ ـ ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾.

﴿إنْ﴾ بمعنى ما ﴿يدعون﴾ يعبدون ﴿من دونه﴾ غير الله ﴿إلا إناثاً﴾ أصناماً لها أسماء إناث كاللات والعزى، ومناة وغيرها. إذ لم يكن حي من الأحياء في ذلك الوقت إلا به صنم يعبد من دون الله، يسمونه أنثى بني فلان ﴿وإنّ يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ يعتقد الجاهليون أنّ لكل صنم جنية، والمريد: المارد، الخارج عن الطاعة، أي مرد في الشر ويطلق على العارم الخبيث من الجن.

١١٨ ـ ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.

﴿لعنه الله وقال﴾ الشيطان ﴿لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ النصيب الحصة والسهم من الشيء، وهو ليس نصاً في قلة ولا كثرة، والمفروض المعين وأصله من الفرض أي الحز في الخشبة، ومن الفرض في العطاء، والفرض في الوجوب الشرعي مثل الصلاة المفروضة، ومن عبادك بعضاً منهم، قال الإمام محمد عبده: النصيب المفروض في الآية هو ما للشيطان في نفس كل أحد من الاستعداد للشر الذي هو أحد النجدين في قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ فهذا هو عون الشيطان على الإنسان وهو عام في كل الناس حتى المعصومين، ولكن أخبرنا الله تعالى أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

١١٩ ـ ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾.

﴿ولأضلنهم﴾ عن الحق بالوسوسة ودعوتهم للضلال بالتزيين ﴿ولأمنينّهم﴾ أصور لهم الأماني الباطلة أمامهم وكأنها حقيقة ماثلة فأزين لهم الأماني ﴿ولآمرنّهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ البتك القطع والشق، والأنعام

تطلق على الإبل والبقر والغنم، والمعنى هنا أن الجاهليين كانوا من تزيين الشيطان لهم أنهم، إذا ولدت الناقة خمسة أبطن وكان الخامس أنثى شقوا أذن الناقة وتركوها وامتنعوا عن الانتفاع بها قربة للأصنام وتسمى البحيرة ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ هذا عام في كل تغيير، فيشمل التغيير الحسي والمعنوي، فأما الحسي فهو تشبه النساء بالرجال وبالعكس، والمثلة بتعذيب الناس كقطع أجزاء من جسم الإنسان لقصد الانتقام أو الإهانة، كما يفعل في بعض المسجونين أو في الحروب. ويدخل في إخصاء الخدم ولا يستبعد أن ينجلي تفسير هذه الآية أكثر من ذلك في المستقبل فنسمع بأن إنساناً طلب تحويله إلى امرأة وبالعكس وما التجارب التي تجرى على أبناء الأنابيب فيما لا يحل إلا من هذا النوع. كجعل المرأة ظئراً. وأما التغيير المعنوي، ما ذهب إليه بعض المفسرين تغيير دين الله في الناس وهذا ما يحدث في عصرنا وما نراه في أفريقيا وجنوب شرقي آسيا من أعمال الكنائس وقسيسيها، في تغيير دين أبناء المسلمين بعد تزيين الأمور لهم بالمال والإغراء. ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً﴾ بإطاعته ﴿من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾.

١٢٠ - ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

الغرور: ما رأيت له ظاهراً تحبّه، وله باطن مكروه.

١٢١ - ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾.

﴿أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً﴾ مهرباً وملجأ، ويقال وقع في حيص بيص، إذا وقع فيما لا يقدر على التخلص منه، فالحيص التأخر والهرب، والبيص التقدم والسبق.

١٢٢ - ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً﴾هؤلاء عباد الله الذين ليس للشيطان ولا لأوليائه عليهم من سبيل ذكرهم الله في مقابلة أولئك الذين يتولون الشيطان ويتبعون إغواءه، على سنة القرآن في قرن الوعد بالوعيد.

لما ذكر سبحانه الوعد والوعيد قال عقب ذلك:

١٢٣ - ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

﴿ليس﴾ ثواب الله أو ليس الأمر منوطاً ﴿بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ لأنه ليس بأمانيكم أيها المسلمون أو ليس بأمانيكم يا مشركي قريش ولا أماني أهل الكتاب بل بالعمل الصالح ﴿من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ السوء المعاصي، والمجازاة تكفيرها أو غفرانها من الله تعالى، وسبب نزولها أن المسلمين واليهود والنصارى تفاخر كل بدينه، فقال أهل التوراة كتابنا خير الكتب ونبينا خير الأنبياء،

وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال المسلمون كتابنا ناسخ كل كتاب ونبينا خاتم الأنبياء فنزلت الآية. والمعنى: ليس شرف الدين وفضله، ولا نجاة أهله به أن يقول القائل منهم إن ديني أفضل وأكمل وأحق وأثبت، وإنما عليه إذا كان موقناً به أن يعمل بما يهديه إليه، فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمني والغرور، فلا أمر نجاتكم أيها المسلمون منوطاً بأمانيكم في دينكم، ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطاً بأمانيهم في دينهم، فإن الأديان ما شرعت للتفاخر والتباهي، فلا تحصل فائدتها لمجرد الانتماء إليها، بل شرعت للعمل، والآية مرتبطة بما قبلها سواء أصحَّ نزولها أم لم يصح، لأن قوله ﴿ويمنيهم﴾ يدخل فيه الأماني التي كان يتمناها أهل الكتاب غروراً بدينهم، إذ كانوا يرون أنهم شعب الله المختار، ويقولون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى.

١٢٤ ـ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾.

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ النقير: قدر نقرة النواة الخلقية، قال مسروق: لما نزلت ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء فنزلت الآية، وهذه تدل على ارتباط الإيمان بالعمل الصالح، فلا يقبل أحدهما إلا بوجود الآخر.

القـــراءة

﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فأولئك يُدخَلون الجنة﴾ بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون ﴿يدخلون الجنة﴾ بفتح الياء وضم الخاء.

ثم بين سبحانه من يستحق الوعد الذي ذكره قبل فقال:

١٢٥ ـ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾.

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ أسلم أخلص انقاد في عمله لله ﴿وهو محسن﴾ موحد ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ اتبع في دينه ملة إبراهيم حنيفاً أي حال كونه حنيفاً مثل إبراهيم، أي اتبعه في حنيفيته التي كان عليها وهي ميله عن الوثنية وأهلها وتبرؤه مما كان عليه أبوه وقومه.

إبراهيـم الخليـل

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ الخليل من الخلة، والخلة المودة، والمودة هنا خالصة لوجه الله لأن إبراهيم بنى بيت الله وأسكن عنده زوجته وولده. بواد غير ذي زرع بلا ماء ولا طعام ولا أصدقاء ولا أخلاء فكان الله له ولهم.

١٢٦ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾.

﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ إشارة إلى ما لا يعقل ودلالة على أن الأجرام السماوية غير الأرض مسكونة بمن لا يعقل ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ علماً وقدرة.

سؤال في النساء

ثم عاد كلام الله تعالى إلى ذكر النساء والأيتام وقد جرى ذكرهم في أول السورة فقال:

١٢٧ ـ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾.

﴿ويستفتونك في النساء﴾ وميراثهن ﴿قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ أي يفتيكم أيضاً إجابة لأسئلتكم ﴿في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ من حقوقهن من ميراث وصداق كامل في حالة إعجابكم في جمالهن وأموالهن ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ تتزوجوهن رغبة في جمالهن ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ أي أعطوهم حقوقهم كذلك من الميراث ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي العدل في مهورهن وميراثهن حسب الشرع ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾

عقد الصلح للنساء في العشرة

١٢٨ ـ ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

﴿وإن امرأة خافت من بعلها﴾ زوجها ﴿نشوزاً أو إعراضاً﴾ والخوف من النشوز هو العلم به عند ظهوره بأن يمنعها نفسه إعراضاً عنها، اشتغالاً بغيرها، قالت عائشة: «نزلت في المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها، ويريد فراقها، ولعلها تكون له محبة، أو يكون لها ولد فتكره فراقه فتقول له لا تطلقني وأمسكني وأنت في حل من شأني» رواه البخاري ومسلم، ﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ أي يوقعا بينهما صلحاً يرضيان به، وتدوم بينهما الصحبة، مثل أن تصبر على تفضيله أو تعفيه عن نكاحها، أو يصطلحا على ترك بعض مهرها، أو بعض أيامهما بأن يجعله لغيرها، والصلح خير من الفرقة، وخير من النشوز والإعراض ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ الشح الإفراط في الحرص على الشيء، ومنه البخل مع الحرص، والشح يعود عليهما بأن لا تطيب نفسه أن يعطيها شيئاً ولا تطيب نفسها أن تعطيه شيئاً من مالها فتعطفه عليها ﴿وأن تحسنوا﴾ العشرة بالصبر وغيره ﴿وتتقوا فإن الله كان بما تفعلون خبيراً﴾.

القــــراءة

﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿أن يصلحا﴾ بضم الياء وسكون الصاد وكسر اللام وقرأ الباقون: ﴿يصّالحا﴾ بفتح الياء وتشديد الصاد وفتح اللام.

النّهي عن ترك المرأة كالمعلّقة

لما تقدّم ذكر النشوز والصلح بين الزوجين أعقبه سبحانه بأنّه لا يكلّف من ذلك بما لا يستطاع فقال:

١٢٩ ـ ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء، ولو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل﴾ إلى التي تحبونها في القسم، أي في النكاح والنفقة ﴿فتذروها كالمعلّقة﴾ أي الزوجة الأخرى لا هي زوجة ولا هي مطلقة ﴿وإن تصلحوا وتتقوا﴾ الجور ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ لميل القلوب. والمعنى: لن تطيقوا أن تسووا بينهنّ في المحبة التي هي ميل الطباع فأخبر سبحانه أنّ أحداً لا يملك العدل بين النساء، والمعنى فيه تعلّق القلب لبعضهنّ أكثر منه إلى بعض، فَعَذَرهم فيما يكنون وأخذهم بالمساواة فيما يظهرون، قال الرسول ﷺ: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، وهو حديث صحيح.

١٣٠ ـ ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾.

﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته﴾ بأن يرزقها زوجاً غيره ويرزقه غيرها ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ ثم ذكر سبحانه بعد إخباره بإغناء كل واحد من الزوجين بعد الافتراق من سعة فضله ما يوجب الرغبة إليه في ابتغاء الخير منه فقال:

١٣١ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾.

﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي اليهود والنصارى وإيّاكم أيها المسلمون بالقرآن ﴿أن اتقوا الله﴾ حدوده ﴿وإن تكفروا﴾ بما وصّاكم به ﴿فإنّ لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ فلا يضرّه خلافكم ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾.

كمـال القـدرة

١٣٢ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

كرّره تأكيداً لتقرير موجب التقوى ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ شهيداً بأنّ ما فيهما من شيء من جماد وحيوان ونبات وملائكة يسبح بحمده.

لما ذكر سبحانه غناه عن الخلق بأنّ له ملك السماوات والأرض أعقب ذلك بذكر كمال قدرته على خلقه، وأن له الإهلاك والإنجاء، والاستبدال بعد الإفناء فقال:

١٣٣ - ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾.

﴿إن يشأ يذهبكم أيّها الناس﴾ المشركون والمنافقون والكافرون ﴿ويأت بآخرين﴾ أطوع له منكم فإنّه قادر على ذلك، وفي هذا تهديد للكفار يقول: إن يشأ يهلككم كما أهلك من كان قبلكم إذ كفروا به وكذبوا رسله فلا تغرنّكم الحياة الدنيا كما قال سبحانه: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

هل ينزل عذاب لأمة محمد في الدنيا؟

دلت الآيات الكثيرة من القرآن، والأحاديث بأن العذاب مؤخر عن أمة محمد في الدنيا إلى يوم معلوم عند الله وربما آخر الزمان[1]. ثم رغب الإنسان فيما عنده من الكرامة فقال:

١٣٤ - ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.

هذه الآية نزلت فيمن يطلب عاجل الدنيا بالتقرّب إلى الله، ولا يؤمن بالبعث كالمنافقين والمشركين.

العدل في الشهادة وتحمّلها

لما ذكر سبحانه أن عنده ثواب الدنيا والآخرة أعقبه بالأمر بالقسط والقيام بالحق وترك الميل والجور فقال:

١٣٥ - ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ بالعدل ﴿شهداء﴾ بالحق ﴿لله ولو على أنفسكم﴾ بأن تقروا على أنفسكم بالحق ولا تكتموه وأنتم تعلمون ﴿أو﴾ على ﴿الوالدين والأقربين إن يكن﴾ المشهود عليه﴿غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ أعلم بالمصالح منكم ﴿فلا تتبعوا الهوى﴾ في شهادتكم بأن تحابوا الغني لماله أو الفقير رحمة به ﴿أن تعدلوا وإن تلووا﴾ تحرفوا الشهادة، ﴿أو تعرضوا﴾ تنكلوا عن تحملها وأدائها ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾. والمعنى: يحذر الله المؤمنين أن يحكموا بالعدل عليهم وأن يكونوا مع الحق أينما كان، ويشهدوا به ولو على أنفسهم بالاعتراف به، والاعتراف بالحق فضيلة، ويجب أن يشهد الإنسان إذا ما دعي للشهادة بالحق حتى لو كانت الشهادة على أقرب الناس إليه، كأصوله وفروعه وحواشيه، ومن يمت له بصلة أو

---

(١) من يريد التفصيل في هذا الباب فليراجع كتابنا «تفسير مشكل القرآن القسم الثاني آيات العقيدة».

بغير صلة، ثم يجب أن تكون الشهادة خالصة لوجه الله دون مراعاة أحد فيها، لا يغريه مال الغني ولا صلة القربى، ولا ضعف المشهود عليه كالفقير أو المرأة فالكل أمام الله سواء وهو أعلم بمصالحهم منكم.

القـــراءة

﴿وإن تلووا أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعلمون خبيراً﴾ قرأ حمزة وابن عامر: ﴿وإن تلوا أو تعرضوا﴾ بضم اللام. وقرأ الباقون: ﴿وإن تلووا﴾ بواوين من لويت فلاناً حقه ليّاً.

إن الله سبحانه لما بيّن الإسلام أعقبه بالدعاء إلى الإيمان وشرائطه فقال:

١٣٦ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ الأول فعل ماض والثاني أمر وهو طلب من الله جلّ وعلا، ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ على الرسل والكتاب بمعنى الكتب.

القـــراءة

﴿آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿والكتاب الذي نُزِّل على رسوله﴾ بضم النون وكسر الزاي، ﴿والكتاب الذي أُنزل من قبل﴾ بضم الألف وكسر الزاي على ما لم يسمّ فاعله. وقرأ الباقون: ﴿نزل﴾ و﴿أنزل﴾ مبني للمعلوم.

المنافقـون وصفاتهـم

ثم لما رغّب في الإيمان والثبات عليه بيّن فساد طريقة من يكفر بعد الإيمان فقال:

١٣٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾.

١٣٨ ـ ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿بشر المنافقين﴾ أخبر يا محمد.

١٣٩ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

﴿الذين﴾ نعت للمنافقين ﴿يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ لما يتوهمون فيهم من القوة ﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾.

١٤٠ - ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾.

﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ القرآن في سورة الأنعام[1] ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم﴾ أي الكافرين والمستهزئين ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً﴾ بقعودكم معهم ﴿مثلهم﴾ في الإثم لأن الراضي كالفاعل، والساكت عن الحق شيطان أخرس ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر والاستهزاء.

القــــراءة

﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ قرأ عاصم: ﴿وقد نزل عليكم﴾ بفتح النون والزاي مشدّدة، وقرأ الباقون: بضم النون وكسر الزاي.

١٤١ - ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾.

﴿الذين يتربصون﴾ ينتظرون ﴿بكم﴾ الدوائر والفرص للانتقام ﴿فإن كان لكم فتح﴾ ظفر وغنيمة ﴿من الله قالوا﴾ لكم ﴿ألم نكن معكم﴾ في الدين والجهاد فأعطونا من الغنيمة ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ منكم من الظفر عليكم ﴿قالوا﴾ للكافرين ﴿ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾ أي أن غلبكم كان بفضل منا ومعاونتنا لكم بتزويدكم بأخبار المسلمين، ومعنى نستحوذ عليكم نستولي، فيكون مرادهم بذلك أنهم والكفار جنس واحد، وقلب واحد، فكأننا الذين استولينا، فلا بد أن نأخذ من الغنيمة ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ في الحالات التي يكون الكفار فيها على غير علم كامل واستعداد تام، كان المنافقون يشيرون عليهم بالامتناع عن الدخول في المعركة أو عدم القدوم إليها كما كان الشأن في غزوة بدر الصغرى بعد أحد مباشرة، ومراد الكلام: إظهار المنة من المنافقين على الكفار، أي فاعرفوا لنا هذا الحق عليكم ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر، ويتقاعدوا عن التوبة.

١٤٢ - ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿إن المنافقين يخادعون الله﴾ من صفات المنافقين إظهار خلاف ما يبطنونه من الكفر فيدفعون عنهم

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾.

الأحكام الدنيوية، وعملهم هذا هو عمل المخادع ﴿وهو خادعهم﴾ أي كاشف أمرهم فمجازيهم على خداعهم في الدنيا والآخرة ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾ مع المؤمنين ﴿قاموا كسالى﴾ متثاقلين، وإنما كانوا هكذا لأنهم يصلون حذراً على دمائهم، لا يرجون بفعلها ثواباً ولا يخافون بتركها عقاباً في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا» ﴿يراؤون الناس﴾ أي يصلون ليراهم الناس، ولولا الناس لما صلوا ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ أي لا ينطقون بذكر الله إلا بالقدر الذي يسمعهم الناس بما تحتاجه صلاتهم.

القـــراءة

﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ قرأ الكسائي في رواية نصير: (كسالى) بإمالة الألف التي قبل اللام وكسر السين، وقرأ الباقون: بفتح السين.

١٤٣ ـ ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾.

﴿مذبذبين﴾ المذبذب، المتردد بين أمرين، وأصل التذبذب التحرك والاضطراب، وهذه صفة المنافقين لأنهم حيارى في دينهم لا يرجعون إلى اعتقاد صحيح، ليسوا بالمشركين المصرحين بالشرك، ولا بالمؤمنين الصادقين، بل هم بين ذلك، بين المشركين والمسلمين، قال النبي ﷺ(١): «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعثر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تدري أيها تتبع» والعائرة، المترددة بين قطيعين، ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي أن الله سبحانه جازاه على نفاقه، فأضلّه ولم يفتح قلبه، وضلاله ليس له سبيل إلى الهدى بسبب نفاقه وعناده وإصراره عليه.

١٤٤ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾.

ومعنى الآية: لا تجعلوهم بطانتكم وخاصتكم، والسلطان الحجة الظاهرة، وإنما قيل للأمير سلطان لأنه حجة الله في أرضه بالحكم بأمر الله(٢).

١٤٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾.

﴿إن المنافقين في الدرك﴾ المكان، وقال الضحاك: الدرج إذا كان بعضها فوق بعض، والدرك إذا كان بعضها أسفل من بعض، فالجنة درجات، والنار دركات ﴿الأسفل من النار﴾ لزيادتهم على المشركين ﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ مانعاً من العذاب أي فهم مخلدون في النار لا يخرجون منها.

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

(٢) قد سبقت مثل هذه الآية في سورة آل عمران.

القـــراءة

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿في الدرك﴾ بسكون الراء، وقرأ الباقون بفتح الراء.

١٤٦ ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿إلّا الذين تابوا﴾ من النفاق والكفر فآمنوا ﴿وأصلحوا﴾ نيتهم وعملهم ﴿واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم﴾ أي رفع شوائب النفاق والرياء منه ﴿فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾.

١٤٧ ـ ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾.

﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم﴾ نعمه ما حرف استفهام معناه التقرير، أي إن الله لا يعذب الشاكرين المؤمنين ﴿وآمنتم﴾ والمعنى ما يصنع الله بعذابكم إن شكرتم نعمه، ما دمتم مؤمنين به وبرسوله، والإيمان مقدم في المعنى، وإنْ تأخر باللفظ وفي لغة العرب قد يتأخر اللفظ للاهتمام به ﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾ بنياتكم.

كيف نعامل المسيء ومتى نجهر له بالقول

إنّه لما سبق ذكر أهل النفاق وهو الإظهار خلاف الإبطان بيّن سبحانه أنّه ليس كل ما يقع في النفس يجوز إظهاره فقال:

١٤٨ ـ ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾.

﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ أي لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله ﴿إلا من ظلم﴾ وكان الله سميعاً عليما. وإليك ما جاء في تفسير المنار في تفسير هذه الآية. المعنى: السوء ما يسوء من يقال فيه، كذكر عيوبه ومساويه، والله لا يحب من عباده أن يجهروا فيما بينهم بذكر العيوب والسيئات، لأن في هذا مفسدتين كبيرتين فهو مجلبة للعداوة والبغضاء، وقد تفضي العداوة إلى هضم الحقوق وسفك الدماء وثانياً: فالجهر بالسوء بذكره على مسامع الناس يؤثر في نفوس السامعين تأثيراً ضاراً، لأن بعضهم يقتدي ببعض فمن سمع إنساناً يذكر آخر بسوء يقلّده في ذلك، لكن من ظلم فجهر بالشكوى من ظلمه شارحاً للحكام أو غير الحكام ممن ترجى نجدته ومساعدته على إزالة الظلم فلا حرج عليه في هذا الجهر، ولا يكون خارجاً عما يحبه الله تعالى، لأن الله لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظلم، ويخضعوا للظالم بل يجب أن يكونوا أعزاء أباة.

١٤٩ ـ ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾.

﴿إن تبدوا خيراً﴾ من أعمال البر ﴿أو تخفوه﴾ تعملوه سراً كالصيام والصدقة ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ ظلم ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ لم يزل ذا عفو مع قدرته، فاعفوا أنتم مع القدرة، ويقولون العفو عند المقدرة من أجمل الصفات وفي الصحيح «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً يعفو إلاّ عزاً وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله»[(١)].

الكفـر والإيمـان

لما قدم سبحانه ذكر المنافقين أعقبه بذكر أهل الكتاب والمؤمنين فقال:

١٥٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾.

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله و﴾ محل كفرهم ﴿يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض﴾ الرسل ﴿ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك﴾ التفريق بإيمانهم ببعض الرسل وتكذيبهم ببعض ﴿سبيلاً﴾ أي مذهباً يذهبون إليه وديناً يدينون به وهم اليهود والنصارى.

١٥١ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾.

﴿أولئك﴾ المشار إليهم في الآية السابقة ﴿هم الكافرون حقاً﴾ توكيداً لكفرهم إزالة لتوهم من يتوهم أن إيمانهم ببعض الرسل السابقين يزيل عنهم اسم الكفر ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

١٥٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾.

﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ كلهم مثل المسلمين ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾

من قبائح اليهود وأفعالهم

لما أنكر سبحانه على اليهود التفريق بين الرسل في الإيمان أعقبه بالإنكار عليهم في طلبهم المحالات مع ظهور الآيات والمعجزات فقال:

١٥٣ ـ ﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ

(١) رواه مسلم وأحمد.

ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾.

﴿يسألك أهل الكتاب﴾ اليهود والنصارى ﴿أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ جملة ويكون مكتوباً يقرؤونه تعنتاً منهم ﴿فقد سألوا﴾ أي فقد سأل آباؤهم وهم على ملة آبائهم يقتدون ﴿موسى أكبر من ذلك﴾ الذي سألوك ﴿فقالوا أرنا الله جهرة﴾ عياناً، شبهوا ربهم بأنفسهم فرفعوا أنفسهم إلى ما فوق مرتبتها وقدرها، وما قدروا الله حق قدره ﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ الصاعقة نار من السماء نتيجة تفريغ كهرباء بين السحاب والأرض، إذا أصابت حيواناً أو نباتاً أحرقته، وهو يحدث أكثر ما يحدث بين الأجسام المدببة على سطح الأرض من شجر أو نحوه، وبين السحاب ولذا كان من الخطأ الاستظلال بالشجر والمظلات في العواصف ذات البرق، وقد استخدم الخبراء سهولة حدوث التفريغ بين الأجسام المدببة والسحاب لوقاية الأبنية من الصواعق وذلك بإقامة قضبان وأعمدة حديدية أو نحاسية مدببة الأطراف، فإذا نزلت الصاعقة بالبناء فإنها تصيب القضيب المدبب أول ما تصيب، وتنصرف الشحنة الكهربائية إلى الأرض بدلاً من أن تدك البناء، ويسمى مثل هذا القضيب بصارف الصواعق، هذا هو التعريف العلمي للصاعقة، وهذا ما يفعله العلماء اليوم لتحاشيها، ولكن هذه الصواعق تختلف عن تلك التي أرادها الله لبني إسرائيل، فأخذتهم كيفما أراد الله وبالصفة التي حدثت بها، وقد بين الله أنها أرسلت عليهم بظلمهم وإثمهم حيث طلبوا ما لم يؤمنوا به ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ إلهاً، ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ المعجزات على وحدانية الله ﴿فعفونا عن ذلك﴾ هذا يدل على أن قوماً منهم صعقوا ثم جاء بعدهم آخرون واتخذوا العجل، فعفا الله عن ذلك لحكمة يراها الله سبحانه، والحجة البينة وهي اليد والعصا وبقية الآيات التسع ﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة ظاهرة كما في الأعراف آية (١٣٣).

ثم حكى عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم فقال:

١٥٤ ـ ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾.

﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ هو الجبل المعروف بسيناء، وكيفية رفعه بينه آيات أخرى إذ يقول الله في سورة الأعراف ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ والنتق الزعزعة والهز والجذب، والنتق قد يكون ذلك بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير وهو في الأصل بمعنى الزعزعة ﴿بميثاقهم﴾ بسبب ميثاقهم ليأخذوا ما أُنزل إليهم بقوة ويعملوا به مخلصين، ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ باب القرية بانحناء ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ باصطياد الحيتان وما حرم عليهم فيه ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ على ذلك فنقضوه، سبق تفسير ذلك في البقرة آية: (٦٣) وسيأتي في الأحزاب آية: (٧). والميثاق الغليظ العهد.

القــــراءة

﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ قرأ نافع: برواية قالون «لا تعْدّوا» ساكنة العين مشددة الدال.

وقرأ ورش: ﴿لا تعدّوا﴾ بفتح العين، وقرأ الباقون: ﴿لا تعدوا﴾ خفيفة الدال.

ثم ذكر سبحانه أفعالهم القبيحة ومجازاتهم إياهم بها فقال:

١٥٥ ـ ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ ما صلة مؤكدة: قال الزجاج والمعنى: فبنقضهم ميثاقهم وهو أنّ الله أخذ عليهم الميثاق أن يتبعُوا ما أنزل عليهم في كتابهم التوراة، من ذكر النبي محمد ﷺ والميثاق هو العهد الذي أخذ عليهم على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وأن ينوهوا بذكره وألا يكتموا شيئاً مما في الكتاب من الأحكام والأخبار ﴿وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم﴾ للنبي محمد ﷺ ﴿قلوبنا غلف﴾ لا تعي كلامك فهي مغشاة بأغطية وقالوا ذلك استهزاءً بالنبي محمد ﷺ ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ أي بسبب كفرهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر وهي عقوبة نفسية لهم. ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ منهم.

١٥٦ ـ ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾.

﴿وبكفرهم﴾ بمحمد ﷺ والقرآن الكريم، ﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ أي كذباً وباطلاً حيث رموها بالزنا.

١٥٧ ـ ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾.

﴿وقولهم إنا قتلنا الميسح عيسى ابن مريم﴾ أي اعترافهم بالقتل لشبيه له وما قتلوه حقيقة بل رفعه الله إليه لذلك فهم يعذبونه لأجل القتل ﴿رسول الله﴾ فرد الله تكذيباً لهم ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ والذي شبه لهم هل هو شخص من أصحابه أو هو من أعدائه أو هو خيال تخيلوه بالقتل والصلب، وإنّ ذلك الخيال شبه لهم بشبه عيسى فكل ذلك لم نكلف الإيمان به، وليس فيه خبر صحيح، ولم يعلمنا الله ورسوله بشيء من ذلك التفصيل، والله الذي جعل النار تكون برداً وسلاماً على إبراهيم لما ألقاه أعداء الله فيها وجاء بعيسى من أم واحدة، وجاء بآدم من الطين قادر على كل شيء ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه﴾ أي في قتل عيسى ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ في خيالهم ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ أي وما قتلوه حقيقة بل شبّه وخيّل لهم وتصوروا تصوراً أنهم قتلوه، ولذلك اختلفوا وكانوا في شك، فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون كما في البقرة رقم (٥٥).

١٥٨ ـ ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لا يبقى أحد منهم إلاّ ويؤمن به فقال:

١٥٩ ـ ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ .

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أي وما من أحد من أهل الكتاب أحد ﴿إلا ليؤمننّ به﴾ أي بعيسى إيماناً صحيحاً وهو أنّه عبد الله ورسوله ﴿قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام في آخر الزمان موته الأخيرة. ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يشهد عليهم بما تظهر به حقيقة أمره معهم[١].

١٦٠ ـ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ .

﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ أي بسبب ظلمهم وعنادهم وكثرة أسئلتهم حرم الله عليهم أموراً كانت مباحة لهم من قبل، وذلك مثل تحريم أكل كل ذي ظُفُر من الحيوانات ﴿وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً﴾ ومما نهوا عنه كذلك أخذ الربا كما في الآية التالية.

١٦١ ـ ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾ في التوراة ﴿ وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾

نفي اللحن عن القرآن

ثم ذكر سبحانه مؤمني أهل التوراة فقال:

١٦٢ ـ ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ استثناء لمؤمني أهل الكتاب ومعنى الراسخين في العلم أي الثابتون في العلم ولم يغيروا ولم يبدلوا فيه، ولم يكذبوا أو يكتموا ما عرفوا فآمنوا كعبد الله بن سلام ومن آمن معه، ومن آمن من أهل الإنجيل كمن قدم من أهل الحبشة وغيرهم، ﴿والمؤمنون﴾ المهاجرون والأنصار كل هؤلاء ﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ من الكتب ﴿والمقيمين الصلاة﴾ منصوب على المدح، أو الاختصاص، والمعنى: أذكر أو أخص المقيمين، ومثله موجود في كلام العرب وليس ذلك لحناً من القرآن ﴿والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الأخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾

(١) سبق تفسير الآية بالتفصيل في سورة آل عمران آية: ٥٥.

القــــراءة

﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ قرأ حمزة: ﴿أولئك سيؤتيهم﴾ بالياء إخباراً عن الله، وقرأ الباقون: ﴿سنؤتيهم﴾ بالنون، أخبر عن نفسه.

وحدة الوحي وحكمة إرسال الرسل

ثم أجمل ذكر الرسل بعد تسمية بعضهم فقال:

١٦٣ ـ ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾.

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ جمع سبط وهو يطلق على ولد الولد، وأسباط بني إسرائيل اثنا عشر سبطاً، فكل نسل ولد من أولاد يعقوب العشرة، وولدي ابنه يوسف وهما ﴿أفرايم ومنسيس﴾ وقيل إن الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في ولد إسماعيل، وهذا هو المعروف عند أهل الكتاب، وأخطأ من قال بأن الأسباط هم أبناء يعقوب، لأن عددهم لا يصل إلى اثني عشر، ولا كانوا معصومين ليكونوا رسلاً، وقصتهم مع يوسف معروفة، ﴿وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ كتاباً خاصاً مزبوراً أي مكتوباً.

القــــراءة

قرأ حمزة: ﴿وآتينا داود زُبوراً﴾ برفع الزاي، وقرأ الباقون: ﴿زَبوراً﴾ بالفتح.

١٦٤ ـ ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾.

﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل﴾ أي في القرآن والوحي ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى﴾ بلا واسطة ﴿تكليماً﴾ تأكيد كلم، يدل على أنه سمع كلام الله حقيقة وفي البقرة آية (٢٥٣) ﴿منهم من كلّم الله﴾ وفي الأعراف ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ آية (١٤٣).

١٦٥ ـ ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

﴿رسلاً مبشرين﴾ بالثواب والخير من آمن ﴿ومنذرين﴾ بالعقاب والشر من كفر، وكان إرسال الرسل ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ لئلا يحتجوا في ترك التوحيد والطاعة فيقولوا ربنا لولا أرسلت

إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين، والله يقول في الإسراء ﴿وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً﴾ ويستدل العلماء بهذه الآيات على نجاة أهل الفترة، ما بين عيسى ومحمد في الجاهلية، وكل من لم تبلغه الدعوة، لأن الدين لا يستقل العقل البشري بالوصول إليه ومعرفته إلا عن طريق الوحي من الأنبياء والرسل، بلغوه للناس ليبلغوه لمن بعدهم ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾

ثم قال سبحانه بعد إنكارهم وجحودهم:

١٦٦ ـ ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ من القرآن بنبوتك يا محمد، والمتبادر من السياق أن الآية نزلت رداً على سؤال من الكفار، فالله عز وجل بين ذلك ويعلم مع إبانته أنه حق ﴿أنزله بعلمه﴾ أي أنزل إليك بعلم منه أنك خير خلقه ﴿والملائكة يشهدون﴾ لك أيضاً، وكيفية شهادة الملائكة بما يتزلون به على النبي ﷺ بالوحي، وما يخبرونه به من أمور الكفار ومما لا يستطيع بشر أن يعلمه، أو يتوصل إليه بدونهم، والكفار كانوا يعترفون بوجود الملائكة ولكن كان كفرهم عناداً واستكباراً ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي لا يهمك من يطلب منك برهاناً وشهادة بعدالة الله.

١٦٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾.

﴿إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله﴾ صدوا الناس عن دعوة الإسلام وهم اليهود، وكان صدّهم عن الإسلام قولهم للمشركين ولأتباعهم ما نجد صفة محمد في كتابنا ولا هو بنبي ﴿فقد ضلّوا ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق فاستحقوا أن يكونوا مغضوباً عليهم جزاء كفرهم وعنادهم وإصرارهم.

جـزاء الكافريـن

١٦٨ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾.

﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم﴾ من مات منهم على الكفر، وفي الدنيا لم يكن الله ليستر عليهم قبيح فعالهم، بل يفضحهم، ويعاقبهم بالقتل والجلاء والسبي وفي الآخرة بالنار ﴿ولا يهديهم طريقاً﴾ ينجون فيه إلى الهدى.

١٦٩ ـ ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

﴿إلّا طريق جهنم﴾ الطريق المؤدي إليها بفعالهم وإصرارهم على الكفر ﴿خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً﴾ يعني كان عذابهم على الله هيناً.

ثم عاد سبحانه إلى العظة وعمّ الخلق بذلك فقال:

١٧٠ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

﴿يا أيها الناس﴾ المخاطب أهل مكة ويدخل كل الناس ﴿قد جاءكم الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم﴾ خيراً منصوب على الحمل على معناه، أي على ضمير جواب يكن خيراً لكم مثل قولك لمن تأمره أو تنهاه، انته خيراً لك أو ادخل فيما ينفعك خيراً لك. والمعنى: فآمنوا خيراً لكم أي إذا كان الأمر كذلك فآمنوا فإن تؤمنوا يكن الإيمان خيراً لكم، لأنه يزكيكم ويطهّركم من الأدناس الحسية والمعنوية، ويؤهّلكم للسعادة الأبدية، وأما الخليل وتلميذه سيبويه فيقدران، واقصدوا بالإيمان خيراً لكم أي مما أنتم عليه ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾ عليماً بما يكون من إيمان أو كفر وحكيماً في تكليفكم مع علمه بما يكون منكم.

المسيح ابن مريم في نظر القرآن

ثم عاد سبحانه إلى حجاج أهل الكتاب فقال:

١٧١ ـ ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ النصارى والغلو الإفراط ومجاوزة الحد، ومنه غلاء السعر، وغلو النصارى في عيسى، قول بعضهم هو الله، وقول بعضهم هو ابن الله، وقول بعضهم هو ثالث ثلاثة ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ أي لا تقولوا إنّ الله له شريك ابن أو زوجة، وهذه الآيات نزلت في محاجة النصارى خاصة بعد محاجة اليهود، وإقامة الحجة عليهم، وقد غلت اليهود في تحقير عيسى وإهانته والكفر به، ففرطوا كل التفريط، فغلت النصارى في تعظيمه وتقديسه فأفرطوا كل الإفراط، فلما دحض الله تعالى شبهات أولئك قفى بدحض شبهات هؤلاء بهذه الآيات ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ أي ذو روح مرسلة من عند الله كسائر الأرواح الحية، يأكل مثل الناس ويشرب مثلهم، فروحه مثل روحهم وإضافتها إليه تشريف ومثله ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ كما في سورة الجاثية، ﴿فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا﴾ آلهتنا ﴿ثلاثة﴾ رفع بإضمار لا تقولوا آلهتنا ثلاثة ﴿انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه﴾ ومعنى سبحانه تبرئة من ﴿أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي قيماً على خلقه مدبراً لهم.

لما تقدّم ذكر النصارى والحكاية عنهم في أمر المسيح أعقبه سبحانه بالرد عليهم فقال:

١٧٢ ـ ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾.

﴿لن يستنكف﴾ يتكبر ويأنف ﴿المسيح﴾ الذي زعمتم أنه إلٰه عن ﴿أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ عند الله لا يستنكفون كذلك أن يكونوا عبيداً، وفي ذلك ردّ على من زعم أن الملائكة آلهة أو بنات الله كما ردّ بما قبله على النصارى الزاعمين ذلك ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾.

١٧٣ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم﴾ ثواب أعمالهم ﴿ويزيدهم من فضله﴾ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والزيادة هي مضاعفة الحسنات ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ عن عبادته ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً﴾ مؤلماً هو عذاب النار ﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً﴾ يدفعه عنهم ﴿ولا نصيراً﴾ يمنعهم منه.

الدعـوة عامـة

لما فضّل الله ذكر الأحكام التي يجب العمل بها ذكر البرهان بعد ذلك ليكون الإنسان على ثقة ويقين فقال:

١٧٤ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾.

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان﴾ حجة بالنبي محمد ﷺ ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ بيناً هو القرآن وإنما سماه نوراً لأنّ الأحكام تبين به بيان الأشياء بالنور.

١٧٥ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾ أي استمسكوا، والهاء تعود إلى النور وهو القرآن ﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ أي سيرحمهم ومن يرحمه الله يدخله الجنة ﴿وفضل﴾ والفضل الرزق والإحسان سواء في الدنيا أو الآخرة فكله فضل من الله ورحمة ﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ أي يوفقهم لإصابة الطريق المستقيم وهو دين الله، والمستقيم أقرب خط موصل بين نقطتين. وهذه هي هداية التوفيق.

عودة إلى المواريث

لما بيّن سبحانه في أول السورة بعض سهام الفرائض ختم السورة ببيان ما بقي من ذلك فقال:

١٧٦ ـ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

﴿يستفتونك﴾ أي يسألونك عن الكلالة من مات وليس له ولد ولا والد ولا عصبة ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة إنّ امرؤ هلك ليس له ولد﴾ ولا والد لأنه كان معروفاً لديهم فاكتفى بذكر أحدهما ﴿وله أخت﴾ شقيقة ﴿فلها نصف ما ترك﴾ عند انفرادها ﴿وهو يرثها﴾ أي أخوها لو كانت هي الميتة، ميراث مالها كله بالتعصيب وذلك ﴿إن لم يكن لها ولد﴾ ولا والد ﴿فإن كانتا اثنتين﴾ يعني أن الميت ترك أختين بدل الأخت الواحدة ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ أخوهما الميت ﴿وإن كانوا﴾ أي الورثة ﴿إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم﴾ شرائع دينكم ﴿أن تضلوا﴾ لئلا تضلوا في شأن المواريث ﴿والله بكل شيء عليم﴾.

تمَّ بعون الله تفسير سورة النساء

سُورَةُ المَائِدَة

أول سورة المائدة سميت بها لورود اسم المائدة في آخر السورة.

لما ختم الله جل وعلا سورة النساء . كر أحكام الشريعة افتتح سورة المائدة أيضاً ببيان الأحكام فقال:

١ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ عام في العقود والعهود التي تعقدها الجماعات والدول فيما بينها للمصلحة كالمعاهدات والاتفاقيات أو العقود التي يبرمها الناس فيما بينهم كعقود البيع والدين والوكالة والكفالة وغيرها، أو العقود التي من طرف واحد كالنذور والأيمان التي يعقدها الإنسان على نفسه ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ الإبل والبقر والغنم والوحوش كلها، وكل حي لا يميز فهو بهيمة، وإنما قيل لها بهيمة لأنها أبهمت عن أن تميز ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ محرماً في القرآن ﴿غير محلي الصيد﴾. والمعنى: أحلت لكم بهيمة الأنعام غير مستحلي اصطيادها ﴿وأنتم حرم﴾ الحرم: المحرمون، وواحد الحرم حرام، يقال رجل حرام وقوم حرم ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ من التحليل والتحريم لا معقِّب لحكمه.

٢ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ جمع شعيرة، وهي مما جعله الله علماً لطاعته، والمراد بها هنا ما حرم الله تعالى من مناسك الحج وغيرها كحرمة الأماكن المقدسة وحدودها ﴿ولا الشهر الحرام﴾ ولا تحلوا الشهر الحرام باستئنافكم القتال فيه، جنس الشهر الحرام رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم[1] ﴿ولا الهدي﴾ ما أهدي إلى الحرم من نعم للتوسعة هناك، من عاكف وباد، تقرباً إلى الله استجابة لدعوة نبي الله إبراهيم ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[2] ﴿ولا القلائد﴾ جمع قلادة وهي العلامة التي

(١) ذكره مفرداً وهو يعني الجنس للمجموع.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

توضع على الحيوان ليعرف العرب ما كانت تقلد إلا الإبل، وهي داخلة في عموم الهدي فيكون المراد بها ما يتقلده الناس في ذلك الوقت، ليعرف الشخص بأنه محرم، وكان من يرجع من الحج يتقلد من لحاء شجر الحرم ليأمن على نفسه فلا يعرض له أحد، فأقر الله تأمين المقلد ليتعلم العرب أن من تقلد لأجل النسك كان في جوار المسلمين وحمايتهم، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي[1]، هذا نوع خاص من أنواع الهدي وهو الهدي الذي يفتل له قلائد، أو عرى، فيجعل في أعناقه إظهاراً لشعائر الله وحثاً للناس على الاقتداء وتعليمها لهم للسنة وليعرف أنه هدي فيحرم، ولهذا كان تقليد الهدي من السنة، ﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ ولا تقاتلوا وتستحلوا حرمة من أم البيت الحرام أي قصده ﴿يبتغون فضلاً﴾ رزقاً ﴿من ربهم ورضواناً﴾ بالتجارة والربح ولعل في قربهم من البيت الحرام ما يجعل الهداية تدخلهم فيؤمنوا ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ لفظ الأمر معناه الإباحة ومثله ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا﴾[2] والمعنى: إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه بعد أداء المناسك، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد حظر فيفيد الإباحة.

﴿ولا يجرمنكم﴾ أي لا يحملنكم أو لا يدخلنكم في الجرم ﴿شنآن قوم﴾ بغضهم ﴿أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ في المسجد فتقاتلوهم إذ دخلتم عليهم كما لا يحملنكم البغض وصدهم إياكم فيما سبق على الاعتداء عليهم أو على غيرهم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ ليعن بعضكم بعضاً والبر ما أمر الإنسان به من أعمال الخير وكل ما فيه حسنة، والتقوى ترك ما نهي عنه ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ والإثم المعاصي والعدوان التعدي في الحقوق والحدود ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ لمن خالفه في استباحة ما حرمه في هذه الأماكن والأوقات.

القـــراءة

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وإسماعيل[3] عن نافع: ﴿شنْآن﴾ بسكون النون الأولى في الموضعين، والباقون: ﴿شنَآن﴾ بفتحها.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إن صدوكم﴾ بكسر الهمزة والباقون بفتحها.

المحرمات من المطعومات

ثم بيّن سبحانه ما استثناه من الآية المتقدمة لقوله إلا ما يتلى عليكم فقال مخاطباً:

٣ ـ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

---

(١) من علماء نجد له مؤلفات عديدة.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

(٣) هو إسماعيل بن أبي أويس أبو عبد الله المدني ابن أخت مالك بن أنس، راوي نافع.

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثْمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ الميتة بدون ذكاة شرعية، والدم المسفوح ولحم الخنزير، وكل ذبح قصد به غير وجه الله، وأهلَّ لغير الله به رفع الصوت عند ذبحه أو قدم للأصنام أو الأوثان أو الأشخاص تعظيماً لهم وسبق تفسير ذلك في سورة البقرة آية (١٧٣) ﴿والمنخنقة﴾ هي التي تخنق فتموت بحبل الصائد وغيره كيفما وقع ذلك ﴿والموقوذة﴾ التي تضرب حتى تشرف على الموت، ثم تترك حتى تموت وتؤكل بغير ذكاة، وفي الصحيح «إذ رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله»[١] والمعراض مثل رمح القتال في رأسه حديدة مدببة مسنونة، ﴿والمتردّية﴾ الواقعة من جبل أو حائط أو في بئر إذا سقط ﴿والنطيحة﴾ التي تنطحها أخرى ذات قرن ﴿وما أكل السبع﴾ أي ما افترسه السباع من الحيوانات المفترسة فمات ﴿إلا ما ذكيتم﴾ إلا ما لحقتم من هذا كله، وبه حياة فذبحتموه والاستثناء على المذكور آنفاً، فما أدركت حياته بأن توجد له عين تطرف، أو ذنب أو يد تتحرك فأكله حلال، إذا سال الدم بذبحه، وفي الصحيح حديث جارية كعب أنها أصيبت شاة من غنمها، فأدركتها فذبحتها بحجر فسئل النبي ﷺ فقال «كلوها»[٢].

وفي حديث رافع بن خديج، قال قلت يا رسول الله إنا نلقى العدو غداً وليس معنا مدى، فقال النبي ﷺ «فكلوا ما لم يكن سناً أو ظفراً»[٣]، قال الله تعالى: ﴿وما ذبح على النصب﴾ وجمعه أنصاب، وهي أصنام تنصب فتعبد من دون الله أو حجارة تعظم يذبحون عليها وسواء أذبح عليها أو لأجلها فكله حرام وفسق ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ وهي القداح واحدها زلم، وهي عبارة عن حصي بيض كانوا في الجاهلية إذا أرادوا غدواً أو رواحاً، كتبوا في أحدهما أمرني ربي، وفي الآخر نهاني ربي، ثم يخلطونها، فأيهما خرج عملوا به والنتيجة تعتمد على الحظ، وتكون عادة عند الكهان أو سدنة الكعبة، وهذا مثل قول المنجمين، ﴿ذلكم فسق﴾ ارتكاب ما حرم الله مما ذكر في الآية وخروج عن طاعته.

قال تعالى: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أي من اليوم الذي دخل فيه الرسول ﷺ مكة في حجة الوداع حيث نزلت الآية، وليس المراد المدة الزمنية المحددة بالساعات وإنما المراد الكشف عن ابتداء يأس من بطلان الإسلام ورجوع المسلمين كفاراً، فسلموا أمرهم وأسلم الكثير منهم ﴿فلا تخشوهم﴾ أن يظهروا عليكم ولا على دينكم ﴿واخشون﴾ في مخالفة أمري. ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ نزلت عشية عرفة وبعدها توفي النبي ﷺ بواحد وثمانين يوماً واليوم هو يوم عرفة وكان يوم الجمعة، والمعنى: أكملت لكم شرائع دينكم ومنها عز الدين وظهوره وذل المشركين، ومنها نفي المشركين عن البيت فلم يحج معهم مشرك عامئذ ﴿وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ بزوال الخوف من العدو، والجهر بالدعوة الإسلامية علنا في أي

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري وأحمد.

(٣) رواه البخاري.

مكان ورضيت لكم الإسلام لأمري والانقياد لطلبي طاعة منكم لي فالزموا هذه الحال. قال تعالى: ﴿فمن اضطر في مخمصة﴾ المجاعة بأن دعته الضرورة إلى أكل ما حرم عليه مما تقدم ﴿غير متجانف لإثم﴾ غير مائل إلى ذلك، والجنف الميل، أي غير قاصد التعرض لمعصية أو الأكل أكثر مِمَّا يسدّ رمقه ويدفع عنه الضرر، ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ لمن أكل مضطراً.

الحلال من المطعومات

لما قدّم سبحانه ذكر المحرمات أعقبه بذكر ما أحلّ فقال:

٤ ـ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم﴾ من الطعام ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ ما تستطيبه النفوس مما لم يحرم بالنص ويخرج بذلك الخبائث فإنها محرمة، والخبيث ما فيه مجلبة مفسدة وضرر للنفس والمجتمع، والطيب عكسه ﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ الجوارح التي تعلم للصيد من الكلاب والسباع، والطير مما يقبل التعليم وكل شيء صاد فهو جارح، وسميت جوارح لأنها تكتسب مثل قوله تعالى: ﴿وما جرحتم في النهار﴾، أو لأنها تجرح ما تصيد ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ من آداب الصيد وأصوله والتعبير بمكلبين يفيد أن هذه الجوارح يجب أن تصيد كالحالة التي تصيد فيها الكلاب، لأن الغالب من الصيد إنما يكون بالكلاب ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ أي لكم، ومن ليست زائدة بل للتبعيض أي كلوا منها واتركوا لها منها ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ عند إرسال الجارح وهو قول بسم الله الرحمن الرحيم وهي شرط في إباحة الصيد الذي قتله الجارح ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾.

٥ ـ ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ من الرزق وهو عام في كل شيء ما لم يحرم واليوم زمن نزول القرآن وإنما كرر لفظ الطيبات تأكيداً ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أي ذبائحهم وأهل الكتاب اليهود والنصارى، وكل من هو محسوب منهم من ظاهره ﴿وطعامكم حل لهم﴾ والآية أطلقت إباحة ذبائح أهل الكتاب، فإن تيقّن أنهم ذكروا غير اسم الله فلا يأكل.

الـزواج بالكتابيـات

﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي النساء الحرائر العفائف يحل الزواج بهن، والمجوس ليسوا من أهل الكتاب ﴿إذا آتيتموهن أجورهن محصنين﴾ إذا دفع لهن الصداق على حسب تعاليم الشرع الإسلامي بعقد الزواج ﴿غير مسافحين﴾ غير زوان ﴿ولا متخذي أخدان﴾ غير متخذي أخلاء يزنون بهن سراً ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ والمعنى من أحل ما حرم الله أو حرم ما أحله الله فهو كافر، وقد ورد في النساء تفسير ذلك في آية: (٢٥).

الوضوء والغسل والتيمم والتيسير في ذلك

لما تقدم الأمر بالوفاء بالعقود ومن جملتها إقامة الصلاة ومن شرائطها الطهارة بين سبحانه ذلك بقوله:

٦ - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾ وأنتم على غير وضوء ﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾ أي بأن تدخل المرافق معها كفعله ﷺ ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ وسواء أكانت الباء للإلصاق أم للتبعيض فالمفهوم من السياق بعض الرأس وهو ما طالته يده، وهذا من فضل الله وتيسيره على الناس، والأفضل مسح جميع الرأس وهو السنة ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ قرىء بنصب لام الأرجل وكسرها، فمن قرأ بالنصب غسل، ومن قرأ بالخفض مسح، وهذا من تيسير الله تعالى على عباده، والسنة الغسل كفعله ﷺ ﴿إلى الكعبين﴾ معهما ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ أي فاغتسلوا ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾ أي في السفر ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ المكان الذي تقضى فيه الحاجة كدورة المياه وبيت الخلاء ﴿أو لامستم النساء﴾ بالجماع، سبق تفسير الآية في النساء آية (٤٣) ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ تراباً طاهراً ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ بضربتين واحدة للوجه والأخرى لليدين بحد الكوعين وهما العظمان الناتئان وهناك من يرى الاكتفاء بالطريقة الأولى والثانية سنة كما أن المسح من الكوع إلى المرفق سنة أيضاً ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم، وقد تيمم بعض الصحابة لشدة البرد وخوف المرض فأقرّهم النبي ﷺ راجع آية (٢٩) النساء، روى البخاري وأحمد عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة فأشفقت أن أغتسل فأهلك فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت إني سمعت

الله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً﴾ فضحك رسول الله ولم يقل شيئاً فكان تقريراً ﴿ولكن يريد ليطهّركم﴾ من الأحداث والذنوب طهارة مادية ومعنوية ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ بالإسلام وتيسير شرائع الدين ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمه.

القـــراءة

قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب عن القراء العشرة ﴿وأرجلكم﴾ بفتح اللام عطفاً على الغسل فيكون من المقدم والمؤخر، وفي القرآن أمثلة كثيرة كالآية السابقة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم ﴿وأرجلِكم﴾ بكسر اللام عطفاً على الرؤوس.

لما قدم سبحانه ذكر بيان الشرائع أعقبه بتذكير نعمه فقال:

٧ ـ ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ بالإسلام ومغفرة الذنوب ﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾ أي اذكروا عهده الذي أخذه عليكم، وهو إقرار كل مؤمن بما آمن به وليس المراد أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق وإنما المراد إيمانهم بالله ورسوله والتزامهم بطاعتهما ولهذا قال: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي سمعنا ما دعوتنا إليه من آياتك القرآنية والكونية، وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب ﴿واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾.

الشـهادة بالقسـط

لما ذكر سبحانه الوفاء بالعهود، بيّن سبحانه أنّ ما يلزم الوفاء به ما ذكر في الآية فقال تعالى:

٨ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين﴾ جمع قوام وهو المبالغ في القيام بالشيء ﴿لله﴾ بحقوقه ﴿شهداء بالقسط﴾ بالعدل ﴿ولا يجرمنكم﴾ يحملنكم ﴿شنآن﴾ بغض ﴿قوم على ألا تعدلوا﴾ فتنالوا منهم بالظلم والجور فلا تهتموا لأحد إلا لله ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾.

٩ ـ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

وهو الجنة.

١٠ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

حفظ الله لرسوله من القتل

ثم خاطب الله سبحانه المؤمنين وذكّرهم نعمته عليهم بما دفع عنهم كيد الأعداء فقال:

١١ - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم﴾ الكفار ﴿أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ ليفتكوا بكم ﴿فكفّ أيديهم عنكم﴾ مما أرادوا بكم ﴿واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما، أخبره أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد فلما قفل ﴿رجع﴾ قفل معه فأدركتهم القافلة في واد كثير العضاة وتفرق الناس في العضاة يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه قال جابر: فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده مصلتاً، فقال لي من يمنعك مني؟ قلت له الله. فهو ذا جالس ولم يعاتبه رسول الله ﷺ.

نقض أهل الكتاب العهود والمواثيق

لما بيّن سبحانه خيانة اليهود وهمّهم بقتله، وأنّه دفع عنه شرّهم أعقبه بذكر أحوال اليهود وخبث سرائرهم وقبح عادتهم في خيانة الرسل، تسلية لنبيه فيما هو به فقال:

١٢ - ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي عهدهم الغليظ المؤكد بقسم الله عز وجل أنه قد أخذ العهد الموثق على بني إسرائيل ليعلمهم بالتوراة التي شرعها لهم، لإفادة تأكيد هذا الأمر وتحقيقه والاهتمام بما رتب عليه، لأن الرسول قد علمه بالوحي الإلهي، وإن لم يطلع على توراتهم، ولا على شيء من تاريخهم، ولا يزال هذا الميثاق في الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ النقيب في القوم من ينقب عن أحوالهم ويقال: نقب عليهم نقابة، أي صار نقيباً عليهم، ونقباء بني إسرائيل هم زعماء أسباطهم الاثني عشر، والمراد ببعثهم إرسالهم، أرسلوا أولاً لاستكشاف أمر الجبارين تهيئة لمقاتلتهم ﴿وقال الله إني معكم﴾ بالمعونة والنصر ما دمتم محافظين على ميثاقي قال الله هذا لموسى وبلغه عنه، وكان يذكرهم به أنبياؤهم ويجدده رسلهم ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة﴾ أي وأقسم الله لهم على لسان موسى بما مضمونه

لئن أديتم الصلاة وأعطيتم ما فرض عليكم في أموالكم من الصدقة التي تتزكى بها نفوسكم وتتطهر من رذيلة البخل ﴿وآمنتم برسلي وعزرتموهم﴾ كداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وهذا يدل على أن الخطاب لقوم مؤمنين بالله ورسوله الذي بلغهم ذلك، ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ أي ضل الصراط المستقيم والسبيل السوي الذي يوصل سالكه إلى إصلاح قلبه وتزكية نفسه ويجعله أهلاً لجوار الله تعالى في الدار الآخرة.

إنه سبحانه لما خاطب المؤمنين بذكر نعمته وميثاقه أردفه بذكر ميثاق بني إسرائيل ونقضهم إيّاه فقال:

١٣ ـ ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقنا الذي أخذناه عليهم وواثقناهم به وعدم الإيمان بالرسل، فهم استحقوا عقابنا ولعننا والبعد من رحمتنا، ومن ذلك تقسية القلوب؛ لأن نقض الميثاق قد دنّس نفوسهم وأفسد فطرتهم، حتى قتلوا الأنبياء بغير حق، وافتروا على مريم وبهتوها وأهانوا ولدها وحاولوا قتله وافتخروا بذلك لمجرد الشبهة، ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ التي وضعها الله والكلم جمع كلمة: وتحريف الكلم يصدق بتحريف الألفاظ وبتحريف المعاني وتحميل الألفاظ على غير ما وضعت له، فالتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها، قد فقدت قطعاً باتفاق مؤرخيهم ولم يكن عندهم أحد يحفظها عن ظهر قلب كما يحفظ المسلمون القرآن، وهذه الأسفار الخمسة، التي ينسبونها إلى موسى، فيها خبر كتابة التوراة وأخذ العهد عليهم بحفظها، وهذا ليس منها قطعاً ومن المشهور عندهم أنّها فقدت عند سبي البابليين لهم ﴿ونسوا حظاً مما ذكّروا به﴾ في الإنجيل من الإيمان وغيره، والميثاق والنسيان ها هنا عن عمد نسوا كتاب الله الذي أنزل عليهم، ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويطلع بالوحي، والخائنة الخيانة، ويجوز أن تكون صفة للخائن مثل رجل طاغية، ﴿وإلاّ قليلاً منهم﴾ لم ينقضوا العهد، وهم من أسلم وحسن إسلامهم ﴿فاعف عنهم واصفح إنّ الله يحبّ المحسنين﴾ أي اعف عن التائبين والمحسنين فيما بدر من أعمالهم السابقة، قال ابن جرير الطبري: والمعنى يجوز أن يعفى عنهم في غدرة فعلوها ما لم ينصبوا حرباً، ولم يمتنعوا عن أداء الجزية والإقرار بالصغار.

القــــراءة

﴿قلوبهم قاسية﴾ قرأ حمزة: ﴿قلوبهم قسيّة﴾ وقرأ الباقون: ﴿قاسية﴾.

ميثاق النصارى

ثمّ بيّن سبحانه حال النصارى في نقضهم ميثاق عيسى عليه السلام كما بيّن حال اليهود في نقضهم ميثاق موسى عليه السلام فقال:

١٤ - ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾.

﴿ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّاً مما ذكّروا به﴾ وهم الذين اتبعوا المسيح كانوا بقرية اسمها ناصرة، أخذ عليهم الميثاق كما أخذ على أهل التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، فتركوا ما أمروا به، ﴿فأغرينا بينهم﴾ هيجنا، أي صاروا فرقاً يكفر بعضهم بعضاً، كالكاثوليك والبروتستنت والأرثوذكس والمارون وغيرهم ﴿العداوة والبغضاء، إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾.

لما ذكر سبحانه أنّ اليهود والنصارى نقضوا العهد وتركوا ما أمروا به، أعقب ذلك بدعائهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ وذكرهم ما آتاهم به من أسرار كتبهم حجة عليهم فقال:

١٥ - ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾.

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا﴾ محمد ﴿يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ التوراة ﴿ويعفوا عن كثير﴾ والمعنى: أنّ النبي يكشف بالوحي بعض ما كتموه، ويسكت عن بعض، لعدم تعلق فائدة أو مصلحة للمسلمين به، ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ النبي محمد ﷺ والإسلام، ﴿وكتاب مبين﴾ هو القرآن.

١٦ - ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه﴾ ما رضيه الله تعالى ﴿سبل السلام﴾ دين الإسلام، ﴿ويخرجهم من الظلمات﴾ الكفر ﴿إلى النور﴾ الإيمان ﴿بإذنه﴾ بأمره ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

إذا تقرّب الإنسان إلى الله تقرّب منه، وإذا نسي الله نساه الله، وإذا ذكر الله ذكره الله، فمن يتبع رضوان الله وبيانه فإنّه ينتهج سبيل السلام ويزداد فيه نوراً على نور، حتى يحصل على هداية الله له فيشرح قلبه ويخرجه من الظلمات إلى النور، فالله يقول: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾[1] وهذه الهداية هي هداية البيان التي تتبعها هداية التوفيق.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

ادعاء النصارى ألوهية عيسى عليه السلام

١٧ ـ ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم حيث اتخذوه إلهاً، وهذا هو الغلو الذي أشار إليه القرآن في النساء آية (١٧١) ومنهم نصارى نجران جنوب الجزيرة العربية، وهم اليعقوبية فرقة من النصارى قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار: «من المشهور عند بعض المفسرين في تفسير الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة، فالقول بها لا ينافي وحدانية الخالق، وكان يقول مثل هذا بعض علماء النصارى لعلماء المسلمين، والظاهر أن بعض المتقدمين كان يعتقد هذا، كما أنه يوجد الآن في نصارى أوربا وغيرهم كثير من الموحدين الذين يعتقدون أن المسيح نبي رسول لا إله. ولعله لم يبق في النصارى من يقول بتلك الفلسفة، لأنهم في كل عصر يغيرون في دينهم ما شاؤوا أن يغيروا في فلسفته، وكان أكبر تغير حدث هو من مذهب (البروتستانت) أي إصلاح النصرانية منذ أربعة قرون وصار هو السائد في أعظم الأمم مدنية كالولايات المتحدة وإنكلترا وألمانيا، نسف هذا المذهب أكثر التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبله ثم استبدل بعدها تقاليد أخرى فصار عدة مذاهب ومع ذلك ترى هؤلاء المصلحين الذي أعادوا النصرانية في زعمهم إلى أصلها لم يستطيعوا أن يرجعوا إلى التوحيد الصحيح، فهم لا يزالون يقولون بألوهية المسيح بالتثليث ويعدون الموحد غير مسيحي كما يقول ذلك الكاثوليك والأرثوذكس[1]، فجميع نصارى هذا العصر تقول إن الله هو المسيح ابن مريم وإن المسيح ابن مريم هو الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، والظاهر أن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة كما قال بعض المفسرين ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً﴾ أي فمن يقدر أن يدفع من عذابه شيئاً ﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ أي لا أحد يقدر ولو كان إلهاً كما تزعمون لقدر أن يرد أمر الله إذا جاءه بإهلاكه حين توفاه وتوفى أمه، وانظر كيف يتناقض النصارى في أقوالهم، فمرة يزعمون أنه ابن الله، وفي نفس الوقت يقولون إنّ اليهود قتلوه وصلبوه ﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شي قدير﴾ رد عليهم حيث قالوا للنبي فهات مثله من غير أب.

ادعاء أهل الكتاب القرب من الله

ثم إنه سبحانه أبطل عليهم دعواهم فقال:

١٨ ـ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم

(١) لقد اعتنق كثير من زعماء وعلماء البروتستانت أخيراً مذهب العنصرية الصهيونية، وهي انحياز لليهود في كل شيء.

بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله﴾ أي كأبناء الله في القرب والمنزلة وهو كأبينا في الرحمة والشفقة لأن فينا ابن الله ﴿وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ إبطال لدعواهم لأن الأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذّب حبيبه، وباعترافهم إذ قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، هي أربعون يوماً حسب زعمهم، ومنهم من يعذب بأشكال أخرى كأصحاب السبت والمائدة ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ أي كسائر بني آدم تجازون بالإحسان والإساءة ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ لا اعتراض لحكمه وكل حسب طاعته وتوبته ﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ في هذه الآية والآية السابقة لم يقل بينهن إذا المعنى وما بين هذين النوعين من الأشياء.

الفترة بين عيسى ومحمد

ثم عاد سبحانه إلى خطاب أهل الكتاب وحجاجهم واستعطافهم وإلزامهم الحجة برسول الله ﷺ فقال:

١٩ ـ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا﴾ محمد ﷺ ﴿يبين لكم﴾ شرائع الدين ﴿على فترة من الرسل﴾ الفترة أصلها السكون يقال يفتر فتوراً إذا سكنت حدته، وانقطع عما كان عليه، والفتور الضعف، ومدة الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمائة سنة، ويقال لمن لم تبلغهم رسالة عيسى ولم يدركوا رسالة محمد أنهم أصحاب فترة لا شيء عليهم، لقوله تعالى: ﴿وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً﴾(١) ولعل رسلاً آخرين قد أرسلوا قبل تلك الفترة إلى غير جزيرة العرب إلى أماكن مخصوصة لم يشأ الله أن يقص علينا من أنبائهم، إلا ما أشارت إليه بعض الآيات في سورة يسّ مما سيجيء تفسيره ﴿أن تقولوا﴾ إذا عذّبتهم ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ فلا عذر لكم ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

نعم الله على بني إسرائيل

ثم ذكر سبحانه صنع اليهود في المخالفة لنبيهم تسلية لنبينا ﷺ ومخالفتهم إيّاه فقال:

٢٠ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء﴾ الأنبياء الذين أرسلوا بعد موسى أو

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

في عهده، حكى ابن جرير الطبري أن السبعين الذي اختارهم موسى ليصعدوا الجبل لمناجاة الله تعالى، صاروا كلهم أنبياء، والمشهور من معنى النبوة عند أهل الكتاب الإخبار ببعض الأمور الغيبية التي تقع في المستقبل بوحي أو إلهام من الله عز وجل ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ إن بني إسرائيل لم يكن فيهم ملوك على عهد موسى، وإنما كان أول ملوكهم بالمعنى الحرفي لكلمة ملك طالوت ثم داود، الذي جمع بين النبوة والملك، فكلمة ﴿وجعلكم﴾ غير وجعل فيكم بل معنى الآية الملك الحر المالك لأمر نفسه وتدبير شأنه، فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال بعد ذلك الرق والاستعباد لدى قوم فرعون، والمراد بالملك هنا الاستقلال الذاتي والتمتع بنحو ما يتمتع به الملوك، من الراحة والحرية والتصرف وسياسة البيوت، وهو مجاز يقال لمن كان مهنئاً في معيشته مالكاً لمسكنه، مخدوماً مع أهله فلان ملك، أو ملك زمانه، أي يعيش عيشة الملوك قال الله: ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ أي من عالمي زمانهم وشعوبه التي كانت مستعبدة للملوك العتاة الطغاة كالقبط في مصر والبابليين في العراق، والذي آتاهم هو المن والسلوى والغمام الذي ظلّلهم عن الشمس، في التيه، والحجر الذي انبجست منه العيون بعدد أسباطهم، تقدم في ذكر ذلك في سورة البقرة.

٢١ ـ ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾.

﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ المطهرة بيت المقدس والمقدسة المباركة ﴿التي كتب الله لكم﴾ أمركم، فرض عليكم دخولها ﴿ولا ترتدوا على أدباركم﴾ تنهزموا خوف العدو وهم العمالقة الجبارين ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ في سعيكم.

ثم ذكر جواب القوم فقال سبحانه:

٢٢ ـ ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾.

﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين﴾ من بقايا عاد طوالاً ذوي قوة ﴿وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾ لها.

٢٣ ـ ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ مخالفة أمر الله في نقض الميثاق وهما يوشع وكالب من النقباء الذين بعثهم موسى في كشف أحوال الجبابرة ﴿أنعم الله عليهما﴾ بالعصمة فكتما ما أطلعا عليه من حالهم واستعدادهم وقوتهم وعددهم فأخبرا موسى فقط، أما الآخرون فقد أفشوا خبر قوة الجبابرة المادية بين الجيش والجند فخارت قواهم إثر سماعهم خبر الجبابرة، وهكذا تفعل الحرب النفسية في الجيوش فقال لهم موسى ﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ أي باب المدينة ولا تخشوهم فإن النصر مع المؤمنين الصادقين ﴿فإذا دخلتموه فإنكم

غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

٢٤ ـ ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾.

﴿ثم ذكر سبحانه دعاء موسى عليه السلام على قومه عند مخالفتهم إيَّاه فقال سبحانه:

٢٥ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ هارون ﴿فافرق بيننا﴾ اقض وافصل والله أعلم أنها دعوة من موسى للقاء ربه بالموت. ﴿وبين القوم الفاسقين﴾ العاصين.

٢٦ ـ ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

﴿قال فإنها محرمة عليهم﴾ أي دخول الأرض المقدسة على العصاة أبداً حتى الموت ﴿أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ أربعين ظرف زمان، فقد ظلوا يسيرون في قطعة من الأرض في صحراء سيناء لا تتجاوز ٢٧٠ فرسخاً دون أن يهتدوا فيرجعوا إلى نفس الموضع الذي ابتدوا منه، والتيه الحيرة، وفي التيه كان طعامهم المن والسلوى، وأمر الله نبيه موسى أن يضرب الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً كان شربهم منها، وظلل الله عليهم الغمام تقيهم حر الشمس ولا شك أن ضياع أربعين سنة من عمرهم في التيه كافية لفنائهم، فذهب جيل وخلفه جيل آخر لا يعرف الجبن والخوف، وصدق وعد الله بتحريم دخولها عليهم وصدقت دعوة موسى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. ﴿فلا تأس﴾ لا تحزن ﴿على القوم الفاسقين﴾ العصاة.

قصة أوّل قتيل من بني آدم

أراد الله أن يبيّن حال اليهود في نقض العهد وارتكاب الفواحش كارتكاب ابن آدم في قتله أخاه فقال:

٢٧ ـ ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾ قابيل وهابيل ﴿إذ قربا قرباناً﴾ ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها ﴿فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾ إما لردائة نوع القربان أو لأنه لم يكن من إخلاص وتقوى لذلك غضب وأضمر الحسد في نفسه ﴿قال﴾ لأخيه ﴿لأقتلنك﴾ قال أخوه ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

٢٨ ـ ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

أي ما أنا بمنتصر لنفسي، وسبب امتناعه عن دفعه، لا يريد أن يتحمّل إثم القتال، فربما كان في دفعته لأخيه قضاء عليه.

٢٩ ـ ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿إني أريد أن تبوأ﴾ ترجع ﴿بإثمي وإثمك﴾ الذي ارتكبته من قبل ﴿فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾.

٣٠ ـ ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

﴿فطوعت﴾ زينت وصورت ﴿له نفسه﴾ الأمّارة بالسوء النزاعة للشر ﴿قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ أما في الدنيا فلأن أخاه كان يحسن إليه بالقول والفعل، ولم يعمل معه شراً يستحق القتل وأما في الآخرة، فإنه أسخط ربه، وصار إلى النار.

٣١ ـ ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾.

﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ وذلك لكي يريه ماذا يفعل بأخيه حيث بحث الغراب في الأرض ودفن الغراب الذي مات بمنقاره ورجليه ﴿ليريه كيف يواري سوأة أخيه﴾ جيفته ﴿قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين﴾ على قتله أولاً ثم حمله ثانياً، وعلى فوات إعانة أخيه، والله أعلم بقبول توبته، ومغفرته له، وهذه القصة فيها تحذير من الحسد، لأنّه هو الذي سبب أول قتل في بني آدم، وبذر بذرة الشر.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿يا ويلتىٰ﴾ ممالاً، وقرأ الباقون: بغير إمالة.

ثم بيّن سبحانه التكليف في باب القتل فقال:

٣٢ ـ ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴾.

﴿من أجل ذلك﴾ الذي فعله ابن آدم بأخيه ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ أي فرضنا ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس﴾ أي قتلها ظلماً ﴿أو فساداً في الأرض﴾ أي بغير فساد تستحق به القتل، وذلك بسلب الأمن من الناس

بتخويفهم، والخروج على أئمة العدل، أو كما تعمله العصابات المسلحة لقتل الأنفس ونهب الأموال ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ لأنّ الواحد بمثل النوع في جملته فمن استحل دمه بغير حق، يستحل دم كل واحد كذلك مثله ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ أي ومن كان سبباً لحياة نفس واحدة بإنقاذها من موت كانت مشرفة عليه فكأنما أحيا الناس جميعاً، لأن الباعث له على إنقاذ الواحدة تندرج فيه جميع حقوق الناس عليه، وفي هذه الآية من الوعيد لبني إسرائيل لاستباحتهم القتل وإسرافهم في الفساد ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ مجاوزون الحد بالقتل والكفر والفساد وغير ذلك.

أقول في موضع التشبيه بين قاتل النفس الواحدة وقاتل الكل أنّ من قتل نفساً ظلماً كان ذلك الظلم واقعاً على جميع الأحياء كمجتمع معتدى عليه ينقص عدده، وإخافته وترويعه فيصير كل واحد لا يدري متى يحل به مثل ما حل بذلك الذي قتل ظلماً. فيجب عليهم أن يعينوا ولي المقتول حتى يقتص منه كما لو قتل أولياؤهم جميعاً، ومن أحيا نفساً مشرفة على الهلاك فكان بذلك قد أسدى إلى الناس الطمأنينة والأمن والخير والتعاون، فكل نفس حية يسوؤها القتل ظلماً ويفرحها ويسرها إنقاذ نفس من هلكة.

القـــراءة

قرأ أبو عمرو: ﴿رسلنا﴾ بإسكان السين، وقرأ الباقون: ﴿رسلنا﴾ بضمّ السين.

جزاء أهل الحرابة والفساد في الأرض

لما قدم تعالى ذكر القتل وحكمه أعقبه بذكر قطاع الطريق والحكم فيهم فقال:

٣٣ - ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ هم الذين بارزوه بالعداوة وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل وأخذ الأموال وإخافة السبيل وهي في أحكام قطاع الطرق. ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ بقطع الطريق ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ من أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ أو لترتيب الأحوال فإذا قتلوا وصلبوا، وإن أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن لم يأخذوا المال وأخافوا السبيل نفوا. والأمر متروك لاجتهاد الإمام في تحديد مدى خطرهم وظروف جريمتهم وفرض العقوبة المناسبة لحالهم، وفسر بعض العلماء النفي بالحبس وهذا يصلح لحبس المتوطن في بلده موطن ولادته، ونفي البعيد الغريب لبلده الذي ولد فيه لعلّه يخشى أهله وجماعته فيرعوي ﴿ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ تلك العقوبة أمام الناس.

٣٤ - ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ بهم أسقطت عنهم حقوق الله وبقيت عليهم حقوق الناس يؤدونها أو يعفى عنهم.

الوسيلــــة

لما تقدم ذكر القتل والمحاربين أعقب ذلك بالموعظة والأمر بالتقوى فقال:

٣٥ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ خافوا عقابه وأطيعوه ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ يقال توسلت إليه أي تقربت إليه، والمعنى: اطلبوا المحبة والقرب من الله ﴿وجاهدوا في سبيله﴾ لإعلاء دينه ﴿لعلكم تفلحون﴾ تفوزون.

ثم أخبر سبحانه عن وعيد الكفار فقال:

٣٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٣٧ ـ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

(يريدون) أي يتمنون.

السرقــة

لما ذكر تعالى الحكم فيمن أخذ المال جهاراً أعقبه ببيان الحكم فيمن أخذ المال سراً فقال:

٣٨ ـ ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ أي اقطعوا يمين كل منهما من الرسغ وهو مفصل الكف وذلك إذا استكملت الشروط الواجبة في القطع، كأن يبلغ النصاب، وأن يكون المسروق في حرز مصان وألا يكون في حاجة ماسة لإنقاذ نفسه أو غيره من هلكة، أو كانت هناك مجاعة، ولا قطع على جاحد العارية ولا الخائن، وأما المخزومية التي قطعها النبي ﷺ بسرقتها لا بجحدها، وجاء في البخاري أنها سرقت .

ولا يثبت القطع إلا بإقراره مرتين أو بشهادة عدلين مسلمين، بعد أن تنتفي كل الشبه التي تدرأ بها الحدود كما كان الرسول ﷺ يفعل ويقول «ادرؤوا الحدود بالشبهات».

وأما تحديد النصاب لقطع اليد فمتروك للإمام حسب القيمة التي يراها مناسبة في كل بلد، حسب حال السارق والمسروق.

قال الأصمعي، أخطأت في قراءة الآية سهواً فقلت والله غفور رحيم، وكان إلى جنبي أعرابي فقال كلام من هذا؟ قلت كلام الله، قال أعد فأعدت فقال ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقلت والله عزيز حكيم فقال: أصبت فقلت له أتحفظ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال يا هذا عز فحكم، فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

٣٩ ـ ﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أي من بعد سرقته.

٤٠ ـ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

لما تقدّم ذكر اليهود والنصارى أعقبه سبحانه بتسلية النبي ﷺ وأمانه من كيدهم فقال:

٤١ ـ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ وهم المنافقون كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده الله تعالى أنه لا ييأس ولا يحزن على أمثال هؤلاء، فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير إن حضروا لم ينفعوا وإن غابوا لم يفقدوا ولهذا قال مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم. ﴿ومن الذين هادوا﴾ أي ومن اليهود قوم ﴿سماعون للكذب﴾ الذي افترته أحبارهم سماع قبول ﴿سماعون﴾ مثله ﴿لقوم آخرين﴾ أي لأجل قوم آخرين من اليهود ينقلون إليهم ﴿لم يأتوك﴾ فهم عيون لهم ﴿يحرفون الكلم﴾ الذي في التوراة ﴿من بعد مواضعه يقولون﴾ لمن أرسلوهم للنبي ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه﴾ أي الحكم والرأي الذي يعجبهم أي فاقبلوه ﴿وإن لم تؤتوه﴾ أي إن لم يفتكم أو يحكم لكم بالذي نواه ﴿فاحذروا﴾ أن تقبلوه ﴿ومن يرد الله فتنته﴾ إضلاله ﴿فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ أي المنافقين واليهود من الكفر ودنس الشرك بطهارة الإيمان والإسلام بسبب كفرهم وعنادهم وإصرارهم ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أما خزي المنافقين فبهتك سترهم واطلاع النبي على كفرهم وتدبيرهم ونفاقهم، وأما خزي اليهود فبغضهم في إظهار كذبهم إذ كتموا كثيراً من الأحكام الشرعية في كتابهم، وبأخذ الجزية منهم، وخزي قريظة فبقتلهم وسبيهم، وخزي بني النضير فبإجلائهم وكل ذلك من أنواع عذاب الدنيا.

ثم وصف اليهود بقوله:

٤٢ ـ ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾.

﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾ حكام اليهود وأحبارهم يسمعون الكذب ممن يكذب عندهم في دعواه، ويأتيهم برشوة فيأخذونها، ويحتمل يسمعون قول بعضهم لبعض محمد كاذب وليس بنبي وهم يعلمون كذبهم، والسحت هو الرشوة في الحكم خاصة وفي كل كسب لا يحل عامة. واللام في للكذب، للتقوية. والمعنى أنهم يسمعون الكذب كثيراً، سماع قبول ﴿فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ ما دام المسلمون قد عقدوا مع أهل الذمة عهداً على أمانهم وإبقائهم على دينهم وقد جاؤوا من عند أنفسهم لطلب الحكم أو الفتيا، فأنت مخير بما تعلمه من حالهم بأن تحكم بينهم بالعدل إذا علمت أنهم جادون في الرضا بالحكم والقبول، وإن علمت أن هذا الصنف من الناس لا قصد لهم في الحكم الشرعي إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم، فلك أن تعرض عنهم، وعلى هذا فكل متحاكم إلى عالم يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض، لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم ﴿وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت﴾ هذا نوع جديد أي إذا كان الحكم بينهم وبين غيرهم يلزمك بأن كان من مسائل الأمن أو من كان أحد طرفيه مسلماً والآخر كافراً أو في الحالات التي يفرض فيها الإمام أحكاماً معينة ﴿قانون﴾ يطبق على الأفراد كقانون المرور مثلاً أو المخالفات والتهم الفردية والاعتداء على حقوق الإنسان فلا ينتظر الإمام أن يأتي الناس كفاراً أو مسلمين مستأمنين أو غيرهم، فإنه يجب عليه في مثل هذه الحالة أن يحكم بين الناس بالقسط ﴿فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿للسحت﴾ بضم الحاء وقرأ الباقون: ساكناً.

٤٣ ـ ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ هذا تعجب أي كيف يسألونك عن حكم حادثة هم يعلمون حكمها بمثل ما عندكم من الحكم، إلّا أن يكون قصدهم أن تحكم لهم أو تفتيهم بما يوافق هواهم فمثل هؤلاء هم الذين يخير الإمام في الإعراض عنهم أو لومهم إذا اقتصر الأمر على زجرهم وتأديبهم ﴿ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾.

لما بين الله تعالى أن اليهود تولوا عن أحكام التوراة وصف التوراة وما أنزل فيها فقال:

٤٤ ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون﴾ الهدى البيان، فالتوراة مبينة صحة نبوة محمد ﷺ، ومبينة ما يتحاكمون فيه إليه، والنور الضياء الكاشف للشبهات والموضح للمشكلات والنبيون ﴿الذين أسلموا﴾ الأنبياء من لدن موسى الذين سلموا لحكـم الله ورضوا بقضائه، وانقادوا لطاعته، فلم يكتموه ﴿للذين هادوا﴾ اليهود ﴿والربانيون﴾ هم المنسوبون إلى الرب لكونهم يربّون أنفسهم ثم غيرهم بالعلم والعرفان وهم كبار كهنتهم ﴿والأحبار﴾ جمع حبر وهو العالم، وغلب على اليهود تسمية الأحبار لعلمائهم والنصارى الربانيون ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ أي لما استحفظهم الله إيّاه من العلم من التوراة ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ وكانوا على ما في التوراة من العلم وللنبي ﷺ بما قال من الحق، ثم نهى اليهود المعاصرين عن التحريف لرهبة فقال ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ أي خافون، ونهاهم عن التغيير لرغبة فقال ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي لا تتركوا بيانها والعمل والإفتاء والحكم بها في مقابل منفعة دنيوية لا يمكن أن تكون إلاّ قليلة بالنسبة إلى المنافع العاجلة والآجلة المترتبة على الاهتداء بآيات الله تعالى، والمراد من النهي إقامة الحجة عليهم، ثم عمم الحكم فقال ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

القــــراءة

قرأ أبو عمرو ﴿واخشون﴾ بياء في الوصل وبغير ياء في الوقف.

آيـة القصـاص

ثم بيّن سبحانه حكم التوراة في القصاص فقال:

٤٥ ـ ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿وكتبنا عليهم فيها﴾ أي فرضنا على أهل الكتاب من العقوبات في التوراة ﴿أن النفس بالنفس﴾ والعين بالعين والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن﴾ أي أن هذه الأعضاء والجوارح المتماثلة هي كالنفس في كون جزاء المعتدي على شيء منها مثل ما فعل، لأنه هو العدل ﴿والجروح قصاص﴾ أي ذوات قصاص تعتبر في جزائها المساواة بقدر الاستطاعة ﴿فمن تصدّق به﴾ أي بالقصاص بما ثبت له من حق بأن عفا عن الجاني

فهذا التصدق كفارة له يكفر الله بها ذنوبه، ويعفو عنه كما عفا. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ في القصاص وغيره ﴿فأولئك هم الظالمون﴾.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿والعين بالعين والأنف بالأنف﴾ الخ، كلها بالنصب ﴿والجروح﴾ رفعاً، وقرأ نافع وعاصم وحمزة: جميع ذلك بالنصب، وقرأ الكسائي: كلها بالرفع.

قرأ نافع: ﴿والأذن بالأذن﴾ ساكنة الذال في جميع القرآن، وقرأ الباقون: بالضم على أصل الكلمة.

لما قدّم تعالى ذكر اليهود أتبعه بذكر النصارى فقال:

٤٦ ـ ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿وقفينا﴾ أتبعنا ﴿على آثارهم﴾ أي النبيين ﴿بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه﴾ أي مما سبقه ولا زال عنده ﴿من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً﴾ هدى منصوب على الحال ليس في هذا تكرار للأول، لأن الأول لعيسى، والثاني للإنجيل؛ لأن عيسى كان يدعو إلى التصديق بالتوراة، والإنجيل أنزل وفيه ذكر التصديق بالتوراة ﴿لما بين يديه من التوراة﴾ لما فيها من الأحكام ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾.

٤٧ ـ ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

القـــراءة

﴿وليحكم أهل الإنجيل﴾ قرأ الأكثرون بجزم اللام على معنى الأمر، تقديره: وأمرنا أهله أن يحكموا بما أنزل الله فيه. وقرأ الأعمش وحمزة بكسر اللام وفتح الميم على معنى كي فكأنه قال جل شأنه وآتيناه الإنجيل لكي يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴿بما أنزل الله فيه﴾ من الأحكام ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾.

آيات الكفر والظلم والفسق في الحكم

إن هذه الآيات الثلاث نزلت في شأن أهل الكتاب وليست من كتابهم، إذ لا شيء يدل على أنها محكية، فالأوليان في سياق الكلام على اليهود والثالثة في سياق الكلام على النصارى، وعبارتها عامة لا دليل فيها على الخصوصية، ولا مانع من إرادة الكفر الأكبر في الأولى في حالة جحد القرآن أنه من عند الله والحكم بغيره فيكون المعنى ومن جحد حكم القرآن والإسلام ورضي بغيره فقد كفر، وشأنه في ذلك شأن اليهود في عدم قبولهم حكم الله والرضى به من عند الله، وفي الثانية يكون ظالماً إذا حكم بالظلم بغير القرآن ولم يجحد، فمن ظلم فهو ظالم، وفي الثالثة يكون فاسقاً إذا حكم بالفسق ولم يجحد أي بما يعتبره الإسلام فسقاً فهو فاسق وحق عليه أن يوصف بالفاسق.

لما بيّن تعالى نبوة موسى وعيسى أعقب ذلك ببيان نبوة محمد ﷺ احتجاجاً على اليهود والنصارى بأن

طريقته كطريقتهم في الوحي والمعجز فقال:

٤٨ ـ ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ القرآن ﴿بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾ لما سبق ﴿من الكتاب ومهيمناً﴾ المهيمن يتضمن معنى الأمين على الكتب المتقدمة بما أخبر عنها، مما فيها وهو شاهد لها بالحق، والصدق بأنها من الله ﴿عليه فاحكم بينهم﴾ بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك ﴿بما أنزل الله﴾ إليك في القرآن ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ لا تأخذ برغبتهم ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ الشرعة السنة، والمنهاج الطريق، والشرعة والشريعة واحد والمنهاج الطريق الواضح حسب تفسير ابن قتيبة، والفرق بينهما أن الشريعة هي الأحكام من قواعد وفروع وأصول، وأما المنهاج الذي هو الطريق فهو الكيفية التي تنفذ فيها الشريعة فالفقه شريعة، وأصول الفقه طريقة، والقرآن شريعة وتفسيره طريقة والحديث شريعة وعلم الرواية فيه طريقة، وكلمة ﴿منكم﴾ من أهل الشرائع السابقة واللاحقة ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ أي ملة واحدة وشريعة واحدة ﴿ولكن ليبلوكم﴾ أي جعلكم كذلك ليختبركم ﴿في ما آتاكم﴾ من الكتب السماوية وما بين لكم في الملل من أحكام ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ سارعوا إليها أي للأعمال الصالحة، والخطاب لأمة محمد، ثم علّل الاستئناف بقوله: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ أيها الأمم بالبعث ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾.

٤٩ ـ ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾.

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك﴾ أي يصرفوك ﴿عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ في القرآن لأنه لم ينزل على النبي محمد ﷺ غير القرآن، والمقصود هنا من الصرف عن بعض ما أنزل الله، طلب الكفار من أهل الكتاب وغيرهم من النبي عدم تطبيق بعض الأحكام الشرعية عليهم في مقابل دخولهم في الإسلام ﴿فإن تولوا﴾ عن الإيمان أو أعرضوا عن قبول حكمك فيهم وأرادوا غيره ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي فاعلم أن الله سوف لا يتركهم بل سيجازيهم ويحاسبهم بسبب ذنوبهم وعلى قدرها، فمن ارتكب بعض الذنوب حوسب عليها ومن ارتكب كثيراً من الذنوب حوسب عليها، والله واسع المغفرة يغفر لمن يشاء، ويعذب على بعض الذنوب من يشاء، متصرف في ملكه عادل في حكمه ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ الناس عام في المسلمين والكفار، والقرآن يعبر ويخبر بأن كثيراً من هؤلاء، وهؤلاء قد صاروا إلى الفسق والعصيان والتمرد، فضلاً عن عدم اهتداء الكفار منهم إلى دينك فلا تهتم ولا يروعك ما تراه منهم.

ثم استفهم منكراً لرأيهم فقال:

٥٠ ـ ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب المتضمن للتوبيخ والمعنى: أيتولون عن حكمك بالحق فيبغون حكم الجاهلية المبني على الهوى وهم أهل كتاب أي اليهود ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أي لا أحد أحسن من حكم الله تعالى لقوم يوقنون بدينه ويذعنون لشرعه.

القـــــراءة

﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ قرأ ابن عامر: ﴿أفحكم الجاهلية تبغون﴾ بالتاء، وقرأ الباقون: بالياء.

موالاة اليهود والنصارى وعاقبتها

لما تقدّم ذكر اليهود والنصارى أمر سبحانه عقيب ذلك بقطع موالاتهم والتبرؤ منهم فقال:

٥١ ـ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ أي لا تستنصروا بهم، ولا تستعينوا بهم إذا كان ذلك على حساب دينكم، كذلك يدخل في موالاتهم مودتهم وصداقتهم على حساب الإسلام ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في العون والنصرة لاتحادهم في الكفر، ورغم أنهم مختلفون في اعتقادهم إلا أن الكفر يعتبر في نظر الإسلام ملة واحدة، لأنهم يعتبرون أنفسهم في مواجهة الإسلام وحدة مع بعضهم ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ أي ومن يخالف أمر الله ويواليهم فإن من يفعل ذلك من شخص أو حاكم أو مجتمع، فإنه مشارك معهم في الظلم ومعاد كمعاداتهم وقد قيد العلماء موالاة الكفار في حالة ما إذا كانوا محاربين أو مهددين للمسلمين في ديارهم ومصالحهم ودينهم وقد رخص فيمن لم يتصف بهذه الصفة منهم بجواز مجالستهم وأكل الطعام معهم ومساكنتهم والتزوج بنسائهم قال ابن جرير الطبري: الولاية لأجل الدين كما كانت الحال في ذلك العصر إذ قام المشركون وأهل الكتاب يعادون المسلمين ويقاتلونهم لأجل دينهم ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هذا تعليل للوعيد وبيان لسببه، وهو أن من يوالي أعداء المؤمنين الذين نصبوا لهم العداء وينصرهم أو يستنصرهم فهو ظالم مثلهم.

٥٢ ـ ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾.

﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ ضعف وشك مؤديان إلى النفاق والخداع والمكر والعناد ﴿يسارعون فيهم﴾ في موالاتهم ومناصحتهم وطلب رضاهم ومعاونتهم على المسلمين ﴿يقولون﴾ معتذرين عن فعلهم

﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ دائرة تسيطر علينا أي نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه ومنها ظهور الكفار على المسلمين وغلبتهم عليهم ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ بالفرج بإعلاء كلمة المسلمين وقد تحقق وعد الله بفتح مكة وإجلاء اليهود وغير ذلك من الفتوحات على المسلمين ﴿أو أمر من عنده﴾ يكشف أمر المنافقين والمساندين للكفار وجواسيسهم الذين يحملون الأخبار لهم ﴿فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ على فعلهم وما كتموه وأضمروه في أنفسهم من اتخاذ الأولياء المؤمنين وتوقع الدائرة عليهم.

٥٣ - ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ لبعضهم لما انكشف الأمر تعجباً ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي هؤلاء الذين أقسموا أغلظ الأيمان أنهم منكم وعلى دينكم وقد كانوا في حربكم وسلمكم ﴿إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ أي بطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها نفاقاً ليقنعوكم فخسروا ثواب أعمالهم وما نالوا منها إلا التعب.

القــــراءة

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ قرأ أبو عمرو ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ بالنصب، وقرأ أهل الحجاز والشام[1] ﴿يقول﴾ بالرفع بغير الواو، وقرأ أهل الكوفة[2] ﴿ويقول﴾ بالواو والرفع.

المرتـدون والمحاربـون

لما بين الله تعالى حال المنافقين وأنهم يتربصون الدوائر بالمؤمنين، وعلم أن قوماً منهم يرتدون بعد وفاته، أعلم أن ذلك كائن وأنهم لا ينالون أمانيهم والله ينصر دينه بقوم لهم صفات مخصوصة تميزوا بها بين العالمين فقال:

٥٤ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ إلى الكفر وهذا إخبار من الله بما علم وقوعه لما سيحدث بعد موت النبي وقد تحقق حيث ارتدت جماعة ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ قال ابن جرير الطبري: وقد أنجز الله وعده فأتى بقوم في زمن عمر بن الخطاب كانوا أحسن موقعاً في الإسلام ممن ارتد، ولا يمنع أن

---

(١) كلمة أهل الحجاز تعني نافعاً وابن كثير وأبا جعفر (يزيد بن القعقاع) وأهل الشام تعني ابن عامر.
(٢) كلمة أهل الكوفة تعني عاصم النجود والكسائي وحمزة.

يدخل في الآية قوم أبي موسى الأشعري ﴿أذلة على المؤمنين﴾ أي عاطفين عليهم متذللين لهم ليني الجانب معهم وأذلة، جمع ذليل، من تذلل إذا تواضع ﴿أعزة على الكافرين﴾ أشداء في الحق ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي أن الشخص الصحيح الإيمان لا يخاف في الله لومة لائم كائناً من كان، ثم أعلم الله أن ذلك لا يكون إلا بتوفيقه فقال ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ بمن هو أهله.

ثم بين تعالى من له الولاية على الخلق والقيام بأمورهم وتجب طاعته عليهم فقال:

٥٥ ـ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾.

أي خاضعون لله خاشعون، طيبة نفوسهم بأمره، لا خوفاً من الناس ورياء، ولا سمعة كالمنافقين فاستعمل الركوع في المعنى النفسي لا الحسي، وهو التطامن والخشوع لله، وكانت العرب تسمي من آمن بالله ولم يعبد الأصنام راكعاً ويقولون ركع إلى الله.

٥٦ ـ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾ بإعانته ونصرته ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ حزب الله جند الله وأنصاره، ويدخل فيهم المهاجرون والأنصار وكل من كان على صفتهم وقد تحقق وعد الله فغلبوا وسادوا وكل من يريد الغلبة فلا بد أن يكون مثلهم قولاً وعملاً والله يؤيد بنصره من يشاء.

ثم عمّم النهي عن موالاة جميع الكفار فقال:

٥٧ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً﴾ كإظهار المنافقين للإسلام وإخفاء الكفر والتلاعب بالدين ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ اليهود والنصارى ﴿والكفار﴾ عبدة الأوثان ﴿أولياء﴾ سبق تفسير الأولياء في الآية السابقة ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ وسبب نزول هذه الآية على ما رواه ابن جرير الطبري أن رفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث كانا قد أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فنزلت هذه الآية وربما كان هذان المنافقان يتجسسان على أخبار المسلمين لمصلحة الكفار.

القــــراءة

﴿من قبلكم والكفار﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿من قبلكم والكفار﴾ بالخفض على النسق، على ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ وقرأ الباقون: بالنصب على النسق على قوله: ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً﴾.

٥٨ ـ ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة﴾ بالأذان ﴿اتخذوها هزواً ولعباً﴾ بتضاحكهم وتغامزهم ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ حقيقة الدين، وما يجب لله تعالى من الثناء والتعظيم، والآية دليل على شرع الأذان للصلاة.

لما حكى عنهم أنهم اتخذوا دين الإسلام هزواً ولعباً قال لهم:

٥٩ - ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون﴾ تنكرون ﴿منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل ألينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ الاستفهام للإنكار والتبكيت أي قل أيها الرسول مخاطباً ومحتجاً على أهل الكتاب، هل عندنا شيء تنكرونه وتعيبونه علينا وتكرهوننا لأجله إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده إلا أن أكثرهم خارجون فاسقون عن حظيرة هذا الإيمان الصحيح الكامل.

روى ابن جرير الطبري وغيره قال أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال «أؤمن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى ونبوته قالوا لا نؤمن بمن آمن به، فأنزل الله فيهم الآية، والآية تتناول هؤلاء وتعم كل ناقم على المسلمين.

٦٠ - ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك﴾ الذي تنقمون منه ﴿مثوبة﴾ ثواباً بمعنى جزاء ﴿عند الله﴾ هو ﴿من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾ أي الذي هو شر من ذلك ثواباً وجزاءً عند الله هو عمل من لعنه الله، فانتقل بهذه الآية من تبكيت اليهود وإقامة الحجة على هزئهم ولعبهم بما تقدّم إلى ما هو أشد منه تبكيتاً وتشنيعاً، بما فيه التذكير بسوء حالهم مع أنبيائهم، وما كان من جزائهم على فسقهم وتمردهم بأشد ما جازى الله تعالى به الفاسقين الظالمين لأنفسهم وهو اللعن والغضب والمسخ ثم انقرضوا وانتهوا، والممسوخ لا نسل له، وأما عن الطاغوت أي وجعل منهم عبيد الطاغوت، بناء على أن عبداً يراد به الجنس لا الواحد والطاغوت اسم فيه معنى المبالغة من الطغيان الذي هو مجاوزة الحد المشروع والمعروف إلى الباطل والمنكر فهو يشمل كل مصادر طغيانهم ﴿أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من المخازي شر مكاناً إذ لا مكان لهم في الآخرة إلا النار وأضلّ عن قصد طريق الحق ووسطه.

القــــراءة

﴿وعبد الطاغوت﴾ قرأ حمزة:

﴿وعبد﴾ بسكون الباء، ﴿الطاغوت﴾ جر، وقرأ الباقون: ﴿وعَبَدَ الطاغوت﴾.

٦١ ـ ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾.

﴿وإذا جاؤوكم﴾ أي المنافقون ﴿قالوا آمنا وقد دخلوا﴾ إليكم متلبسين ﴿بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ والمعنى: دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، فالكفر معهم في حالتيهم والله سبحانه أعلم بما كانوا يكتمون من الكفر والنفاق.

٦٢ ـ ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿وترى كثيراً منهم﴾ اليهود ﴿يسارعون﴾ يبادرون ﴿في الإثم﴾ المعاصي ﴿والعدوان﴾ الظلم ﴿وأكلهم السحت﴾ الحرام ومنه الرشاوي ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾.

٦٣ ـ ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾.

﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾. والمعنى: هلا ينهى هؤلاء المسارعين فيما ذكر أئمتهم في الدين والعلم والرياسة عن قول الكذب وأكل الحرام الباطل بالرشوة وغيرها لبئس ما كان يصنع هؤلاء العلماء الذين صارت إليهم مقاليد الأمور حيث رضوا بهذه الأمور والأوزار وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، روى عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية فهي حجة على العلماء إذا قصروا في الهداية والإرشاد وتركوا النهي عن البغي والفساد.

من سيئات اليهود

كان اليهود أكثر الناس مالاً فلما بعث النبي وكذبوه ضيق الله عليهم المعيشة فقالوا:

٦٤ ـ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ مقبوضة عن إدرار الرزق كناية عن البخل وهذا القول الفظيع من شواهد قولهم الأثم فجازاهم الله بقوله: ﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾ هذا دعاء عليهم يناسب جرمهم وجزاء لهم بالطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى وعنايته الخاصة، والمشهور من معنى ﴿غلت أيديهم﴾ أمسكت وانقبضت عن العطاء والإنفاق في سبيل الله، ثم أنه سبحانه ردّ على اليهود بقوله ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ مبالغة في الجود وثني اليد لإفادة الكثرة، إذ غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي كلما أنزل عليك شيء كفروا به، فيزيد كفرهم، والطغيان هنا الغلو في

الكفر، ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء﴾ مجازاة لهم وهم اليهود والنصارى وكل من كان على شاكلتهم بالكفر ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب﴾ أي لحرب المسلمين ﴿أطفأها الله﴾ ذكر إيقاد النار مثلاً ضرب لاجتهادهم في المحاربة والمعنى: كلما جمعوا لحرب النبي فرقهم الله تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ بالمعاصي والظلم ﴿والله لا يحبّ المفسدين﴾.

لما بالغ في تهجين سيرتهم ذكر أنهم مع ما عدد من مساوئهم لو آمنوا بمحمد ﷺ، غفر لهم ذنوبهم فقال:

٦٥ - ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا﴾ بالنبي محمد ﷺ ﴿واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾.

٦٦ - ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ بالعمل بما فيهما الصحيح دون تحريف ومنه الإيمان بالنبي محمد ﷺ، ﴿وما أنزل إليهم﴾ من الكتب ﴿من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي لوسع الله، كما يقال فلان في خير من قرنه إلى قدمه، ثم فصل حالهم فقال ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ من أهل الكتاب وهم الذين أسلموا منهم والذين قالوا المسيح عبد الله ورسوله، والاقتصاد الاعتدال في القول والعمل من غير غلو ولا تقصير ﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾.

تبليغ الرسول

ثم أمر سبحانه نبيه بالتبليغ وألا ينظر إلى قلة المقتصدين وكثرة المعاندين ولا يتخوف مكرهم فقال:

٦٧ - ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل﴾ بأن تركت شيئاً خوفاً أن تنال بمكروه ﴿فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ أي يمنعك منهم وعصمة الله منعة للعبد من المعاصي، والله عاصم رسوله من القتل والأسر، والآية في أواخر ما أنزل بالمدينة من القرآن ﴿إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

القــراءة

﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿فما بلغت رسالاته﴾ على الجمع وفيه استغراق

النفي لكل مسائل الوحي، وقد جاء في القرآن ذكر تبليغ الرسالات بالجمع في قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿الذين يبلغون رسالات الله. وقرأ الباقون ﴿رسالته﴾.

ثما لما أمره بتبليغ الرسالة أمره أن يقول لأهل الكتاب:

٦٨ ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ اليهود والنصارى لستم على شيء من الدين الحق بعد أن حرفتم كتاب الله وكفرتم بما جاء به محمد ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ وإقامتهما إزالة التحريف والكذب عنهما ثم العمل بما فيهما، ومن ذلك الاعتراف بنبوة النبي محمد ﷺ ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ مما في الكتب السماوية ﴿وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك﴾ من القرآن ﴿طغياناً وكفراً﴾ هذه جملة مستأنفة مؤكدة بالقسم الذي تدل عليه اللام في أولها تثبت أن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي أكمل الله به الدين المنزل على النبي محمد ﷺ إلاّ طغياناً في فسادهم وكفراً على كفرهم ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي فلا تحزن عليهم لأنهم قوم تمكّن الكفر منهم وصار وصفاً لازماً لهم، والعبرة للمسلم في هذه الآية أن يعلم أن المسلمين لا يكونون على شيء يعتدّ به من أمر الدين حتى يقيموا القرآن ويهتدوا بهدايته.

٦٩ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ سبق تفسيرها في البقرة آية (٦٢) فأما رفع الصابئين هنا فمحمول على التأخير ومرفوع بالابتداء وخبره محذوف والتقدير والصابئون كذلك، والعمدة في إثبات اللغات السماع من أهلها، ونكتة الرفع هنا تنبيه الذهن إلى أنهم كانوا أهل كتاب كانوا يخرجون من دين إلى دين وأن حكمهم كحكم المسلمين واليهود والنصارى في تعليق نفي الخوف والحزن عنهم يوم القيامة بشرط الإيمان الصحيح والعمل الصالح، ومناسبة وضع هذه الآية هنا لما قبلها وما بعدها بيان أن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله وما كلّفهم الله إياه على الوجه الذي كان عليه سلفهم الصالح ولا هم عملوا الصالحات كما كان يعمل أسلافهم إلاّ قليلاً منهم كان مختبئاً في طيات الزمان وزوايا البلدان.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدى في تفسير الآية، يخبر الله تعالى عن أهل الكتاب من أهل القرآن والتوراة والإنجيل أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد وأصل واحد وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فله النجاة ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها وهذا الحكم يشمل سائر الأزمنة.

ثم أقسم سبحانه بأنه أخذ عليهم الميثاق فقال:

٧٠ ـ ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾.

﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ في التوراة على الإيمان بالله ورسله ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول﴾ منهم ﴿بما لا تهوى أنفسهم فريقاً﴾ منهم ﴿كذبوا﴾أي اليهود والنصارى اشتركوا في التكذيب ﴿وفريقاً يقتلون﴾ اختص اليهود بقتل الأنبياء وفيمن قتلوا زكريا ويحيى، والتعبير عن القتل بالمضارع مع كونه وقع في الماضي، تصوير جرم القتل الشنيع واستحضار هيئته المنكرة كأنه واقع في الحال للمبالغة في النعي والتوبيخ لهم.

٧١ ـ ﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿وحسبوا ألا تكون فتنة﴾ ظنوا ظناً تمكن من نفوسهم فكان كالعلم في قوته أن لا توجد ولا تنفع فتنة بما فعلوا من الفساد والفتنة، الاختبار بالشدائد كتسلط الأمم القوية عليهم بالقتل والتخريب والاضطهاد، وقيل المراد بها القحط ﴿فعموا وصموا﴾ هذا مثل تأويله أنهم لم يعملوا بما سمعوا ورأوا من الآيات فصاروا كالعمي الصم ﴿ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم﴾ لما تابوا ورفع عنهم البلاء وهو ما جاء في القرآن بسورة الإسراء ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم﴾[1] أي على الأعداء ﴿والله بصير بما يعملون﴾ الآن من الكيد لخاتم الرسل فاتباع الهوى أعماهم وأصمهم مرة أخرى فتركهم لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى وما هو عليه من النعوت والصفات.

القــــراءة

﴿ألا تكون فتنة﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿وحسبوا ألا تكون﴾ بالرفع، وقرأ الباقون: ﴿ألا تكون﴾ نصباً.

عقيدة النصارى ـ الأقانيم

ثم عاد تعالى إلى ذكر النصارى فقال:

٧٢ ـ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

(١) الآية: ٦.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ أكد سبحانه كفر قائلي هذا القول من النصارى إذ غلوا في نبيهم غلواً فاقوا به اليهود في الكفر به، ثم صار هو العقيدة الشائعة فيهم، ومن عدل عنها إلى التوحيد يعد مارقاً، ذلك أنهم يقولون إن الإله مركب من ثلاث أصول يسمونها ﴿أقانيم﴾ وهي الأب والابن وروح القدس ويقولون إن المسيح هو الابن، والله هو الأب، وإن كل واحد من الثلاثة عين الآخرين. ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ ضد ما يقولون ولا يزال أمره هذا مكتوباً محفوظاً عندهم فيما حفظوا من إنجيله في هذه الكتب التي كتبت لبيان سيرته وتاريخه ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾.

٧٣ ـ ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد﴾ أن ما عليه النصارى المتأخرون مرادهم بالثلاثة الأقانيم، وبأن كل واحد منهم عين الآخر، فالأب عين الابن وعين روح القدس ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾ من التثليث والكفر ﴿ليمسنّ الذين كفروا﴾ بالله ﴿منهم عذاب أليم﴾ فوضع الذين كفروا موضع الضمير ليثبت أن ذلك القول كفر بالله، وأن الكفر سبب العذاب الذي توعّدهم به.

٧٤ ـ ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾ مما قالوه استفهام توبيخ وتعجب ﴿والله غفور﴾ لمن تاب ﴿رحيم﴾.

لما قدّم سبحانه ذكر مقالات النصارى أعقبه بالرد عليهم والحجاج لهم فقال:

٧٥ ـ ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

﴿ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ فيه ردّ على اليهود في تكذيبهم رسالته، وعلى النصارى في ادعائهم الوصية، والمعنى: ليس بإله وإنما حكمه حكم من سبقه من الرسل ﴿وأمه صديقة﴾ ردّ على من نسبها من اليهود إلى الفاحشة، والصديقة المبالغة في الصدق كما تقول فلان سكيت أي مبالغ في السكوت ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ إنّهما يعيشان بالغذاء، ومن لا يقيمه إلا أكل الطعام فليس بإله، ثم عجب من غاية غوايتهم فقال ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون﴾ أي انظر أيها الرسول أو أيها السامع نظر عقل وفكر كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين على بطلان دعواهم في المسيح، ثم انظر بعد ذلك كيف يصرفون عن استبانة الحق بها.

السبب في استشراء الفساد فيهم

ثم أقام حجة أخرى على فساد قول النصارى فقال:

٧٦ - ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿قل أتعبدون من دون الله﴾ مثل عيسى ابن مريم وغيره ﴿ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم﴾ أي السميع لقولهم المسيح ابن مريم ابن الله وثالث ثلاثة، العليم بمقالتهم.

ثم عاد إلى مخاطبة الفريقين فقال:

٧٧ - ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ اليهود والنصارى نصارى نجران وغيرهم ﴿لا تغلوا في دينكم﴾ فتقولوا ﴿غير الحق﴾ في عيسى تقدم معنى الغلو في الآيات السابقة ومعناه الإفراط وتجاوز الحد في الأمر فإذا كان في الدين فهو تجاوز حد الوحي كجعل الأنبياء والصالحين أرباباً ينفعون ويضرون: والمعنى: نهى الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا وقت نزول القرآن عن هذا الغلو الذي كان عليه من قبلهم من أهل ملتهم وعن التقليد الذي كان سبب ضلالتهم ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل﴾ فذكرهم بأن الذين كانوا قبلكم قد ضلّوا باتباع أهوائهم في الدين وعدم اتباعهم فيه سنة الرسل والنبيين والصالحين ممن كانوا للشرك والغلو في الدين منكرين، فهذا التثليث، وهذه الطقوس الكنسية الشديدة المستحدثة من بعدهم ابتدعها قوم اتبعوا أهواءهم فضلّوا وأضلّوا كثيراً ممن تبعهم في بدعهم وضلالهم، وأما الضلال الثاني الذي ختمت به الآية فقد فسّر بإعراضهم عن الإسلام كما فسر الضلال الأول بما كان قبل الإسلام، فالإسلام هو سواء السبيل، أي وسطه الذي لا غلو فيه ولا تفريط.

٧٨ - ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾.

﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود﴾ كان داوود قد لعن الذين اعتدوا منهم في السبت أو العاصين المعتدين عامة والمعتدين في السبت خاصة ثم لعنهم عيسى وكان سبب ذلك اللعن والمقت من الله عصيانهم له عز وجل المستمر كما يدل عليه قوله: ﴿وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ فهو دليل الاستمرار في العدوان والظلم.

٧٩ - ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أي كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر ما من المنكرات مهما اشتد قبحها وعظم ضررها، وفي النهي عن المنكر حفاظ الدين وسياج الآداب والفضائل، ومتى صار الدهماء يرون المنكرات بأعينهم ويسمعونها بآذانهم، تزول وحشتها وقبحها من أنفسهم، ثم يتجرأ الكثيرون عليها ﴿لبئس ما

كانوا يفعلون﴾ هذا تأكيد قسمي لذم ما كانوا يفعلونه، مصرين عليه من اقتراف المنكرات والسكوت عليها والرضا بها وكفى بذلك إفساداً، ذلك شأنهم ودأبهم الذي مردوا عليه وأصرّوا على فعله بينه الله تعالى.

ثم لما وصف أسلافهم بما وصف شرع في نعت الحاضرين فقال:

٨٠ ـ ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿ترى كثيراً منهم﴾ أي المنافقين أو اليهود ﴿يتولّون الذين كفروا﴾ من أهل مكة بغضاً لكم ﴿لبئسما قدمت لهم أنفسهم﴾ أي بئسما قدموا لمعادهم من العمل الموجب لهم ﴿أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾

٨١ ـ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه﴾ في القرآن ﴿ما اتخذوهم﴾ أي الكفار ﴿أولياء﴾ أي ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب يؤمنون بالله والنبي محمد ﷺ وما أنزل إليه من الهدى والفرقان لما اتخذوا أولئك الكافرين من عبدة الأصنام أولياء لهم وأنصاراً يتعاونون معهم؛ لأن العقيدة الدينية كانت تبعدهم عنهم. وفي العبارة وجه آخر لو كان أولئك الذين كفروا من المشركين يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذهم اليهود أولياء، أي أنهم لم يتخذوهم أولياء ونصراء إلا لكفرهم بالله ورسوله إذ لم يكن هناك من علة إلا اتفاق الفريقين على الكفر، والتعاون على حرب الرسول وإبطال دعوته والتنكيل بمن آمن به ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي خارجون من حظيرة الدين منسلون منه انسلال الشعرة من العجين والقليل لا تأثير له في سيرة الأمة وأعمالها والله أعلم.

اليهود والنصارى وعلاقتهم بالمؤمنين

ثم وصف شدة شكيمة اليهود ولين عريكة النصارى فقال:

٨٢ ـ ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود﴾ اللام للقسم والنون دخلت تفصل بين الحال والاستقبال ﴿والذين أشركوا﴾ عبدة الأوثان هم كذلك ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى﴾ قوم من

النصارى كانوا متمسكين بشريعة عيسى، فلما جاء الإسلام أسلموا ويدخل فيهم النجاشي وأصحابه وغيرهم ممن يعمهم اللفظ، ثم ذكر سبب ذلك التفاوت فقال ﴿ذلك بأن منهم قسيسين﴾ القس والقسيس رؤساء علمائهم ﴿ورهباناً﴾ الرهبان العباد أرباب الصوامع والترهب والتعبد ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ أي لا يتكبرون عن اتباع الحق.

كان اليهود والمشركون مشتركين في بعض الصفات والأخلاق التي اقتضت شدة العداوة للمؤمنين، فمنها الكبر والعتو والبغي وحب العلو والعصبية الجنسية والحمية القومية، وغلبة الحياة المادية، وضعف عاطفة الحنان والرحمة، وكان مشركو العرب على جاهليتهم أرق من اليهود قلوباً وأكثر سخاءاً، وأشدّ حرية في الفكر والاستقلال، وما قدّم الله ذكر اليهود في الآية إلاّ لإفادة أصالتهم وتمكّنهم فيما وصفوا به وتبريزهم على مشركي العرب فيه، ولا يغيب عن البال قتلهم بعض الأنبياء وإيذاء البعض واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل، وأنهم لا يعملون شيئاً إلاّ لمصلحتهم، وأما النصارى فأقرب مودة بسبب أن منهم قسيسين يتولّون تعليمهم وتربيتهم الدينية ورهباناً يمثلون فيهم الزهد والخوف من الله والانقطاع للعبادة، والمشهور من عبادتهم إدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن فأثر ذلك في نفوس جمهور الأمة وسوادها فأضعف صفة الاستكبار عن قبول الحق، هذا لما كان النصارى متمسكين باتباع تعاليم الكنيسة ومعترفين بسلطتها، أما اليوم فقد تغير الحال وتنكر الناس للدين وجعلوه محصوراً بين الجدران فقط كما تغيرت تعاليمهم وتبدلت بتغير الرؤساء وتقادم الزمان، وبرزت فيهم روح الاستعمار والاستيلاء على الثروات للبلدان، وانحل كثير منهم عن دينه وبعد عن أخلاقه ويكفي دليلاً لتعليل الآية كثرة من يسلم من النصارى وقلة من يسلم من اليهود.

٨٣ ـ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ من القرآن أي إذا سمع أولئك النصارى ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ أي تمتلىء دمعاً حتى يتدفق من جوانبها لكثرته ذلك ﴿مما عرفوا من الحق﴾ الذي بينه القرآن لهم ﴿يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ بعث النجاشي من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليهم القرآن فبكوا ورقوا وقالوا نعرف والله وأسلموا وذهبوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم فنزلت الآية تشملهم ﴿واكتبنا مع الشاهدين﴾ الذين يشهدون بالإيمان.

٨٤ ـ ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾ هذا جواب لمن لامهم من قومهم ﴿ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ من صلحت نفوسهم بالعقائد الصحيحة والفضائل الكاملة.

٨٥ ـ ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ثواب المؤمنين أي فجزاهم الله وأعطاهم من الثواب بقولهم الذي عبروا به عن إيمانهم وإخلاصهم.

٨٦ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

النهي عن التشدد في الدين

لما تقدّم ذكر الرهبان وكانوا قد حرّموا على أنفسهم الطيبات نهى الله المؤمنين عن ذلك فقال:

٨٧ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ عن أنس بن مالك قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنّي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني[١] الطيبات مما تشتهيه النفوس مما أبيح ثم نهى عن الاعتداء مطلقاً ليدخل تحته الإسراف فقال: ﴿ولا تعتدوا﴾ لا تأتوا ما نهى الله عنه ولا تتجاوزوا حدود شريعته وسنن فطرته ثم أكّد التوصية وزادها تأكيداً فقال:

٨٨ ـ ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾.

﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ هذا تصريح بالأمر بغير مقتضى النهي الذي قبله ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ في الأكل وغيره فلا تفتاتوا عليه في تحريم ولا تحليل ولا تعتدوا حدوده فيما أحلّ ولا فيما حرّم فإنه قال جلّ شأنه ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحبّ المسرفين﴾[٢].

آيات اليمين

٨٩ ـ ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾.

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ وهو ما سبق إليه اللسان من الحلف بغير قصد كقولك لا والله، وبلى والله، ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ بما صممتم عليه منها وقصدتموه من الحلف بالله إذ الحلف لا يكون إلا بالله لقول النبي ﷺ «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله»[٣] ﴿فكفارته﴾ أي اليمين إذا حنث فيه بالتراجع عن حلفه فلم ينفذ ﴿إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكـم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ وحنثتم بها ﴿واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ الكفارة اسم مبالغة للستر والتغطية وتكفر بعض الذنوب أي تغطيها وتخفيها حتى لا يكون لها أثر يؤخذ به في الدنيا ولا في الآخرة فالذي يكفر عقد اليمين إذا نقض أو أريد نقضه بالحنث به أحد هذه المبررات الثلاثة على التخيير وأدناها إطعام عشرة مساكين وجبة واحدة لكل منهم من غالب الطعام الوسط.

القـــراءة

﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿بما عقدتم﴾ بتخفيف القاف، وقرأ الباقون ﴿عقّدتم﴾ بالتشديد.

وقرأ ابن عامر: ﴿بما عاقدتم﴾ بالألف.

الخمــر

٩٠ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر﴾ أي شربها وهو كل شراب مسكر ﴿والميسر﴾ لعب القمار ﴿والأنصاب﴾ الأصنام والأوثان التي تعبد من دون الله وهي حجارة كانوا في الجاهلية يذبحون قرابينهم عندها وقد مر تفسير ذلك في آية ﴿وما ذبح على النصب﴾ في أول السورة ﴿والأزلام﴾ قداح أي قطع رقيقة من الخشب كهيئة السهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم وسبق الكلام عليها كذلك ﴿رجس﴾ اسم لكل ما استقذر من عمل ﴿من عمل الشيطان﴾ من تزيين الشيطان ونسب إليه لأنه هو الداعي إليه المزين له ألا ترى أنه لو أغرى رجلاً بضرب رجل، لجاز أن يقال له: هذا من عملك ﴿فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ أي فإذا كان الأمر كذلك فاجتنبوا هذا الرجس كله ما ذكر كله أي ابعدوا عنه وكونوا في جانب غير الجانب الذي هو فيه رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم.

الآيات الواردة في الخمر

أول ما نزل في الخمر آية النحل (٦٧) ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن

(٣) متفق عليه.

في ذلك لآيةً لقوم يعقلون﴾. وثانيهما آية البقرة (٢١٩) ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ وثالثهما آية النساء (٤٣) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾. ورابعها آيتي المائدة (٩٠ ـ ٩١) ﴿إنما الخمر والميسر﴾.

٩١ ـ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾.

﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ إذا أتيتموها لما يحصل فيها من الشر والفتن ﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾. يقول علماء التفسير في أسباب نزول الآية في المائدة إن بعض الناس لم يكن حكم تحريم الخمر واضحاً لديهم في الآيات السابقة في البقرة والنساء فكان البعض يشربها، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعو الله تعالى: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً حتى نزلت آية المائدة ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فقال: انتهينا يا رب انتهينا.

لما أمر الله تعالى باجتناب الخمر وما بعدها أعقبه بالأمر بالطاعة فيه وفي غيره فقال:

٩٢ ـ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ فيما أمركم به من اجتناب الخمر والميسر وغيرها من المعاصي كالأنصاب والأزلام وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم نحو قوله «كل مسكر خمر وكل خمر حرام»[1] ﴿واحذروا﴾ إذا خالفتم ما يصيبكم من فتنة في الدنيا وعذاب في الآخرة ﴿فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ فإن أعرضتم عن اتباع أمرهما فالحجة قد قامت عليكم والرسول قد خرج من عهدة التبليغ وما بعد ذلك من عقاب للمخالف فأمره على الله كما قال سبحانه ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾.

٩٣ ـ ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وماتوا ﴿جناح فيما طعموا﴾ من الميسر والخمر قبل التحريم ﴿إذا ما اتقوا﴾ المحرمات ﴿وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا﴾ ثبتوا على التقوى والإيمان ﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾ العمل ﴿والله يحب المحسنين﴾ وهذه الآية جاءت جواباً لمن سأل عن الذين ماتوا وهم يشربونها ويأكلون مال الميسر قبل التحريم.

الصيد في الإحرام

لما تقدّم في أول السورة تحريم الصيد على المحرم مجملاً بين سبحانه ذلك هنا بالتفصيل فقال:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

٩٤ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم﴾ ليختبرنكم وأنتم محرمون ﴿الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم﴾ لكثرته وسهولة صيده ﴿ليعلم الله﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر والمراد بالعلم هنا هو علم ظهور لكم ﴿من يخافه بالغيب﴾ من يخافه غائباً عن نظر الناس غير مراء ولا خائف من إنكارهم ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ بأخذ شيء من ذلك الصيد بعد ذلك الذي أخبركم الله به ﴿فله عذاب أليم﴾، والمعنى: أن الله سوف يبتليكم بالاختيار بإرسال كثير من الصيد البري يسهل عليكم صيده لدرجة أخذه باليد أو طعنه بالرمح حالة كونكم في حاجة إلى أكله في الأسفار الطويلة، وقد نزلت هذه الآية عام الحديبية حيث ابتلاهم الله بالصيد الكثير وهم محرمون وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم وقد بينت الآية التالية سبب هذا المنع.

٩٥ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ .

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أي محرمون بحج أو عمرة أو في مكان الحرم ﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ أي ومن قتل شيئاً من الصيد وهو محرم فعليه جزاء فدية من البقر أو الغنم مماثل لما قتله أي مناسب في الخلقة ﴿يحكم به﴾ أي بالمثل رجلان ﴿ذوا عدل منكم﴾ لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء، وقد حكم الصحابة في النعامة ببقرة أو بعير، وفي بقر الوحش وحماره بقرة، وفي الظبي شاة وفي الحمام شاة، ﴿هدياً﴾ حال من جزاء ﴿بالغ الكعبة﴾ أي أن ذلك الجزاء يكون هدياً يصل إلى الكعبة ويذبح في جوارها حيث تؤدى المناسك ويفرق لحمه على مساكين الحرم ﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ أو للتخيير أي، أو إن شاء أطعم عدة مساكين كل مسكين يوماً بقيمة مثل ما قتل بأن يقوم مثله ﴿أو عدل ذلك﴾ الطعام أي ما يعادل قيمة ذلك الطعام عدد الأيام ﴿صياماً﴾ أي يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً ﴿ليذوق وبال أمره﴾ أي سوء عاقبته مخالفة الأمر والنهي ﴿عفا الله عما سلف﴾ لكم من الصيد في السابق في حال الإحرام ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ لكونه قد علم عقاب الله ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾.

القــــراءة

﴿فجزاء. . . أو كفارة طعام مساكين﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فجزاء﴾ منون، وقرأ الباقون: ﴿فجزاء﴾ مثل مضافاً، قرأ نافع وابن عامر ﴿أو كفارة﴾ غير منون ﴿طعام﴾ خفض، وقرأ الباقون ﴿كفارة﴾ منون، ﴿طعام﴾ رفع.

٩٦ ـ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

﴿أحل لكم صيد البحر﴾ ولو كنتم محرمين ﴿وطعامه﴾ المراد به ما مات وقذفه البحر كالذي يطفو على

رأي ابن عباس وابن عمر وقتادة وقيل المراد بطعامه المملوح وهو رأي ابن عباس في رواية أخرى وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومجاهد. ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ المسافرين يتزودون به طرياً أو مملحاً وينتفع به المقيم في بلده ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ أي وحرم عليكم ما صدتم من البر وحالة كونكم محرمين لا ما صاده غيركم ولا ما صدتموه قبل إحرامكم ثم حث على الطاعة واجتناب المعاصي فقال: ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ أي واخشوا الله واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه من جميع ما تقدم من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وإصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم وفي نحو ذلك فإن إليه مصيركم ومرجعكم، وجاء التعبير تحشرون ليناسب ما تحدثت به الآية من أحكام تتعلق بالمحرمين بالحج أو العمرة، ووجه المناسبة أن المحرمين وهم في حالة كونهم يؤدون مناسك الحج في موقف يشبه الحشر يوم القيامة بتجردهم من الدنيا وتوحدهم في اللباس وتوجههم جميعاً إلى الله في مكان واحد.

البيت الحرام وحدود الحرم

لما ذكر سبحانه حرمة الحرم أعقبه بذكر البيت الحرام والشهر الحرام فقال:

٩٧ ـ ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام﴾ حرام لحرمة أن يصاد عنده، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم مكة فلم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار ولا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمعرِّف» ولا يختلى خلاها أي لا يصاد وحشها ولا يعضد شجرها أي لا يقطع. قال تعالى: ﴿قياماً للناس﴾ قياماً للدين ومعالم للحج ﴿والشهر الحرام﴾ المراد به الأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب قياماً لهم بأمنهم من القتال فيها ﴿والهدي والقلائد﴾ قياماً لهم بأمن صاحبهما من التعرض له، فجعل الله تعالى هذه الأشياء عصمة للناس بما جعل في صدورهم من تعظيمها ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾

القــــراءة

﴿قياماً للناس﴾ قرأ ابن عامر: ﴿قيماً للناس﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿قياماً للناس﴾ بالألف.

لما تقدّم بيان الأحكام أعقبه سبحانه بذكر الوعد والوعيد فقال:

٩٨ ـ ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿اعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾ لأعدائه ﴿وأن الله غفور رحيم﴾ لأوليائه.

٩٩ ـ ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

﴿ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ في هذه الآية تهديد شديد، أما ادعاء النسخ بآية السيف ففي غير محله؛ لأن الآية خبر وهو لا يقبل النسخ وإنها تدل على أن الواجب على الرسول التبليغ، وليس عليه الهدى، والقصر فيها إضافي يراد به تقرير أن الرسول ليس مكلفاً بإيجاد الإيمان في قلوب الناس إذ أن هذا ليس في مقدور أحد إلا الله جلّ شأنه ومثله ﴿ليس عليك هداهم﴾[1] ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾[2].

لما بيّن سبحانه الحلال والحرام بيّن أنهما لا يستويان فقال:

١٠٠ ـ ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب﴾ من الأشياء والأعمال والأموال، كالضار والنافع والفاسد الصالح والحلال والحرام، ولا من الناس كالظالم والعادل، والجاهل والعالم، والمفسد والمصلح، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ والإعجاب هنا السرور بما يتعجب منه، فلا تغتروا بكثرة الخبيث عندما ترونه فالعبرة بالكيف لا بالكم ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ العقول ﴿لعلكم تفلحون﴾ وإنما خُصَّ أولو الألباب في عجز الآية بعد مخاطبة كل مكلف في صدرها لأن أهل الروية والبصيرة من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور.

النهي عن السؤال الضار

ثم ذكر الله جلّ وعلا أن الفلاح في ترك السؤال عما لا يحتاج إليه الإنسان فقال:

١٠١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ هذا خطاب من الله إلى الصحابة لما كثرت أسئلة بعضهم للنبي ﷺ في أمور الدين مما لا طائل لهم من وراء الإجابة عليه، ولا حاجة ملحة تحتم في السؤال عنه، ولو علم الله فيه خيراً لهم لبينه لهم قبل سؤالهم كمثل الذي سأل عن الحج أفي كل عام يا رسول الله، وكمثل الذي سأل عن اسم أبيه، ليعلم هل زنت أمه به في الجاهلية أم لا فأغضب أمه بذلك وفي الصحيح عن رسول الله: «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»[3] وفي الصحيح كذلك إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.

(٣) رواه البخاري ومسلم بما معناه.

رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها[1] قال الله تعالى: ﴿إن تبد لكم تسؤكم﴾ إذ يأتي الجواب من النبي ﷺ بالحكم أو ينزل فيه قرآن على غير ما أردتم واشتهيتم أو أن يكون الجواب يسوؤكم ذلك لما فيها من المشقة والأولى بكم أن تصبروا ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن﴾ في زمن النبي ﷺ ﴿تبد لكم﴾ تظهر لكم الأحكام من عند الله في مناسبتها ووقتها وهو أعلم بمصلحتكم لا يجليها إلا لوقتها فيكون وقعها أهون عليكم عندئذ يكون السؤال في محله، ومناسبته، حيث يبين الرسول ما ينزل من القرآن ويفصله ﴿عفا الله عنها والله غفور حليم﴾ إن هذه الأشياء مما عفا الله عنها بسكوته في كتابه وعدم تكليفكم إياها، فاسكتوا عنها أيضاً ويحتمل عفا الله عما كان من مسألتكم قبل النهي فلا يعاقبكم عليها لسعة مغفرته.

ثم أخبر سبحانه أن قوماً سألوا مثل سؤالهم فلما أجيبوا إلى ما سألوا كفروا فقال:

١٠٢ ـ ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾.

﴿قد سألها﴾ أي مثل هذه الأسئلة عن مثل هذه الأشياء ﴿قوم من قبلكم﴾ في الأمم السابقة لأنبيائهم كأصحاب المائدة والبقرة وغيرهم، وكالذين قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾ قال مقاتل: كان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم بها تركوا قولهم ولم يصدقوهم فأصبحوا بتلك الأشياء كافرين وقد استنبط العلماء من هذه الآية قاعدة من أهم القواعد الأصولية في الدين وهي أن الأصل في الأشياء الإباحة.

بعض ضلالة الجاهلية

١٠٣ ـ ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة، ولا حام﴾ أي ما شرع ولا أمر به بما يفعله أهل الجاهلية من البدع والشرك. ﴿البحيرة﴾ هي الناقة التي يبحرون أذنها أي يشقونها إذا نتجت خمسة أبطن وكان الخامس أنثى، ليكون علامة على تحريم أكلها أو ركبها أو الحمل عليها. ﴿والسائبة﴾ الناقة التي تسيب بنذرها لآلهتهم فترعى حيث شاءت ولا يحمل عليها شيء ولا يجز صوفها ولا يحلب لبنها. ﴿الوصيلة﴾ الشاة التي تصل أنثى بأنثى في الولادة. ﴿والحام﴾ من الحماية وهو فحل التلقيح قيل إذا أتم ضراب عشرة أبطن قالوا حمى ظهره وتركوه لا يحملون عليه شيئاً، قال تعالى: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ قولهم إن الله حرمه وأمرنا به ﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾.

ثم أخبر سبحانه عن الكفار الذين جعلوا البحيرة وغيرها ويفترون على الله الكذب من كفار قريش وغيرهم وردّ على أهل التقليد فقال:

---

(١) رواه الإمام مالك في موطأه.

١٠٤ - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ أي إلى حكم الله من تحليل ما حرمتم ﴿قالوا حسبنا﴾ أي كافينا ﴿ما وجدنا عليه آباءنا﴾ مما هم عليه ﴿أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ يتبعونهم في خطئهم.

لما بيّن سبحانه حكم الكفار الذين قلدوا آباءهم وأسلافهم وركنوا إلى أديانهم، أعقبه بالأمر بالطاعة وبيان أن المطيع لا يؤاخذ بذنوب العاصي فقال:

١٠٥ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ أي احفظوها والزموها وقوموا بصلاحها وذلك بعد بذلكم الجهود الكبيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقتناعكم بأن ذلك لا يجدي شيئاً ﴿لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ لا يضرّكم ضلال غيركم إذا اهتديتم لأن قاعدة الإسلام أن كل نفس تحمل وزرها كما يقول الله سبحانه: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾(١) ﴿إلى الله مرجعكم﴾ جميعاً ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي إليه وحده رجوعكم ورجوع من ضل عما اهتديتم إليه فينبئكم عند الحساب بما كنتم تعملون في الدنيا ولا يجوز أن يفهم من الآية أن على الإنسان بخاصة نفسه وأن يبتعد عن الناس فهذا فهم خاطىء للآية إذ أنّ أصول الهداية كما يقول الله تعالى: ﴿إذا اهتديتم﴾ وهي الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا تكونوا مهتدين إلا إذا بلغتم دعوة الحق والخير وعلمتم الجاهلين ما أعطاكم الله من العلم والدين ولهذا ختمت الآية بـ ﴿تعملون﴾ لكي يناسب القول العمل ودلت صيغة الجمع على أن العمل جماعي وهو ما ينفي الانزواء والرهبنة وترك المجتمع ليفسد فيه الأشرار بل لا بد من العمل.

الشهادة على الوصية

لما أمر بحفظ النفس في قوله: ﴿عليكم أنفسكم﴾ أمر بحفظ المال فقال:

١٠٦ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴾.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ إذا شعر الإنسان بدنو أجله قبل مرضه ﴿حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم﴾ أي شاهدان من المسلمين الموجودين ﴿أو آخران من غيركم﴾ إذا لم يوجد مسلمون ووجد آخران من غير ملة الإسلام ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ والضرب بالأرض هو السفر فيها والسير عليها ﴿فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما﴾ توقفونهما ﴿من بعد الصلاة فيقسمان﴾ يحلفان ﴿بالله إن ارتبتم﴾ أي إذا لم يتفق الورثة وساوركم الشك وكل شاهد لا بد أن يحلف بالله ويقولان ﴿لا نشتري به﴾ بالله، أي بيمينه ثمناً لا نجعل يمين الله كالسلعة التي تبذل لأجل الثمن ﴿ولو كان﴾ المشهود له ﴿ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً﴾ في كتمانها ﴿لمن الآثمين﴾ إن فعلنا ذلك الإثم هو الظلم، ومن جار في شهادته أو جنح إلى أحد الخصوم فقد ظلم الآخر فناسب ختم الآية به.

ثم بين سبحانه الحكم بعد ظهور الخيانة من الوصيين أو الشاهدين فقال:

١٠٧ ـ ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثماً﴾ زوراً في شهادتهما أو كتمانهما ﴿فآخران يقومان مقامهما﴾ أي فيحلف بدلاً من الشاهدين آخران من الورثة ﴿من الذين استحق عليهم الأوليان﴾ من أولياء الميت الوارثين الذين استحق ذلك الإثم بالإجرام عليهم، وينبغي أن يكونا هما الأقربين للميت الأحقين بإرثه ﴿فيقسمان بالله﴾ على خيانة الشاهدين ويقولان ﴿لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذاً لمن الظالمين﴾ والمعنى: ليشهد المحتضر على وصيته اثنين أو يوصي إليهما من أهل دينه أو غيرهم إن لم يجدهما وكان في سفر، فإن ارتاب الحاكم بأن ظهرت دلائل أو قرائن على بطلان شهادة الشاهدين فترد اليمين حينئذ على أقرب اثنين مستحقين من الورثة فيحلفان بكذب شهادة الشاهدين وصدق دعواهما وهي اليمين الحاسمة في القانون أو المتممة لدليل ناقص إن وجد فيحكم لهم.

القــــراءة

﴿من الذين استحق﴾ قرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم: ﴿من الذين استحق﴾ بضم التاء ﴿الأولين﴾ على الجميع، قرأ حفص ﴿من الذين استحق﴾ بفتح التاء ﴿الأوليان﴾ على التثنية ﴿والأوليان﴾ رفع بـ ﴿استحق﴾، وقرأ الباقون ﴿من الذين استحق﴾ بضم التاء ﴿عليهم الأوليان﴾.

١٠٨ ـ ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

﴿ذلك﴾ أي رد اليمين على الورثة ﴿أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ بلا تبديل ولا تغيير ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ على الورثة المدعين فيحلفون على خيانة الأولين وكذبهم فيفتضحون ﴿واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الفاسق الذي عرف بفسقه وافتضح أمره لا تقبل شهادته وترد كلما تقدم للشهادة بها، لذا جاء التعبير بالفسق مناسباً معنى الآية.

شهادة الرسل يوم القيامة

ثم ختم السورة بالإتيان بالنبوات وأحوال العباد فقال:

١٠٩ ـ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ يوم القيامة شهوداً على العباد ﴿فيقول ماذا أجبتم﴾ أي ماذا أجابتكم به أممكم على دعوتي ورسالاتي التي كلفتكم بها إليهم، ولما كان المشهد عظيماً، والرب عليماً، والرسل تعلم أن الله عليم بالسائل والمسؤول والإجابة عن السؤال، فكان جوابهم أن ﴿قالوا لا علم لنا﴾ اليوم أي لا جواب لدينا نتكلم به بحيث أن الأمر كله لله، وهو عالم بكل شيء، وقد سبق أن بيّن الرسل هذه الحقيقة لأممهم فمنهم من صدق ومنهم من كفر ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ أي إنك تعلم ما فعلت أممنا وماذا أجابت عن دعوتنا إليهم، وهذا تأدباً من الرسل مع الله فكأنهم قالوا ما المسؤول بأعلم من السائل، وهذا لا يتنافى مع قوله عز وجل: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾[1] لأنه بعد الأذن لهم، وذهاب روع وأهوال القيامة عنهم.

لما عرف سبحانه يوم القيامة بما وصفه به من جمع الرسل فيه عطف عليه بذكر المسيح معدداً نعمه عليه فقال:

١١٠ ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ اذكرها بقلبك ولسانك وقم بواجبها أنت وقومك شكراً لربك حيث أنعم عليك نعماً ما أنعم بها على غيرك فتلك آية من ربك ﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾ القوة المعنوية غير المنظورة التي يثبت الله بها الرسل ومن يصطفي من عباده، وقد تطلق الروح على معان متعددة لكونها قوة للبشر كالملائكة والقرآن ﴿تكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام العادي، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب وهو الدعوة إلى الله، ولعيسى عليه السلام من ذلك ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين من التكليم في حال الكهولة بالرسالة والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، وامتاز عنهم بأنه كلّم الناس في المهد فقال ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ ﴿وإذ علمتك الكتاب﴾ كتاب السابقين ﴿والحكمة﴾ معرفة أسرار الشرع وفوائده ﴿والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

كهيئة الطير﴾ تصنع تمثالاً مجسماً مثل الطير لا روح فيه ﴿بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾ أي بإرادتي وموافقتي وفي هذا دليل على أن المسيح لا يصنع ذلك دائماً كلما أراد. وإنما كلما أمره الله وأذن له في ذلك آية من الله للناس ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾ الأكمه الذي لا بصر له من ولد أعمى ويطلق على من عمي بعد الولادة أيضاً، والبرص مرض ﴿وإذ تخرج الموتى﴾ وفي كتاب العهد الجديد أنه أبرأ كثيراً من العمي والبرص وأحيا ثلاثة أموات وهو أقل ما يطلق عليه الجمع لغة، وتكرار كلمة الإذن بتقيد كل فعل من تلك الأفعال بها يؤكد أنه ما وقع شيء منها إلا بمشيئته وقدرته ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك﴾ حين هموا بقتلك ﴿إذ جئتهم بالبينات﴾ المعجزات المادية والآيات الكونية ﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ ولم يكن الطعن بالآيات التي جاء بها عيسى عن علم ودراية لعلمهم أن السحرة لا يفعلون ذلك وإنما كان عن عناد ومكابرة، وفي تذكير النعم فائدتان، الأولى: إسماع الأمم ما خصه به من الكرامة، والثانية: توكيد حجته على جاحده.

القـــراءة

﴿إن هذا إلاّ سحر مبين﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿إن هذا إلاّ ساحر مبين﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿إن هذا إلاّ سحر مبين﴾ بدون ألف.

١١١ ـ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾.

﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ الوحي المراد به هنا ما يلقيه الله في نفوس الأحياء من الإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾[1] ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾[2] والحواريون هم أصحاب عيسى والوحي إليهم بمعنى الإلهام ﴿أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد﴾ يا عيسى ﴿بأننا مسلمون﴾ أي مخلصون في العبادة والتوحيد والمعنى اذكر نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك فجعلتهم أنصاراً لك يؤيدون حجتك وينشرون دعوتك.

المائـــدة

ثم أخبر سبحانه عن الحواريين وسؤالهم فقال:

١١٢ ـ ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك﴾ أي هل يرضى ربك ويختار، قال ابن الأنباري: لا يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة الله، وإنما هذا كما يقول شخص لآخر هل تقدر

(١) سورة النحل، الآية: ٦٨.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧.

أن تقوم معي وهو يعلم أنه يستطيع ولكنه يعني هل يسهل عليك ويرضيك ﴿أن ينزل علينا مائدة من السماء قال﴾ لهم عيسى ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي لا يليق بكم كمؤمنين أن تطلبوا مثل هذا الطلب الدنيوي المادي.

القــــراءة

﴿هل يستطيع ربك﴾ قرأ الكسائي: ﴿هل تستطيع﴾ بالتاء، ﴿ربّك﴾ نصب، وقرأ الباقون: ﴿هل يستطيع﴾ بالياء ﴿ربُّك﴾ بالرفع.

١١٣ ـ ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ ﴾.

﴿قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن﴾ تسكن ﴿قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا﴾ هذا بيان لسبب طلبها ومنها حاجتهم إلى الطعام للأكل منه والتبرك به، والثانية: لكي تطمئن قلوبهم بما يؤمنون به من قدرة الله بمشاهدة خارقة للعادة، أي بضم علم المشاهدة واللمس والذوق والشم إلى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال، الثالثة: أن نعلم أي نشاهد، الرابعة: ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ على هذه الآية عند بني إسرائيل لأنهم كانوا في البرية.

ثم أخبر سبحانه عن سؤال عيسى عليه السلام إياه فقال:

١١٤ ـ ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا﴾ يوم نزولها ﴿عيداً لأولنا وآخرنا﴾ أي لأول من آمن منا وآخر من آمن، وكلمة العيد تستعمل بمعنى السرور والفرح وبمعنى الموسم. ﴿وآية منك﴾ أي علامة تدل على توحيدك وصحة نبوة نبيك ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ من حسن النظم في الآية أن أخر الله ذكر فائدتها المادية عن ذكر فائدتها الدينية والروحية.

١١٥ ـ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد﴾ نزولها ﴿منكم فإني أعذّبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ فنزلت عليهم وأما نوع الأكل الذي على المائدة فإن العلم به لا ينفع والجهل به لا يضرّ ولم يصح شيء من الأسانيد في تفاصيل المائدة ويجب الالتفات عن ما قيل من التفصيلات بلا يقين.

القـــراءة

﴿إنّي منزّلها عليكم﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم: ﴿قال الله إنّي منزّلها عليكم﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون: ﴿منزلها﴾ بالتخفيف.

١١٦ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾.

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم﴾ توبيخاً لقومه ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله﴾ فإن قيل فالنصارى لم يتخذوا مريم إلٰهاً فالجواب أنهم لما قالوا لم تلد بشراً وإنما ولدت إلٰهاً لزمهم أن يقولوا: إنها من حيث البعضية بمثابة من ولدته ﴿قال سبحانك﴾ أي براءة لك من السوء ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي لست أستحق العبادة فادعوا الناس إليها ﴿إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب﴾.

١١٧ ـ ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

١١٨ ـ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

١١٩ ـ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ أي يوم القيامة لأنه يوم الجزاء ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ هو غاية السعادة الأبدية في النفس ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ لما افتتح السورة بقوله: ﴿أوفوا بالعقود﴾ وهو الشريعة والبداية ختم السورة بما يدلّ على فناء الكلّ في جنب جلاله وكبريائه فقال:

١٢٠ ـ ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾.

تنبيه على عبودية عيسى عليه السلام وتحريض على تعليق الآمال بالله وحده. والله أعلم.

تمّ بعون الله تعالى تفسير سورة المائدة ويليها سورة الأنعام



سورة الأنعام سميت بها لورود ذكر الأنعام وحكمها في آخر السورة.

لما ختم الله سورة المائدة بما يدل على أنه على كل شيء قدير افتتح سورة الأنعام بالثناء على نفسه، ثم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك، أكثر فيها من ذكر الرب الذي هو بمعنى المالك والخالق والمنشىء، واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنساني والملكوتي، والملكي والشيطاني والحيواني، والنباتي، وما تضمنته من الوصايا، فكلها متعلق بالقوام والمعاش الدنيوي، فقد جمعت هذه السورة جميع الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير سورة البقرة في جمعها العلوم والمصالح الدنيوية، وما ذكر فيها من العبادات المحضة، وعلى العموم فهي شارحة لبعض ما تضمنته المائدة حيث قال تعالى:

١ ـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ افتتح الله تعالى كتابه بالحمد، ثم افتتح به أربع سور مكية، مشتملة كل منها على دعوة الإسلام ومحاجة المشركين، والحمد هو الثناء الحسن والذكر بالجميل، وإسناده إلى الله تعالى خبر له، والعبد يحكيه بالتلاوة مؤمناً به، فيكون حامداً لمولاه، ويذكره في غير التلاوة، وإنشاء الحمد بالجملة الخبرية جمع بين الخبر والإنشاء، أثنى سبحانه على نفسه بما علم به عباده الثناء عليه.

أما خلق السماوات والأرض فمعناه إيجاد هذه العوالم العلوية التي نرى كثيراً منها فوقنا، وهذا العالم الذي نعيش فيه إيجاداً مرئياً منظماً، وجعل الظلمات والنور تعدى الفعل وهو جعل بمفعول واحد، لأنه بمعنى أحدث وأنشأ، والظلمة عدم النور، والنور الضوء المنتشر، الذي يعين على الإبصار، فهو أعظم المظاهر الحسية للرب تبارك وتعالى، ويشمل النور والظلمة، الحسيين اللذين نراهما ونشاهدهما من الليل والنهار، والمعنوي مثل الكفر والإيمان والجنة والنار والحرية والحبس ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ العطف يتم لإفادة استبعاد ما فعله الكفار ضد ما يجب عليهم لربهم، الحقيق بجميع المحامد، وإنه الخالق لجميع ما في الكون العلوي والسفلي، وما فيهما من الظلمات والنور الحسية والمعنوية، ومع كل ذلك يعدلون بربهم غيره، أي يجعلونه عديلاً مساوياً إما بعبادته أو الخضوع له، فيشركون بالله ويتخذون له أنداداً.

ثم ذكر دليلاً آخر على إثبات الصانع وعلى صحة المعاد الجسماني فقال:

٢ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾.

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ بخلق أبيكم آدم منه أي الطين، وهو التراب الذي يخالطه الماء، فيكون كالعجين، وقد خلق الله آدم أبا البشر من الطين، كما خلق أصول سائر الأحياء، فبنية الإنسان مكونة من الغذاء، ومنه ما في رحم الأنثى من خواص النسل، وما يلقحه من ماء الذكر، فهو متولد من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من نبات الأرض، أو من لحوم الحيوان المتولد من الأرض، فمرجع كل إلى النبات، وإنما النبات من الطين، ومن تفكر في هذا ظهر له جلياً أن القادر عليه لا يعجزه أن يعيد هذا الخلق كما بدأه، كما أنشأكم أول مرة ﴿ثم قضى أجلاً﴾ لكم تعيشون فيه في بطون أمهاتكم ﴿وأجل مسمى﴾ مضروب يعني عمر الإنسان الذي ينتهي بالموت ﴿عنده﴾ لا يعلمه غيره، وهو مكتوب عنده في الكتاب الذي كتب به مقادير السماوات والأرض ﴿ثم أنتم تمترون﴾ تشكون في البعث بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم، ومن قدر على الابتداء فهو على الإعادة قدير وهو أهون عليه.

٣ ـ ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾.

﴿وهو الله في السماوات والأرض﴾ إن الله تعالى هو المتصف بهذه الصفات المعروفة المعترف له بها في السماوات والأرض، كما تقول: إن حاتماً هو حاتم في قبيلة طي وفي جميع القبائل، أي هو المعروف بالجود المعترف له به في كل قومه وفي غيرهم، ولا يجوز أن يفسر كما زعمت الجهمية بأن الله حالّ فيهما ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ تقرير لمعنى الجملة الأولى فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ من الخير والشر فيجازيكم عليه.

لما فرغ من دلائل التوحيد والمعاد شرع في النبوءات في ثلاث مراتب: الأولى كونهم معرضين فقال:

٤ ـ ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾.

﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ من آيات القرآن أو يظهر لهم من الآيات الكونية ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ غير متدبرين لمعناها ولا ناظرين فيما تدل عليه وتستلزمه، فيهتدون وأصل الإعراض التولي عن الشيء، أي ولولا إعراضهم عن النظر في ذلك التأمل فيه عناداً من رؤسائهم، وجموداً على التقليد من دهمائهم لظهر وجه الحق.

ثم ذكر المرتبة الثانية والثالثة كونهم مكذبين ومستهزئين فقال:

٥ ـ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿فقد كذّبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء﴾ عواقب ونتائج ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾.

٦ ـ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾.

﴿ألم يروا﴾ في أسفارهم وتاريخ الأمم قبلهم ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ القوم المقترنون في زمن واحد، القرن جمعه قرون وهو مائة سنة، ﴿مكّناهم في الأرض﴾ أعطيناهم من القوة والسعة، ما لم نمكن لكم ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ عبارة عن إنزال المطر، والمدرار الغزير الوفير بلا ضرر ﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ أي وسخّرنا لهم الأنهار تجري في مساكنهم وفي متناول أيديهم وتحت أرجلهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ فكان عاقبة أمرهم لما كفروا بتلك النعم وكذّبوا الرسل أن أهلكنا كل قرن منهم بسبب ذنوبهم التي كانوا يقترفونها ﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي أوجدنا من بعد الهالكين من كل منهم جيلاً آخرين يعمرون البلاد ويكونون أجدر بشكر الله عليهم فيها.

شبهات الكفّار والردّ عليها

وبالرغم من إعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم بكلام الله وآياته، كانوا يكثرون في طلب الآيات الخاصة حيث ردّ الله عليهم بما ألزمهم فقال:

٧ ـ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ولو نزّلنا عليك كتاباً﴾ مكتوباً ﴿في قرطاس﴾ ورق كما اقترحوه وطلبوه ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ بالحس ﴿فقال الذين كفروا إن هذا إلّا سحر مبين﴾ تعنتاً وعناداً.

ثم إنهم كانوا يطعنون في نبوة محمد ﷺ من جهة أنه بشر فيقولون:

٨ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾.

﴿وقالوا لولا﴾ هلا ﴿أنزل عليه﴾ أي النبي محمد ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ اقترح كفار مكة أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيراً، مؤيداً له أمامهم حتى يروه ويسمعوا كلامه ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾[١] ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ كما طلبوا فلم يؤمنوا ﴿لقضي الأمر﴾ بهلاكهم ﴿ثم لا ينظرون﴾ أي لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا، بل يأخذهم العذاب عاجلاً كما قضت به سنة الله فيمن قبلهم.

فأجاب الله عن شبهتهم عن قوله:

٩ ـ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾.

﴿ولو جعلناه ملكاً﴾ أي الذي طلبوا إنزاله مع الرسول ﴿لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي لو جعل الرسول ملكاً لجعل الملك متمثلاً في سورة البشر ليمكنهم من رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن الله تعالى، ولو جعله الله في صورة البشر لاعتقدوا أنه بشر، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكاً. ومعنى: وللبسنا عليهم، أي لشبهنا عليهم يقال: ألبست الأمر على القوم ألبسه أي شبهته عليهم وأشكلته.

تسلية النبي ﷺ

ثم إنه سبحانه سلى رسوله عما يلقى من قومه فقال:

١٠ ـ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ فيه تسلية للنبي محمد ﷺ ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ حاق نزل، وأحاط، قال الزجاج: الحيق في اللغة ما اشتمل ونزل على الإنسان من مكروه، ومنه ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله﴾(١) أي لا ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم.

ثم أمر رسوله بأن يقول لهم لا تغتروا بما وجدتم من زخارف الدنيا وسيروا في الأرض لتشاهدوا آثار الأمم السالفة فقال:

١١ ـ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

﴿قل سيروا في الأرض﴾ دعوة للبحث عن الحقائق في الأماكن المتعددة، سيروا في الأرض كشأنكم وعادتكم في الأسفار ونقبوا في ديار أولئك القرون الذين مكناهم في الأرض ومكنا لهم فيها ما لم نمكن لكم ﴿ثم انظروا﴾ نظر تعمق وتأمل وتعلم في أثناء كل رحلة من رحلاتكم، انظروا بعقولكم وأعينكم آثار ما حلّ بهم من الهلاك وكما قيل: (هذه آثارنا تدل علينا، فانظروا بعدنا إلى الآثار) ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ وإنما قال عاقبة المكذبين ولم يقل المستهزئين أو الساخرين، لأنّ الله تعالى أهلك من القرون الأولى جميع المكذبين فكانوا عبرة لغيرهم ممن بعدهم ومنهم المستهزئون.

لما برهن على إثبات الصانع وتحقيق النبوءات وتقرير المعاد، وانجرّ الكلام إلى الأمر باعتبار أحوال الغابرين، عاد إلى إثبات هذه المطالب بطريق الإلزام وأخذ الاعتراف فقال:

١٢ ـ ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿قل لمن ما في السماوات والأرض﴾ والمعنى: فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قل لله كتب على نفسه الرحمة﴾ قضى لنفسه أنه أرحم الراحمين، ومعنى كتب أوجب ويجوز في أن يكون ذلك في اللوح المحفوظ، وإنما

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٤.

خوطب الخلق بما يعقلون، ورحمته عامة فمنها تأخير العذاب عن مستحقيه وقبول توبة العاصي ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ لام القسم كأنه قال والله ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذي أنكرتموه ﴿لا ريب فيه﴾ لا شك فيه ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ والمعنى، أخص هؤلاء ممن يجمعون إلى يوم القيامة بالذم والتوبيخ، فإنهم لخسرانهم أنفسهم في الدنيا لا يؤمنون بالآخرة وهم ممن تقدم ذكرهم من المكذبين والمستهزئين الذين لا يؤمنون، وبعد أن تكلم الله في الآية عن المكان في ذكر السماوات والأرض أردفه في الآية التالية بذكر الزمان الليل والنهار وما فيهما وما سكن بهما فقال:

١٣ ـ ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

﴿وله ما سكن في الليل﴾ مما ينتشر بالنهار ﴿والنهار﴾ مما ينتشر بالليل ويسكن بالنهار، والسكنى والسكون من دواعي الساكن، فإذا كان في الليل كان أشد خفاءاً، ولذلك قد ذكر الليل لأن ما يسكن فيه هو المقصود بالذات، ولما كان الله هو المالك المتصرف بقدرته بما يشاء ذكر بقوله ﴿وهو السميع العليم﴾ أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفياً عن غيره في الليل أو في النهار، وهذا أسلوب آخر في إثبات الوحدانية لله.

لما بين أنه المتصرف الكامل في كل شيء خاصة ما سكن وخفي في الليل وما ظهر في النهار، أشار إلى كمال إحاطته، وتمام تصرفه وعلمه بكل فعل ونية، مما يقتضي عدم اتخاذ الأولياء من دونه فقال:

١٤ ـ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿قل أغير الله أتخذ ولياً﴾ الاستفهام معناه الإنكار، أي لا أتخذ ولياً غير الله أتولاه وأعبده وأستعينه ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي خالقها ﴿وهو يطعم﴾ يرزق ﴿ولا يطعم﴾ لا يرزق ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ من هذه الأمة ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي وقيل لي بعد هذا الأمر بالسبق إلى الإسلام ألّا أكون من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء يزعمون أنهم يقربونهم إليه زلفى، أي أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

ثم ذكر أن النبي ﷺ مع جلالة قدره بصدد المؤاخذة على تقدير المخالفة فقال:

١٥ ـ ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ والمعنى: إن فرض وقوع العصيان مني لربي، فإنني أخاف أن يصيبني عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة، وادعاء النسخ في هذه الآية بقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فقد رد عليه العلماء، قال ابن الجوزي في زاد المسير، والصحيح أن الآيتين خبر، والخبر لا يدخله النسخ، وإنما هو متعلق بشرط، ومثله ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت

ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾[١].

١٦ ـ ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

﴿من يصرف عنه﴾ أي العذاب المذكور في الآية السابقة ﴿يومئذ﴾ يعني يوم القيامة وصرف العذاب إبعاده عنه ﴿فقد رحمه﴾ الله وأراد له الخير ﴿وذلك الفوز المبين﴾ الواضح.

القـــراءة

﴿من يصرف عنه﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿من يصرف﴾ بفتح الياء وكسر الراء، وقرأ الباقون ﴿من يصرف عنه﴾ بضم الياء وفتح الراء.

الدائرة التي تسيطر على الإنسان في القضاء والقدر

ثم أكّد المعنى المذكور سابقاً وهو أنه لا يجوز للعاقل أن يرغب في اتخاذ ولي غير الله بقوله:

١٧ ـ ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ اسم جامع لكل ما يتضرر به الإنسان من فقر ومرض وبلاء وغير ذلك ﴿فلا كاشف﴾ رافع ﴿له إلاّ هو وإن يمسسك بخير﴾ اسم جامع لكل ما ينتفع به الإنسان كالصحة والمال ﴿فهو على كل شيء قدير﴾

ثم زاد لهذا المعنى المتقدم فقال:

١٨ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ القادر الغالب لا يعجزه شيء، والقهر الغلبة والاستعلاء للتسخير والتذليل ﴿وهو الحكيم الخبير﴾

ثم بيّن أنّ شهادة الله حاصلة إلاّ أنها لم تدلّ على أن تلك الشهادة لإثبات أيّ المطالب فقال:

١٩ ـ ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ قل لقريش أي شيء أعظم شهادة؟ فإن أجابوك، وإلا ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ أمره الله أن يحتج عليهم بأن شهادة الله في نبوته أكبر شهادة، وأن القرآن الذي أتى به يشهد له أنه رسول الله وهو قوله ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به﴾ ففي الإنذار به دليل على نبوته، لأنه لم يأت أحد بمثله ولن يأتي، وفيه خبر ما كان وما يكون، وعد فيه بأشياء فكانت كما قال ﴿ومن بلغ﴾ أي ومن بلغ إليه هذا القرآن، فإني نذير له، لما نزلت هذه الآية كتب الرسول إلى الملوك والجبارين يدعوهم إلى الله عز وجل ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ هذا استفهام معناه الإنكار عليهم وإنما قال أخرى ولم يقل آخر، لأن آلهة جمع والجمع يقع عليه التأنيث كما قال تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ ﴿قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾ والآية الأولى وهذه الآية تدخل في باب القضاء والقدر في الدائرة التي تسيطر على الإنسان ولا مقدور له فيها، فلا يحاسب ولا يعاقب على ما يحصل له أو منه، إذ ليس له فيها اختيار ولا مقدور له فيها، فلا يحاسب ولا يعاقب على ما يحصل له أو منه، إذ ليس له فيها اختيار ولا كسب الا جزء بسيط.

ولما زعم المشركون أنهم سألوا اليهود والنصارى عن نعت محمد ﷺ فقالوا: ليس عندنا ذكره كذّبهم الله بقوله:

٢٠ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه﴾ أي أهل التوراة والإنجيل يعرفون أن النبي محمداً ﷺ مبعوث وعلاماته واضحات في كتبهم بأنه نبي ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام: إن الله قد أنزل على نبيه بمكة وذكر الآية فكيف هذه المعرفة؟ فقال لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشد معرفة (بمحمد ﷺ) مني بابني فقال وكيف ذاك: فقال إني أشهد أنه رسول الله حقاً ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ بيان للمنكرين، وكفرهم كبراً وعناداً، وعلة إنكار من أنكر نبوة محمد ﷺ من علماء اليهود كعلة إنكار من أنكرها من المشركين بعد ظهور آياتها وأنكر ما هو أعظم منها وأظهر وهو وحدانية الله عز وجل، وخسران أنفسهم لضياع ما عرفوا من الحق وذهابه بغير نفع لهم وذلك لعنادهم والإصرار على الكفر والباطل، فمثلهم كمثل الذي استبدل الأدنى بالذي هو خير، وذلك هو الخسران المبين.

ثم بيّن سبب خسرانهم مستفهماً على سبيل الإنكار فقال:

٢١ ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿ومن أظلم ممن افترى عى الله كذباً﴾ أي اختلق على الله الكذب في ادعاء شريك معه ﴿أو كذّب بآياته﴾ محمدﷺ والقرآن ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ هذا استئناف بياني وقع موقع جواب السؤال أي الحال، والشأن أن الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم مهما يكن نوع ظلمهم، فكيف تكون عاقبة من وصف بأنه لا أحد أظلم منه، لافترائه على الله تعالى أو لتكذيبه بآياته، ثم كيف تكون عاقبة من جمع بين هذين الأمرين الأقبحين فكان أظلم الظالمين.

ثم كشف عن حالهم يوم القيامة فقال:

٢٢ ـ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ يوم القيامة انتصب اليوم بمحذوف تقديره واذكر يوم، والمعنى لا يفلحون اليوم ولا يوم نحشرهم ﴿ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ أنهم شركاء لله سؤال توبيخ، والمراد بالشركاء الأوثان وأضيفت إليهم لأنهم زعموا أنها شركاء لله لنفي إضافتها لله عز وجل ومعنى يزعمون، أي أنها تشفع لهم عند الله، كقولهم في آية أخرى ﴿ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى﴾(١).

٢٣ ـ ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾.

﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ أي معذرتهم ﴿إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ والمعنى اعتذروا بما هو مهلك لهم وسبب لفضيحتهم، وأنهم افتتنوا بقولهم هذا، إذ كذبوا فيه ونفوا عن أنفسهم ما كانوا معروفين به في الدنيا وهؤلاء هم المشركون لأن الآية مكية.

القـــــراءة

﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وحفص: ﴿ثم لم تكن﴾ بالتاء، ﴿فتنتهم﴾ رفع.

وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿ثم لم تكن﴾ بالتاء، ﴿فتنتهم﴾ نصب، قرأ حمزة والكسائي: ﴿ثم لم يكن﴾ بالياء، ﴿فتنتهم﴾ نصباً.

قرأ حمزة والكسائي: ﴿والله ربنا﴾ بالنصب، وقرأ الباقون: ﴿والله ربنا﴾ خفضاً على النعت.

٢٤ ـ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ أي باعتذارهم بالباطل وهو نفي الشرك عنهم ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهب ما كانوا يدعون ويختلقون من أنّ الأصنام شركاء لله وشفعاؤهم في الآخرة.

بعض أعمال المشركين

لما بيّن أحوال الكفار في الآخرة أتبعه بعض أسباب ذلك فقال:

٢٥ ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ إذا قرأت القرآن حيث قالوا أساطير الأولين ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ جمع

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

كنان وهو الغطاء الحائل دون الفهم ﴿أن يفقهوه﴾ يفهموه ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي ثقلاً أو صمماً حائلاً دون سماعه ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ هؤلاء الذين لا يسمعون ما يتلو عليهم الرسول سماع تدبر ولا يفقهون كنه ما يدعو إليه، وإن يروا الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك لا يؤمنوا بها، لأنهم لا يريدون فقهها ولا إدراك كنهها ﴿حتى إذا جاؤوك يجادلونك﴾ إذا قعدوا للمناقشة والجدال ﴿يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ من أخبار الأمم السابقة وقصصهم وخرافاتهم وترّهاتهم، وبذلك تكون الأساطير مما سطره القدماء من العلم والحكمة، التي يصعب فهمها أو تكون من الإشكال والغموض استدراجاً منهم إلى البهت والباطل والترهات طرق تتشعب من الطريق الأعظم فتكثر وتتشكل فجعلت مثلاً لما لا يصح وينكشف.

ثم أكّد طعنهم في القرآن بقوله:

٢٦ ـ ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿وهم ينهون﴾ الناس ﴿عنه﴾ أي عن اتباع النبي ﷺ ﴿وينئون﴾ يتباعدون ﴿عنه﴾ عما جاء به، والمعنى: أنهم ينهون الناس عن سماع القرآن من النبي ﷺ وينأون أي يبعدون عنه، ليكونوا ناهين منتهين، والنأي عنه يشمل الإعراض عن سماعه ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ وإن نافية، وهذا من معجز القرآن فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوة الرسول في حياته.

ثم بيّن أنه كيف يعود الضرر إليهم فقال:

٢٧ ـ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ولو ترى إذ وقفوا﴾ عرضوا ﴿على النار فقالوا يا ليتنا نرد﴾ إلى الدنيا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ والمعنى: ولو ترى أيها السامع بعينيك هؤلاء الضالين إذ تقفهم الملائكة على النار، لرأيت أمراً عظيماً لا تدركه العبارة ولا يحيط به الوصف وكلمة إذ تقوم مقام إذا في المبالغة والتوكيد، والتعبير عن المستقبل بالماضي يفيد المبالغة والتهويل.

القــــراءة

﴿ولا نكذب﴾ قرأ حمزة وحفص: ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون﴾ بنصب الباء والنون، وقرأ ابن عامر ﴿ولا نكذب﴾ بالرفع ﴿ونكون﴾ بالنصب، وقرأ الباقون ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون﴾ بالرفع فيهما.

٢٨ ـ ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ ما كانوا يكتمون من قولهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ﴿ولو ردوا﴾ إلى الدنيا ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من الشرك والكفر والمعاصي ﴿وإنهم لكاذبون﴾ في وعدهم.

٢٩ ـ ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾.

إنكار للبعث وإلحاد في العقيدة.

ثم لما قرر إنكارهم كشف عن حالهم يوم القيامة فقال:

٣٠ ـ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ عرضوا عليه في الموقف الذي يحاسبهم فيه ربهم، إذ جواب لو حذف الجواب لتذهب النفس في تصوره كل مذهب يقتضيه المقام، ومن شأن السامع لمثل هذا أن ينتظر بياناً، فلهذا جاء البيان جواباً لسؤال مقدر وهو قوله تعالى ﴿قال أليس هذا بالحق﴾ بالباء وهي تفيد التأكيد للمعنى ﴿قالوا بلى وربنا﴾ أي هو الحق الذي لا ريب فيه فشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، فأجابهم رب العالمين ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فذوقوا العذاب الذي كنتم به تكذبون.

ثم بيّن تضاعف خسرانهم بأنهم لم يحصلوا لأنفسهم بواجب الثواب، ولكن حصلوا بواجب العقاب فقال:

٣١ ـ ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾.

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ إنما وصفوا بالخسران لأنهم باعوا الإيمان بالكفر فعظم خسرانهم، والمراد بلقاء الله: البعث والجزاء، ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ فجأة ﴿قالوا يا حسرتنا﴾ الحسرة التلهف على الشيء الفائت وهي شدة التألم ﴿على ما فرّطنا﴾ قصرنا وضيّعنا ﴿فيها﴾ أي الدنيا والمعنى على ما ضيعنا في الدنيا من عمل الآخرة ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ الوزر الثقل وهل هذا للحمل حقيقة، أم أنه كقوله ﴿فبما كسبت أيديكم﴾(١) والصحيح أنه مثل، والمعنى يحملون ثقل ذنوبهم، فجعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يتحمل ﴿ألا ساء ما يزرون﴾ بئس الشيء شيئاً يزرونه أي يحملونه.

ثم رغّب في الحياة الباقية وزهّد في الحياة العاجلة فقال:

٣٢ ـ ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ في سرعة انقطاعها وقصر عمرها إلا كالشيء يلعب به وهي بالنسبة لعمر الإنسان الذي يراها ﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ اللام لام قسم والدار الآخرة الجنة.

القـــراءة

﴿وللدار الآخرة﴾ قرأ ابن عامر: ﴿ولدار الآخرة﴾ بلام واحدة، ﴿الآخرة﴾ جر، وقرأ الباقون: ﴿وللدار الآخرة﴾ بلامين ﴿الآخرة﴾ رفع نعت.

قرأ نافع وابن عامر وحفص: أفلا تعقلون به بالتاء، وقرأ الباقون: بالياء.

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

تسلية الله لنبيه

ثم سلى رسوله ﷺ فقال:

٣٣ - ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ ساحر كذاب ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ لا يكذبون الشيء الذي جئت به، وإنما يجحدون آيات الله، ويتعرضون لعقوباته، أو لا يكذبونك بحجة، وإنما هو تكذيب عناد وبهت دون تدبر وتعقل.

القــــراءة

قرأ نافع ﴿ليُحزنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي في جميع القرآن إلا في سورة الأنبياء فإنه قرأ ﴿لا يَحزُنهم﴾ بفتح الياء وضم الزاي.

قرأ نافع والكسائي: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ بإسكان الكاف وتخفيف الذال، وقرأ الباقون: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ بالتشديد.

ثم صبر رسوله على أذية قومه فقال:

٣٤ - ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ هذه تعزية له ﷺ على ما يلقى من قومه ﴿ فصبروا على ما كذبوا﴾ رجاء ثوابي ﴿وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ بتعذيب من كذبهم ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ لا خلف لمواعيده ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ وبعض أنبائهم وقصصهم، وما كابدوا من مصابرة المشركين فيما صبروا عليه من الأذى فنصروا.

٣٥ - ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

﴿وإن كبر عليك إعراضهم﴾ كبر عظم، وإعراضهم عن استماع القرآن واتباعك ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض﴾ المدخل والسرداب والممر تحت الأرض ﴿أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية﴾ قد سألوك إياها مثل آيات الأنبياء، كعصا موسى، وناقة صالح، ليؤمنوا فافعل، أو ائتهم بها، ورأيت أن إتيانهم بآية مما اقترحوا يدحض حجتهم، ويكشف شبهتهم فيؤمنون، ولكنك رسول الله، والرسول لا يقدر على شيء أبداً مما يعجز عنه البشر، ولا يستطيع إيجاده إلا الخالق، ﴿ولو شاء لجمعهم على الهدى﴾ ولكن لم يشأ ذلك فلم يؤمنوا، أي ولو

شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه، بجعل الإيمان ضرورياً لهم كالملائكة، أو يخلقهم على استعداد واحد للخير والحق فقط، ولكنه شاء أن يخلق البشر على ما هم عليه، من الاختلاف والتفاوت في الاستعداد، وإذا عرفت سنته هذه في خلق هذا النوع ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ بسنة الله تعالى في خلقه، واقتصر على الوحي ولا تفكر في شيء من عندك فتكون من الجاهلين.

من عنادهم

ثم بين السبب في كونهم لا يقبلون الإيمان فقال:

٣٦ ـ ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ سماع تفهم واعتبار ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ الكفار والمعنى إنما يستجيب المؤمنون فأما الكفار فلا يستجيبون حتى يبعثهم الله، ثم يحشرهم الله كفاراً فيجيبون اضطراراً، قال ابن جرير الطبري: والكفار يبعثهم الله مع الموتى فجعلهم الله تعالى في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً ولا يعقلون دعاء ولا يفقهون قولاً، قال محمد رشيد رضا: ذلك أن الخلق والرزق ثمرات وغايات غير المكارم وسماحة اليد وأما سماع الكلام فلا فائدة له إلاّ فهمه، وفهمه لا فائدة له إلا الانتفاع به، ولأجل هذا أطلق القرآن على من لا يستفيدون من سماع الآيات، والعلم النافع، لفظ الصم، ولفظ الموتى، في عدة آيات منها قوله فيهما معاً ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾[1] فالذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم وختم على قلوبهم كالموتى لا فائدة من توجيه النصح لهم، والمعنى: إنما يستجيب لك أيها الداعي إلى الله، الذين يسمعون كلام الله فيعقلون الآيات ويذعنون لما عرفوا بها من الحق لسلامة فطرتهم، ونزاهة واستقلال عقولهم، دون الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون كالمقلدين الجامدين، ودون الذين قالوا سمعنا وعصينا من المستكبرين الجاحدين، فكل أولئك من موتى القلوب والأرواح، الذين هم أبعد من الانتفاع من موتى الأجسام والأبدان ﴿ثم إليه يرجعون﴾ يعني المؤمنون والكافرون.

لا عذاب استئصال على أمة محمد في الدنيا

ثم ذكر شبهة أخرى للطاغين فقال:

٣٧ ـ ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿قالوا لولا نزل عليه آية من ربه﴾ والمراد بالآية آية مثل آية الأنبياء ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ كونية ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الله قادر على ذلك، وما يعلمون ماذا يكون لو أن الله أنزل آية فكفروا بها، وهذا دليل على أن الله ميز أمة محمد ﷺ عن غيرهم من الأمم السابقة، بأن جعل آيته القرآن ولم يجعلها مادية

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٢.

كونية كما طلبوا، وذلك ليؤخر عنهم العذاب إلى الآخرة، ويصرفه عنهم في الدنيا كما قال الله تعالى في آخر سورة إبراهيم: ﴿إنّما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾. وفي سورة الكهف ﴿وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾(١)، إلى غير ذلك من الآيات العديدة في القرآن سوف يأتي تفسيرها في موضعها.

من دلائل قدرة الله

لما بيّن أن إنزال سائر المعجزات لو كان فيه مصلحة لهم لفعل ذلك، أكد في الآية التالية بما يؤذن أن علمه وإحاطته بكل شيء عمّت جميع خلقه وأن آثار فضله ولطفه وامتنانه واصلة إلى جميع مخلوقاته من الطيور والحيوانات فقال:

٣٨ ـ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾.

﴿وما من دابة في الأرض﴾ كل ما يمشي ويدب على الأرض ويدخل في ذلك من يعيش في البحر لأنه فوق الأرض ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ في الهواء ﴿إلا أمم أمثالكم﴾ أصناف مصنفة في التعارف والتزاوج والولادة والرزق والآجال وغيرها، ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ذهب بعض المفسرين في تفسير معنى الكتاب إلى معنى بعيد عما يحتمله اللفظ، فقالوا إنه القرآن قد حوى كل شيء من علوم الأكوان، والمعنى المتبادر من اللفظ هو الكتاب الذي يقرأ ويسجل فيه كل شيء على الناس، حيث لم يفرط الله فيه من شيء، وهو تفسير ابن عباس وغيره من السلف، وقد عبر الله عنه في موضع آخر أكثر وضوحاً حيث قال: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين﴾(٢)، وقال: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾(٣) وقد نبه الإمام ابن القيم الجوزية إلى ذلك في كتابه شفاء العليل، وسياق الآية ونهايتها يدل بوضوح كذلك على أن المراد بالكتاب هو اللوح المحفوظ، فأولها يبين الله فيه إحاطته بجميع مخلوقاته وأنها كالبشر في بعض التصرفات الحياتية وفي آخرها ينبه إلى حشرهم جميعاً كما يحشر البشر إليه يوم القيامة، حيث أدخل بين هاتين الحالتين قوله ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد.

خلاصة المعنى: أن الله سبحانه بين للناس أنهم يحاسبون ويحشرون كما تحاسب وتحشر الدواب والطير فهي أمم مثلنا، وكل عمل إن خيراً أو شراً مسجل في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فلا يعزب عنه مثقال ذرة في

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

الأرض ولا في السماء ولا يفرط في شيء ولا يضيع الله شيئاً من ذلك الكتاب الذي يسجل على الناس أعمالهم وأحوالهم وتاريخهم وما اجترحوه من شيء خيرٍ أو شرٍ.

القضاء والقدر والضلال

ولما ذكر من خلائقه وآثار قدرته وتفضله ما ينادي على عظمته ويشهد لربوبيته، ويشهد على رحمته الكاملة، وعنايته الشاملة قال:

٣٩ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

﴿والذين كذبوا بآياتنا صم﴾ لا يسمعون كلام الله سماع فهم ﴿وبكم﴾ لا ينطقون بالحق، خابطون ﴿في الظلمات﴾ ظلمة الكفر وظلمة الشكوك وظلمة الحيرة، ثم بين أن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان كلها بمشيئة الله وإرادته، وتسخيره وتدبيره فقال: ﴿من يشأ الله يضلله﴾ لعلم الله السابق فيه بأنه اختار الشر على الخير، والكفر على الإيمان، فيعذبه الله على ضلاله ﴿ومن يشأ﴾ الله ﴿يجعله على صراط مستقيم﴾ لعلم الله السابق فيه، بأنه يختار الهدى والصراط المستقيم، الذي هو الدين الحق، وطريق الأنبياء والصالحين، الذين أنعم الله عليهم، والمعنى: الذين كذبوا الرسل وأنكروا آيات الله وأعرضوا عن سماع الذكر، لا يسمعون، مثلهم مثل الصم، ولا ينطقون بالحق مثلهم مثل البكم، ورضوا أن يعيشوا في الكفر والمعاصي، واختاروا الشر، فهم في ضلالة ضالين الطريق المستقيم، فقد تركهم الله لعقابهم على اختيارهم وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون، أما من اختار الخير والإيمان وأطاع الله والرسول فقد اهتدى إلى الصراط المستقيم، فوفقه الله إليه وغفر له ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾[١] ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[٢].

إلى الله الملجأ في الشدائد

ثم عمم الدليل مبيناً غاية جهالة الكفار وأنهم مع جحودهم يفزعون إلى الله في البليات فقال:

٤٠ ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قل أرأيتكم﴾ أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله﴾ الموت أو غيره من أنواع العذاب ﴿أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ جواب لقوله ﴿أرأيتكم﴾ لأنه بمعنى أخبروا.

والمقصود من الآية تبكيت الكفار، كأنه قيل إذا كنتم ترجعون عند نزول الشدائد إلى الله تعالى لا إلى الأصنام فلم تقدمون عبادتها.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

القـــراءة

﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله﴾ قرأ نافع ﴿قل أرايتكم﴾ بالألف من غير همز، وقرأ الكسائي ﴿أريتكم﴾ بغير همزة ولا ألف، وقرأ الباقون: ﴿أرأيتكم بالهمزة﴾.

٤١ ـ ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾.

﴿بل إياه تدعون﴾ في الشدائد ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾. والمعنى: قل لهؤلاء المشركين المكذبين أرأيتم أنفسكم كيف تكون حالكم مع ما تعبدون، أي أخبروني عن رأيكم إن أتاكم عذاب الله الذي نزل بمن كان من أقوام الرسل قبلكم، كالريح الصرصر العاتية، والصاعقة والرجفة القاضية ومياه الطوفان المغرقة، وحرارة الظلة المحرقة، أو أتتكم الساعة بمقدمات أهوالها أغير الله في هذه الحالة تدعون إن كنتم صادقين في دعوتكم.

أعلم الله سبحانه نبيه حال الأمم الماضية في مخالفة رسله، وبيّن أن حال هؤلاء إذا سلكوا طريق المخالفة كحالهم في نزول العذاب بهم فقال:

٤٢ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾.

﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء﴾ البأساء شدة الفقر، والضراء المرض ﴿لعلهم يتضرعون﴾ يتذللون ويخشعون لربهم ويتوبون من ذنوبهم.

٤٣ ـ ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا﴾ أي عذابنا ﴿تضرعوا﴾. ومقصود الآية أن الله قد أعلم نبيه أنه قد أرسل إلى قوم قبله بلغوا من القسوة أنهم أخذوا بالشدائد، فلم يخضعوا وأقاموا على كفرهم، وزين لهم الشيطان ضلالتهم فأصروا عليها ﴿ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ من المعاصي فأصرّوا عليها.

ثم بيّن أنه لما لم تنجح فيهم المواعظ والزواجر نقلهم من البأساء والضرّاء إلى الراحة والرخاء فقال:

٤٤ ـ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾.

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ تركوا ما وعظوا به للنسيان فهو نسيان تعمد وما ذكروا به من الوعظ والآيات الكونية المخوفة مثل البأساء والضراء ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من رخاء الدنيا وسرورها وزخرفها ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ منها فسقوا عن أمر ربهم بطراً وغروراً بها ﴿أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ أي أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم أو حال كونهم مبغوتين إذ فاجأهم على غرة، فإذا هم متحسرون يائسون من النجاة، والإبلاس اليأس والقنوط من الخير والرحمة وهذا هو الاستدراج.

القـــراءة

﴿فتحنا عليهم﴾ قرأ ابن عامر: ﴿فتّحنا عليهم﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون: بالتخفيف.

٤٥ ـ ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ الدابر هو الذي يتخلف في آخرهم، والمعنى أنهم استؤصلوا واجتث أصلهم ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ وإنما حمد نفسه على قطع دابرهم، لأن ذلك إنعام على رسلهم الذين كذبوهم فهو نصر للرسل، وإهلاك الكافرين هو إراحة الأرض من شرهم وشركهم وظلمهم.

من أدلة التوحيد

ثم عاد إلى الدلالة على وجود الصانع الحكيم المختار فقال:

٤٦ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾.

﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ أذهبهما ﴿وختم على قلوبكم﴾ تقدم تفسيره في أول البقرة آية (٧) وفي الأنعام آية (٣٦) ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ أي بما أخذ منكم ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ أي انظر كيف ننوع الحجج والبينات ونجعلها على وجوه شتى ﴿ثم هم يصدفون﴾ أي يعرضون.

كرر ﴿أرأيتكم﴾ لأن عذاب الاستئصال ما عليه من مزيد فناسب زيادة الخطاب لأجل التأكيد، وفيما بينهما قال: ﴿أرأيتم﴾ حيث لم يكن كذلك ثم عمم الدليل فقال:

٤٧ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة﴾ البغتة المفاجأة، والجهرة أن يأتيهم وهم يرونه، ويحتمل البغتة بالليل حيث ينامون والجهرة بالنهار حيث يعلمون ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ أي هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم لأنكم كفرتم معاندين ظالمين، وعذاب الله قد يأتي في الدنيا بأنواع مختلفة.

ثم ذكر أن الأنبياء والرسل بعثوا للتبشير والإنذار فقط ولا قدرة لهم على إظهار الآيات وإنزال المعجزات وأن ذلك مفوض إلى مشيئة الله وحكمته فقال:

٤٨ ـ ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين﴾ بالثواب ﴿ومنذرين﴾ بالعقاب ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم

يحزنون﴾ في الدنيا على فوات الشهوات ولا بالآخرة، لأن الله وعدهم بأنهم ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم به توعدون﴾[١].

٤٩ - ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾.

﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾ بسبب ارتكابهم المعاصي ومن مسته النار فقد أهلكته.

ثم أمر نبيه ﷺ أن ينفي عن نفسه أموراً ثلاثة فقال:

٥٠ - ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك﴾ هذه الآية متصلة بقوله تعالى ﴿قالوا لولا نزل عليه آية من ربه﴾[٢] فأعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي، ولا يعلم الغيب فيخبرهم به إلا بالوحي، ولا يقول إنه ملك؛ لأن الملك يشاهد من أمور الله تعالى ما لا يشاهده البشر ﴿إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ الأعمى الضال والبصير المهتدي ﴿أفلا تتفكرون﴾ بما بينه لكم من الآيات الدالة على وحدانيته وصدق رسوله وبما ضرب لكم من الأمثال.

لما وصف الرسل بكونهم مبشرين ومنذرين أمر رسوله ﷺ بالإنذار والإعلام بموضع المخافة، فقال:

٥١ - ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾.

﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا﴾ أي بالقرآن وذكر الذين يخافون الحشر دون غيرهم وإن كان منذراً لجميع الخلق، لأن الحجة على الخائفين الحشر أظهر، لاعترافهم بالمعاد ﴿إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي﴾ ينصرهم ﴿ولا شفيع﴾ يشفع لهم ﴿لعلهم يتقون﴾ وذكر الولي والشفيع هنا؛ لأن اليهود والنصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحباؤه، فأعلم عز وجل أن أهل الكفر ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ وهذه الآية متعلقة بقوله: ﴿وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به﴾[٣].

ولما أمر بإنذار عموم المكلفين ليتقوا أردفه بذكر المتقين، وأمر بتقريبهم وإكرامهم فقال:

٥٢ - ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

مِن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ وهذه الآية رد على طلب بعض الكفار من النبي ﷺ أن يطرد بعض أصحابه الفقراء والضعفاء، الذين يجلسون يدعون ربهم بالغداة والعشي بالصلاة وتعلم الفقه والدين لوجه الله خاصة، وهذا دليل إخلاصهم ومحبتهم وتقواهم، يريد الكفار طردهم من مجلسه المتقدم وتنحيتهم بعيداً أو خارجاً لكي يفسح المكان للأشراف يتحدثون معه لإبائهم الجلوس مع هؤلاء كشأنهم في الجاهلية مع أمثالهم ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ أي إن رزقهم على الله وليست كفايتهم على أحد ﴿وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ إن فعلت ذلك وقد عظم هذا الأمر على النبي ﷺ، وهذه الآية تشير إلى وجوب المساواة بين الناس بغض النظر عن وجاهتهم في قومهم أو علو نسبهم في قبيلتهم، وإنما الفضل عند الله بالتقوى.

القـــراءة

﴿بالغداة والعشي﴾ قرأ ابن عامر: ﴿بالغدوة والعشي﴾ بالواو وضم الغين. وقرأ الباقون: ﴿بالغداة﴾.

ثم أخبر سبحانه بأنه يمتحن الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء فقال:

٥٣ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

﴿وكذلك فتنا﴾ ابتلينا واختبرنا ﴿بعضهم ببعض﴾ مختلفين ومتفاوتين، الشريف بالوضيع والغني بالفقير، فالفضل للإيمان ﴿ليقولوا﴾ أي الكبراء ﴿أهؤلاء﴾ يعنون الفقراء والضعفاء ﴿من الله عليهم﴾ بالهدى؟ وهذا استفهام معناه الإنكار، كأنهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضله ﴿من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي الذين يشكرون نعمته، والاستفهام معناه التقرير أي أنه كذلك يعلم.

من مظاهر رحمته بخلقه

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بتعظيم المؤمنين فقال:

٥٤ ـ ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ هذه الآية مرتبطة بما قبلها، فبعد أن نهاه ربه عن طرد المستضعفين منهم من الجلوس في الأماكن المتقدمة من الرسول استمالة للمتكبرين من قومه وطمعاً في إقبالهم عليه وسماعهم لدعوته، وهذا اجتهاد قد صحح بالوحي، أمره الله في هذه الآية أن يلقاهم كسائر المؤمنين بالتحية والسلام والتبشير برحمة الله ومغفرته ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً

بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ السوء الذنب من يعمل سوءاً يجزيه، وبجهالة في موضع الحال أي عمله حالة كونه جاهلاً.

القـــراءة

﴿أنه من عمل. . .﴾ قرأ عاصم وابن عامر ﴿أنه من عمل. . . فأنه غفور رحيم﴾ الألف فيهما مفتوحة. قرأ نافع: ﴿أنه من عمل منكم﴾ بفتح الألف ﴿فإنه غفور رحيم﴾ بالكسر، وقرأ الباقون: ﴿إنه. . . فإنه﴾ بكسر الألف فيهما.

ثم عطف سبحانه على الآيات التي احتج بها على مشركي مكة وغيرهم فقال:

٥٥ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ وكما فصلنا في هذه السورة دلائلنا وإعلامنا على المشركين نبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل، ومعنى تفصيلها إتيانها متفرقة شيئاً بعد شيء ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ أي ذلك مما سبق في الآيات من الاختيار بالفتنة بعضهم ببعض وبتفصيل الآيات، كل ذلك من أجل أن يظهر لك طريقهم في الكفر فيمتازوا بها عن جماعة المسلمين.

القـــراءة

﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ قرأ نافع: ﴿ولتستبين﴾ بالتاء ﴿سبيل﴾ نصب وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿وليستبين﴾ بالياء ﴿سبيل﴾ رفع، أي ولتظهر سبيل المجرمين وتعرف، السبيل يؤنثه أهل الحجاز، ويذكره بنو تميم، وجاء التنزيل باللغتين، وقرأ الباقون بالتاء.

موقف النبي ﷺ من المشركين

ثم أمر الله نبيه بأن يظهر البراءة مما يعبدونه فقال:

٥٦ ـ ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون﴾ تعبدون ﴿من دون الله قل لا أتبع أهواءكم﴾ في عبادتها ﴿قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾ والمعنى: قد ضللت إن عبدتها.

لما أمر النبي ﷺ بأن يتبرأ مما يعبدونه عقب ذلك سبحانه بالبيان أنه على حجة من ذلك وأنه لا بينة لهم فقال:

٥٧ ـ ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾.

﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به﴾ ما عندي أي ما بيدي، وفي الذي يستعجلونه العذاب ﴿إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾.

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير وعاصم: ﴿إن الحكم إلا لله يقصّ الحقّ﴾ بضم القاف والصاد، وقرأ الباقون: ﴿يقضي الحق﴾ بالضاد وسكون القاف.

٥٨ ـ ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

كمال علمه سبحانه (مفاتح الغيب)

لما ذكر سبحانه أنه أعلم بالظالمين، بين عقيبه أنه لا يخفى عليه شيء من الغيب، ويعلم أسرار العالمين فقال:

٥٩ ـ ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ جمع مفتح، وأما مفتاح فجمعه مفاتيح والمعنى واحد. روى البخاري في إفراده من حديث ابن عمر قال رسول الله ﷺ مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا تعلم نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله وفي آخر الآية في سورة لقمان ﴿إنَّ الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ ولما كان معنى مفاتح الغيب هي خزائن الغيب، وهي مرتبطة بآية سابقة ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾ أي مفاتح الغيب رزقه ورحمته، لذلك كان معنى الآية أعم من هذه الأمور الخمسة المذكورة في الحديث، وهي تشمل كل ما غاب عن الوجود والشهود وهو عالم البرزخ وعالم الآخرة وبعض عالم الدنيا وهو النبات الذي لم يوجد، والحيوان الذي لم يولد، وكسب الأنفس الذي يحصل في المستقبل ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ قدم ذكر البر على البحر من باب تقديم الأدنى قبل الأعظم، أو لأنه معلوم لنا أكثر من البحر مما تحتويه من أسرارها مما يعيش فيها ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ من حبوب الثمار والزروع والبذور أو غيرها مما يدخل في بواطن الأرض وطبقاتها السفلى، والظلمة الطبقة التي تحجب النور عن الطبقة التي تليها ﴿ولا رطب ولا يابس﴾ هذا عموم بعد خصوص، والرطب ما يكون من شيء فيه حياة، أو جامد يابس لا حياة فيه ﴿إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ قد حواها وعلم بها الله. فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء.

ثم لما بين كمال علمه أردفه ببيان كمال قدرته فقال:

٦٠ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ بالنوم ﴿ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾ ما كسبتم فيه ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ يوقظكم بالنهار ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ نهاية الحياة باليقظة بعد النوم، على البعث بعد الموت وفي كلتا الحالتين حياة بعد موت ﴿ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

ثم زاد سبحانه في بيان كمال قدرته فقال:

٦١ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ كلمة فوق تستعمل في الزمان والمكان والجسم والعدد والمنزلة. والمعنى: أن له القهر والغلبة كقوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾[1] ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ مراقبين يحصون أعمالكم بالسر، وهذه من الأمور التي نؤمن بها ولا نبحث عن تفاصيلها، لأن الله لم يبينها لنا فنتركها حيث تركها الله ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ من وكلهم الله بإزهاق الأرواح وانتهاء الآجال ﴿وهم لا يفرطون﴾ لا يقصرون في مهمتهم ولا يحابون أحداً مهما كان، فلا يقدمون ولا يؤخرون في المهمة الموكلة إليهم.

القـــراءة

﴿توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ قرأ حمزة: ﴿توفّه رسلنا﴾ بالياء يعني بالألف الممالة، وقرأ الباقون: بالتاء.

ثم بين أن هؤلاء الذين تتوفاهم الملائكة يرجعون إليه فقال:

٦٢ ـ ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾.

﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ والحق اسم من أسماء الله ﴿ألا له الحكم﴾ القضاء بعد الموت في الوقت المعلوم وحده ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ مهما بلغوا بآلاتهم وعقولهم الإلكترونية أو الحسبة بذكائهم فكلها أمور دنيوية صغيرة. فالله أسرع منهم بما ليس له تشبيه ولا وصف.

ثم عدد لطفه وإحسانه بقوله:

٦٣ ـ ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ شدائدها وأهوالها في أسفاركم وما تلاقونه من وحوش ووحشة وما فيها من أخطار ومخاوف ﴿تدعونه تضرعاً﴾ مظهرين الضراعة وهي شدة الفقر إليه والحاجة ﴿وخفية﴾ تدعونه في أنفسكم كما تدعونه ظاهراً ﴿لئن أنجانا من هذه﴾ والمعنى: في أي شدة وقعتم، قلتم لئن أنجيتنا من هذه الظلمات والشدائد ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ المؤمنين.

القـــراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿لئن أنجانا من هذه﴾ بغير تاء، وقرأ الباقون: ﴿لئن أنجيتنا﴾ بالتاء.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿قل الله ينجّيكم منها﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون: ﴿قل الله ينجيكم﴾ بالتخفيف.

قرأ أبو بكر: ﴿تضرعاً وخفية﴾ بكسر الخاء، وقرأ الباقون: بالضم.

قدرة الله على إيقاع العذاب (التفرق شيعاً)

ثم بين أنه ينجيهم من تلك المخاوف ومن سائر موجبات الحزن والكرب، ثم الإنسان يقدم على الشرك الجلي والخفي فقال:

٦٤ ـ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾.

﴿قل الله ينجيكم منها﴾ من الشدائد ﴿ومن كل كرب﴾ الكرب الغم يأخذ بالنفس ﴿ثم أنتم تشركون﴾.

ثم ذكر نوعاً آخر من دلائل التوحيد مقروناً بنوع من التخويف فقال:

٦٥ ـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾.

﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ النازل من السماء كما حصل لقوم لوط وأصحاب الفيل ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ كالخسف الذي حل بقارون ومثله الطوفان، والريح لثمود أصحاب صالح بالحجر قرب تبوك، أخذهم الله بالصيحة والرجفة ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ وأصل معنى اللبس التغطية كاللباس الذي يستر به الإنسان بدنه، والشيع هي الفرق والأحزاب المختلفة في الآراء بسبب اختلافها في الوحدة للفكر والمجتمع، والمعنى أن الله قادر أن يخلط أمركم، خلط اضطراب بحيث تكونون من الالتباس بعضكم على بعض مختلفين، والآية في سياق الحديث عما يتوعّد الله به الكفار والمشركين والملحدين والمخالفين العاصين، ممن لا يذكرون الله إلاّ في البأساء والضراء، وينسونه في الرخاء والمسرات، والذين يفسقون بنعمته ولا يشكرون الله ويشركون معه غيره في العبادة والتعظيم، فأعلمهم أنه فوقهم قادر على أن يذيقهم أنواعاً مختلفة من العذاب ومنها إلباسهم التفرق والتشيع، فكانت مخالفتهم لطريق المؤمنين سبباً في اضطرابهم وتلبسهم بالأهواء المختلفة التي صارت لهم كاللباس يسترهم ويتعظون به ويسترون به آراءهم المخالفة وشيعهم المتعددة ولا يبعد هؤلاء عن الذين ختم الله على قلوبهم وطبع على قلوبهم، ومحل العذاب هو أن قوله ﴿ويذيق بعضكم

بأس بعض﴾ بالقتال والحروب ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴿انظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون﴾ انظر أيها الرسول وفي هذا خطاب لكل مخاطب كيف نصرّف الآيات فنجعلها على أنحاء شتى منها طريقة الحس ومنها طريقة التعقل ومنها طريقة علم الغيب، لعلّهم يفقهون الحق ويدركون كنه الأمر، فالفقه هو فهم الشيء بدليله وعلته والعمل به.

لما ذكر سبحانه تصريف الآيات قال عقب ذلك:

٦٦ ـ ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾.

أي لست حفيظاً على أعمالكم لأجازيكم بها وإنّما أنا منذر أطالبكم بالظواهر من الإقرار والعمل، لا بالأسرار، فالله وحده الذي يتولى السرائر.

وادعاء التعارض بآية السيف لا دليل عليه ولا محل له إذ لا تعارض بين الآيتين، والآية محل تطبيق في هذا الزمان إذ أن الخطاب لكل مسلم وليس للنبي ﷺ وحده، إذ لا دليل على التخصيص كما لا دليل على التعارض.

٦٧ ـ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

أي لكل خبر يخبر الله به وقت، يقع فيه من غير خلف ولا تأخير.

المستهزئون بالقرآن

ثم بين أن أولئك المكذبين إن ضموا إلى كفرهم وتكذيبهم الاستهزاء بالدين، والطعن في الرسول، فإنه يجب الاحتراز عن مجالستهم فقال:

٦٨ ـ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي القرآن بالاستهزاء، والجهل من أصحاب الأهواء أو الكفار ﴿فأعرض عنهم﴾ ولا تجالسهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي فاترك مجالستهم حتى يكون خوضهم في غير القرآن ﴿وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ والمعنى: إذا أنساك الشيطان فقعدت معهم ناسياً نهينا لك، فلا تقعد بعد الذكرى، والذكرى والذكر بمعنى واحد.

القـــراءة

﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ قرأ ابن عامر: ﴿وإما ينسّينك الشيطان﴾ بتشديد السين، وقرأ الباقون: ﴿وإما ينسينك﴾ بالتخفيف.

٦٩ ـ ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي وما على الذين يتقون الله من حساب الخائضين في آياته شيء فلا يحاسبون على شيء من خوضهم ولا على غيره من أعمالهم التي يحاسبهم الله عليها إذا تجنبوهم وأعرضوا عنهم كما أمروا ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ جعل النهي موعظة وذكرى، لعل هؤلاء المؤمنين بالله يتقون أيضاً كل ما لا ينبغي لهم من سماع الخوض في آيات الله بالباطل، والذكرى بمعنى التذكير.

إنه لا نسخ عند أهل التحقيق في ذلك لأن قوله ﴿وما على الذين﴾ خبر، ولا نسخ في الأخبار، قال ابن الجوزي: والصحيح أنها محكمة لأنها خبر، وإنما دلت على أن كل عبد يختص بحساب نفسه ولا يلزمه حساب غيره، أقول ما أحوجنا إلى تطبيق هذه الآية في هذا الزمان، وأما ادعاء النسخ بآية النساء في قوله تعالى ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ قال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار: وهو بعيد جداً لأنه لا يصح أن يتصل بالنهي ما يبطله، وهو قد نزل معه[1].

ثم أكّد الإعراض عنهم بقوله:

٧٠ ـ ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾.

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ دع أيها الرسول وهو خطاب للأمة كذلك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً من هؤلاء المشركين وهم المقصودون أولاً، ومثلهم كل من يعمل على شاكلتهم من المؤمنين وأهل الكتاب ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ الفانية فآثروها على الحياة الآخرة الباقية بل أنكرها المشركون ولم يستعد لها الفاسقون، واتخاذهم دينهم لعباً هو استهزاؤهم بآيات الله، ويدخل فيهم من يتخذ الدين وسيلة إلى أخذ المناصب والرياسة وغلبة الخصم وجمع الأموال، وفيه إشارة إلى من يتوسل بدينه إلى دنياه، وإذا تأملت في حالة أكثر الخلق وجدتهم موصوفين بهذه الصفة ﴿وذكر به﴾ أي بالقرآن ﴿أن تبسل نفس﴾ أي تسلم إلى الهلاك، والمعنى ذكر بالقرآن لا يقبل منها مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وتحبس أو ترتهن بسوء كسبها وأصل الإبسال المنع، والباسل الشجاع لامتناعه عن أقرانه ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ وإن تفد كل فداء والعدل معناه الفدية، لأن الفادي يعدل المفدي بمثله، ومنه قوله تعالى: ﴿لا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾[2] ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم﴾ ماء بالغ نهاية الحرارة ﴿وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ قال مجاهد كما نقل ابن الجوزي، خرج مخرج التهديد كقوله تعالى ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ وهو الصحيح.

الإسلام والشرك

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ والمؤمنين بالرد على عبدة الأصنام فقال:

---

(١) المجلد السابع ص ٥١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٨.

٧١ ـ ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ وهي الأصنام فلا تنفعنا عبادتها ولا يضرنا تركها ﴿ونرد على أعقابنا﴾ العقب مؤخر الرجل، وتقول العرب لمن عجز بعد قدرة نكص على عقبيه ورجع القهقرى، والمعنى: نرجع كفاراً ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ إلى الإسلام ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾ أي أضلته، ذهبت بعقله وهواه، وكانت العرب في الجاهلية تزعم أن الجنون كله من تأثير الجن، ومنه قولهم جن فلان، أي مسته الجن فذهبت بعقله ﴿في الأرض حيران﴾ أي تائهاً ضالاً عن الطريق لا يدري أين يذهب ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ إخبار بالعلة التي وقع الأمر لها.

القــــراءة

قرأ حمزة: ﴿كالذي استهواه الشياطين﴾ بالألف، وقرأ الباقون ﴿استهوته﴾ بالتاء.

٧٢ ـ ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

النفخ في الصور

ثم دل على وجود الحاشر فقال:

٧٣ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق﴾ والمعنى أنه خلق السماوات والأرض قائماً بالحق والحكمة، وحين يقول للشيء كن فيكون ذلك قوله الحق والحكمة أي لا يكون شيء من ذلك إلا عن حكمة، وفي سورة آل عمران ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾[١] وقوله ﴿ما خلقناهما إلا بالحق﴾[٢] وقوله ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ أي وقوله هو الحق الذي لا شك فيه ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ آلة ينفخ فيها الملائكة في عالم الآخرة كما أخبر عز وجل. ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾[٣] وقال ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾[٤] ولا يعنينا أن نبحث في نوعه ولا تفاصيله ﴿عالم الغيب

---

(١) الآية: ١٩١.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ الغيب ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه، والشهادة ما شاهدوه ورأوه، وقال الحسن: يعني بذلك السر والعلانية.

نبي الله إبراهيم عليه السلام

إنه سبحانه كثيراً ما يحتج على المشركين بأحوال إبراهيم عليه السلام لأنه يعرف بالفضل والتقدم عند جميع الطوائف لذلك قال:

٧٤ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ لا عبرة لمن يقول أنه لقب لأبيه وأن اسمه تارح، ما دام القرآن قد صرح به اسماً لأبيه، وإبراهيم هو أبو الأنبياء من بعد نوح، والعاشر من أولاد سام بن نوح، لفظ إبراهيم كله عربي، ومعناه، أب راحم أو رحيم، بقلب حائه هاء، إذ أن إبراهيم قد أسكن ابنه إسماعيل مع أمه هاجر المصرية في وادي مكة، وثبت أن إبراهيم كان يتردد على بيت ولده ويكلم زوجته العربية، وأن لغة إسماعيل أفصح لغة حيث اشتقت منها اللغة المصرية، التي فاقت بفصاحتها وبلاغتها سائر اللغات، واللهجات العربية، ثم ارتفعت في عهد قريش من ذريته بما كانوا يقيمون لها من أسواق المفاخرة في موسم الحج، ثم كملت بلاغتها وفصاحتها بنزول القرآن المجيد المعجز بها وظهور جوامع الكلم من الرسول عليه السلام ﴿أتتخذ أصناماً آلهة﴾ أي تعبدها الاستفهام للتوبيخ ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ عن الحق.

القــــراءة

قرأ الحسن ويعقوب من القراء العشرة ﴿آزر﴾ بالرفع على النداء وقرأ الباقون بالنصب على الحفظ بالفتحة لأنه لا ينصرف.

٧٥ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾ أي خلقهما بما فيهما من بديع النظام وغريب الصنع، والمعنى: كما أريناه الحق في أمر أبيه وقومه وهي رؤية بصرية، تتبعها برؤية البصيرة العقلية، وإنما قال نريه دون أريناه لاستحضار صورة الحال الماضية، التي كانت تتجدد وتتكرر بتجديد رؤية آياته تعالى في الملكوت العظيم ﴿وليكون من الموقنين﴾.

لما تقدم ذكر الآيات التي أراها الله إبراهيم عليه السلام بين سبحانه كيف استدل بها وكيف عرّف الحق من جهتها فقال:

٧٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً﴾ جن عليه كذا ستر عليه، ومنه الجنة: البستان الذي يستر الشجر أرضه

﴿قال﴾ لقومه في مقام المناظرة والمحاجة تمهيداً للإنكار عليهم، وليستدرجهم إلى سماع حجته، بانها دليله على الحس والعقل ﴿هذا ربي فلما أفل قال﴾ لقومه ﴿لا أحب الآفلين﴾ أي فلما غرب النجم واحتجب، وفي هذا تعريض بجهل قومه في عبادة الكواكب.

القـــراءة

قرأ أبو عمرو: ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً﴾ بفتح الراء وكسر الهمزة، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ﴿رِأى كوكباً﴾ بكسر الراء، وقرأ أهل الحجاز وحفص بفتح الراء والهمزة على أصل الكلمة.

٧٧ ـ ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾ أول طلوعه ﴿قال هذا ربي﴾ تمهيداً لإبطاله ﴿فلما أفل قال﴾ لقومه ﴿لئن لم يهدني ربي﴾ يثبّتني على الهدى قال ذلك مسمعاً من حوله ﴿لأكونن من القوم الضالين﴾.

القـــراءة

قرأ حمزة وأبو بكر: ﴿رِأى القمر﴾ و ﴿رِأى الشمس﴾ بكسر الراء وفتح الهمزة، وقرأ الباقون بفتح الراء.

٧٨ ـ ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ طالعة ﴿قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ هذا الطالع أكبر من الكواكب والقمر، وأعظم ضياء ونوراً فهو أجدر منهما به، ومع ذلك فقد أفلت وغابت مثلها، مثل القمر والكواكب قبلها آفلين، وأنتم ترون أن الوحشة قد كانت أشد باحتجاب الشمس من احتجاب الكواكب، لقد حاور وداور وتلطف في القول وأرخى لخصمه العنان حتى وصل إلى ما أراد بألطف وجه، وأحسن طريق متبرئاً من كل تلك المعبودات التي جعلوها أرباباً وآلهة من دون الله.

٧٩ ـ ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً﴾ مائلاً إلى الدين المستقيم عن الباطل، ﴿وما أنا من المشركين﴾ بيان عقيدته، وأنه لم يكن يؤمن بتلك الأشياء، وإنما كانت أدلة حسية ليستدرجهم للحق.

محاجة إبراهيم لقومه

ثم ذكر سبحانه محاجة إبراهيم مع قومه فقال:

٨٠ ـ ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿وحاجه قومه﴾ جادلوه في دعوته لما عرفوا أمره ﴿قال أتحاجوني في الله وقد هدان﴾ أي أتجادلونني في شأن الله وما يجب في الإيمان وقد فضلني عليكم وهداني إلى التوحيد الخالص ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ أي ولا أرهب من آلهتكم سوءاً ينالني في نفسي، ذلك أني أعتقد أنها لا تضر ولا تنفع ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون﴾ أي أتصرون على العناد والمكابرة والكفر بعد هذا الإيضاح من أن آلهتكم ليس بيدها نفع ولا ضر أفلا تتذكرون أيها الغافلون أنها غير قادرة على ضري ولا على إيصال النفع إليكم.

القــــراءة

﴿أتحاجُّوني في الله﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿أتحاجوني﴾ بتخفيف النون، وقرأ الباقون ﴿أتحاجونّي﴾ بالتشديد.

٨١ ـ ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ بالله في العبادة من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿ولا تخافون﴾ أنتم من الله ﴿أنكم أشركتم بالله﴾ في العبادة ﴿مما لم ينزل به عليكم سلطانا﴾ حجة وبرهانا وهو القادر على كل شيء ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن﴾ أي يأمن العذاب ﴿إن كنتم تعلمون﴾ تدعون العلم والفهم.

ثم استأنف الجواب فقال:

٨٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾.

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا﴾ يخلطوا ﴿إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ الظلم هنا هو الشرك روى البخاري ومسلم في حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقالوا يا رسول الله وأينا ذلك؟ فقال: إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

٨٣ ـ ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾.

﴿وتلك حجتنا﴾ التي احتج بها إبراهيم فيما جرى بينه وبين قومه من الاستدلال على حدوث الكواكب والقمر والشمس وغيبهم وأفولهم إذ تساوى الصغير والكبير ﴿آتيناها إبراهيم﴾ أرشدناه إليها بالإلهام ﴿على قومه نرفع درجات من نشاء﴾ في العلم والحكمة ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ يؤتي الحكمة والرسالة من يشاء ويرفع من يشاء درجات.

القــــراءة

﴿نرفع درجات من نشاء﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿نرفع درجاتٍ من نشاء﴾ بالتنوين وقرأ الباقون ﴿نرفع درجاتِ﴾ بغير تنوين.

الذريـة والأنبيـاء

٨٤ ـ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

لما حكى حجج إبراهيم(ع) في التوحيد والذب على الدين الحنيف عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه فقال:

﴿ووهبنا له إسحاق﴾ ولداً لصلبه وإنما ذكر إسحاق من ولدي إبراهيم دون إسماعيل لأنه هو الذي وهبه الله تعالى له بآية منه بعد كبر سنه ويأس امرأته سارة على عقمها جزاء إيمانه وإخلاصه بعد ابتلائه بذبح ولده إسماعيل واستسلامه لأمر ربه في الرؤيا، ولذلك قال الله بعد ذكر قصة الذبيح في سورة الصافات (١٠٢) ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ ﴿ويعقوب﴾ ولداً لإسحاق ﴿كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان﴾ سليمان بن داود فهو ابن، وأطلق عليه من الذرية ﴿وأيوب ويوسف﴾ بن يعقوب ﴿وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين﴾.

٨٥ ـ ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿وزكريا ويحيى﴾ ابنه ﴿وعيسى وإلياس﴾ ابن هارون أخو موسى ﴿كل من الصالحين﴾.

٨٦ ـ ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿وإسماعيل﴾ بن إبراهيم ﴿واليسع﴾ من غريب ما يذهب إليه بعض المفسرين والنحويين بأن اللام زائدة هنا مع أن اليسع اسم وليس بفعل ولا حرف، ولقد نبهنا بأنه لا يصح أن يقال في القرآن زائد، وإنما هو قصور في التعبير والتأدب مع الله ﴿ويونس ولوطاً﴾ ابن أخي إبراهيم ﴿وكلاً فضلنا على العالمين﴾ بالنبوة.

القــــراءة

﴿وإسماعيل واليسع﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿والليسع﴾ بلامين، وقرأ الباقون ﴿واليسع﴾ بلام واحدة.

الحكمة في ذكر الأنبياء في هذه الآيات

وقد ذكر الله في هذه الآيات الثلاث ثمانية عشر نبياً لم يرتبهم على حسب تاريخهم وزمانهم، لأنه كتاب هدى وموعظة، ولا على حسب فضلهم ومناقبهم، لأنه ليس كتاب مناقب ومدائح، بل هو تذكرة وعبرة، وقد جعلهم ثلاثة أقسام لمعان في ذلك، جامعة بين كل قسم منهم، القسم الأول: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، والمعنى الجامع لهم الملك والإمارة والحكم والنبوة والرسالة، قدم داود وسليمان لأنهما كانا

ملكين غنيين منعمين وأيوب ويوسف، الأول كان امرءاً غنياً عظيماً محسناً والثاني وزيراً عظيماً وحاكماً متصرفاً ولكن كلاً منهما قد ابتلي بالضراء فصبر كما ابتلي بالسراء فشكر، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا ملكين، والقسم الثاني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وهؤلاء قد امتازوا بالزهد ولذلك خصهم الله بوصف الصالحين، وإن كان كل نبي صالحاً ومحسناً على الإطلاق، والقسم الثالث: إسماعيل واليسع ويونس ولوط وأخّر ذكرهم لعدم الخصوصية، إذ لم يكن لهم ملك الدنيا، أو سلطانها ما كان للقسم الأول ولا من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثاني.

٨٧ ـ ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ من للتبعيض، والمعنى: هدينا هؤلاء وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم؛ لأن بعضهم لم يكن له ولد وبعضهم كان في ولده كافر ﴿واجتبيناهم﴾ اخترناهم واصطفيناهم ﴿هديناهم إلى صراط مستقيم﴾ أعيد ذكر الهداية لبيان متعلقها وهو الصراط المستقيم الذي هو التوحيد، وبقية الأنبياء المذكورين في القرآن هم السبعة الآخرون آدم أبو البشر وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل وخاتم الجميع محمد عليهم الصلاة والسلام.

ثم بين سبحانه إكرامه لأنبيائه فقال:

٨٨ ـ ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ذلك هدى الله﴾ دين الله الذي هم عليه ﴿يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا﴾ فرضاً يعني الأنبياء المذكورين ﴿لحبط﴾ لبطل ﴿عنهم ما كانوا يعملون﴾

٨٩ ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب﴾ يعني الكتب التي أنزلت عليهم ﴿والحكم﴾ الحكمة والفقه والعلم ﴿والنبوة فإن يكفر بها﴾ يعني بآياتنا ﴿هؤلاء﴾ المشركون ممن تدعونهم من أهل مكة ﴿فقد وكلنا بها﴾ بأمر رعايتها ووفقنا للإيمان بها وتولى نصر الداعي إليها ﴿قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ بل منهم من آمن ومنهم من سيؤمن عندما يدعى وهم أهل المدينة والأنصار ومن بعدهم.

٩٠ ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿أولئك الذين هدى الله﴾ يعني النبيين المذكورين ﴿فبهداهم﴾ طريقهم من التوحيد والصبر، ﴿اقتده﴾ اجعلهم قدوة لك ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ للذكر والقرآن ﴿إن هو﴾ أي القرآن ﴿إلا ذكرى﴾ عظة ﴿للعالمين﴾ جمع عالم.

القـــــراءة

﴿فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿اقتد قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ بغير هاء في الوصل، وقرأ الباقون بإثبات الهاء في الوصل، وقرأ ابن عامر ﴿اقتد هي﴾ بالإشباع.

اعلم أن مدار القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد، فبعد ذكر دليل التوحيد وإبطال الشرك شرع في تقرير أمر النبوة فقال:

٩١ ـ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾.

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته ﴿إذ قالوا﴾ للنبي محمد ﷺ ﴿ما أنزل على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ الكتاب هو التوراة ﴿نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس﴾ دون أن تحفظوها في صدوركم ﴿تبدونها﴾ وقت ما تحبون ذلك ﴿وتخفون كثيراً﴾ مما جاء فيها مما لا ترغبون في أن يطلع عليه غيركم ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ والمخاطب هم اليهود ﴿قل الله﴾ أنزله إذا أجابوك ﴿ثم ذرهم﴾ تهديد لهم ﴿في خوضهم يلعبون﴾ ثم دعهم بعد بيان الحق مؤيداً بالحجج فيما هم فيه من الخوض في الباطل حال كونهم يلعبون كما يلعب الصبيان، فإنما عليك البلاغ والبيان وعلينا الحساب.

زعم بعضهم أن هذه الآية معارضة بآية السيف وبالرغم أنه لا يوجد تعارض بين هذه الآية وآية السيف فإنه لا دليل على تعطيل حكم الآية من السنة الصحيحة المبينة للقرآن فضلاً عن أن تعطيل القرآن بالقول المجرد لا يجوز بالتواتر لأن القرآن ثبت بالتواتر فلا ينسخ إلا بالطريقة التي ثبت بها أو يوجد التعارض والتناقض وحاشا لكتاب الله وكلماته من ذلك تنزيهاً وتعظيماً، ولعمري ليتهم لم يستعجلوا بهذا الحكم على القرآن، ولو لم تكن نزلت هذه الآية لاحتجنا إليها لمثل أيامنا هذه التي نعيشها في القرن العشرين الميلادي، الرابع عشر الهجري فمن منا يستطيع أن يستعمل السيف حتى يعطل حكم الآية، ولا أظن ذلك حتى في عصر ابن حزم قال ذلك، والقرآن الكريم نزل لكل زمان من قبلنا ومن بعدنا فتطبيق الآيات وقت الحاجة إليها، ومثل ذلك ما فعله الصحابة في آية الصدقات مع المؤلفة قلوبهم، ومن المعلوم أنه لما عز الإسلام أوقف عمر إعطاء المؤلفة قلوبهم من الزكاة حينما كان المسلمون أقوياء ولا مصلحة للمسلمين في المؤلفة قلوبهم وهكذا فإن حكم الآية يعود للتطبيق متى وجد المجال له في الزمان أو المكان.

القـــــراءة

﴿يجعلونه قراطيس﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يجعلونه، يبدونها ويخفون كثيراً﴾ بالياء، وقرأ الباقون: بالتاء.

لما احتج سبحانه بإنزال التوراة على موسى عليه السلام بين أن سبيل القرآن سبيلها فقال:

٩٢ ـ ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾.

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه﴾ من الكتب السابقة ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ أي مكة وسائر البلاد وفيه عموم غير مخصص ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾.

القــــراءة

قرأ أبو بكر: ﴿ولينذر أم القرى﴾ بالياء وقرأ الباقون: بالتاء.

ثم بين إثم الذين يزعمون لأنفسهم القدرة على الاتصال بالله وهم يكذبون فقال:

٩٣ ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله كالذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء أو جعلوا لله شريكاً أو ولداً ﴿أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ أي ومن ادعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله على رسله كمن قال من المشركين ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾[١] ولكنهم لم يستطيعوا القول ولو استطاعوا لقالوا ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ الخطاب للنبي ﷺ ثم لكل من سمعه أو قرأه، أي ولو تبصرت أيها المخاطب إذ يكون الظالمون سواء من ذكر في الآية أو غيرهم في غمرات الموت، وهي سكراته وما يتقدمها من شدائد وآلام تحيط بهم كما تحيط غمرات الماء بالغرقى، لرأيت ما لا سبيل إلى وصفه ولا قدرة للبيان على تجلي كنهه وحقيقته ﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾ لقبض أرواحهم الخبيثة بالعنف والضرب كما قال الله تعالى في سورة محمد: ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾[٢] ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ أي أخرجوا أنفسكم مما هي فيه إن استطعتم، أو أخرجوها من أبدانكم لترتاحوا من العذاب ﴿اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ أي تقول لهم الملائكة وقت الموت اليوم تلقون عذاب الدل والهوان جزاء ظلمكم بسبب ما كنتم مفترين على الله غيرالحق كقول بعضهم ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾[٣].

ثم بين سبحانه تمام ما يقال لهم على سبيل التوبيخ فقال:

٩٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣١.
(٢) الآية: ٢٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩١

مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ منفردين عن الأهل والمال والوالدين والأعوان والخدم ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ أي حفاة عراة. يوم نزل كل واحد من بطن أمه عند ولادته ﴿وتركتم ما خولناكم﴾ ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا ﴿وراء ظهوركم﴾ ويقال لهم توبيخاً ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ وهم الأصنام زعمتم أنهم لي في خلقكم شركاء ﴿لقد تقطع بينكم﴾ تقطع وصلكم وتشتت جمعكم ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من شفاعة آلهتكم لكم عند الله، حيث قالوا ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[1].

القــــراءة

﴿لقد تقطّع بينكم﴾ قرأ نافع والكسائي وحفص: ﴿لقد تقطّعَ بينكم﴾ بالفتح، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر وحمزة بالرفع.

مظاهر القدرة والعلم والحكمة والرحمة

ثم إنه سبحانه لما فرغ من تقرير التوحيد والنبوة والمعاد عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال قدرته فقال:

٩٥ - ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ شامل لكل الحبوب التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزرع والنواءات على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه وغير ذلك ﴿يخرج الحي من الميت﴾ أي ينبت الزرع الذي ينمو، وفيه حياة من الأرض الميتة ويدخل في ذلك إخراج الزرع من البذرة، وهي جماد ميت، والزرع حي وأما التفسير بإخراج الفرخ من البيضة والإنسان والحيوان المولود من المني، فلا يستقيم؛ لأن كلاً من المني حي ويسمى الحيوان المنوي، والبيضة فيها فرخ حي خرج من الدجاجة وهي حي، اقرأ قوله تعالى في الأعراف ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾[2] ﴿ومخرج الميت من الحي﴾ أي مخرج ثمرة الشجر ميته من الشجر الحي، وقد شرحنا ذلك في تفسير الآية (٢٨) من سورة آل عمران ﴿ذلكم الله فأنى تؤفكون﴾ أي فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٢) الآية: ٥٧.

الآيـات الكونيـة

٩٦ ـ ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

﴿فالق الإصباح﴾ الذي هو عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره، وقالوا انشق عمود الفجر وانصدع الفجر، وسموا الفجر فلقاً بمعنى مفلوق ﴿وجعل الليل سكناً﴾ يسكن فيه الخلق من التعب سكون راحة ﴿والشمس والقمر حسباناً﴾ الحساب للأوقات، كقولهم خذ من كل شيء بحسبانه، أي بحسابه وهذا معروف في علم الفلك حيث يحسبون التقويم عليها ﴿ذلك﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً: أي ذلك التيسير بالحساب المعلوم ﴿تقدير العزيز﴾ الذي سخرها ﴿العليم﴾ بتدبيرهما وتدويرهما.

القـــراءة

﴿وجعل الليل سكناً﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿وجعل الليل﴾ بغير ألف.

وقرأ الباقون: ﴿وجاعل الليل﴾ بالألف وكسر الليل.

٩٧ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ جعل بمعنى خلق وإنما امتنّ عليهم بالنجوم لأن سالكي الفضاء وراكبي البحار، إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾[١] ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ الآيات هنا هي الكونية، ومنها النجوم والشمس والقمر والبر والبحر، قد فصلها الله في كتابه بالآيات القرآنية لمن يعلم قدرها وقيمتها العلمية، وقد فطن إلى ذلك العلماء فاستخدموا علمهم في النظر بملكوت الله، وساروا في البر والبحر والجو وطبقاتهما ولا زالوا يتعلّمون منها العلم والمعرفة فلعلّهم بآيات الله يعتبرون.

بعد أن ذكّرنا الله تعالى ببعض آياته الكونية في الأرض وفي السماء ذكّرنا في هذه الآية ببعض آياته في أنفسنا فقال:

٩٨ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾.

﴿وهو الذين أنشأكم من نفس واحدة﴾ هي آدم ﴿فمستقر﴾ في الحياة تعيشون فيها وتأتون إليها بعد أن أنشأكم من أرحام أمهاتكم، فالمستقر هو الحياة ﴿ومستودع﴾ هو الموت والقبر والنهاية، ولا يوضع في المستودع إلا الأشياء المتروكة، والبضائع التي تودع إلى أجل ووقت ﴿قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ لما كان

(١) سورة النحل، الآية: ١٦.

تدبر هذه الآيات وأخذ العبر منها يمكن لكل إنسان في نفسه أن يفقهه لوحده، بحواسه وفكره، وقلبه مثل قوله تعالى ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾[1].

عبّر الله سبحانه ﴿بيفقهون﴾، ولما كانت البحار والأرض والنجوم وغيرها من الآيات الكونية المذكورة في الآية السابقة لا يمكن معرفتها إلا بالتعلم والتلقي، والتجربة والسير في الأرض والنظر بالآلات كان التعبير بـ ﴿يعلمون﴾.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿فمستقِر﴾ بكسر القاف، وقرأ الباقون: ﴿فمستقر﴾ بالفتح.

٩٩ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء﴾ يعني المطر ﴿فأخرجنا به﴾ أي بالمطر ﴿نبات كل شيء﴾ ينبت بالماء ﴿فأخرجنا منه﴾ من النبات ﴿خضراً نخرج منه حباً متراكباً﴾ كالسنبل والشعير، والمتراكب الذي بعضه فوق بعض ﴿ومن النخيل من طلعها قنوان دانية﴾ جمع قنو ونظيره صنو وصنوان والقنو بالكسر هو العنق الذي يكون فيه الثمر، والقنوان من النخيل كالعناقيد من العنب والسنابل من القمح. والمعنى: أنه يخرج من طلع النخيل قنوان دانية القطوف سهلة التناول، أو بعضها دان قريب من بعض لكثرة حملها ﴿وجنات من أعناب﴾ والتقدير ونخرج من ذلك الخضر جنات أعناب لكم ﴿والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه﴾ والمعنى: ونخص من نبات كل شيء الزيتون والرمان، كونه مشتبهاً في بعض الصفات غير متشابه في بعض آخر ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ أي انظروا نظر تأمل واعتبار إلى ثمر ما ذكر إذا هو تلبس واتصف بالإثمار، وإلى ينعه عندما يبدو صلاحه وينضج وتأملوا صفاته في كل من الحالين، وما بينهما ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي إن في ذلكم الذي أمرتم بالنظر إليه دلائل عظيمة على توحيد الله والإيمان به، وفيه تثبيت لإيمان القوم المؤمنين.

القــــراءة

قرأ الأعشى عن أبي بكر: ﴿وجناتٌ﴾ بالرفع، وقرأ الباقون: ﴿جناتٍ﴾ نصب.

قرأ حمزة والكسائي: ﴿انظروا إلى ثمره﴾ بضم الثاء والميم، وقرأ الباقون: ﴿ثمر﴾ بفتح الثاء والميم جمع ثمرة.

من كذبهم على الله والرد عليهم

ثم رد سبحانه على المشركين وعجب من كفرهم مع هذه البراهين والحجج والبينات فقال:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

١٠٠ ـ ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

﴿وجلعوا لله شركاء الجن﴾ في الطاعة والعبادة ﴿وخلقهم﴾ كلهم الإنس والجن والشياطين فكيف يكونون شركاء أو وسطاء أو شفعاء ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ لأن المشركين ادعوا أن الملائكة بنات الله، واليهود ادعوا بأن عزيراً ابن الله، والنصارى ادعوا أن المسيح ابن الله، وخرقوا واختلقوا بمعنى افتروا، ومن غير علم ومن غير دليل ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ أي هو منزّه عن ذلك.

القـــراءة

قرأ نافع ﴿وخرّقوا﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون: ﴿وخرقوا﴾ بالتخفيف.

١٠١ ـ ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿بديع السماوات والأرض﴾ والمعنى عديم النظير، والمثيل فيهما ليس كمثله شيء ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ زوجة وفي هذه الآية دلالة على أن الصاحب بالجنب يشمل الزوجة ﴿وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾

لما قدّم سبحانه ذكر الأدلة على وحدانيته عقبه بتنبيه عباده على أنّه الإله المستحق للطاعة والعبادة فقال:

١٠٢ ـ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

١٠٣ ـ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ أي يراها ولا تراه، والمعنى لا تدركه الأبصار بالرؤية الحسية بالعين، أما العقول فتدركه بالأدلة العقلية من آياته يستدل بها على وحدانيته سبحانه ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ بهم.

حقائق تتعلق بالرسالة

بعد هذه الآيات قد أزاح الله العلة للمكلفين فقال:

١٠٤ ـ ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي الدلالة التي توجب التبصر بالشيء والعلم به، والمعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر ﴿فمن أبصر فلنفسه﴾ نفع ذلك ﴿ومن عمي فعليها﴾ فعلى نفسه ضرر ذلك لأن الله عز وجل غني عن خلقه ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم.

ثم حكى شبه المنكرين بقوله:

١٠٥ - ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ نبينها ونفرقها ليعتبروا ﴿وليقولوا﴾ اللام للعاقبة، أي الكفار في عاقبة الأمر عند قيام الحجة عليهم، ﴿درست﴾ المعنى العام للدرس ودرس الكتاب والعلم يدرسه، والمعنى: وكذلك نصرّف الآيات على أنواع شتى ليهدي بها المستعدون للإيمان على اختلاف العقول والأفهام، وليقول المشركون الجاحدون للنبي محمد حين يقرأ عليهم القرآن درست وتعلمت، وليس هذا بوحي منزل كما زعمت وقد قالوا مثل هذا، وزعموا أنه تعلم ذلك من غلام رومي كان يصنع السيوف بمكة، قيل إنه كان يختلف إليه كثيراً انظر سورة النحل الآية (١٠٣) ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ ﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾ أي تصريف الآيات وهو عام في كل آية.

القــــراءة

﴿درست﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿دارست﴾ بالألف وسكون السين وفتح التاء، بمعنى ذاكرت.

ثم إنه لما حكى عن الكفار أنهم نسبوه في شأن القرآن إلى الافتراء وإلى أنه دارس أقواماً واستفاد هذه العلوم منهم أتبعه بقوله:

١٠٦ - ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين﴾ ادعاء النسخ بآية السيف بأنها نسخت مائة وأربع وعشرين آية، ومن جملتها هذه الآية يجعل القرآن وكأنه لم ينزل للعالمين كافة، وإنما نزل كخطاب للنبي خاصة فقط، وهذا غير صحيح، فالخطاب للنبي خطاب لأمته في كل زمان ومكان، وإذا لم يكن مجال لتطبيق هذه الآية في فترة من الزمن وقت أن قوي المسلمون واستعملوا السيف للجهاد في مكة، فإن أماكن أخرى وأزماناً آتية قد احتاجت لأعمال مثل هذه الآيات، ومن جملتها الإعراض عن المشركين الذين لا ينفع معهم النصح، فما أعظمك منْ خالق رؤوف رحيم بعبادك وما أفضلك من كتاب وسع كل شيء علماً.

ثم ختم الكلام بما يكمل به بصيرة الرسول ﷺ وذلك أنه بين له قدر ما جعل إليه فذكر أنه ما جعله حفيظاً ولا وكيلاً فقال:

١٠٧ - ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾.

﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ أي ولو شاء الله تعالى أن لا يشركوا لما أشركوا وذلك أنه لم يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطر كالملائكة، وإنما خلقهم مستعدين للإيمان والكفر، والتوحيد والشرك والطاعة والفسق، ومضت سنته في ذلك بأن يكونوا عاملين مختارين لأعمالهم وكسبهم للشر أو للخير، وقد شرحنا ذلك في القضاء والقدر فيما تقدم وفي الآية (١٦) من سورة المائدة ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ رقيباً فتجازيهم بأعمالهم ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ فتجبرهم على الإيمان وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

النهي عن السب

ثم إنهم لما نسبوا للرسول إلى أنه جمع القرآن بطريق المدارسة وكان لا يبعد أن يغضب له المسلمون فيسبوا آلهتهم نهى الله تعالى عن ذلك فقال:

١٠٨ ـ ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ أي الأصنام التي يعبدونها من دون الله، لأنه لا فائدة تتحقق للدعوة من سبها وقد يردون عليهم بالمثل أي فيسبوا ظناً منهم أن الله أمركم بذلك، ومن هذا القبيل ترك مصلحة لدرء مفسدة أرجح منها ﴿عدواً بغير علم﴾ أي ظلماً بالجهل ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ بأن وضع أمامهم الخير والشر، ومتعهم في دنياهم وبسط لهم الرزق وترك لهم الاختيار والتدبر بأن هداهم النجدين، ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ أي فيوبخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم أو يكافئهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر وما ربك بظلام للعبيد.

ثم بيّن سبحانه حال الكفار الذين سألوه الآيات فقال:

١٠٩ ـ ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي الكفار المشركون أقسموا بالله أشد أيمانهم تأكيداً، ومنتهى جهدهم ووسعهم مبالغة فيها ﴿لئن جاءتهم آية﴾ من الآيات الكونية التي طالما اقترحوها ﴿ليؤمنن بها﴾ أنها من عند الله للدلالة على صدق رسوله ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل الله وحده القادر عليها، والمتصرف فيها يعطيها من يشاء ويمنعها عمن يشاء بحكمته ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾[1]، ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ والخطاب للمؤمنين الذين أبدوا رأيهم في علم الغيب فجاءت الآية توبيخاً لهم، لكي لا يتسرعوا في مثل ذلك فالله وحده الذي يعلم أن الكفار يؤمنون إذا جاءت الآية الكونية أو لا يؤمنون وربما كان ذلك الرأي من المخاطبين في الآية حسب خبرتهم بالكفار وعنادهم.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وخلف ﴿يشعركم إنها﴾ بكسر الألف، وقرأ نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي بفتح الألف، وقرأ ابن عامر وحمزة ﴿تؤمنون﴾ بالتاء وقرأ الباقون: ﴿يؤمنون﴾ بالياء.

١١٠ ـ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

﴿ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ التقليب تحويل الشيء عن وجهه، هذا عطف على ما قبله والمعنى: أي وما يشعركم وما يعلمكم أننا نقلب أفئدتهم فنحولها عند مجيء الآية التي طلبوها ونحول أبصارهم كشأنهم في عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من الآيات، ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ العَمه، التردد في الأمر من الحيرة فيه أي وندعهم في تجاوزهم الحدود المشابهة لطغيان الماء في الطوفان، وذلك من العذاب النفسي في الدنيا لكفرهم وعنادهم وإصرارهم على اختيار الشر دون الخير.

ثم بيّن سبحانه في عنادهم وترددهم وطغيانهم وكفرهم فقال:

١١١ ـ ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾.

﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾ ولو أنا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوا، وكلّمهم الموتى في قبورهم وشهد الموتى لك ﴿وحشرنا عليهم كل شيء﴾ أي جمعنا في الدنيا كل شيء ﴿قبلاً﴾ أي معاينة وهو جمع قبيل، وهو الصنف فالمعنى: وحشرنا عليهم كل شيء معاينة قبيلاً قبيلاً ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ والمعنى الإجمالي المراد: إن هذا الإيمان الذي يأتي بهذه الطريقة، لا يريده الله ولا يرغبه، لأنه تعالى رسم على لسان نبيه طريق الهداية والإيمان المستقيم الذي ارتضاه لعباده من أمة محمد، حيث جنبهم عذاب الدنيا وأخّر عنهم العذاب إلى اليوم الموعود، ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾[١] ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

القــــراءة

قرأ ابن عامر ونافع: قِبَلاً ﴿بكسر القاف وفتح الباء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ﴿قُبُلاً﴾ بضم القاف والباء.

ثم أخبر أنّ البلايا للسائرين إلى الله هي المطايا فقال:

١١٢ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.

ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ أي كما جعلنا هؤلاء ومن لف لفهم أعداء لك، جعلنا لكل نبي جاء قبلك أعداء من أشرار الإنس، وأشرار الجن، ومعنى جعلهم أعداء للأنبياء، أنه قد مضت سنة الله في خلقه، وهو أعلم بحكمته المتصرف في ملكه، بأن يكون الأشرار أعداء للداعي للخير، وخاصة الأنبياء وورثتهم وناشري دعوتهم، ثم بيّن بعدئذ أن من أثر عداء هؤلاء الشياطين للأنبياء مقاومتهم للهداية والدعوة التي كلفوا بها فقال: ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ أي يلقي بعضهم إلى بعض القول الكاذب المموه الذي يستر باطلهم، وأول عمل حصل من الشيطان للعباد هو ما وسوس به الشيطان لآدم وزوجه ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾(١) ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ وبإمكانه منعهم، ولكنه أراد للإنسان اختيار سلوك الطريق المستقيم بنفسه عندما هداه الله النجدين طريق الخير وطريق الشر ﴿فذرهم وما يفترون﴾ من الكذب ويخترعون من الإفك.

ثم أشار إلى ما اقترفوه من الذنوب بزخرف القول مما اختاروه لأنفسهم فقال:

١١٣ ـ ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾.

﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا﴾ يكتسبوا أي زخرف القول والضمير يعود إلى الزخرف ﴿ما هم مقترفون﴾ من الذنوب فيعاقبوا على ما اختاروه بأنفسهم لأنفسهم.

الشهادة للنبي ﷺ بالصدق

ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه لا فائدة لهم في إظهار الآيات التي اقترحوها بيّن بقوله:

١١٤ ـ ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبي ﷺ اجعل بيننا وبينك حكماً ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب﴾ القرآن ﴿مفصلاً﴾ المفصل المبين الذي بان فيه الحق من الباطل، والأمر من النهي، والحلال من الحرام، ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾ الشاكّين فيه، والمراد بذلك التقرير للكفار أنه حق.

ثم لما بيّن أن القرآن معجز قال:

١١٥ ـ ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢١.

والمعنى: وتمت كلمة ربك فيما وعدك به من نصرك وأوعد به المستهزئين بالقرآن من الخذلان والهلاك وتمت في الرسل وأعدائهم من قبلك كما قال ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾(١).

العبرة بالحق لا برأي الأكثرية

لما أجاب عن شبهة الكفار بيّن أن عند ظهور الحجة وتبين الحجة لا ينبغي للعاقل أن يلتفت إلى كلمات الجهال فقال:

١١٦ ـ ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾.

﴿وإن تطع أكثر من في الأرض﴾ أكثر تشير إلى العدد، والأرض تشير إلى المكان ﴿يضلوك عن سبيل الله﴾ والمعنى: إن في طاعة الأكثرية الضالة في أي مكان ضلال وبعد عن دين الله، ثم بين سبحانه العلة في ذلك ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ والظن ضرب من الهوى دون العلم المتيقن ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يحدسون ويخمنون لا عن برهان، وأما الدين فلا يؤخذ بكثرة العدد بل عن طريق الدليل القطعي الثابت، وفي الآية تحذير من اتباع رأي الأكثريـة بدون دليل، فالعبرة بالحق والدين، ولذلك تجد فساداً كثيراً في المجتمعات والبلدان التي تقودها الأكثرية الجاهلة، أو الأغلبية الضالة، ويسمون ذلك بالديمقراطية وحكم الشعب، وما هو بحكم الشعب ولا رأي الأكثرية حقيقة، وإنما هي الدعاية والتسلط الحزبي، أو الإرهاب الفكري، والتزيين والتصوير غير الحقيقي، ولا أدل على ذلك من الاستفتاءات للحكام الخونة التي تصل في بعض الأحيان إلى قرابة المائة في المائة إلا قليلاً ولو تخلى أحدهم عن حرسه ونزل إلى الشعب لمزقوه إرباً إرباً.

ثم بيّن ضلالهم فقال:

١١٧ ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

ولما كان من ضلالة الكفار الذبح للأصنام والشياطين نبّه إلى حرمة ذلك وأمر بذكر اسم الله عليها فقال:

١١٨ ـ ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾.

أي من الذبائح.

١١٩ ـ ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣.

﴿وما لكم ألّا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ من الذبائح ﴿وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم﴾ مما لم يحرم ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ من الحرام فيحلّ في حال الضرورة، والقاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات ﴿وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿فصل، ما حرم﴾ برفع الحرف الأول وكسر الثاني على المبني للمجهول.

١٢٠ ـ ﴿وَذَرُواْ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾.

﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ علانيته وسره وهو المعاصي عامة ﴿إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾.

حكم الذبح والتسمية عليه

ثم أكد سبحانه ما تقدم بقوله:

١٢١ ـ ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ كالميتة والمنخنقة وما ذبح على النصب، وكل ما ذبح خاصة للأوثان أو قصد به غير وجه الله تعظيماً وتقرباً، قال ابن جريج عن عطاء، والله ينهى في الآية عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس، قال ابن كثير بعد أن ذكر مذهب الشافعي، وأورد رواية عن الإمام مالك وأحمد بن حنبل قال: وهذا المسلك الذي طرقه الشافعي قوي، فبين الله ذلك بقوله ﴿وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ يوسوسون لمن يتقرب إليهم ﴿ليجادلوكم وإن أطعتموهم﴾ يعني في استحلال الميتة، وكل ما ذبح خاصاً لغير الله ﴿إنكم لمشركون﴾ مثلهم بمشاركتكم لهم في اعتقادهم بالتقرب بهذه الذبائح للأوثان، والحكم الشرعي في الذبح بأن كل ما ذبح وقصد به التقرب والتعظيم لغير الله فهو حرام، وهذا هو الذي لم يذكر اسم الله عليه، أما ما يذبحه المسلم بيده فيسن أن يقول باسم الله تلفظاً، وإذا نوى ولم يتلفظ ناسياً أو عامداً فهو حلال[1]، كما أن ذبائح وطعام أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين حلال لنا سواء علمنا أنهم سموا الله عليها أم لا، وعلينا أن نذكر الله عليها فنسمي ونأكل، لقول الرسول ﷺ «سموا الله أنتم وكلوا» رواه البخاري، ولو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها.

(١) قال الرسول (ص) «ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله» رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور بن يزيد عن الصلت الدوسي، ويعضده ما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله».

مثل المؤمن والكافر

ثم ذكر سبحانه مثل الفريقين فقال:

١٢٢ ـ ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿أو من كان ميتاً﴾ بالكفر والجهل والضلال ﴿فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ أحييناه بالإيمان والقرآن وما فيه من العلم الإلٰهي والهداية بالآيات الى العلم النظري، وفي ذلك من التشبيه والبلاغة ﴿كمن مثله في الظلمات﴾ والمعنى: كمن هو في الظلمات وهي جمع ظلمة والمراد بها الكفر والجهل والضلال ﴿ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾.

القــــراءة

﴿ميتاً﴾ قرأ نافع: ﴿أو من كان ميّتاً﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف.

ولكون سنة الله في الخلق أن وضع أمامهم الخير والشر وبصّرهم به، ومن جملة ذلك ما مر في الآيات السابقة من جعل الشياطين أعداء من الجن والإنس وكذلك جعل من هذا القبيل في كل بلد أكابر مجرميها ليمكروا فيها فقال:

١٢٣ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ أي ولكون سنة الله في الخلق أن يوضع أمامهم الخير والشر، وبصّرهم به، ومن بين الشر ما مر في الآيات السابقة من جعل الشياطين أعداء من الجن والإنس وإيحائهم لأوليائهم ليجادلوا المؤمنين بالباطل ومن تزيين الأعمال للناس كقوله تعالى ﴿زين للناس حب الشهوات﴾، ﴿وزينا لكل أمة عملهم﴾ وهكذا، وكذلك جعل من هذا القبيل في كل بلد، وأكابر مجرميها، هم الزعماء الفساق المتسلطون على الناس، المجرمون في حقهم ﴿ليمكروا فيها﴾ أي ليفسقوا ويظلموا بكل ما ينطبق عليه معنى الإجرام، وعبر الله عن ذلك بالمكر لكونهم يصبغون عملهم هذا في الناس بالصبغة القانونية، بما يفرضونه على الأمة من تشريعات وما يقدمونه لهم من معسول الكلام وزخرف القول غروراً، والمعاين لبلاء هذه الأمة اليوم وفسادها وتأخرها واضطرابها، يجد أن سببه فساد بعض الأكابر فيها بما يزينون للناس من الأمور الخبيثة في أجهزة الإعلام وأدوات النشر ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ أي أن ما يقومون به من عمل فاسد باطل ظالم، كل ذلك إثمه راجع عليهم ومجازون عليه، حيث يقول الذين اتبعوهم وأطاعوهم ﴿وقالوا ربنا إنـا أطعنا سـادتنا وكبـراءنا فـأضلونا السبيـلا﴾ ﴿ربنـا آتهم ضعفين من العـذاب والعنهم لعنـاً كبيـراً﴾ الأحزاب (٦٧ ـ ٦٨).

غـرور المشركيـن

ثم ذكر سبحانه الأكابر الذين تقدم ذكرهم واقتراحاتهم الباطلة فقال:

١٢٤ ـ ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾.

﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ والقول يعود على الكفار المجادلين ومن يقول قولهم، ومقصودهم بأن ينزل عليهم الوحي مثل ما أوتي رسل الله، فردّ الله عليهم ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ لأنه يختار ويصطفي من يشاء ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ والمعنى: هم وإن كانوا أكابر في قومهم فسيصيبهم أشدّ الذل من عند الله فأين يذهبون فإنَّ مرجعهم إلى الله.

القـــراءة

﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ قرأ ابن كثير وحفص ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ على واحد، وقرأ الباقون على الجمع.

إرادة الله واختيار العبد

لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين بين عقبه ما يفعله سبحانه بكل من القبيلين فقال:

١٢٥ ـ ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ الشرح الفتح، يقال شرحت لك الأمر، وشرحت اللحم إذا فتحته، وقيل معنى يشرح صدره، نور يقذفه الله في القلب فينفتح القلب ويتسع للتوحيد والإيمان، ومعنى الآية: إنّ من علم الله سبحانه من عباده من يختار الخير على الشر، والهداية عن الغواية، والإيمان عن الكفر، يوفقه له ويشرح صدره للإسلام الذي اختاره فيرضاه له ويطمئن قلبه به، وهذا ما حدث لكثير من الصحابة رضوان الله عليهم، وهي نعمة من الله كبرى، وطعمة من الله عظمى، اللهم أطعمنا مما أطعمت به عبادك الصالحين، وارزقنا مما رزقت به أنبياءك ولا تجعلنا من القانطين ولا تجعلنا من الضالين المحرومين إنك سميع مجيب. ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ شديد الضيق ﴿كأنما يصعّد في السماء﴾ أي يتكلف صعودها فلا يستطيعه، والمعنى: أنّ من علم الله سبحانه من عباده من يختار الشر والضلال، والكفر على الخير والهداية والإيمان، يجعل صدره مناسباً لما اختار من عمل، إلى درجة من الضيق بحيث إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره كأنه قد كلّف أن يصعد إلى السماء لشدة الأمر عليه وعدم تقبّله له، وهذا ما حدث بالفعل لكثير من المشركين من مات منهم، ولم يؤمن بالنبي محمد ﷺ، ولا يزال أمثال هؤلاء يعيشون في عالمنا اليوم ﴿كذلك يجعل الله الرجس﴾ العذاب وهو عذاب نفسي في الدنيا ﴿على الذين لا يؤمنون﴾ يرى العلماء أن الإنسان يتحمل على سطح الأرض قدراً معيناً من الضغط الجوي على جسمه الذي قيس بما يساوي وزن (٧٦) سم^3 من الزئبق فإذا ارتفع بالصعود على جبل أو ركب طائرة فإن هذا القدر يقل تدريجياً بحسب

مقدار الارتفاع حتى إذا وصل إلى ارتفاع (١٢٠٠٠٠) قدم عن سطح البحر شعر بصعوبة شديدة في التنفس وضيق في الصدر يجعل مجرد الكلام متعذّراً عليه.

القـــــراءة

﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ قرأ ابن كثير ﴿ضيقاً﴾ خفيفاً، وقرأ الباقون: بالتشديد.

قرأ نافع وأبو بكر ﴿حرِجاً﴾ بكسر الراء، وقرأ الباقون: بالفتح.

قرأ ابن كثير ﴿كأنما يصعد﴾ خفيفاً، وقرأ الباقون: ﴿يصعّد﴾.

ثم أشار تعالى إلى ما تقدّم من البيان فقال:

١٢٦ ـ ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ الإسلام لا اعوجاج فيه يؤدي بسالكه إلى الفوز، ونصبه على الحال المؤكدة لأن الصراط لا يكون إلا مستقيماً ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يذّكرون﴾ ما بلغوه منها كلما عرضت الحاجة إليه.

فبيّن ما يفعله بالمؤمنين فقال:

١٢٧ ـ ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿لهم دار السلام﴾ الجنة والسلام من السلامة والأمن ﴿عند ربهم وهو وليهم﴾ متولي إيصال المنافع لهم ودافع المضار عنهم بل هو ناصرهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ من الخير والطاعة.

ثم لما بيّن حال من تمسّك بالصراط المستقيم أردفها بذكر من تعلّق بضده فقال:

١٢٨ ـ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ الجن والإنس ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم ﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ يعني الذين أضلهم الجن الذين تولوهم بالطاعة والوسوسة وما ألقوه إليهم من وحي الغرور ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ والاستمتاع طلب الشيء لجعله متاعاً أو جعله متاعاً بالفعل، والمعنى: وقال الذين تولوا الجن من الإنس في جواب الرب تعالى: يا ربنا قد تمتع كل منا بالآخر بما كان للجن من اللذة في إغوائنا بالأباطيل وأهواء الأنفس وشهواتها وبما كان لنا في طاعة وسوستهم من اللذة في اتباع الهوى والانغماس في الشهوات، وكان الرجل في الجاهلية ينزل بالأرض فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي فذلك استمتاعهم فاعتذروا يوم لقاء الرب، والمراد بالجن في هذه الآية هم الشياطين من الجن ﴿وبلغنا أجلنا

الذي أجلت لنا﴾ الحساب وطلب المغفرة ﴿قال النار مثواكم﴾ مأواكم ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله إنَّ ربك حكيم عليم﴾.

سنن الله في الكون

ثم لما حكى عن الجن أن بعضهم يتولّى بعضاً بيّن أنّ ذلك إنما حصل بتقديره وقضائه فقال:

١٢٩ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

﴿والمعنى بسبب هذا الظلم تسلّط بعض الظالمين على البعض الآخر، تولية الله الناس بعضهم بعضاً، فهو جعلهم أولياء وأنصاراً بعضهم لبعض، فأما المؤمنون فولايتهم لبعضهم بعضاً في الحق والخير والمعروف فقد أمرهم الله بذلك في شرعه ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[1] وأما ولاية الكفار والمجرمين والمنافقين بعضهم بعضاً فهو أثر مترتب على الاعتقاد والأخلاق والمنفعة المشتركة بينهم بحسب تقديره وسنته في نظام الحياة البشرية والله لم يأمرهم بالشر والباطل ﴿فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر﴾[2] ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾[3].

معنى الآية: على ما تقدم من الآيات من استمتاع أولياء الإنس والجن بعضهم ببعض في الدنيا لما بينهم من التناسب نولي بعض الظالمين لأنفسهم وللناس بعضهم بسبب ما كانوا يكسبونه، باختيارهم من أعمال الظلم الجامعة بينهم، وقال الأعمش: «إذا فسد الناس أمّر عليهم شرارهم».

ثم بين أن كفار الثقلين لا يكون لهم إلى الجحود يوم القيامة سبيل، وأنهم لا يعذبون إلا بالحجة فقال:

١٣٠ ـ ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾.

﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ أي أن الله تعالى بعث إلى الجن رسلاً منهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم وهو ظاهر الكلام، وإذا كانت رسالة النبي محمد ﷺ قد عمت الثقلين، الإنس والجن، فإن الآية تدل بوضوح على إرسال رسل قبل بعثة النبي من الجن لقومهم، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ يخوفونكم يوم الحساب ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ أقررنا على أنفسنا بإنذار الرسل لنا ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي بزينتها، وإمهالهم التوبة والإنابة وقبول الدعوة ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ وربما يوم شهدت عليهم جوارحهم ونطقت جلودهم.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

١٣١ ـ ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾.

﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾ ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وعذاب من كذب لا يهلكهم حتى يبعث رسولاً ﴿وأهلها غافلون﴾ لم يأتهم الرسول، وذلك أن الله سبحانه لا يكون ظالماً ليعذبهم.

لما شرح أحوال أهل العقاب والثواب ذكر كلاماً كلياً فقال:

١٣٢ ـ ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

أي لكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات ومنازل، في الجنة والنار.

القـــراءة

قرأ ابن عامر ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ الباقون: بالياء.

تهديد وإنذار

ثم بين أنه ليس بحاجه إلى طاعة المطيعين ولا يدخل عليه نقص بمعصية العاصين فقال:

١٣٣ ـ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾.

﴿وربك الغني﴾ عن خلقه ﴿ذو الرحمة﴾ بأوليائه وأهل طاعته وهو عام، ومن ذلك تأخير الانتقام من المخالفين ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ بالهلاك لأنه قادر ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ كما ابتدأكم من ذرية آبائكم الماضين.

ثم ذكر حال المعاد فقال:

١٣٤ ـ ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

أي بفائتين يقال: أعجزني كذا أي فاتني وسبقني.

ثم أمر نبيه ﷺ بتهديد منكري البعث فقال:

١٣٥ ـ ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي حالتكم ﴿إني عامل﴾ ما أمرني به ربي ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ وظاهر هذا الأمر المبالغة في الوعيد، والظالمون هنا المشركون والآية محكمة للتهديد.

القـــراءة

قرأ أبو بكر ﴿اعملوا على مكاناتكم﴾ على الجمع، وقرأ الباقون: ﴿على مكانتكم﴾.

قرأ حمزة والكسائي: ﴿من يكون له﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿من تكون﴾ بالتاء لتأنيث العاقبة.

صور من الجاهلية

ثم حكى أنواعاً من جهالاتهم وترّهات أقوالهم تنبيهاً على ضعف عقولهم فقال:

١٣٦ ـ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾ خلق ﴿من الحرث﴾ الزرع ﴿والأنعام﴾ الإبل والبقر والغنم، وكل ما كان من فصيلتها فكانوا كلما زرعوا قالوا هذا لله وهذا لآلهتنا وكذلك كانوا يخصصون بعض الأنعام لله، وبعضها لآلهتهم فعاب الله عليهم هذا الزعم ﴿نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ وقد تقدم تفسيره في المائدة آية: ١٠٣.

القـــراءة

قرأ الكسائي: ﴿بزعمهم﴾ بضم الزاي، وقرأ الباقون: بالفتح، وهما لغتان.

ثم ذكر نوعاً آخر من أحكامهم الفاسدة فقال:

١٣٧ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾ أي الذين يتبعونهم من شياطين الجن والإنس ومن ذلك وأد البنات أحياء خيفة الفقر ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾(١) ﴿ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم﴾ أي ليهلكوهم واللام لام العاقبة مثل ﴿ليكون لهم عدواً﴾ ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ أي ليخلطوا الحق بالباطل ويدخلوا عليهم الشك في دينهم وكانوا على دين إسماعيل فرجعوا عنه بتزيين الشياطين ﴿ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ أي اتركهم حتى تتمكن من قتالهم أو يحكم الله فيهم وهو خير الحاكمين.

القـــراءة

﴿وكذلك زيّن لكثير من المشركين﴾ قرأ ابن عامر: ﴿وكذلك زين﴾ بضم الزاي، ﴿قتل﴾ بالرفع، ﴿أولادهم﴾

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

نصب ﴿شركائهم﴾ بالخفض وقرأ الباقون: ﴿وكذلك زيّن ﴾بفتح الزاي، ﴿قتل﴾ نصب، ﴿أولادهم﴾ جر، ﴿شركاؤهم﴾ رفع وهم الفاعلون، ثم ذكر نوعاً آخر من أحكامهم الباطلة أنهم قسّموا أصنامهم أقساماً عدة فقال:

١٣٨ ـ ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾.

﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر﴾ الحرث الزرع والحجر المحجور على الحرام فلا يصيبوه والمعنى: أنهم حرموا أنواعاً من الأنعام، وحرثاً أي محروثاً جعلوه لأصنامهم وسبق بيان ذلك في البقرة والمائدة. ﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ من خدمة الأوثان ومن يسمحون له بالأكل منها ﴿بزعمهم﴾ بمجرد قولهم من غير ما أنزل الله ﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ فلا تركب كالسوائب والحوامي ﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند ذبحها بل يهبونها لأصنامهم وأوثانهم ﴿افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾.

ثم ذكر نوعاً رابعاً من قضاياهم الفاسدة فقال:

١٣٩ ـ ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾.

﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام﴾ المحرمة وهي السائبة والبحيرة ﴿خالصة﴾ حلال ﴿لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ أي النساء ﴿وإن يكن ميتة﴾ ما في بطونها ميتة ﴿فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾. إنهم لغوايتهم وشركهم قسموا أنعامهم وزرعهم عدة أقسام.

الأول: بعضها يقتطع ليجعل لمعبوداتهم تديناً، ويمتنعون من التصرف فيها إلا لها، ويقولون هي حجر للآلهة، ولا يأكل منها إلا الرجال دون النساء.

والثاني: أنعام حرمت ظهورها فلا تركب ولا يحمل عليها وهي البحيرة المشقوقة الآذان والسوائب التي تسيب وتترك للآلهة. وكانوا يجعلون لبنها للذكور ويحرمونه على الإناث وإذا ولدت ولداً جعلوه خالصاً للذكور لا تأكل منه الإناث وإذا كان ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث.

والثالث: أنعام لا يذكرون اسم الله عليها في الذبح بل يهلون بها لآلهتهم وحدها افتراء.

القـــراءة

قرأ ابن عامر: ﴿وإن تكن﴾ بالتاء ﴿ميتة﴾ رفع، وقرأ ابن كثير: ﴿وإن يكن﴾ بالياء ﴿ميتة﴾ رفع.

وقرأ أبو بكر: ﴿وإن تكن﴾ بالتاء، ﴿ميتة﴾ نصب، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص: ﴿وإن يكن﴾ بالياء، ﴿ميتة﴾ نصب.

ثم إنّه سبحانه جمع قبائح أحكامهم وأفعالهم وحكم عليهم بالخسران والسفاهة وعدم العلم والضلال فقال:

١٤٠ ـ ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾ بالوأد مخافة السبي أو الفقر أو العار ﴿سفهاً﴾ جهلاً ﴿بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾.

القــــراءة

﴿قد خسر الذين قتلوا﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿قد خسر الذين قتّلوا﴾ بالتشديد، أي مرة بعد مرة، وقرأ الباقون: ﴿قتلوا﴾ بالتخفيف.

مظاهر قدرة الله ونعمته في الزراعة

إنه سبحانه جعل مدار هذا الكتاب الكريم على تقرير التوحيد والنبوة والمعاد، وإثبات القضاء والقدر وانتهى إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء ثم انتقل منه إلى تهجين طريقة منكري البعث ثم عاد إلى ما هو المقصود الأصلي فقال:

١٤١ ـ ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

﴿وهو الذي أنشأ جنات﴾ بساتين ﴿معروشات﴾ محمولات كالسقف مثلاً وأبرز ما يظهر ذلك في الكروم وغير معروشات كسائر الشجر التي لا تعرش، والعريش وهو معروف لدى أهل الكويت يتقون به حر الشمس، ﴿والنخل والزرع مختلفاً أكله﴾ ثمره وحبه في النوع والطعم والرائحة ﴿والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾ هذه إشارة إلى الأنواع والأصناف فتجد في العنب أكثر من ثمانمائة، تتشابه في بعض الأمور وتختلف في بعضها وكلها عنب، وكذلك التفاح فمنه الحامض ومنه الحلو ومنه المر ومنه الكبير والصغير والأحمر والأخضر وكلها تفاح، ومثله النخل والزيتون ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ هذا أمر إباحة، وقدم لينهي فعل الجاهلية من التحريم للآلهة ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ وهو صلاحه حيث وجبت فيه الزكاة ﴿ولا تسرفوا﴾ في العطاء فلا يبقى لعيالكم شيء ﴿إنه لا يحبّ المسرفين﴾. هذا ختام الآية والمقصود منه الزجر.

القــــراءة

﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿يوم حصاده﴾ بفتح الحاء، وقرأ الباقون: بالكسر، وهما لغتان.

ثم عطف سبحانه على ما عدّه فيما تقدّم من عظيم الإنعام ببيان نعمته في إنشاء الأنعام فقال:

١٤٢ - ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾ صالحة للحمل عليها كالإبل، وفرشاً لا تصلح للحمل عليها كصغار الإبل والغنم، سميت فرشاً لأنها كالفراش للأرض لدنوها منها، أو لافتراشها الأرض بالبرك عليها للراحة بخلاف الحمير والبغال.

١٤٣ - ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿ثمانية أزواج﴾ أصناف ﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل﴾ لمن حرم ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى ونسب ذلك إلى الله ﴿آلذكرين﴾ من الضأن والمعز ﴿حرم﴾ الله عليكم ﴿أم الأنثيين﴾ منهما. والمعنى: فإن كان ما حرم عليكم الذكرين، فكل الذكور حرام، وإن كان حرم الأنثيين فكل الإناث حرام، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فهي تشتمل على الذكور والإناث معاً، فيكون كل الجنسين حراماً، إن قالوا لحقها التحريم من جهة الرحم حرم عليهم الذكر والأنثى ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤني بعلم إن كنتم صادقين﴾ أي فسروا ما حرمتم بعلم أي أنتم لا علم لكم لأنكم لا تؤمنون بالله ولا بكتابه.

القــــراءة

﴿ومن المعز اثنين﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿من المعَز﴾ بفتح العين، وقرأ الباقون: ساكنة العين، وهما لغتان.

١٤٤ - ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾ زوجين ذكر وأنثى ﴿قل﴾ لهم منكراً عليهم ﴿آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ بالقرابة ﴿أم كنتم شهداء﴾ حاضرين ﴿إذ وصاكم الله بهذا﴾ الزعم الذي زعمتموه على الله من التحريم والتحليل، من هذا التفصيل والتفضيل بين الذكر والأنثى ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضلّ الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. والمعنى: وخلق الله من الإبل زوجين، ومن البقر زوجين ذكوراً وإناثاً، قل لهم يا نبي الله أي يا محمد ﷺ منكراً عليهم: ما علة التحريم فيما حرمتم من هذه الأزواج كما تزعمون؟ أهي كونها ذكوراً؟ ليس كذلك، لأنكم تحلون الذكور أحياناً: أم هي كونها إناثاً؟ ليس كذلك لأنكم تحلون الإناث أحياناً: أم هي اشتمال الأرحام عليها بالقرابة؟ ليس كذلك؟

لأنكم لا تحرمون الأجنة أولادها الصغار على الدوام، وتزعمون أن هذا التحريم من عند الله: أكنتم حاضرين حين وجّه إليكم الله هذا التحريم فسمعتم نهيه؟ لم يكن ذلك قطعاً. انتهوا عما أنتم فيه، فهو ظلم وليس هناك أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه ما لم يصدر عنه، ولا سند له من علم يعتمد عليه، وإنما يريد بذلك إضلال الناس: إنّ الله لا يوفق الظالمين إذا اختاروا طريق الباطل.

ما حرّمه القرآن وما حرمته التوراة

لما قدّم سبحانه ذكر ما حرّمه المشركون عقّبه ببيان المحرمات فقال:

١٤٥ ـ ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿قل لا أجد فيما أوحي﴾ إليّ شيئاً من ذلك ﴿محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة﴾ والمعنى: بعد أن بين الله فساد اعتقاد أهل الجاهلية، دعا النبي محمداً ﷺ أن يبين لهم بأنه لا يجد الآن في مصدر التحليل والتحريم الذي أوحي به إليه طعاماً محرماً على آكل يأكله، إلا ما استثنى بالنص عليه، وذلك هو الميتة التي لم تذبح أي تذك ذكاة شرعية، ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ أي دماً سائلاً ﴿أو لحم خنزير فإنه﴾ أي فإن ذلك المذكور ﴿رجس﴾ حرام ضار خبيث لا يجوز أكله ﴿أو فسقاً أهلّ لغير الله﴾ أي وإلا أن يكون ذلك الشيء المحرم فيه خروج عن العقيدة الصحيحة بأن وهب لغير الله بأن رفع الصوت عند ذبحه باسم غير الله، كصنم أو حجر أو إنسان أو أي معبود معظم ﴿فمن اضطر غير باغ﴾ أي من اضطرته الظروف «والضرورة تبيح المحظورات» فأكل شيئاً من هذه المحرمات غير طالب اللذة والشهوة بالأكل ﴿ولا عاد﴾ غير متجاوز قدر الضرورة ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ فلا حرج عليه لأن ربك غفور رحيم.

القـــراءة

﴿إلاّ أن يكون ميتة﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم والكسائي: ﴿إلا أن يكون﴾ بالياء، ﴿ميتة﴾ نصب.

وقرأ ابن عامر: ﴿إلاّ أن تكون﴾ بالتاء، ﴿ميتةٌ﴾ رفع.

وقرأ ابن كثير وحمزة: ﴿إلا أن تكون﴾ بالتاء، ﴿ميتة﴾ نصب.

ثم بين سبحانه أنه حرم على اليهود أشياء أخر سوى هذه الأربعة فقال:

١٤٦ ـ ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

﴿وعلى الذين هادوا﴾ اليهود ﴿حرمنا كل ذي ظفر﴾ وهو ما لم تفرق أصابعه كالإبل والنَّعام والأوز والبط ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما﴾ أي ما علق بها منه ﴿أو الحوايا﴾ الأمعاء جمع حاوية ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ وهو شحم الإلية فإنه أحل لهم ﴿ذلك﴾ التحريم ﴿جزيناهم ببغيهم﴾ بسبب ظلمهم على ما سبق مفصلاً في سورة النساء ﴿وإنا لصادقون﴾ في أخبارنا.

١٤٧ ـ ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ لما قال الرسول للمشركين هذا ما أوحي إلي أنه محرم على المسلمين وعلى اليهود حيث لم يعاجلكم بالعذاب وفيه تلطف في أسلوب الدعوة إلى الإيمان ﴿ولا يرد بأسه﴾ عذابه ﴿عن القوم المجرمين﴾ المشركين.

شبهة واهية والرد عليها

ثم حكى أعذار الكفار الواهية فقال:

١٤٨ ـ ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾.

﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ علينا ولا على نسائنا فكل ذلك من الله، ويقولون ذلك إذا ألزمتهم الحجة فكأنهم قالوا لو لم يرض بما نحن عليه لحال بيننا وبينه، وإنما قالوا ذلك مستهزئين ودافعين للاحتجاج عليهم، وإن لم يكن قد قالوا هذه الشبهة بالفعل فإن الله المحيط بكل شيء يعلم أنهم سيقولونها فذكرها ورد عليها بما يبطلها، وكان ذلك من إعجاز القرآن حيث يخبر عن أخبار الغيب التي في نفوس الكفار قبل وقوعها ﴿كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ أي ومثل هؤلاء المشركين كذب من قبلهم قوم آخرون رسلهم فأذاقهم لعنة العذاب واستأصلهم بذنوبهم وكفرهم، إذاً لو كانت مشيئة الله كما زعموا وكما كانوا عليه من الشرك يتضمن رضاه عن فاعله لما عاقبهم عليها تصديقاً لما قال به الرسل، ولو كانت أعمالهم بالجبر لما استحقوا العقاب ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ ثم قفى على ذلك ببيان حقيقة حالهم ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ إنْ بمعنى ما وتخرصون تكذبون، والظن غير اليقين، وهذا دليل على أن العقائد لا تؤخذ إلا باليقين لا الظن.

١٤٩ ـ ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ تبينه أنه الواحد وإرساله الأنبياء بالحجج المعجزة ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ يوم أخذ الميثاق على بني آدم قال في سورة الأعراف ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم

وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾[١] ولو هدى الله الناس جميعاً من غير اختيارهم وكسبهم لكانوا كالملائكة ولما احتاجوا إلى الثواب للأعمال الصالحة والعقاب على الأعمال الفاسدة، ولما كانت لآدم تلك المنزلة التي أمر الملائكة بالسجود له، ولما فضل الله بني آدم على كثير ممن خلق.

ثم لما أبطل جميع حججهم بين أنه ليس لهم على قولهم شهود فقال:

١٥٠ ـ ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

﴿قل هلم شهداءكم﴾ هلم بمعنى تعال وأهل الحجاز لا يثنونها ولا يجمعونها وأهل نجد يجمعون ويثنون، قال مجاهد هذه الآية جواب قولهم إنَّ الله حرم البحيرة والسائبة أي أحضروا شهداءكم الذين يخبرون ﴿الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا﴾ أن الله حرم ذلك ﴿فلا تشهد معهم﴾ أي لا تصدق قولهم ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي والذين هم مع جهلهم واتباعهم للأهواء لا يؤمنون بالآخرة حتى يحملهم الإيمان بها على سماع الدليل والحجة إذا ذكِّروا بها، ويشركون بربهم ويتخذون له مثلاً وعدلاً يشاركه في جلب الخير والنفع ودفع الشر والضرر.

أصول المحرمات والفضائل

لما بين فساد ما يقوله الكفار في باب التحليل والتحريم أتبعه البيان الشافي فقال:

١٥١ ـ ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ الإملاق هو الفقر الذي تخافونه ﴿نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش﴾ ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ علانية أو سراً ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ بالعدل الذي يوجبه الشرع، والتعبير بالحق يشير إلى المحاكمة لأنه لا يستظهر الحقوق في مثل هذا الأمر إلا القضاء العادل ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ هذه الآية إجمال لما في الآيتين المتقدمتين ولهذا ختم الأولى بقوله ﴿لعلكم تعقلون﴾ وختم الثانية بقوله ﴿لعلكم تذكرون﴾.

دفع مال اليتيم

ثم ذكر أربعة أنواع أخر من التكاليف فقال:

---

(١) الآية: ١٧٢.

١٥٢ - ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ إذا وليتم مال اليتيم بالوصاية أو تعاملتم به ولو بواسطة وليه فتعاملوا معه بالفعلة التي هي أحسن وأحظ له، ورجحان مصلحته، وإذا أخذتم أجرة على الوصاية فلتكن بالمعروف ﴿حتى يبلغ أشده﴾ أي احفظوا له ماله حتى يبلغ السن الذي يتناهى فيه حد الرجال، يقال بلغ أشده: إذا انتهى منتهاه قبل أن يأخذ النقصان، وهو سن بلوغ الرشد وقد تركه الشرع لتحديد ولي الأمر بناء على ما يراه من المصلحة للولد قال ابن جرير الطبري: والمعنى حتى يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده فآنستم منه رشداً فادفعوا إليه ماله(١).

أقول: وفي هذا القول حمل المطلق في هذه الآية على المقيد في آية (٦) النساء ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ طاقتها وقدرتها، قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾(٢) وقال ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾(٣) وقال ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾(٤) ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ أي إذا تكلمتم أو شهدتم فقولوا الحق ﴿ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا﴾ وعهده يشتمل على ما عهده إلى الخلق وأوصاهم به وعلى ما أوجبه الإنسان على نفسه من النذور وما دخل به من العبادات ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ أي لتذكروه وتأخذوا به.

١٥٣ - ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

﴿وأن هذا صراطي مستقيماً﴾ أي الذي أوصيتكم به ونصب على الحال ﴿فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ الطرق المؤدية إلى الضلالات والبدع والشبهات التي تخالف الدين ﴿فتفرق بكم عن سبيله﴾ أي فتضلكم عن دينه ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ التقوى اسم لكل ما يتقى من الضرر العام والخاص، وقد ذكرت في القرآن في سياق الأوامر والنواهي المختلفة من عبادات ومعاملات وآداب وعشرة أزواج، وتفسر في كل موضوع بما يناسبه، قال الرازي: ختمت الآية الأولى بقوله ﴿تعقلون﴾ والثانية ﴿تذكرون﴾ لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الأولاد وقربان الزنا وقتل النفس المحرمة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها، فنهاهم سبحانه لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها، وأما حفظ أموال اليتامى عليهم وإيفاء الكيل والعدل في القول والوفاء بالعهد، فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به، فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون إنْ عرض لهم

(١) وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح... لآخر الآية.
(٢) سورة التغابن، الآية: ١٦.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٧.
(٤) سورة الحج، الآية: ٧٨.

نسيان، وقال أبو حيان(١): ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وقد أمر سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق، ختم الآية الثالثة بالتقوى التي هي اتقاء النار.

القـــــراءة

﴿وأن هذا صراطي مستقيماً﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿وإن هذا صراطي﴾ بالكسر على الاستئناف، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿وأنّ هذا﴾ بفتح الألف وتشديد النون، وقرأ ابن عامر ﴿وأنْ هذا﴾ بفتح الألف وتخفيف النون.

ثم جاء بالعطف على ما تقدم ﴿بثم﴾ وهو عطف بالمعنى أي أتل ما حرم ربكم ثم اتل ما آتاه الله موسى تماماً للنعمة والكرامة فقال:

١٥٤ ـ ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً﴾ ثم ها هنا للعطف، بالمعنى: أتـل ما حرم ربكم ثم اتل ما آتاه الله موسى، وتماماً للنعمة والكرامة على من أحسن في اتباعه واهتدى به، مثل قوله تعالى: ﴿وإذْ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً﴾، ﴿على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي مفصلاً لكل شيء من أحكام الشريعة ﴿وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾.

١٥٥ ـ ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ أي القرآن مبارك كثير الخير ديناً ودنيا، وقد جاء بأكثر مما في كتاب موسى من تفصيل لهدى البشر في معاشهم ومعادهم ﴿فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾.

١٥٦ ـ ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾.

﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين﴾ اليهود والنصارى ﴿من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ والمعنى: قال الكفار المشركون قاتل الله اليهود والنصارى كيف كذبوا أنبياءهم، والله لو جاءنا نذير وكتاب لكنا أهدى منهم، والخطاب بهذه الآية للمشركين، والمراد إثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن كي لا يقولوا إن التوراة والإنجيل أنزلا على أهل الكتاب وكنا غافلين عما فيهما، ولا نعلم ما هي، لأن كتبهم لم تكن بلغتنا فأنزل الله كتاباً بلغتهم، لتنقطع حجتهم ويكونوا شهداء على الناس بتبليغهم الرسالة.

١٥٧ ـ ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ

(١) أبو حيان الغرناطي (١٢٥٦ ـ ١٣٤٤هـ) (صاحب البحر المحيط).

ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴾.

﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة﴾ أي حجة وهو النبي محمد ﷺ بالقرآن المبين ﴿من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ أعرض ولم يؤمن ﴿سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ يصدفون معناه: يعرضون.

تهديد وإنذار وتأخير العذاب

ثم ذكر أنهم بعد نصب الأدلة وإزاحة العذر لا يؤمنون البتة وشرح أحوالاً توجب المبادرة والإيمان فقال:

١٥٨ - ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾.

﴿هل ينظرون﴾ أي ينتظرون ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم أو ينزل العذاب بهم ﴿أو يأتي ربك﴾ والمعنى: أنهم لا ينتظرون إلا أحد أمور ثلاثة مجيء الملائكة، أو مجيء ربك بحسب ما اقترحوا بقولهم ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾[1] وقولهم ﴿أو تأتي بالله والملائكة قليلاً﴾[2] ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ مما اقترحوه من عدة أمور مثل ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾[3] ونحو ذلك من الآيات العظام التي علقوا بها إيمانهم، وفي الآية إيماء إلى تماديهم في تكذيب آيات الله، وعدم اعتدادهم بها وأنه لا أمل في إيمانهم. ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ قيل إنَّ هذه الآيات قد أخرها الله سبحانه إلى نهاية العالم. لحكمة يراها في أمة محمد حيث لم يعجِّل لهم العذاب ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ أيها المعاندون فكل آت قريب فسوف تعلمون من تكون له عقبى الدار، وقد أخذ الذين كفروا بعذاب الله على أيدي المسلمين الفاتحين.

القــــراءة

﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الملائكة﴾ بالياء، وقرأ الباقون: بالتاء.

التفـرق شيعـاً

ثم أوعدهم بقوله:

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٢.

١٥٩ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ بعد أن وصى سبحانه هذه الأمة على لسان رسوله باتباع صراطه المستقيم، ونهى عن اتباع غيره من السبل، والبدع والضلالات، قفى على ذلك بتذكير هذه الأمة بما هي عرضة له بحسب سنن الاجتماع من إضاعة الدين بعد الاهتداء بالتفرق فيه، بالمذاهب والآراء، والبدع التي تجعلها أحزاباً وشيعاً يتعصب كل منها لمذهب إمام أو زعيم فيضيع الحق وتنفصم عراه، ومن التفريق في الدين الإيمان ببعض الكتاب دون بعض، والكفر بالبعض كالكفر بالكل مفارقة للدين الذي لا يتجزأ، ومثله الإيمان ببعض الرسل دون البعض، قال المفسرون إنَّ هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، وقال آخرون إنها تعمّ أهل الأهواء والبدع ﴿لست منهم في شيء﴾ أي أنت بريء منهم وهم منك براء ﴿إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ وكلمة الدين هنا عامة المعنى، فمعناها الطريق والسبيل والتعبير بالدين ليفهم أن كل أمر لا يؤخذ فيه رأي الدين، مصيره إلى التفرق والشتات والتنازع والاختلاف والقتل والدمار، ولذلك أخبر في الآية التالية بأن الهدى إلى الصراط المستقيم هو الدين القيّم.

القـــراءة

﴿إن الذين فرقوا﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿إنَّ الذين فارقوا﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿فرقوا دينهم﴾ من التفريق.

١٦٠ ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿من جاء بالحسنة﴾ العمل الصالح ﴿فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾ ثم علم رسوله ﷺ أنواع الدلائل والرد على أصناف المشركين، وبالغ في تقرير إثبات القضاء والقدر حيث أمره بأن يقول:

١٦١ ـ ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ دلني على دين الحق ثم فسر ذلك ﴿ديناً قيماً﴾ والقيم المستقيم ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ منصوب على الحال، أي مائلاً عن الباطل ﴿وما كان من المشركين﴾.

القـــراءة

﴿ديناً قيماً﴾ قرأ ابن عامر وأهل الكوفة ﴿ديناً قيماً﴾ بكسر القاف، وقرأ الباقون بالتشديد.

١٦٢ ـ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾ عبادتي من حج وذبح وغيره ﴿ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾، والمعنى: أنَّ حياتي ومعيشتي في الحياة الدنيا، مرتبطة لله حسب صراطه المستقيم الآنف الذكر حتى الممات.

القـــراءة

﴿قل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي. . .﴾ قرأ نافع: ﴿ومحيايْ﴾ ساكنة الياء ﴿ومماتيَ لله﴾ بفتح الياء، وقرأ الباقون ﴿ومحيايَ﴾ بفتح الياء ﴿ومماتي﴾ ساكنة الياء.

١٦٣ - ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

﴿لا شريك له وبذلك أمرت﴾ أي بالتوحيد ﴿وأنا أول المسلمين﴾ من هذه الأمة.

لما أمر نبيه بالتوحيد المحض أمره أن يذكر ما يجري مجرى الدليل عليه فقال:

١٦٤ - ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

﴿قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ أي أن كل ما تكسب من عمل عليها عقابه إنْ كان معصية، ولها ثوابه إنْ كان طاعة ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى، والمعنى: لا يؤخذ شخص بريء بذنب غيره ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾.

ثم ختم السورة ببيان حال المبدأ والوسط والمعاد على سبيل الإجمال فقال:

١٦٥ - ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ جمع خليفة والمعنى: أنكم خلفتم من سبقكم من الأمم في الأرض ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي في الرزق والعلم والجاه والقوة وغير ذلك ﴿ليبلوكم في ما آتاكم﴾ أي ليختبركم فيظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب ﴿إنّ ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾.

انتهت سورة الأنعام وبعدها سورة الأعراف

فهرس المجلّد الأول من تفسير هداية البيان

سورة البقرة

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

سورة آل عمران

الجزء الرابع

سورة النساء

الجزء الخامس

الجزء السادس

سورة المائدة

الجزء السابع

سورة الأنعام

الجزء الثامن



